محمد جلال كشك

خواطر مسلم حول:

الجهاد.. الاقليات.. الاناجيل

الطبعة الاولى

١٤٠٥ - ١٩٨٥



المؤلف والكتاب

محمد جلال كشك .

الكاتب المصري المعروف ، تعود أن يسبق الفكر الاسلامي بعشرين عاما على الاقل . والكثير من افكاره بل واخطائه أصبحت من الحقائق أو المبادىء المسلم بها والتي يتداولها الكتاب، أو بالأحرى ينتهبونها دون الاشارة الى مصدرها ، ومن ثم فان تأثيره على الفكر السياسي الاسلامي حقيقة لا يمكن تجاهلها بل هي مادة للدراسة في عدد من جامعات امريكا واوروبا .

وهو في هذا الكتاب الذي يستهله - متواضعا - بالتأكيد على انها مجرد خواطر وليست تشريعا ولا حتى اجتهاد المخطىء، الا انه يفاجىء القارىء بآراء جديدة ومثيرة تتجاوز حتى ما عودنا من مفاجآت . وذلك في ميادين كان الظن انها قد اشبعت بحثا ، وهي : الجهاد وحقوق الاقليات . . ثم دراسة في الاناجيل وكأنها اكتشفت اليوم لما يقدمه من ملاحظات ذكية جديدة تماما !

ومهما تكن وجهة النظر في كتابات «محمد جلال كشك» فلا بد من قراءته ، واذا لم يكن من السهل الموافقة على خواطره من أول مرة ، فانه من الصعب جدا معارضته . . . !

هذه بعض «خواطر» توصلت اليها على ضوء فهمي وقناعاتي الاسلامية، واذا كنت في بداية اتجاهي الاسلامي، قدمت افكاري كاجتهاد وقلت عبارتي المشهورة أنه يكفيني اجر المجتهد المخطىء.. لأنني رفضت في ذلك الوقت ـ وما ازال ـ ان انسب الاسلام الى افكاري، فأزعم ان هذا هو رأي الاسلام في كذا، أو «الجهاد في الاسلام» لأنني لا املك ان انطق باسم الاسلام، أو لا يحق لي أن افرض رأيي على الناس بانه هو رأي الاسلام.. ولذلك اكتفيت وقتها بان اتقدم بارائي كمجرد اجتهاد في الدين الذي يحرض على حرية التفكير، باعطاء أجر للمجتهد المخطىء..

الا أن البعض اساء فهم عبارتي، واتخذها ستارا للتقمم في ميادين الفكر الاسلامي، دون زاد أو مئونة بل اقول دون تجشم. والاعتذار بأنه إن اخطأ فله اجر المجتهد المخطىء!.. وكأنها لعبة قمار.. مكفولة الحد الادنى للربح!.. ويغفل عن حكمة النص الرائعة، فهو لم يقل للمسلم ان اجتهد فأصاب.. الخ بل قال «للمجتهد».. واعترف انني لم افطن الى هذا الاعجاز في حينه، فظننت ان من حقنا جميعا أن نفتي!

الحديث قال «للمجتهد» وصفات المجتهد معروفة، وهي ـ في حدود معلوماتي ـ لا تتوفر في عدد يزيد عن اصابع اليدين في العالم الاسلامي، ولست أنا منهم بالتأكيد..

فالاسلام يحض على التفكير على جميع المستويات، ولكن «الاجتهاد» علم وهو لذلك يتطلب الالمام بشروطه، فالقانون الوضعي مثلا لا يعاقب طبيبا اخطأ عن غير قصد ولا اهمال في تشخيص حالة أو وصف دواء، ولكنه يعاقب الحلاق اذا تصدى لمعالجة مريض حتى ولو أصاب.. وليس في الطب كهانة، ولكن لا يمارسه الا الاطباء..

لهذا احببت أن أصف هذه الاراء بأنها خواطر مسلم وليست حتى خواطر اسلامية.

وقد ناقشت في الفصل الأول: الجهاد والحاكمية، وتعرضت هنا لآراء المجاهدين الشهيد سيد قطب والمرحوم المودودي مخالفا لآرائهما ولا ضير في ذلك على احد منا، فهم رجال ونحن رجال، وهم السابقون بالمكانة والتضحية.. وهيهات ان نصل الى ما وصلوا اليه.. ولكننا نعرف الرجال بالحق لا الحق بالرجال..

كذلك ناقشت في الفصل الثاني موضوع «الاقليات» لا كظاهرة تاريخية، أو لاستعراض ما اعطاه لهم الاسلام، واثبات سماحة الاسلام، بل لتحديد دورهم في الدولة الاسلامية المقبلة.. ووصلت الى انهم، مواطنون يجب ان يتمتعوا بكافة الحقوق التي يتمتع بها المسلمون بلا استثناء ولا قيد، الا الالتزام بمبادىء الدولة الاسلامية، وقبول الاسلام

كاختيار حضاري وليس كدين . ونفيت وجود «أهل ذمة» في واقعنا المعاصر، وايضا تعرضت لاجتهادات المرحوم المودودي في هذا الامر.

وقد كتبت هذا الفصل، وعيني على الحركات الاسلامية في الوطن العربي التي تدور في حلقة مفرغة، لأنها ترفض مواجهة هذه المشكلة . . وما ترتب على ذلك من حرث في البحر، وتبديد لطاقة انبل من انجبت أمتنا، ومن هم الذخر والأمل . . شرط ان تتضح الصورة لهم . . وتستقيم حدود البرنامج .

فالاسلام الآن يحتاج الى برنامج محدد بلغة العصر ومطالبه، ومن المشاكل الاولى التي تثار في وجه المطالبين بالدولة الاسلامية، هي موقف الاقليات، أو بالاحرى ما هي العلاقة بين المواطنة والدين . . وهل يمكن أن يقبل غير المسلمين الدولة الاسلامية عن ايمان واقتناع، رغم عدم ايمانهم بالاسلام كدين؟

وقد وصلت الى افكار في هذه القضية، ربما تكون الاولى من نوعها، وقد تكون مثيرة أو مزعجة للبعض. الا اننا اعتمدنا على الكتاب والسنة وما استخلصناه من روح التعاليم والممارسات الاسلامية . ونتقبل بكل محبة وامتنان من يناقش فكرنا مستندا الى نفس الاصول التي اعتمدنا عليها .

اما فصل الاناجيل وهوالفصل الثالث في الكتاب، فهو يستعرض الدراسات الحديثة في التوراة والانجيل، وقراءة لنا استغرقت اكثر من عامين للاناجيل الاربعة واعمال الرسل . خرجنا منها بنتيجة اساسية، هي استحالة أن يكون موقف الاسلام من هذه الاناجيل والتوراة، موقفا بشريا، بل هو وحي يوحى . . وذلك بالمنطق والتحليل العلمي، والادلة التي اصبحت متوفرة من المصادر اليهودية والمسيحية . . والتي يعرضها كتاب مسيحيون ويهود، لا يخفون او لا ينكرون ايمانهم رغم النظرة الجديدة المتفق عليها الآن، والقائلة بأنه لا التوراة ولا الاناجيل يمكن وصفها بأنها كتب مقدسة منزلة محفوظة، بل هي في رأي هؤلاء اليهود والمسيحيين مجرد اخبار عن الله كتبه مؤمنون ونقحه مؤمنون . . ومن ثم فليس في ما وصلنا اليه من رأي افتئات على أحد . .

وبعد فنسأل الله الهداية والسعة في الفهم، والصدر، لقبول النقد والاستفادة به . . وأن يعصمنا من تحريف الكلام أو كتم العلم . . وأن يهبنا القدرة على قول الحق مهما يكن مرا . . .

محمد جلال كشك

رجب ١٤٠٤ - ابريل ١٩٨٤
٣ ب بهجت علي - الزمالك

الفصل الاول

الجهاد والحاكمية . .

الحل الاسلامي، هو وحده المطروح في الساحة حاليا، لسبب بسيط، هو ان كل الحلول الأخرى قد جربت، او تعتقد الجماهير انها جربت وفشلت، ومن ثم فان هذه العودة أو هذا الطموح للحل الاسلامي، انما ينبعث من عوامل سلبية، وليس عن قناعة اثارتها حركة اسلامية ناجحة ولا من ظروف موضوعية فرضت حتمية هذا الحل.

فالحركات الاسلامية (في الوطن العربي على الأقل) لم تطرح النظرية المتكاملة ولا البرنامج الواضح المحدد، حول ماهية الحل الاسلامي ولا ما الذي يمكن ان يحققه للجماهير التي تدعى للاستشهاد في سبيله. بل اكتفت هذه الحركات بالاعتصام خلف «الوهية» الحل الاسلامي، ومن ثم فهو الكمال المطلق، صبغة الله ومن احسن من الله صبغة، ومن يجرؤ أو من له الحق في مناقشة صوابية «حل» من صنع الله سبحانه وتعالى؟!

لهذا نراهم قد انحصروا في المؤمنين مسبقا، ولم يستطيعوا رغم كل التضحيات، ورغم عظمة التراث، ان يخرجوا من اطار هؤلاء المؤمنين مسبقا، ولذا لا يمكن وصفهم بالحركات السياسية، لأن كل حركة سياسية، يجب أن تكسب لنظريتها المؤمنين من خلال القناعة ببرنامجها. فالذين اعتنقوا الاسلام من الشعوب المفتوحة، اعتنقوه لا قناعة بالوحي ابتداء، بل انبهارا بمسلكية، وبرنامج، وحكومة المسلمين. ومن ثم فلا بد للحركة الاسلامية، من ان تكسب قطاعات واسعة، من الذين لا يؤمنون بألوهية الحل الاسلامي، ولكن يرون فيه، الحل الافضل لمشاكلهم الوطنية والاجتماعية والطبقية والنفسية... الخ.

وهذا ما فشلت فيه الحركات الاسلامية العربية بالاجماع، وحسبك انها وهي التي تتطلع للحكم في بلاد تضم اقليات كبيرة نسبيا من غير المسلمين، لا تضم مسيحيا واحدا بين صفوفها؟!.. كيف يمكن لحركة سياسية لا تضم مسيحيا ان تفكر في حكم مصر أو سوريا أو لبنان أو السودان؟

لم يفكروا في ذلك، وانما تحصنوا بمجموعة النصوص والقصص والطرائف حول معاملة أهل الذمة وحقوق أهل الذمة، ولا نريد أن نستبق الحديث، لنقول لهم اننا نعتقد أنه لا وجود لأهل الذمة في عصرنا هذا، فالوطن العربي الحالي، ليس فيه فاتح ولا مفتوح، ولا احد احق من احد بميراث عمرو بن العاص وخالد بن الوليد.. ومن ثم لا ذمة ولا جزية.

والكتابات الاسلامية التي تملأ الساحة، معظمها تجاري سوقي من كتاب وناشرين كانوا حربا على الاسلام في سنوات الشدة، وقبل ان «تعلو الموجة». وهؤلاء المرتزقة سيلقون عقابهم. فهم يظنون ان الموجة الاسلامية الحالية تعني ان الاسلام انتصر ومن ثم يتعلقون بالعربة الاخيرة للقطار، ولكنهم سيعلمون بعد حين، ان دون «الحل الاسلامي» بحور الدم والرصاص والمشانق، وانها قضية اجيال... ان كنا نعني حقا الحل الاسلامي.

واذا كان اول كتاب اسلامي قد صدر لي في عنفوان محنة الحركة الاسلامية في مصر (١٩٦٤ - ١٩٦٥)... فانني لم استطع طوال هذه السنوات الا فيما ندر، وباختصار شديد ان انتقد «الحركة الاسلامية» والفكر الاسلامي المطروح في الساحة، لأنني رأيت الوقت غير مناسب، وهم يعذبون ويطاردون.

ولقد كنت أول من انتقد شعار «الحاكمية لله» ووصفته بأنه شعار خوارج ولكنه فقد حتى ثورية الخوارج، بل يدعو اليوم لاقامة «بابا» مسلم ويسلب الامة حقها في السيادة. الا انني رأيت ان اعود اليوم فأتحدث بتفصيل اكبر، وربما بحدة أو وضوح اشد.

واذا أردت ان الخص نظرية الاسلام، فانني الخصها في مبدأين:

التوحيد... والجهاد...

فالاسلام هو دين التوحيد المطلق، الدين الذي اعترف بالالوهية المطلقة الكاملة لله سبحانه وتعالى. فليس في مفهوم الله، عند المسلم، شبهة نقص، ولا شبهة مماثلة للكون أو الماديات أو الكائنات الفانية أو المتحولة. فالله سبحانه وتعالى، خلق الانسان في احسن تقويم، ولكن ليس على صورة الله، ولا الله على صورة الانسان، أو على شبه بينهما، بل هو الله الاحد، الصمد، ليس له كفوا احد.

وليس في الفقه الاسلامي، أو التصور الاسلامي، تلك الملامح البشرية للاله، كما في اساطير اليونان حيث الرب يعشق ويسرق ويتآمر ويغدر، ويخضع لقانون عام، بل وتنزل به العقوبات! ولا كما في الاساطير المنسوبة للتوراة، حيث يصارع الرب الانسان، وله ساق - سبحانه وتعالى -

كما رفض الاسلام رفضا قاطعا صريحا أية محاولة لخلق صلة عضوية بين الله والانسان كما في العقيدة المسيحية عن «الابن» وما صاحبها من نظريات عن «الطبيعة الواحدة» و «الطبيعتين».

نفى الاسلام ذلك واعتبر ان مجرد ترديده كفيل بتدمير الكون. والخلاف الذي دار حول خلق القرآن، ينطلق من هذا التأكيد على التوحيد والتنزيه. فالذين قالوا بخلق القرآن، رفضوا مقولة: «في البدء كانت الكلمة» اذ ليس في الاسلام بداية ولا بدء الا بالله سبحانه وتعالى وحده، والذي رفضوا القول بخلق القرآن، نزهوا «كلام الله» ان يكون مخلوقا باعتباره صفة منسوبة لله سبحانه وتعالى. والله لا «تلحق» به صفة، ولا «تتأخر» عنه صفة فهو هو منذ الازل والى الأزل.

الله في الاسلام هو الكمال المطلق لفكرة التوحيد، كما لم تكتمل في اي دين اخر، وان كان المسلمون يؤمنون ان هذا التوحيد الذي جاء به دينهم، هو الحقيقة الازلية التي تنزلت من السماء، على الانبياء من عهد نوح أو حتى آدم. ولكن البشر، إما عجزوا عن فهمها، أو عجزوا عن الصبر عليها، فظلوا ينحرفون عنها الى ضروب من الوثنية والشرك، مع تحريف الكلام عن مواضعه، حتى جاء الاسلام بآخر كلمات السماء، فاكتمل التبليغ واكتمل التصور. وشاءت ارادة الله سبحانه وتعالى ان يحفظ النص التوحيدي الاخير، عندما قررت مشيئته انه انزل الذكر وانه يتعهد بحفظه. «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون».

ولكن النفس البشرية، كما ذكرنا، مازالت تجنح للشرك. ففكرة التوحيد عسيرة القبول على العقل البشري الناقص، المادي، المتحول، الفاني، ومن هنا كانت محدودية قدراته، ومحدودية تصوراته. ومهما صفا القلب وآمن بالتوحيد، فان العقل اذا ما اراد تخيل الله سبحانه وتعالى احتاج الى نوع من التجسيد، وهو خروج عن مفهوم التوحيد، ومن هنا كانت ضرورة الوحي، وحتمية الايمان، أو التسليم، التصديق، بشرط توفر الشواهد المادية أو «العقلية» التي تسبب الايمان، ومن ثم يأتي التسليم بالتوحيد المطلق، حتى وان ظل العقل البشري قاصرا عن ادراك ماهيته.

ولكن سيظل الانسان، كما قلنا، يحاول ان يخلع بعض القدرات الالهية على بشر يؤمن بهم أو يحبهم، ليسهل عليه مخاطبتهم، أو ليتخذهم بمثابة ترجمان أو وكيل، يفهم لغة الانسان، ويشرح حاجته لدى هذه «الماهية» التي تفوق قدرات هذا الانسان على التصور والتعامل. ومن هنا كانت الحاجة الى المصلحين الدينيين الذين يزيلون تراب التخلف والجهل والانحراف والاهواء عن جوهر التوحيد كما جاء به الاسلام.

هذا من الناحية العقائدية، ومجال البحث الفلسفي فيها لا حدود له، ولكن الذي يعنينا في هذا الحديث، هو الجانب الآخر للقضية، ذلك ان التسليم بالالوهية المطلقة أو الكمال الالهي، التفرد المطلق للذات الالهية، لم يقصد به تكريم الله سبحانه وتعالى، فهو غني عن العباد، وانما انزل وعلم ودعا الناس للايمان به، لتحرير الانسان. لانه يعني في الحقيقة

تجريد الانسان من شبهة الالوهية، القضاء نهائيا على خرافة اشباه الالهة أو انصاف الالهة، لانه لا يوجد الاله نصف بشر، ولانه لا توجد صفة بشرية واحدة يجوز نسبتها الى الله عز وجل، ومن ثم فالنتيجة المنطقية، هي بطلان كل ادعاء او ممارسة لصفة من صفات الله عز وجل، واذا حدث فهي شرك، مزاحمة لله سبحانه وتعالى في صفاته التي اختص بها.

وقد سألني احد ابنائي عن الاسماء الحسنى... ولماذا يتسمى الله عز وجل بصفات يبغضها الفقه الاسلامي مثل الجبار والمتكبر... فكان ردي: ان الله سبحانه وتعالى، بهذا، حمى الانسان من المتجبرين والمتكبرين، فهو عز وجل عندما اختص نفسه بصفة المتجبر والمتكبر، حرم هذه الصفات كما حرم سلوكها على البشر. اصبح كل متجبر على الارض، انما يشارك الله عز وجل في صفة من صفاته التي اختص بها، فهو مشرك، فاسد التفكير، ساقط الادعاء، باطل الشرعية، تجب محاربته شرعاً، واخضاعه للمتجبر الاوحد. فالله احتكر الكبر والتجبر، فأعفى البشر منه، لم يضف الى ذاته، ولا الى سلطاته شيئا، بهذه الصفات، وانما نفاها عن العباد وحرمها عليهم، عندما اتصف بها عز وجل.

هذا هو جوهر فكرة التوحيد، عند التطبيق، أو الممارسة في حياة البشر، نزع الالوهية عن الناس، وبذلك تساوى البشر جميعا في الآدمية والعجز والقصور والفناء، والهلاك والاهلاك... والقابلية للخطأ.

ولا يخفى ما يترتب على ذلك من نتائج اجتماعية وسياسية، ومن تأثير على علاقات الحاكمين بالمحكومين. واصل انقسام الناس الى طبقات، والى عبيد وارباب، واصل قبول السلطة المطلقة من فرد أو جهة، هو ادعاء هؤلاء السادة تمتعهم بصفة «فوق بشرية» افتراض العصمة في هذا السيد. سواء أكان الفرعون، أو الكاهن، أو اللجنة المركزية. الخ.

اما في الاسلام فكلنا لآدم وآدم من تراب، وكلكم خطاءون. ولا عصمة الا لنبي وفيما يتعلق بأمور الدين. فكيف يقبل استبداد مستبد، أو سلب الأمة حقها في النقد والتخطئة والعزل؟

التوحيد الاسلامي اكد انسانية الانسان، عندما اكد الوهية الله، حرر الانسان التحرير الكامل والمطلق من العبودية أو الاسترقاق المادي في هذه الحياة، عندما اكد عبوديته المطلقة لله وحده. فهناك رب واحد، رب الناس، ملك الناس، اله الناس. فكيف يجرؤ احد الناس على ادعاء المشاركة في ربوبية الناس أو ملوكية الناس، وكيف يصبر مسلم عليه ان فعل؟

التوحيد حرر العقل والانسان المسلم. بل وحمل هذا المسلم مسؤولية التفريط في تلك الحرية، بأن جعل هذا التفريط ليس مجرد تنازل عن حقوقه، بل هو القبول بالشرك.

ان التسليم بتعالي بشر عن الخطأ أو المحاسبة، شرك بالله عند المسلمين ولذلك تذهب

للقول بأنه يستحيل قيام نظام ديموقراطي حقيقي، كما يستحيل تحرر الانسان تحررا كاملا الا بالمفهوم الاسلامي عن التوحيد.

من هنا كان التوحيد، هو المبدأ الاول في الاسلام، وهو ما يدور حوله البحث والشرح في كل مؤلف اسلامي، أو حركة تجديد اسلامية. ولكن كما اشرنا ـ من قبل ـ حول عجز العقل البشري عن ادراك ابعاد هذا المبدأ وجنوحه للهبوط بمضمونه، فان السنوات الاخيرة شهدت استخداما واسعا، لشعار «لا اله الا الله» او اخراج العباد من عبادة غير الله، وقد ترجمه البعض الى شعار «الحاكمية لله». حتى اوشك ان يعيدنا الى ذكريات المرة الاولى التي اطلق فيها هذا الشعار، فرد «علي بن ابي طالب» رضى الله عنه، بقولته الخالدة: «كلمة حق أريد بها باطل». والشعار قد يصلح في الجدل السياسي، ولرفض القوانين المعينة في الظرف والمكان المعينين، ولكنه قاصر كل القصور عن الاحاطة بمفهوم التوحيد، ودلالاته ونتائجه. ليس هذا فحسب، بل ان هذا الشعار قد فسر تفسيرا خاطئا، بل اذهب الى القول، كما سأوضح بأذن الله، ان بعض هذه التفسيرات خالفت المفهوم الاسلامي، والممارسات الاسلامية الثابتة، وهذه التفسيرات تحاول ان تضع الاساس لقيام طبقة من الكهنة تدعي انها تحكم بالتفويض الالهي، وانها وحدها تملك تفسير وممارسة هذه «الحاكمية». ولعل اخطر ما يثيره اصحاب هذا الشعار انهم يعارضون الصيغ الديموقراطية المتعارف عليها: يعارضون المبدأ الديموقراطي الذي تقوم عليه قواعد المجتمع الحر سياسيا، وهو ان الأمة مصدر السلطات، ونواب الامة هم السلطة التشريعية، فهم يرفضون ان تكون الجمعية التشريعية مصدرا للتشريع، شاهرين في وجه المطالبين بنقل السلطة للشعب، شعار: «الحاكمية لله»، والله وحده هو مصدر التشريع.

صدقنا وأمنا، فهل يعني ذلك:

ـ ان التشريع قد توقف أو حرم منذ ان انقطع الوحي؟

ـ ام انهم، والذين شرعوا من قبلهم ويشرعون الى اليوم، يمتلكون طريقة لا نعرفها في الاتصال بالسماء واستصدار التشريعات من العزيز الحكيم؟

الواقع ان فقهاء الاسلام، والصحابة، قبلهم، قد عرفوا ان «النصوص محدودة والواقع غير محدود» ومن ثم وجد «الاجتهاد» أي التشريع. فالاجتهاد لا معنى له، ولا مفهوم الا اذا كان يعني: حق التشريع. منذ حديث الرسول مع معاذ عندما قال «احكم بكتاب الله». فسأله الرسول فان لم تجد؟ اي فان صادفتك حالة تحتاج الى حكم، لم يرد في كتاب الله.

الرسول الذي نزلت عليه آية «ما فرطنا في الكتاب من شيء» يعرف بوحي النبوة، وبعبقرية الفطرة الانسانية السليمة، وشموخ العقل الاسلامي... انه يمكن ان تجد حالة

في الواقع، وفي عصر النبوة، لا حكم فيها من القران. ويرد راليه «احكم اذا بسنة رسوله». أي اذا لم اجد الحكم في كتاب الله. احكم بسنة رسوله.

ولكن الرسول الذي يريد ان يطرح المنهاج والتفكير عبر القرون والى ان يرث الله الارض ومن عليها، يعود فيسأله: فان لم تجد؟ اي اذا لم تجد نصا أو حكما يعينك على هذه الحالة، لا من كتاب الله ولا من سنة رسوله؟

لا يتردد الصحابي، لا يتردد التلميذ النجيب لتعاليم ومنهاج اوسع الحضارات حرية فكر، واكثرها احتراما لانسانية الانسان وتقديسا لعقل الانسان. يرد على الفور: اجتهد لهم برأيي.

ماذا فعل رسول الله؟ هل قذف في وجهه بشعار: «الحاكمية لله». هل قال له كيف تجعل من نفسك مصدرا ثالثا للتشريع بعد القرآن وسنة الرسول؟

حاشا لله. احتضنه وعانقه وفرح به وقال: «هؤلاء هم اصحابي حقاً».

الرسول عرف انه يمكن ان توجد حالات لا نص فيها لا في القرآن ولا في السنة، في وقت نزول القرآن، وفعل السنة، فهل ننكر ذلك بعد ١٤ قرنا من انقطاع الوحي، وتوقف حدوث السنة؟

واذا سلمنا بوجود هذه الحالات التي تحتاج لتشريع مع غياب النص.. فمن الذي سيشرع؟!

ولا حاجة للقول بأن التشريع المطلوب سيستند بالطبع الى القواعد الاسلامية المقررة في التشريع، وهي القرآن والسنة والقياس والاجماع. ولكن يبقى السؤال؟ من له حق التشريع؟

شعار «الحاكمية لله» يريد ان يقصرها على الفقيه او الفقهاء او قيادة تلك الحركة التي ترفع الشعار، وهو افتئات على حق الامة، والغاء لمبدأ الاجتهاد، واغلاق لباب الاجتهاد، وخلق طائفة من الكهنة. «ولا كهانة في الاسلام».

ولسنا نطرح صيغة واحدة للسلطة التشريعية، فلو فعلنا لارتكبنا الخطأ نفسه، فليس للحرية او الديموقراطية صيغة واحدة لكل زمان ومكان، ومع اختلاف الظروف، ولكن المفاهيم الاسلامية واضحة، وهي جعل الامة ـ الجماعة ـ هي صاحبة السيادة، ومصدر الشرعية في كل ما يتعلق بشؤونها وان تكون الشورى هي وسيلة التعرف على رأي الجماعة، أو الامة.

لذلك نحن لا نرى خطأ في القول بان الأمة مصدر السلطات، أو وصف أو حتى تحديد الهيئة المنتخبة من الامة كالسلطة التشريعية، بل نرى الخطأ في مهاجمة ذلك، من دون طرح

التصور الواضح لكيفية حكم الجماعة، ووسيلة تشريعها بل مجرد التهديد بشعار «الحاكمية لله». ورضي الله عن امير المؤمنين علي بن ابي طالب عندما افحم ذلك الخارجي الذي رفع الشعار ذاته منذ ١٤ قرنا، عندما سأله: الا تحكم القاضي فيما ينشب بينك وبين اخيك من خلاف؟ فهل يعني ذلك ان «الحكم ليس لله»؟ فلم يجد الخارجي ما يقوله الا «ما الحنك بالباطل». اي ما ابرع حجتك في الدفاع عن الباطل!!

وقد طرح سيد قطب هذه القضية في رفضه شعار «مصدر السلطات» لغير الله. فهو لم يقف معنا عند رفض العبودية أو الوهية البشر، بل رفض ان «يحكم» البشر، ان «يشرع» البشر، وهو يطالبنا بتحطيم «مملكة البشر» و «حكومة البشر»، لنقيم «مملكة الله في الارض» ولا حاجة للقول بان الآيات التي استشهد بها لا تتحدث عن الحكم أو التشريع او تشكيل الحكومات وكتابة الدساتير، وانما تتحدث عن العبودية التي لا خلاف عليها. ولا شك ان سيد قطب قد احس بانه انزلق في حماسته فتبنى المفهوم الكهنوتي لمملكة الله في الارض، وهو تعبير غريب كل الغرابة عن المصطلحات الاسلامية، الفقهية والسياسية، لذلك بادر بتحفظ، وضعه بحروف سوداء قائلا: «ومملكة الله في الارض لا تقوم بأن يتولى الحاكمية في الارض رجال باعيانهم - هم رجال الدين كما كان الامر في سلطان الكنيسة. الخ» وانما بأن تكون شريعة الله هي الحاكمة وان يكون مرد الامر لله وفق ما قرره من شريعة مبينة «وقيام مملكة الله في الارض، وازالة مملكة البشر وانتزاع السلطان من ايدي مغتصبيه من العباد، ورده الى الله وحده، وسيادة الشريعة الالهية وحدها والغاء القوانين البشرية».

ولا يجدي هنا مجرد اعلان التبرء من «الحكم الديني» للآخرين، فان الشعارات واحدة، والتعبيرات واحدة، ولابد ان ينعكس المفهوم ذاته وان تظهر الممارسات ذاتها. لأن الله سبحانه وتعالى لا يظهر بشخصه في منازعات البشر. والتشريع الالهي اكتمل لحظة وفاة الرسول بانقطاع الوحي، ولا سبيل للاحتكام الى الله مباشرة الا في يوم الدينونة، فالله لا يشرع ولا يحكم بيننا الآن، لا مباشرة ولا بواسطة احد من البشر، وانما ترك لنا التشريع، وكل ما لم يرد فيه نص، فهو تشريع بشري وحكم بشري، وكل نظام يقوم على الارض هو مملكة البشر.

ولما اعجب رجل مفتون بحكم قضاه عمر فصاح: «هذا ما رأي الله ورأي عمر»، نهره رضي الله عنه قائلا: «بئس ما قلت. هذا ما رأى عمر فان يكن صوابا فمن الله وان يكن خطأ فمن عمر» ثم وجم - بأبي وأمي - برهة وكأنه بشفافية «يا سارية الجبل» قد اطلع على ما سيقال من امته بعد قرون، فأغتم لها وقال: «السنة ما سنه الله ورسوله. لا تجعلوا خطأ الرأي سنة للامة».

كيف يفهم بناة الدين هذا الفهم، وكيف يحرفونه، بئس الخلف، هذا التحريف؟!

ولقد اختلف من هم افضل منا حول تفسير تشريع الله، حتى «قاتلوهم على تأويله» كما قاتلوهم على تنزيله. ومن ثم فاختلاف المسلمين واجتهادهم وتشريعهم امر محتوم. والاجتهاد يسقط، والحرية تزول، اذا ما ادعى احد الاطراف انه يحمل تفويضا الهيا. أو ان تشريعه ليس تشريعا بشريا بل تشريعا الهيا. هذا مفهوم مخالف تمام المخالفة للمفهوم الاسلامي، بل لجوهر مبدأ التوحيد الاسلامي، لجوهر الرسالة التي جاء بها الاسلام، فالاسلام لم يأت ليلغي حكم البشر، بل على العكس تماما جاء ليقيم حكم البشر المؤمنين بالله وحده، المعترفين بعجزهم عن الكمال وافتقارهم اليه، المؤمنين بصلاحية الاسلام لكل زمان ومكان، المعترفين بتغير الزمان وتغير المكان بحيث لا يمكن ان يشملهما نص، ولا يحتويهما نظام واحد. ومن ثم لابد من التجربة والخطأ، ولا بد من الاجتهاد، والنقد والتغيير والتعديل فيما لم يرد فيه نص قاطع.

الاسلام جاء لا ليقيم مملكة الله، فالكون كله مملكة الله، وهي قائمة قبل ان يبعث محمد عليه الصلاة والسلام، بل قبل ان يوجد الانسان، وانما جاء ليقيم مملكة الانسان المسلم. فالله غني عن العباد، ولا يريد ان يقيموا له مملكة في الارض وهي لا تساوي عنده جناح بعوضة.

يعرف سيد قطب العبودية بقوله: «والعبودية الكبرى - في نظر الاسلام - هي خضوع البشر لاحكام يشرعها لهم ناس من البشر. وهذه هي «العبادة» التي يقرر انها لن تكون الا لله، وان من يتوجه بها لغير الله يخرج من دين الله مهما ادعى انه في هذا الدين. ولقد نص رسول الله صلى الله عليه وسلم على ان «الاتباع» في الشريعة والحكم هو «العبادة» التي صار بها اليهود والنصارى «مشركين» مخالفين لما امروا به من «عبادة» الله وحده. ثم روى حادثة عدي بن حاتم وقد ذكرناها في موضع آخر.

وفي مفهومنا ان الشرك الذي اشار اليه الرسول صلوات الله عليه، هو في قبول المسيحيين واليهود تشريع احبارهم ورهبانهم على انه تشريع من الله، يحرم عليهم ويحلل لهم. فالمعروف ان هؤلاء، يقولون بتقمص روح القدس فيهم والنطق باسم الله، فضلا عن مخالفة تشريعهم لما جاء به النص الالهي، ومن ثم فالنص او الحديث الشريف لا يحتمل مطه ليعني ان قبول اي تشريع بشري هو شرك او عبادة غير الله، ولا سبيل لتصور مجتمع بشري لا يصدر فيه تشريع الا من قبل الله سبحانه وتعالى، او من رجال حصلوا على خاصية النطق نيابة عن الذات الالهية، بعدما انقطع الوحي! وسبحان الله عما يقولون.

ومنذ توفي الرسول صلوات الله عليه، والبشر المسلمون يخضعون لتشريعات ناس من البشر، فالخلافة تشريع بشري، اتفق عليه بشر في سقيفة بني ساعده، وحرب الردة تشريع بشري سنه ابو بكر رضي الله عنه. ولم يرد به تشريع الهي، والا لما عارضه عمر فترة ثم اطاعه

كما اطاعه كل البشر من المسلمين. وتحريم نكاح المتعة، سنه بشر هو عمر رضي الله عنه، وملكية رض الخراج، واعتلاء عمر المنبر «ليشرع» عدم المغالاة في المهور، لم يكن عن شرك منه. ومن غير الله، ولا عن جهل بتفسير حديث خاتم، وما رجع الا لما عورض بنص صريح. فليس من حق المسلمين تشريع قانون فيه مخالفة لنص صريح. هذا هو القيد الاول على التشريع البشري، ولكن لا تحريم للتشريع البشري، ولا اثم على المشرع او المحكوم، ما دام لا يعارض نصا ولا يخالف روح الاسلام كما يفهمها المسلمون في ذلك العصر. فلا سبيل لقبول فهم «سيد قطب» - رحمة الله عليه - للحديث بأن «تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم لقول الله سبحانه نص قاطع على «ان الاتباع في الشريعة والحكم هو العبادة التي تخرج من الدين وانها اتخاذ بعض الناس اربابا لبعض».

أننا نرى ان «لا اله الا الله» ترسخ مبدأ الحاكمية للبشر، وتؤكد المفهوم الانساني الديموقراطي للمجتمع الاسلامي والدولة الاسلامية. فلانه ما من احد يحق له ادعاء العصمة، ولا النطق عن الله، فما من «صوابية» مطلقة ولا من صواب مضمون مسبقا، ومن ثم لابد من تعدد الآراء وتعدد التفاسير والتأويلات حتى نصل الى اقرب الفروض والحلول الى الصواب المؤقت، وهذا يعني التشريع البشري.

الا ان المفهوم الخاطىء لشعار «لا اله الا الله» على صعيد الحاكمية، انعكس ايضا على مفهوم الجهاد، والجهاد هو الشق الثاني المكمل للفلسفة الاسلامية، أو الحضارة الاسلامية: التوحيد والجهاد. والتوحيد كما رأينا يفرض النظام الديموقراطي، او حرية الاجتهاد، حرية الاختلاف. اما الجهاد، فقد وصلنا في كتابنا «الجهاد ثورتنا الدائمة» الى انه يعني في التطبيق «مبدأ التعايش» بين الامم والحضارات والديانات المخالفة أو المختلفة.

واذا كنت أعود هنا لشرح اجتهادي في قضية «الجهاد» رغم مرور عشر سنوات على كتابي «الجهاد ثورتنا الدائمة» فذلك لاني شعرت انه من دون سائر كتبي قد عف عنه المقتبسون، فلم يظهر في كتاباتهم، ولا في ما يطرحونه من افكار في الاذاعات والصحف بعكس نهبهم لسائر افكاري الاسلامية، ولكنهم ايضا لم يستطيعوا مواجهته، فلم يكتبوا ضده، ولا انتقدوه. ولا عجب، فما جاء فيه من آراء، كما يلاحظ القارىء، كان فوق مستوى الفكر الشائع، مخالفاً في الجوهر لمفهوم الجهاد الذي راج ويروج الآن في الحركات الاسلامية، والذي يعتمد على كتابات المفكرين الاسلاميين الجليلين، «المودودي» و «سيد قطب» رحمة الله عليهما. ولذا وجدتني مضطرا لأن اعود لحديث «الجهاد» مع التعرض لهذه الافكار، التي حاولت في المرة السابقة ان اتفادى الدخول معها في نقاش. مكتفيا بابداء رأيي، وتوضيح حجتي، بأمل ان تثير نقاشا داخل الحلقات الاسلامية. ولكن يبدو ان نفسية الهزيمة التي يعيشها المسلمون، تجعل المزايدة المتطرفة اكثر قبولا ورواجا. واذا كنت لا اعتبر نفسي تلميذا

ولا مريداً. ولا من جماعة المودودي او سيد قطب، فان ذلك لا يعني، كما لا يعني نقدي لافكارهما. انني انتقص من قدرهما او مكانتهما او سبق جهادهما، وما قدماه من نية صادقة في خدمة الفكر الاسلامي، وقد انتقد سيد قطب من سبقوه من شيوخ الفكر الاسلامي. بل حتى الفقهاء، بل بعض الصحابة والخلفاء والتابعين. وفي حديثه عن الجهاد نقد واضح - وان كان لم يذكر الاسماء - على عادتنا في التجاهل - لفكر حسن البنا وسيد سابق. عملا بالمبدأ القائل «هم رجال ونحن رجال» اي ان فكرنا جميعا قابل للنقاش والمراجعة.

وقبل ان نناقش فكرهما، أبدأ بعرض وجهة نظري في الجهاد، والتي تضمنها ذلك الكتيب الذي اثار ما اثار من خلاف - في حينه - مع الحركات الاسلامية... فنقول:

«الجهاد» قانون اساسي في النظرية العامة للحضارة الاسلامية. ولست ازعم انني سأحيط في هذه الكلمة بكل الابعاد الحضارية التي يتضمنها الجهاد. ولا شك ان دراسات عديدة وممتازة قد تناولت «الجهاد»... وكشفت عن ابعاد معجزة في مفهومه. ولاشك ان ابعادا جديدة في هذا القانون الحضاري ستكشفها الاجيال المتعاقبة من امتنا الاسلامية. لأن قانونا اساسيا في حضارة صالحة لكل زمان ومكان، لابد ان يعبر عن نفسه في صيغ متجددة، بتجدد احتياجات الانسان عبر الزمان والمكان.

فهذه الدراسة، تحاول ان تتفهم معجزة الجهاد، التي تنفرد بها حضارتنا، في ضوء ما يواجه الامة الاسلامية من تحديات.

وآيات القرآن... والاحاديث واضحة في تحديد المكانة الخاصة، او الذروة التي يمثلها الجهاد بين سائر الفرائض أو العبادات في الاسلام.

«وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجرا عظيما».

واي مكانة اعظم من تلك التي يتطلع اليها سيد الخلق اجمعين: «لولا اشق على امتي ما قعدت خلف سرية. ولوددت اني اقتل في سبيل الله ثم احيا، ثم اقتل، ثم احيا».

«الجهاد رهبانية الاسلام».

«ذروة سنام الاسلام الجهاد».

وقد روى ابن قيم الجوزية رضي الله عنه، ان الفقهاء اجمعوا على ان جنس الجهاد فرض عين... اي ملزم لكل مسلم ومسلمة اما بالقلب او باللسان او بالمال او باليد... فعلى كل مسلم او مسلمة ان يجاهد او تجاهد بنوع من هذه الانواع.

اما الجهاد بالنفس فهو فرض كفاية. ويصبح فرض عين في حالات ثلاث:

* اذا علنت التعبئة العامة
* اذا غزا العدو بلاد المسلمين
* اذا وجد المسلم او المسلمة في ارض المعركة، ميدان القتال.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال «الجهاد ماض الى يوم القيامة».

فالجهاد ركن اساسي في العقيدة الاسلامية بل هو كما وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم «ذروة سنام الاسلام». وهذه المكانة الخاصة التي للجهاد في الاسلام ترجع الى تصور دور الانسان المسلم في هذا الكون.

فالاسلام هو رسالة السماء للجنس البشري كله.. وليس لشعب مختار حسبه ان يؤمن بها وحده... بل هو الدين الذي يتحدث عن رسالته «للعالمين» ويشير في غير موضع الى ايمان او كفر كائنات غير سكان هذه الارض، المعروفين باسم البشر، القرآن يتحدث عن ايمان او كفر كائنات غير بشرية بهذه الرسالة... اي انها موجهة اليهم، وانهم سيحاسبون على موقفهم منها.

ولعل ذلك اشارة الهية الى امتداد رسالة الاسلام الى خارج حدود الكرة الارضية وخارج اطار الجنس البشري. وفي الوقت نفسه يخبرنا: «وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل». ومحمد ميت... وصحبه ميتون.. فهل يعني ذلك ان مسؤولية هداية الناس واتاحة الفرصة امامهم لمعرفة الحق تنتهي بوفاة الرسول وصحابته؟

وردا على هذا السؤال كان الحديث الشريف «الجهاد ماض الى يوم القيامة» فمسئولية المسلمين في الدعوة الى الاسلام ممتدة عبر الزمان طالما ظل هذا الانسان... وممتدة عبر المكان حيثما وجدت كائنات تتفهم الخير والشر وتملك القدرة على التمييز بينهما.

و «الجهاد» ينبع من تحديد مهمة الانسان في هذا الكون... تلك المهمة التي اعلنها الله سبحانه وتعالى عندما اخبر الملائكة انه «جاعل في الارض خليفة». ومهمة «الخليفة» هي تحقيق ارادة الله سبحانه وتعالى... ارادة من استخلفه. ويجدر ان ننبه هنا، الى ان «الانسان» كنوع هو الخليفة، ولا يحق لانسان بعينه ان يدعي هذه الصفة. وهذا ما وعاه المسلمون، فان النص القرآني عن الاستخلاف، لم يسمح باطلاق لقب خليفة الله في الارض، لا على الرسول، ولا على الخلفاء، وانما هو رسول الله، وهم خلفاء رسول الله. وهذا هو الفهم الصحيح والصافي للاسلام. بل وهذا ما فهمته الملائكة عندما تساءلت.. «اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء...» فما كان «آدم» بعينه ليفعل ذلك، ولكن الحوار كان يدور عن «الجنس البشري» او «الانسان» الذي قرر الله خلقه.[1]

فالخلافة هي مسؤولية عامة، لا يجوز لفرد ان يستأثر بها، أو ان يحتكر اللقب، وانما يضطلع بها البشر المؤمنون الذين يقبلون التكليف ويتطوعون بتنفيذ ارادة الله بهذا الاستخلاف.

(١) هذه الفكرة لطشها «لويس عوض» الدكتور! دون أن يشير الى مصدرها ورغم نسفها لكل الكاره ومزاعمه عن «الحق الالهي» في الفكر الاسلامي! ولعله وقد اعجبته فكرتنا الى حد سرقتها يقلع عن اتهام التاريخ الاسلامي أو الفكر الاسلامي بما ليس فيه!

وبالطبع فان هذه الارادة تشمل كافة اوجه السلوك للمسلم وتنظيم موقفه وعلاقته بضميره ومجتمعه على كافة مستويات هذا المجتمع بل علاقته بالوجود كله، بكائناته العاقلة وغير العاقلة، لأنه هو الخليفة المتصرف في ملكية الله سبحانه وتعالى بموجب استخلاف المالك له وفي حدود ما قرره المالك سبحانه وتعالى.

ولكن النقطة التي تعنينا في هذه الدراسة هي موقف الخليفة من الانسانية، مسؤولياته امام المجتمع البشري.

ما هي واجباته؟

قلنا انها تنفيذ ارادة الله؟ فما هي ارادة الله للجنس البشري؟

شاءت ارادة الله ان يختلف الناس وان تتنوع الحضارات وتتمايز الامم وتتعدد المعتقدات. **ولذا فان الاسلام لم يبشر ابدا بوحدة الجنس البشري في عقيدة واحدة، ولا امة واحدة... بل ان الله سبحانه وتعالى قد شاء هذا التمايز وهذا التعدد ليتحقق به التعاون والتنافس.**

وفي التوراة ان الناس بنوا برج بابل لمقاتلة الله... وخاف رب التوراة من وحدة ابناء آدم فبلبل السنتهم ليختلفوا وتنفرط وحدتهم ويذهب ريحهم!!

اما القرآن الكريم فيقول «وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا...» فهي ظاهرة خير يتم بها التعارف.

وقد شاءت ارادته ان يبقى هذا التمايز ليتحمل الانسان مسؤولية اختياره فلا شك ان وحدة الجنس البشري في فكر واحد وانتفاء اي معارضة او خلاف، ينهي حرية الاختيار، ومن ثم تسقط المسؤولية، فحرية الاختيار التي تترتب عليها المسؤولية اي الثواب أو العقاب، تتطلب توفر ثلاثة عناصر:

١ـ التعدد والتمايز حتى يمكن الوصول الى قرار عقلي قائم على التجربة والمقارنة.

٢ـ امكانية المعرفة الحرة من كل تأثير بفرض بالعسف والقسر.

٣ـ حق الانتماء من دون التعرض للتنكيل.

ولكن الانسان ككل كائن حي يكره التمايز ويتوجس من المخالفة، ويندفع غريزيا الى ازالة التعدد اما بالابتلاع او بالذوبان. ابتلاع المخالف او الذوبان فيه.

ومن ثم فكل الحضارات التي قامت على فكر بشري، بشرت بوحدة الجنس البشري تحت اعلامها، وفي ظل فلسفتها التي هي لخير البشرية كافة، وادعت انها ملزمة بتحقيق هذا الخير بالقوة المسلحة واجبار الناس على الدخول في نظامها الأمثل وكلها انتهت طبعا بقهر الكيانات المخالفة، واستعمارها واخضاع مصالحهم وتطورهم لمصالحها هي.

وما من حضارة استطاعت ان تدخل كل الناس في نظامها، لأن ذلك مخالف لارادة الله.

ومهما بدا لفترة من الوقت ان حضارة ما قد حققت تفوقاً ساحقا على سائر الحضارات المعاصرة لها، فان ارادة الله حالت دائما دون خضوع الجنس البشري لسيطرة قوة منفردة، او دخول الناس كافة في اطار حضارة واحدة. وهذه واحدة من دلائل الاعجاز في القرآن. اذ قرر هذا القانون الحضاري الأزلي، قانون استمرار انقسام الجنس البشري الى عقائد مختلفة والى شعوب متعددة.

وهذا القانون الذي اشار اليه القرآن واعترف به المفهوم الاسلامي، اكدته تجربة التاريخ الانساني قبل نزول القرآن وخلال القرون التي تلت نزوله، وتؤكد كل الدلائل استمراره الى ان يرث الله الارض.

فرغم ما بدا لفترة من الوقت، مع التقدم التكنولوجي الجبار الذي حققته الحضارة الغربية، وما بدا معه ان مشكلة المكان قد حلت، وانه ازاء التفوق الساحق لهذه الحضارة، لم يعد بالامكان ان يفلت اي مجتمع من قبضتها، وتحدث الكثيرون عن وحدة الجنس البشري ووحدة الحضارة، بل واستعد بعضهم باقتراح اللغة العالمية، وقام البعض باقتراح دين موحد! وأعلن البعض ان هذه الحضارة لن تنهار لأنها اصبحت عالمية.

ولكن شيئا من ذلك لم يتحقق، فلا سادت الكرة الارضية حضارة واحدة ولا نظام واحد، ولا اختفت الحدود بين الشعوب والقوميات، ولا اعتنق الناس جميعا عقيدة الحضارة الغربية.

وعندما ظهرت الشيوعية، بشرت بأنها هي النهاية لكل الانقسامات، اذ لا يقسم الناس الا «الملكية». والشيوعية تلغي الملكية، فحول ماذا سينقسمون؟! وسيصبح كل البشر بروليتاريا. والبروليتاريا لا دين لها، ولا وطن لها، وبالتالي لا انقسامات ولا تناقضات، ولا حروب، بل عالم واحد وعقيدة واحدة وطبقة واحدة.!

واصبحت هذه الفلسفة الساذجة عقيدة عدد هائل من المفكرين، بل وحركات واحزاب تضم ملايين المؤمنين بأن «هذه آخر الحروب» وانهم يعملون من «اجل سلام دائم».

وربما بدا لبعض المتشككين لفترة من الوقت احتمال سقوط قانون تمايز الجنس البشري واختلاله.

ولكن الحيرة لم تطل، وقبل مرور نصف قرن على انتصار الشيوعية في سدس الكرة الارضية، كما كان الشيوعيون يفخرون، بل وفي لحظة التباهي، بان الشيوعية اصبحت عقيدة توحد ثلث الجنس البشري، انفجر قانون التمايز والتعدد، وبدا واضحا ليس فقط ان الشيوعية لا أمل لها في ان تسود الكرة الارضية بأية حال من الاحوال، بل يشك في استمرارها في الارض التي استولت عليها.

وبدا واضحا ان دولا شيوعية عديدة تحاول وستنجح، في الخروج من اطار التوحيد

الشيوعي، لاكتشاف نظم جديدة تتفق في جوهرها مع الطابع العام للحضارة التي تنتمي اليها وتتخذ شكلا يتفق والتراث الخاص لكل شعب. وما من شيوعي، مهما بلغت سذاجته، يقول الان ان العالم كله سائر الى الشيوعية، واننا نعيش عصر انتصار الشيوعية!

واكثر من هذا انه ما عاد هناك حتى ولا امل في ان تسود شيوعية واحدة البلاد أو الشعوب التي قام فيها النظام الشيوعي. وكل الظواهر تؤكد ان النزعة القومية تزداد تأكيدا ورسوخا بين الدول الشيوعية. وان الحروب المقبلة ستكون اساسا بين الدول الشيوعية، او بين تحالفات قومية تضم شيوعيين ورأسماليين في معسكر واحد ضد معسكر اخر يضم شيوعيين ورأسماليين.

فارادة الله ماضية في استمرار التمايز والتعدد وحماية حرية الانسان في الاختيار، بدفع الناس بعضهم ببعض.

ورسالة المسلمين في هذا العالم، هي تنفيذ هذه الارادة الالهية، اعلاء كلمة الله، مقاتلة كل حركة او نظام او عقيدة تحاول ان تعترض ارادة الله، بأن تفرض على الناس عقيدتها.

ولأن هذه هي رسالتنا، فقد الزمنا ديننا بموقفين:

١ـ الجهاد... اي مسؤوليتنا عن حماية حق الاختيار، والتزامنا بالقتال ضد كل افتئات على هذا الحق.

٢ـ ايماننا بحتمية التمايز، وان محاولة الغائه، معارضة لارادة الله، ومن ثم «لا اكراه في الدين».. لأن الاكراه نقض لحرية الاختيار، ونقض لمبدأ التعدد والتمايز الأبدي!

والمبدأن متلازمان، لأن ترك الجهاد يعني اننا نكتفي بموقف الطوباويين، او نسلك سلوك الفقير الهندي الذي يجلس على المسامير ويتمنى للناس الخير والتسامح وترك التعصب!! اننا مطالبون بأن «نجاهد» ضد انحراف الانسان الذي يدفعه الى الافتئات على ارادة الآخرين، ومحاولة اخضاعهم لارادته.

اننا لو تركنا الجهاد، فان العالم سيتعرض دائما لمحاولة الضم او التوحيد القسري، بل ان حريتنا نحن في الايمان بالاسلام ستتعرض لخطر مباشر، وهو ما حدث بالفعل، اذ سرعان ما سقطنا تحت سيطرة النزعات التوسعية للحضارات المعادية، والعقائد المخالفة، فعطلت شعائر ديننا، وحرمتنا من حرية العقيدة.

والمبدأ الثاني ضروري لمنع انحرافنا نحن بتأثير تفوقنا المادي، او باغراء تفوقنا العقائدي فنسقط في شرك محاولة «هداية» الجنس البشري بالقوة، باجبار الناس على الدخول في دين الله.

من هنا كان لابد ان يرتبط الايمان بالجهاد، بالايمان بأنه «لا اكراه في الدين» وان يظل ذلك السؤال الاستنكاري يردع كل متعصب: أأنت تكره الناس؟ بل وتصبح البلد التي

تضطهد فيها حرية العقيدة ديار حرب يتحتم مقاتلتها . . حتى ولو كانت ديار المسلمين .

ولا تناقض ابدا بين الجهاد، والايمان بأنه «لا اكراه في الدين» . . بل هما وجها عملة واحدة . فما دمنا نحرم على انفسنا اكره الناس على الايمان بالرشد، فلابد ان نقاتل من «يكرههم» على الايمان بالغي .

فنحن لا ننشر ديننا بالسيف . هذا سخف مبشرين، وعملاء قد تم غزوهم، ولقد مرت على البشرية فترة كان سيفنا وحده هو الذي يتكلم، ولو شئنا، لما بقي غير مسلم في الارض الممتدة من فيينا الى الفيلبين . . . ولكننا نستطيع القول انه بحماية سيوفنا وحدها أمكن لشتى الاقليات أن تعيش وتستمر الى اليوم، اليس جديرا بالملاحظة، أن الارض التي سادها الاسلام، هي التي تعج اليوم بشتى التجمعات الدينية والمذهبية والقومية واللغوية، بينما صفيت الاقليات بالسيف والدم في معظم البقاع التي سادتها حضارات اخرى، وفي مقدمتها الحضارة الغربية التي روجت هذا السخف عن طبيعة الجهاد في الاسلام؟

ولكن مع انتشار رومانطيقية الاخاء والحرية والسلام، احس حتى بعض المنتمين للاسلام بحرج من فكرة القوة والحرب، وظنوا انها لم تعد تتفق مع مجتمع الامن الدولي والامن الجماعي، وعصبة الامم والامم المتحدة . . . الخ .

رغم انه لا الماضي ولا الحاضر، يبيح مثل هذا الوهم عن المستقبل، فتاريخ البشرية المخضب بالدماء يؤكد ان اللاعنف هو فلسفة الكائنات المنقرضة والحضارات العاجزة البائدة، وهذه الدول والمؤسسات، التي بنفاق رخيص، تتحدث عن السلام واستبعاد القوة، هي التي جعلت من اسلحة الدمار كائنا حيا، ينمو ويتطور، ويفرض ارادته، ربما بأسرع من نمو المجتمعات والاخلاقيات ووسائل حماية الحياة البشرية .

وكم هو مزر ان ينتقد مفكر ينتمي الى الحضارة الغربية «الجهاد» ويتهمنا بالعنف، ناسيا، بكل بجاحة، ما سفكته حضارته من دماء، وما ابادته من شعوب في سبيل اخس الاهداف بحثا عن الذهب أو الاتجار في الرقيق، وكيف نقلت هذه الحضارة شعبا بأكمله من افريقيا ليموت في مزارع السادة البيض في العالم الجديد، ينسى إبادة الهنود الحمر لسرقة ماشيتهم وانتزاع ارضهم . ينسى ابادة الشعوب في اسيا وافريقيا، وسحق حضارات امريكا اللاتينية من اجل الذهب والقطن والمطاط . . . واخيرا البترول!

هؤلاء الذين لم يتركوا شبرا في الكرة الارضية الا وصبوا عليه الدمار والخراب من اجل اهداف توسعية واستغلالية وعنصرية .

والمنتمون لهذه الحضارة لا يجوز ان نناقشهم، ولا ان نسقط الى موقع المدافع عن ديننا امامهم، بل يجب ان نزهو بتشريع «الجهاد» في ديننا، لانه شرع لمواجهتهم . لتحرير البشرية من نيرهم واستغلالهم ووضع حد لاطماعهم ولاجبارهم على العيش بلا استغلال ولا

استعلاء .

ولكن العجب حقا من شيوعي او «ثوري» يستنكر «الجهاد»!! فهو يبيح لنفسه ان يؤمن بالثورة العالمية، ويقدس غيفارا لأنه لم يعترف بحدود ولا وطن وذهب يهدي شعب فنزويلا الى «الحق» الذي جاء به ماركس! ولكنه يأبى علينا ان نجاهد من اجل اعلاء كلمة الله!

اي منطق مختل، ان يوافق المغزوة افكارهم غربيا على التزام الولايات المتحدة الامريكية بالقتال في فيتنام وكوريا، من اجل حق شعب فيتنام او شعب كوريا في التمتع بنظام كاوكي . . . او سنجمان ري؟!

ويرى المغزو فكريا لحساب الشرق ان روسيا ملزمة عقائديا باحتلال تشيكوسلوفاكيا بالدبابات لضمان حق شعب تشيكوسلوفاكيا في التمتع بالنظام الشيوعي!! ولكنها يستنكران ان يؤمن المسلمون ان لهم رسالة تتخطى حدود الاوطان والقوميات .

بالطبع هذا التشابه، شكلي بحت، اما الفارق الموضوعي، فهو فارق كيفي، فارق رسالات السماء عن نظم الانسان، ومطامعه وشهواته واهوائه كلها . فالاسلام رسالة للانسانية بكل ما تعنية هذه الكلمة . يؤكد طابعها هذا مبادىء الاسلام، ونصوصه والتجربة التاريخية التي قدمناها للبشرية في زمن كان محدودا باعتبارات مادية عديدة تنتقص من الابعاد الانسانية لأية محاولة ولو في ميدان الفكر ولكنها لم تعق قيمنا عن التألق .

رسالتنا عالمية، لانها لا تختص بشعب مختار، ولا يختص بها شعب ولا قومية معينة، ولا هي محدودة بزمان او مجتمع بعينه .

رسالتنا عالمية لانها لا تقسم الناس وفقا لاي خلافات موروثة . خلافات لا سبيل الى اكتسابها أو التخلص منها بالارادة الحرة للفرد .

فتقسيم الناس بسبب اللون يعني عزل قطاع من الانسانية خلف سور ليس من صنع الانسان، ولا يملك الانسان ان يهدمه او يقيمه بارادته الحرة! اذ لا سبيل الى تغيير لون الجلد .

وتقسيم الناس بحواجز القوميات يعني فرض قدرية عليهم لا يمكن تخطيها بسبب من «حادثة» مولدهم عند خط الطول والعرض المعين، او بسبب لغة امهاتهم .

وتقسيم الناس بسبب الطبقات الاجتماعية التي ينتمون اليها، وجعل العلاقة الوحيدة، المسموح بقيامها بين هذه الطبقات، هي علاقة الصراع والافناء، يعني ان بعض الناس بسبب من حادث ميلادهم على هذا الجانب او ذاك من خطوط التقسيم الاجتماعية يصبحون في جانب الحق، او جانب الباطل بصرف النظر عن ارادتهم الفردية، لأن الحق هنا متحيز، يعبر عن مصلحة ومن ثم عن ارادة طبقة بعينها، ويصبح على من يريد الايمان «بحق» هذه الطبقة ان «يخون» طبقته .

قد يقال ان التقسيم الديني ايضا يقسم الناس الى مؤمنين وكافرين، وذلك صحيح، وشر عقيدة تلك التي تقسم الناس الى مؤمنين «بعقيدتها» وكافرين بها. ثم تحرم على الناس الدخول في عقيدتها، وتقصرها على جنس بعينه! هذه العقيدة تتحول الى شر مستطير ان امتلكت وسائل القوة المادية التي تمكنها من تصفية مخالفيها.

رسالتنا انسانية، لأننا نعترف بكل هذه التقسيمات، ونلتزم بمسؤوليات ازاء هذه التقسيمات... ولكن رسالتنا تمنح كل انسان حق الانتماء اليها، فلا حظر على جنس او لون او طبقة او قومية، او عقيدة، من حق كل انسان ان يختار بارادته الحرة الاسلام، وبمجرد اعتناقه للاسلام يكتسب كافة الحقوق التي للمسلمين، ويلتزم بكافة واجباتهم «لهم مالنا، وعليهم ما علينا».

آمنا بذلك ونادينا به وطبقناه حيثما اتيح لنا ان نحكم.

حضارتنا هي الوحيدة، منذ فجر التاريخ الى ان مشى الاميركي على القمر، التي شهدت ولاة سودا وصفرا وبيضا... عربا وفرسا وتركا وزنوجا، حكموا امة المسلمين على اختلاف اجناسها والوانها، وشكلوا قيادتها الدينية والثقافية.

احبهم الناس، واتبعوهم، واختلفوا معهم، وقاتلوهم، وبعضهم عيروا بألوانهم وجنسياتهم، وعجمة لسانهم او شظف باديتهم، ولكن ما من احد استطاع ان يجد نصا دينيا واحدا يحرم على لون معين او جنس معين، السيادة والقيادة في امة المسلمين.

رسالتنا انسانية، لأنها لا تدين الناس بسبب تقسيمات موروثة لا دخل للارادة الحرة في اكتسابها او التحرر منها.

وانها تتيح لكل انسان ان ينتمي اليها بلا قيد ولا شرط الا الايمان الحر.

ورسالتنا انسانية لانها تعترف بحق «المخالفين» في الوجود والتعبير والازدهار.

في حضارتنا عاشت كافة الاقليات، وازدهرت ثقافتها، وتمتعت بحقوق المواطنة الكاملة، وشغلت مناصب لم تنلها الاقليات في اي حضارة سابقة أو تالية لحضارتنا حتى الان، او على اقل تقدير لعشرة قرون.

ان تركيا الاسلامية لم تستطع عبر اربعة قرون، ان تذيب اي اقلية في داخلها، سواء أكانت دينية او قومية او لغوية، وقد انقلب ذلك على الاتراك وبالا ابتداء من القرن الثامن عشر، ولا يمكن مقارنة الدماء التي كانت ستراق اذا ما فرض الاتراك دينهم ولغتهم في القرن السادس عشر، بما سفك من دم الاتراك وغيرهم بفعل الصدام بين الاتراك، وما نما في داخل دولتهم من قوميات وديانات.

ولكن تركيا اللا اسلامية استطاعت ان تنجز عمليات تتريك ناجحة للاقليات في داخلها خلال ربع قرن فحسب. هذا مع مراعاة الفارق بين قدرة الاقليات على مقاومة الذوبان

والدمج القسري في القرن العشرين، في عصر القوميات وسهولة انتشار انباء المقاومة، وبين هذه القدرة منذ اربعة قرون! والفارق بين السيطرة المطلقة للقوة التركية في القرن السادس عشر «عالميا» وبين امكانيات دولة تركيا الفتاة.

ان السبب هو روح الاسلام.

العثمانيون كان يستحيل عليهم بموجب تعاليم دينهم ان يفرضوا الاندماج بالقوة على مخالفيهم في الدين واللغة، بينما اعتنقت تركيا الفتاة من ناحية السلوك الانساني قيم الحضارات الغربية فاستطاعت ان تنجز ما انجزته هذه الحضارة من ابادة المخالفين.

وكثيرا ما انتقد المؤرخون تسامح العثمانيين وارجعوا متاعبهم وآلامهم ـ منذ القرن الثامن عشر الى سقوط الدولة العثمانية ـ الى هذا التسامح الذي مكن الاقليات من التجمع والتآمر ثم الاستبداد. وربما بدا لبعض المسلمين اللاجئين من الروملي، ان ذلك المنطق صحيح وانهم يدفعون من جوعهم وحياتهم وتشريدهم ثمن تسامح الاجداد، وربما تذكر بعضهم اننا حكمنا الاندلس ثمانية قرون فتركنا غير المسلمين يتمتعون بحياتهم وحقوقهم كاملة، ويمارسون شعائر دينهم، الى ان تجمعوا وانقضوا علينا وطردونا، وخلال ثماني سنوات فقط استأصلوا كل الوجود الاسلامي وابادوا المسلمين تماما، وقد يقال ان تسامحنا ادى الى زوالنا بينما تعصبهم قضى على اية امكانية في عودة الاندلس اسلامية.

ولكن هذا الفهم خاطىء. فلو اخذنا اسلوب الحضارة البشرية من القسر والارغام لفقدنا روح رسالتنا ومغزاها، ولانطبقت علينا قوانين نشوء وانهيار الحضارات وطوانا التاريخ، كما طوى حضارات عديدة قبلنا ومعاصرة لظهور حضارتنا.

ولكن حضارتنا تبقى وحدها لكل زمان ومكان لأنها تلبي احتياجا لايزول بزوال الزمان ولا اختلاف المكان، حاجة الضمير البشري الى التحرر من الارغام.

وهذا المفهوم خاطىء ايضا اذ يحكم على العقيدة، من خلال سلوك خاطىء لمعتنقيها، فان تحريم ديننا علينا اكراه المخالفين، لا يعني ابدا ان تستسلم الاغلبية المتسامحة لمؤامرات الاقلية.

ان النظام الاخلاقي، نظام متكامل، ومحاولة تجزئته تحيل فضائله الى رذائل. فكما امر الاسلام العثمانيين بالتسامح، وحماية وجود الاقليات المخالفة، امرهم ايضا ان يحافظوا على تقدمهم وقوتهم لكي يواصلوا رسالته في حماية حرية الاختيار.

امرهم بان يكونوا منصفين لدينهم، فيحسنوا تقديمه للناس، بتجسيد قيمه الاخلاقية ومنجزاته الحضارية، حتى تتاح للأقليات المخالفة فرصة التقدير المستند الى حقائق موضوعية لا الى صورة زائفة يرسمها جهل الحاكمين وتخلفهم، وبعدهم المطلق عن روح الاسلام وتشدقهم بكلمة التسامح في وقت هم اعجز فيه حتى عن منع التبشير التعسفي

بين المسلمين.

لا تسامح لمن لا قوة له، والقوة طبعا تعني التفوق الحضاري.

ومن هنا يستحيل الفصل بين «الجهاد» و «لا اكراه في الدين» فالأمة «المجاهدة» هي وحدها التي تملك ان تمنع الاكراه في الدين، وان تمتنع عنه.

واليوم مع انتشار اسلحة الدمار الجماعي، وتوفر كميات من المواد المهلكة تفوق عدة مرات ما هو ضروري لفناء الجنس البشري، بدأ بعض المفكرين يتحدث عن حتمية «وحدة الانسانية والتخلي عن النزعات القومية والعقائدية، حتى لا تتحول الى صدام مسلح يفني الجنس البشري.

وقد رأينا ان معظم الحروب وافدح النكبات التي نزلت بالجنس البشري، انما اثارها طموح لتوحيد الجنس البشري بطحن الخلافات، وابتلاع المخالفين، وقد رأينا ان هذه المحاولات رغم كل ما تعلل به دعاتها، من ان ما يصاحبها من الام هو ثمن السلام الدائم والراحة الابدية التي ستعقبها، ورغم ما بشروا به من ان هذه الحرب هي اخر الحروب! رأينا ان هذا الطموح لم يتحقق قط، بل كانت كل حرب تلد قبل نهايتها جنين الحرب المقبلة.

من هنا فان رسالتنا هي وحدها التي تحمل حقا امكانية حماية الجنس البشري وتحقيق اكبر قدر ممكن من السلام، لانها تقوم على التسليم بحتمية التعدد وحتمية التعايش بين هؤلاء المخالفين وهي تقاتل عندما يتهدد خطر ما هذا التعايش.

وواضح انه مفهوم مخالف تماما لكل دعاوي التعايش السلمي التي تنادي بها الدول والمعسكرات، فالتعايش السلمي الذي تدعو له هذه النظم هو هدنة يستجمع فيها كل طرف قواه، ويشحذ اسلحته للقضاء على مخالفيه، سواء قال انه سيقضي عليه بالحرب او الثورة او المنافسة السلمية، ولكن فكرة افناء المخالف هي الهدف، والتعايش معه هو الوسيلة، او استمرار للحرب بوسائل غير دموية.

بعكس رسالتنا، فالتعايش هو الاساس، هو العلاقة الدائمة، والحرب هي لحماية هذا التعايش، ومنع الافتئات والبغي على حق الأخرين في الوجود، منع كل طاغية او امة باغية تسعى الى وحدة الجنس البشري بازالة تمايزه وتعدده وانقسامه الى عقائد وامم وحضارات.

هذه الامة التي اختارها الله لتكون شهداء على الناس بالقسط، لابد ان تكون امة مجاهدة بصفة دائمة.

ويمكن ان نلخص اسباب ذلك في:

* رسالتها العالمية، ومسؤوليتها في كفالة حرية الاختيار، وضمان تعايش المخالفين، وسحق اي محاولة للعدوان على حرية الاختيار او الاخلال بمبدأ التعايش.

* انها في حالة دفاع دائم عن النفس، لان الاتجاه الغريزي للبشر، كما قلنا، هو كراهية المخالفة ومن ثم التطلع باستمرار الى قهر الأخرين واجبارهم على اتباع نمط حياتهم، واعتناق نظرتهم للوجود، ومن ثم يتحتم على حراس حرية الارادة للجنس البشري وحق الانسان الفرد في الاختيار وحماة التعايش السلمي، يتحتم عليهم ان يبقوا دائما في حالة استنفار لمواجهة انفجارات الغرائز لدى الطغاة والامم.

ومنذ ظهور الاسلام، وهو يواجه هذا الخطر. الفرس، بيزنطة، ثم الصليبيون الذين بعثوا من اوروبا بمليون مقاتل للقضاء على المخالفين في القدس، ثم الاستعمار الغربي فالتوسع الشيوعي، والامبريالية الاميركية. . واخيرا الغزو الصهيوني.

امة تتعرض لكل هذه المخاطر عبر تاريخها لابد ان تدرك اهمية «الجهاد» وحتميته وتدرك اعجاز النبوة التي بلغتها منذ يومها الاول. ان الجهاد ماض الى يوم القيامة.

* السبب الثالث، وهو الذي اشرنا اليه في مثال الدولة العثمانية، وهو ايمان الرسالة الاسلامية «بالاإكراه» وتحملها مسؤولية كفالة حرية الاعتقاد للآخرين. وذلك يتطلب من امة المسلمين ان تكون دائما في مركز القوة. لأن هذه الفضائل التي تتميز بها حضارتنا، تتحول الى نقط ضعف خطيرة وثغرات تتسلل منها عناصر التدمير التي تدمر مجتمعنا، بل وقد تصيب بالدمار حتى الذين يحاولون استغلالها.

فالبنيان الاخلاقي كل متكامل، ولا معنى للتسامح من ضعيف لا يخشى تعصبه ولا يحمد تسامحه. انه يتحول عندئذ الى تفريط وتخاذل واستخزاء، ويفسره الخصم على انه ينبعث من لا مبالاة او عدم ايمان بعقيدتنا.

والضعف يغري الخصوم بالتحرش، مما يدفع حتى جماهيرنا المسلمة الى التخلي عن تعاليم ديننا فتسقط في مزالق التعصب، وتحكمها قوانين الغرائز البشرية.

* ولكن هناك سببا رابعاً، بل معجزة اسلامية تتكشف خلال دراسة حكمة «الجهاد». فالى جانب الدور الذي يمثله «الجهاد» في علاقة المجتمع الاسلامي بالمجتمعات المخالفة، باعتبار رسالته العالمية، فان حكمة تشريع «الجهاد» مرتبطة بحماية وسلامة المجتمع الاسلامي ذاته.

فهناك قانون حضاري، شهد التاريخ تطبيقه على سائر الحضارات والنظم، هو قانون نشوء الامم وانهيارها، وذلك القانون يقرر وحدة الامة في مرحلة النشوء، ثم انقسامها وتناحرها فانهيارها. فعند بزوغ الحضارة وظهور الامم تتميز بالوحدة الداخلية.. الوحدة التي تخلقها داخليا عقيدة، وتدعمها المواجهة الخارجية ضد الاعداء، فاذا ما انتصرت الامة وفرضت حقها في الوجود والبقاء، تبدأ مرحلة الانقسام الداخلي، الخلاف حول تقسيم ثمرات النصر.

وبـزوال الخطر الخارجي «التحدي» تنصرف الامة المنتصرة الآمنة الى بناء حضارتها. فتنصرف الجماهير عن القتال، وتفقد خصائصها الحربية.

وكما اثبتت تجربة التاريخ كله «قبل وبعد الماركسية» سرعان ما تظهر اقلية ـ مهما يكن اختلاف حجمها باختلاف الظروف فهي اقلية ـ تحتكر السلطة والنصيب الاوفر من ثمرة النصر. وهي لا تستطيع ان تصل الى ذلك الا بالقهر. . قهر جماهيرها، بخلق قوة بوليسية، او جيش محترف، صناعته الحرب، لا يساهم في البناء الحضاري، ولا يقاتل بايمان او فكرة او هدف، بل يتحـول الى اداة بطش في ظروف السلم لحساب الفئة الحاكمة التي تدفع رواتبه. وتبقيه بمعزل عن البناء الحضاري للمجتمع، واداة في الحقيقة لفرض سيطرتها على المجتمع كله.

ومع فقدان الجماهير لخصائص القتال، تنمو فيهم الفردية، وتتفتت وحدتهم، فما من وحـدة اقوى من وحدة الدم. وينمو الحرص على حماية الوجود البيولوجي للفرد، ويزداد التكالب على جمع الثروات لانها وسيلة الاستمرار الفردي، وضمان الحماية للفرد ولورثته من بطش وعسف الآخرين.

وهكذا تنبت الفردية الذليلة والعدوانية بين افراد لا يفكرون في التضحية ولا الايثار.

وبتفـاقم هذه النفسية يصبح الجمهور على استعداد لتقديم اي تنازلات على حساب كرامته وحريته وحقوقه في سبيل استمراره البيولوجي.

هذا الوضع يخلق امكانية، بل واغراء، بالاستذلال والاستغلال.

ومـع الانقسـام والاستغلال والاستذلال تنشأ الكراهية والوحشية، والعداء المتبادل، ويتربص المحكومون بالحاكمين ويتخوف الحاكمون من المحكومين.

ويلجـأ المستغلون الى حماية استغـلالهم واستمراره، بالقمع والى الاعتماد المتزايد على الجيش المحترف، ويحرصون في الوقت نفسه على تجريد الشعب من كل قدرة على المقاومة، ليس فقط بتحريم حمل السلاح، ومطاردة كل دعوة للقوة، بل والسعي الى افساد الشعب وتمزيق وحدته وتخريب فكره لكي لا يفكر في التحرر من سيطرتهم ويدفعه هذا التفكير الى البحث عن وسيلة لتحقيق هذا التحرر.

وهكذا يدخل المجتمع في حلقة مفرغة لانهاية لها الا بنهاية المجتمع كله :

ضعف الشعب يضاعف شهوة المستبدين في الاستبداد والاستغلال. وزيادة الاستغلال تزيد العداوة، وتعمق الانقسام، ومن ثم يزداد تخوف الحاكمين فيزداد حرصهم على اضعاف الشعب ومع زيادة الضعف تزداد النزعة الاستبدادية تأصلا واستهتارا. . . وهكذا، الى ان يسقط المجتمع كله تحت ضربات جيش محترف اقوى. او يتداعى امام مجتمع جديد ناهض يحمل رسالة ما بصرف النظر عن افضليتها، الا ان ايمانه بهذه الرسالة يخلق في داخله وحدة،

ويدعم الصفات الحربية بين افراده، ويجعل المعركة هي صدام بين امة او مجتمع باكمله وبين طبقة حاكمة مكروهة تسير الى الحرب كارهة، وعيونها على شعبها اكثر مما هي على عدوها، مجتمـع منقسم على نفسـه، جماهيره تخرج الى القتال متثاقلة تحس ان لا ناقة لها في الحرب ولا جمل. . . بل احيانـا تنتـظر في شماتة هزيمة مترفيها، أو يجرهم هؤلاء المترفون الى القتال مقيدين بالسلاسل الى حيث لا ينتظر هم الا الهزيمة المحتومة.

ولمواجهة هذه الظاهرة الحضارية شرع «الجهاد» في ديننا، والزم به كل مسلم ومسلمه كفرض عين «جنس الجهاد». وفرض كفاية من ناحية النوع، ووفقا للظروف التي تواجه المجتمع الاسلامي.

المهم ان الجيش المحترف لا تعرفه الحضارة الاسلامية بل تعرف حضارتنا: الامة المجاهدة.

وامة يؤمن كل فرد فيها، انه مسؤول عن اعلاء كلمة الله، وأنه إن مات من دون ان يغزو او يحدث نفسه بغزو «فقد مات على شعبة من نفاق»، هذه الامة هي في حالة استعداد دائم. استعداد نفسي للقتال والفداء، واستعداد مادي لتبعات هذا القتال.

وواضح ان المقصود «بحديث النفس بغزو» انه الاعداد الحقيقي لهذا الغزو، لا التحدث عنه في الاذاعات، وتلهية القطيع به ، واستجداء التصفيق من الجماهير العاجزة المنزوعة السلاح الراغبة في تشنيف اذانها بالحديث عن النية في الغزو.

هذا الفرد الذي يلتزم بألا يموت الا اذا غزا، او يدركه الموت حتف انفه وهو يعد العدة لهذا الغـزو اعلاء لكلمة الله وليس لأي غرض دنيوي، او منفعة خاصة، هذا الفرد لا يمكن تصور قبوله للذل او الظلم، او سكوته على اعتداء يمس حقوقه.

وهذا المجتمع الذي يعيش بروح الجهاد، ويستعد له، لا يمكن ان ينقسم على نفسه، لا يمكن ان تمزقه احقاد طبقية او انانيات فردية، فليس اقوى من وحدة الدم ـ كما قلنا.

هذا المجتمع، كما قلنا، يستحيل على أية قوة داخلية ان تستبد به، هو ايضا، في عملية نمو حضارية دائمة، بسبب روح الجهاد التي تسيطر عليه والتي تحتم عليه ان يكون متفوقا حضاريا، بكل ما يعنيه التفوق الحضاري تكنولوجيا واجتماعيا.

هذا المجتمع «المجاهد» القوي، المتفوق، قد يخلق بين افراده اغراء بالتوسع. فان القوة تغري دائما باستخدامها، والقدرة تخلق امكانية استغلالها.

لذلك كان هذا التحديد القاطع لطبيعة «الجهاد» بانه ما كان إلا في سبيل الله ولأعلاء كلمته.

فالمسلم يعلم ان القتـال لأي هدف، الا لاعـلاء كلمـة الله، فهو قتال من اجل ما استهدفه، وليس جهادا ولا يثاب المسلم عليه ثواب المجاهدين.

«من جاهد يبتغي عرض الدنيا فلا اجر له» (حديث شريف).

«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» (حديث شريف).

ان المجتمع الاسلامي لا يعرف القتال من اجل التوسع او الاستعمار او الاستغلال او المجال الحيوي، ولكن النقطة الاهم هي انه حتى في حالة الحرب الدفاعية، فان مكانة «الجهاد» الخاصة لا ينالها من يقاتل دفاعا عن الوطن او حماية لنظام او حتى دفاعا عن حياته.

فالوطنية ليست جهادا في سبيل الله، ولكن الجهاد في سبيل الله يحتوي الدفاع عن الوطن، وقد يبدو هذا تناقضا او حتى لعبا على الألفاظ! بل اعترف انني قد غمرتني حيرة عند النظرة الاولى لهذا التأكيد في ديننا على ان «الجهاد» هو ما كان في سبيل اعلاء كلمة الله... ثم هداني الله لروعة القانون السماوي. لأن القتال لأعلاء كلمة الله يتضمن بالتأكيد الدفاع عن الوطن ضد الغزو الخارجي، لأن كلمة الله ترفض الاستعمار. والجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة اذا ما غزيت بلاد المسلمين.

واعلاء كلمة الله يعني اننا مطالبون بتصفية كافة اشكال الاستعمار، وبالدرجة الاولى، ذلك الاستعمار الذي يستهدف بلاد المسلمين، ولكن المكانة الخاصة التي يعطيها الاسلام للمجاهد لا تنطبق على القتال دفاعا عن الوطن... لماذا؟

لكي يبقى للرسالة الاسلامية سموها وانسانيتها، لأن التعبئة الوطنية والاعداد للحرب باسم الوطن بكل ما يحيط بهذه التعبئة من اعداد فكري وعقلي تحمل مخاطر التحول الى شوفينية، الى عداء لأوطان الآخرين، الى الرغبة في عزة وسيادة وطنه على حساب اوطان الآخرين.

وهنا تأتي الحكمة الالهية لتحول دون هذا الانحراف، فتضع الدفاع عن الوطن في اطار اعلاء كلمة الله، ولكنها تستبعد اي نزعات تحركها اهداف او اغراض دنيوية، فمن شاء ان يقاتل عن ماله او عن تراب وطنه فليفعل، وهو يثاب على ذلك في الدنيا والآخرة، لكن المكانة السامية تبقى للمجاهد الذي يقاتل في سبيل الله وحده.

وبذلك يستحيل ان يسخر «الجهاد» لخدمة اهداف عدوانية او توسعية او لاثارة حروب قومية او لارضاء اطماع ومغامرات حاكم، وينزه المجاهد عن اي اطماع ويحميه ضد اي اغراء او انحراف.

ولو تأملنا قليلا لوجدنا انه حتى في ظروفنا هذه، فان المجاهد في سبيل الله وحده هوالمقاتل الصلب الذي لا سبيل الى مساومته او التغرير به او صرفه عن القتال دون النصر النهائي بسحق الصهيونية والاستعمار.

فالمقاتل من اجل ان تسود كلمة الله، لا سبيل الى مساومته، وهو مطالب بأن يكون

شهيدا على الناس... كل الناس... بالحق.

خليفة الله في الارض، لا يجوز له ان يخضع لاية سلطة الا سلطة الله، ومن هنا فان المجتمع الاسلامي لا يتصور وجوده في ظل سلطة غير اسلامية وليس في ذلك ثمة افتئات على أحد، فمن حقنا في بلادنا ان نحكم انفسنا.

(اما في البلاد التي تكفل حرية العقيدة للمسلمين ويشكلون فيها اقلية، فهي بحاجة الى اجتهاد خاص ليس هذا موضعه) [٢]

---

(٢) ولكن يكفي القول بأن كتب الفقه قد خلت تقريبا من التشريعات التي تنظم سلوك الاقليات المسلمة في اوطان غير اسلامية الأغلبية والسلطة. وكان هذا طبيعيا وان لم نقل صحيحا لعاملين: انه لم يكن يتصور خضوع بلد اسلامي لسلطة غير مسلمة في عهد الانتصارات والفتوح والتشريع.. والعامل الثاني هو ان العالم غير الاسلامي لم يكن يتيح فرصة المساومة او الاختيار امام تلك الاقليات بل كان يبادر بابادتها أو دفعها للهجرة. فكانت «دار الاسلام» تتسع دائما لاستقبال «المهاجرين» (وذلك الى ما بعد القضية الفلسطينية بقليل عندما أنعم عليها العرب بصفة العروبة، ليضيقوا ذرعا باللجوء المؤقت للفلسطينيين).

ولا تنسى تأثير «الهجرة» الاولى في التراث الاسلامي، مما جعلها «محببة» للمهاجرين الجدد، رغم الحديث الصحيح «لا هجرة بعد الفتح» ورغم ان هذا اللجوء يعتبر في معظم الحالات «تولية الادبار». غير ان العالم وقتها كان ينقسم الى اديان وليس قوميات، ومن ثم كان من السهل الهجرة الى جزء آخر من الوطن الاسلامي، والعيش فيه دون احساس بغربة، وحتى دون احساس بتخلٍ عن الوطن. وآخر الهجرات الاسلامية هي هجرة المسلمين من الاتحاد السوفياتي في العقدين الثاني والثالث من هذا القرن. وقد ادى هذا المفهوم مع اسلوب الابادة الصليبي الذي اتبعه الغزاة، الى تحول بلاد كاملة من الاسلام للمسيحية في فترات مدهشة في قصرها.. وذلك لأن السكان المسلمين أبيدوا أو هاجروا، وليس لأنهم تنصروا.. من يتأمل اسبانيا والبرتغال ومعظم دول البلقان وكريت وصقلية بل وقبلهم جنوب فرنسا وجنوب ايطاليا.. الخ..

يتمنى لو أن الفكر الاسلامي استطاع ان يجد وسيلة لابقاء المسلمين في تلك البلاد. حتى وان عجز عن حمايتهم اواثارة روح الجهاد فيهم. ولكن الاسلام لا يعرف من المؤسسات التي تقوم بهذا الدور الا الدولة، فلما سقطت هذه، تفرق المسلمون وتبددوا كأفراد.. وتلك قضية اخرى. مع التركيز على المخطط الوحشي الواعي الذي نفذه الصليبيون لابادة المسلمين.

ولاشك ان الظروف الان تغيرت، واصبح من الممكن الان ان تنجو الاقليات المسلمة من الابادة في بعض الدول غير المسلمة، ومن ثم لابد من الاجتهاد لهم، حتى يمكنهم المحافظة على دينهم، وكيانهم، وذاتيتهم.. ومن يدري فقد يمكنهم يوما، تحويل المجتمعات التي ينتمون اليها الى الاسلام..

من الذي اجتهد للمسلم الاميركي؟ كيف يحرم على نفسه ما احله الله، وكيف يتجنب ما أحله القانون الاميركي مما حرمه الله؟ كيف يتعامل مع البنوك، والى اي مدى يكون ولاؤه للدولة غير المسلمة.. وماذا يفعل مع فتاوي المودودي وسيد قطب التي تقول أنه لا يجوز ان يخضع المسلم لتشريع من صنع الانسان..

فهل يعلن المسلمون البريطانيون والفرنسيون والهنود رفضهم للنظام والتشريعات حتى ولو لم يكن فيها ما يمس دينهم أو مصالحهم؟!.. المودودي جزم بأنه لا يمكن للمسلم ان يخضع لحكومة غير مسلمة.. فهل هذا قرار بتكفير ستين مليون مسلم هندي؟! أم هل من مصلحة الاسلام والمسلمين ان يهاجر هؤلاء الى باكستان التي فشل فقهاؤها في اقناع شعبها بأولوية الرابطة الدينية، فكان ان انقسمت هي وليس الهند كما كانوا يتوقعون؟

المطلوب الآن اجتهاد ينظم حياة الاقليات المسلمة... فهل اجتهدنا اكثر من جوزالاستنجاء بالورق ومحلات اللحم الحلال التي يديرها الباكستانيون واليهود؟ يجب دراسة كل التجارب التي شهدت حياة اقليات مسلمة في دول سلطتها غير مسلمة.. كيف تعامل المسلمون في مكة مع مؤسسات المجتمع؟.. مع الأخذ في الاعتبار انه لم تكن هناك دولة اسلامية في مكة، ولا كان الجهاد قد شرع بعد، ولا سلطة اسلامية، بل ولا قضاء اسلامي.

وذلك المفهوم يضعنا في الصف الاول للحركة الوطنية، اذ يحتم علينا ديننا تحرير الارادة الاسلامية من السيطرة الاستعمارية التي هي بكافة اشكالها غير اسلامية.

فنحن ضد الغزو الصهيوني. ونحن ضد الامبريالية الغربية بجميع فروعها من الاميركية الى البرتغالية، ونحن ضد التسلط الشيوعي.

وليست ظاهرة العداء حتى الابادة، التي تشكل علاقة المسلمين الآن بالشيوعية، ظاهرة تنفرد بمعاناتها التوسعية الشيوعية، فان المتتبع لتاريخ الاستعمار الغربي، سيجد ان المقاومة الحقيقية التي واجهته، كانت مقاومة اسلامية، وان الحركة الوطنية في اسيا وافريقيا التي تستحق هذا الاسم حتى نهاية القرن التاسع عشر، كانت تنطلق من هذا المفهوم الاسلامي، استحالة الخضوع لسلطة غير اسلامية. وتحتوي في داخلها طبعا العديد من الدوافع والتناقضات الاخرى.

ولا يعقل ان يؤمن المسلمون انهم خلفاء الله في الارض، ثم يقبلوا او يتصوروا انهم سينهضون بمسؤولية الخليفة في ظل تسلط احتلال اميركي او صهيوني او شيوعي او انكليزي... الخ.

ان خليفة السيد البدوي لا يستطيع ان يقوم باستعراضه في حرية تامة في ظل هذه السيطرة، فماذا عن خليفة الله سبحانه وتعالى في الكون كله؟!

المسلم الذي يسكت على الاحتلال الاجنبي او السيطرة الاستعمارية على بلاد المسلمين، هو مسلم قد تخلى عن عقيدته، ورضي بأن يكون من المستضعفين في الارض، الظالمين انفسهم.

وجهة نظرنا اذن في فلسفة «الجهاد» أنه ليس حرباً صليبية أو تبشيرية تستهدف «هداية» الجنس البشري ولا تحريره، بل هو رسالة المسلمين لحماية حرية الاختيار، حماية التعدد والتميز، التصدي لمحاولات فرض العقيدة أو النظم بالقوة على الناس. وهذا الرأي يتعارض تماما مع ما دعا إليه «المودودي» و «سيد قطب» رحمها الله.

▶ كذلك يجب دراسة وضع المسلمين في الحبشة مع الأخذ في الاعتبار انهم لم يكونوا مواطنين بل لاجئين سياسيين أو دينيين. ولكن الى اي مدى خضعوا لتشريعات الدولة الاسلامية عندما قامت في المدينة، والى أي مدى تعاملوا مع الدولة الحبشية وتشريعاتها، ونحن نعرف انهم رفضوا القول بأن المسيح ابن الله، واعلنوا النص القرآني في اجتماع البلاط المشهور، وفصلوا الزوجة المسلمة عن زوجها الذي أرتد..

كذلك يجب دراسة تجربة المسلمين في الشام في ظل الاحتلال الصليبي مع الأخذ في الاعتبار ان الغزوة الصليبية كانت احتلالا لبلاد المسلمين، ومن ثم فان الموقف المنتظر هو رفض السلطة ومقاومتها بكافة الاساليب حتى يتحرر الوطن.

كذلك يجب دراسة تجربة المسلمين الرواد الذين دخلوا كافراد في آسيا وافريقيا، ونجحوا في تحويل شعوبها الى الاسلام بدون فتح ولا دولة اسلامية.. ماذا كان سلوكهم خلال فترة الدعوة..؟

من هذه السوابق وغيرها مما لم يسعنا حصره.. يمكن الوصول الى اجتهاد بنظم حياة الاقليات الاسلامية.

وما سأتناوله هنا بالنقاش، هو كتيب أصدرته «الجماعة الاسلامية بكلية طب القاهرة» وأعيد طبعه من قبل اتحادات الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وغيرها، عن الجهاد. وهو يضم اراء حسن البنا وسيد قطب و «ابو الاعلى المودودي».

وقد جاء في المقدمة، ان الله سبحانه وتعالى قد ألقى على أمته «تبعة الوصاية على البشرية والقيادة لسائر الامم» واستشهدت بالآية الكريمة: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله). ثم ربط الكاتب هذه المسؤولية، أو قل رتب عليها حتمية الجهاد «فمن الطبيعي بل من المحتم لأمة اجتباها الله لهذا الدور وناط بها تلك المهمة ان تكون أمة مجاهدة، فانه لا يضطلع بهذه الرسالة الا المجاهدون».

ولخصت المقدمة جوهر الفكرة عن قطب والمودودي، وهي ضرورة ان يخضع الجنس البشري لحكومة اسلامية، حتى تتاح فرصة الاختيار الحر أو حتى يتحقق المبدأ الاسلامي «لا اكراه في الدين». بيد انه لابد وان يقيم نظامه، اذ انه لا يمكن ان يتوفر مناخ الحرية. حرية اختيار العقيدة، وحرية اداء المناسك، والتحرر من التعبد للبشر الا في ظل هذا النظام، وبذلك تؤمن الفتنة، ويأمن الناس على دمائهم وأموالهم واعراضهم ايا كانت معتقداتهم وبذلك تتحقق الغاية من الجهاد في سبيل الاسلام. «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله» وايضا حتى تكون «كلمة الله هي العليا».

واستشهدت المقدمة على صحة هذه الفرضية، وأعني بها مسؤولية المسلمين عن «اخضاع» أقصد «تحرير» الجنس البشري باخضاعه «للحكومة الاسلامية» بان «المسلمين كانوا يعرضون على اعدائهم عرضين قبل ان يبدؤوهم بقتال: الاول ان يدخلوا في الاسلام فان فعلوا فاخوانهم في الدين. والثاني ان يؤدوا الجزية ان رفضوا الاسلام، وعندئذ فعليهم الا يعترضوا سبيل الدعوة، فان قبلوا كف المسلمون أيديهم عنهم. وان أبوا فلا يفل الحديد الا الحديد».

فاذا انتقلنا الى الرسائل ذاتها، التي لخصتها المقدمة مبتدئين بالمودودي، نجد انه بنى نظريته في الجهاد على أساس رفض القاموس الانكليزي، فالاسلام - كما يراه - «ليس نحلة ولا مذهبا (Religion) ولا المسلمون قومية (Nation). فالمذهب أو النحلة على حسب الاصطلاح الشائع عندهم لا يراد بها الا مجموعة من العقائد والعبادات والشعائر، ولا جرم ان النحلة بهذا المعنى لا تعدو ان تكون مسألة شخصية فأنت حر فيما تختاره من العقيدة، ولك الخيار في ان تعبد بأي طريقة شئت من رضيت به رباً لنفسك، وان أبت نفسك الا التحمس لهذه النحلة والانتصار لعقيدتها فلك ان تخترق الأرض وتجوب بلاد الله الشاسعة داعيا إلى عقيدتك فيها بمرهفات الألسنة وأسنة الاقلام. أما السيف والات الحرب والقتال فما لك ولها في هذا الشأن؟ أتريد ان تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين بعقيدتك؟ وان كان

الاسلام نحلة كنحل العالم، على حسب الاصطلاح الشائع عندهم كما يزعمون، فالظاهر انه لا شأن فيه للسيف وأدوات الحرب كما قالوا. ولو كان الاسلام في نفس الامر، كما زعموا ووصفوا، لما كان فيه مساغ للجهاد، ولم يكن من الاسلام في شيء، ولكن الامر على خلاف ذلك كما سوف تعرفه فيما يأتي من بيان» ١ هـ.

ولا أدري ما هو الأساس في ذلك الفرز للاسلام من بين الاديان والمذاهب والنحل، ولا ما هو الأساس اللغوي أو الفقهي في ترجمة (Religion) على انها نحلة ومذهب وليست الدين. والله سبحانه وتعالى يقول انه سيظهر الاسلام «على الدين كله» أي اعتبر «النحل والمذاهب» الاخرى «دينا». (وشرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه). فالله سبحانه وتعالى يعرفنا ان ما وصى به ابراهيم وموسى وعيسى، هو عين ما وصى به محمدا، وهو اقامة «الدين»، فما هو الاساس في نظرية المودودي غفر الله له؟

بل ان الله سبحانه وتعالى يصف عقيدة الكافرين «بالدين»: (لكم دينكم ولي دين). (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه). فهو «دين» وان كان غير مقبول. (ومن احسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) فالاسلام هو أحسن دين بين «الأديان» (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم) ويقول سبحانه عن أهل الكتاب (وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون)، (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء). فاليهودية والمسيحية «دين» بشهادة الله عز وجل، بل حتى فرعون يتحدث عن دين قدماء المصريين عبدة العجل والقط فيقول: (اني اخاف ان يبدل دينكم).

بل ليس في اللغة، ولا في القرآن هذه التفرقة بين الدين والملة التي تجعل المودودي يعقد تلك المقارنة الساخرة بينهما.

فالله يأمر رسوله ان يدعو للاسلام قائلا: (قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم دينا قيما ملة ابراهيم حنيفاً) (اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون، واتبعت ملة ابائي ابراهيم واسحق ويعقوب). فلا فرق من الناحية اللغوية بين «ملة» الكافرين و «ملة» ابراهيم واسحق ويعقوب وانما الفرق في المحتوى والمنهاج والأسس. الخ.

(ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين).

على ان أخطر ما في هذه «التخريجة» هو قصره الدعوة بالحجة والبيان على الملل والمذاهب، والسيف وآلات الحرب على الدين الذي هو الاسلام. مع ان واقع التاريخ يؤكد ان كل المذاهب والملل استخدمت السيف في ابادة المخالفين، ومعظمها استخدم السيف في «هداية» الضالين. الا الاسلام الذي يرفض رفضا قاطعا «هداية» أحد بالسيف. ولكن الصيغة التي طرحها المودودي تجعل كل المذاهب تعتمد الحجة والمنطق وحدها الا الاسلام

فيعتمد السيف!!

كذلك خلص الاستاذ المودودي الى ان «الأمة» بالمفهوم الحديث أي المحدد بتواجد صفات مشتركة، لا يعطيها الا حق الدفاع عن النفس، وبالتالي فلا مكان للجهاد اذا ما قبل مفهوم الأمة في القاموس الانكليزي. ولخص ذلك بقوله:

«فان كان الاسلام نحلة كالنحل الاخرى، والمسلمون أمة كغيرهم من أمم العالم، فلا جرم ان «الجهاد» الاسلامي يفقد بذلك جميع المزايا والخصائص التي جعلته رأس العبادات، ودرة تاجها. لكن الحقيقة ان الاسلام ليس بنحلة كالنحل الرائجة، وان المسلمين ليسوا بأمة كأمم العالم، بل الامر ان الاسلام فكرة انقلابية ومنهاج انقلابي يريد ان يهدم نظام العالم الاجتماعي بأسره، ويأتي بنيانه من القواعد، ويؤسس بنيانه من جديد حسب فكرته ومنهاجه العلمي. ومن هنا نعرف ان لفظ «المسلم» وصف للحزب الانقلابي العالمي الذي يكونه الاسلام، وينظم صفوفه ليكون اداة في احداث ذلك البرنامج الانقلابي الذي يرمي اليه الاسلام، ويطمح اليه ببصره. والجهاد عبارة عن الكفاح الانقلابي، عن تلك الحركة الدائبة المستمرة التي يقوم بها للوصول الى هذه الغاية وادراك هذا المبتغى».

ويستنتج من نحت الاسلام لفظة «الجهاد» انه يستبعد «الحرب» التي لا تعدو ان تكون مجرد أغراض شخصية أو اجتماعية، لا تكون فيها رائحة لفكرة أو انتصار لمبدأ. فان الاسلام لا ينظر الى مصلحة أمة دون أمة، ولا يقصد الى نهوض شعب دون شعب، وكذلك لا يهمه في قليل ولا كثير ان تملك الأرض وتستولي عليها هذه المملكة أو تلك، وانما تهمه سعادة البشر وفلاحهم: وله فكرة خاصة ومنهاج عملي مختار لسعادة المجتمع البشري والصعود به الى معارج الفلاح. ويخلص من ذلك الى القول:

«فكل حكومة مؤسسة على فكرة غير هذه الفكرة، ومنهاج غير هذا المنهاج، يقاومها الاسلام ويريد ان يقضي عليها قضاء مبرما، ولا يعنيه في هذا الصدد أمر البلاد التي قامت فيها تلك الحكومة غير المرضية أو الامة التي ينتمي اليها القائمون بامرها، فان غايته، استعلاء فكرته وتعميم منهاجه، واقامة الحكومات وتوطيد دعائمها على اساس هذه الفكرة وهذا المنهاج، بصرف النظر عن من يحمل لواء الحق والعدل بيده ومن تنتكس بذلك راية عداوته وفساده. والاسلام يتطلب «الارض» ولا يقنع بقطعة او بجزء منها، وانما يتطلب ويستدعي المعمورة الارضية كلها، ولا يتطلبها ليستولي عليها، وتستبد بمنابع ثروتها امة بعينها تنتزع من أمه أو أمم شتى بل يتطلبها الاسلام ويستدعيها ليتمتع الجنس البشري باجمعه بفكرة السعادة البشرية، ومنهاجها العملي اللذين اكرمه الله بهما وفضله بهما على سائر الاديان والشرائع، وتحقيقا لهذه الغاية السامية يريد الاسلام ان يستخدم جميع القوى والوسائل التي يمكن استخدامها لاحداث انقلاب عام شامل. ويبذل الجهد المستطاع

للوصول الى هذه الغاية العظمى. ويسمى الكفاح المستمر واستنفار القوى البالغ واستخدام شتى الوسائل المستطاعة «بالجهاد». فالجهاد كلمة جامعة تشتمل جميع انواع السعي وبذل الجهد. فاذا عرفت هذا فلا يعجبك (كذا) اذا قلت: ان تغيير وجهات نظر الناس وتبديل ميولهم، ونزعاتهم، واحداث انقلاب عقلي وفكري، بواسطة مرهفات الاقلام نوع من انواع «الجهاد» كما ان القضاء على نظم الحياة العتيقة الجائرة بحد السيوف وتأسيس نظام جديد على قواعد العدل والنصفة ايضاً من أصناف الجهاد، وكذلك بذل الاموال وتحمل المشاق ومكابدة الشدائد ايضا فصول وأبواب مهمة من كتاب الجهاد العظيم».

ولا أظن ان الرجل قد قصر في توضيح تصوره، وحق لاتحاد الطلبة ان يستنتج في مقدمته ان الله قد عين المسلمين «أوصياء على الجنس البشري» بمفهوم السلطة. فمفهوم الجهاد عند المودودي، هو تنفيذ أو ممارسة هذه الوصاية، بتحطيم جميع الحكومات والانظمة غير الاسلامية في العالم كله، وفرض الحكم الاسلامي محلها في كل المعمورة «ليتمتع الجنس البشري بأجمعه» بالاسلام.

وهو مفهوم، لا يختلف عن مفهوم «العالمية» في ما سبق ولحق من أديان أوملل أو حركات امبراطورية ومذهبية، من عهد الاسكندر المقدوني الذي اراد ان يتمتع الجنس البشري بمزايا الحضارة الاغريقية، فانطلق يحطم النظم «البربرية»، الآسيوية والافريقية ويقلب الحكومات ويعيد تشكيل العالم على اساس الفلسفة الاغريقية والنظم الاغريقية. ثم تطوى صفحته الامبراطورية الرومانية، التي بدورها حملت الادعاء نفسه، وهو اسعاد الجنس البشري، بادخاله في اطار موحد واخضاعه لحكومة واحدة، ولنظام واحد هو القانون الروماني. ثم جاءت الكنيسة بشعار: «اجبروهم على الدخول في ملكوت الله، كنيسة واحدة ورب واحد امين». وكان ما كان من اضطهاد ومذابح، حتى حرر الاسلام، المسيحيين الشرقيين منها. وورثت المفهوم نفسه، الحضارة الغربية الرأسمالية، والحضارة الغربية الشيوعية. فكل منها تؤمن بتحرير العالم «القديم»، دكه من القواعد، واعادة صياغته وفقا لنموذجها الخاص حتى يمكن ان تتمتع البشرية «جمعاء» بما امتاز به نظامها من فضائل وخصائص «السعادة البشرية» وكلها لا تقنع الا «بالارض» كلها.

ويخيل اليك ان المودودي في صراعه مع الشيوعيين قد اقتبس بعض شعاراتهم، فهو يعود ليؤكد ان هدف الجهاد هو: «القضاء على النظم البالية وتكوين نظام جديد حسب الفكرة الاسلامية». «أما القتال في سبيل الله، فهو الذي غايته ان يرفرف لواء القانون الالهي العادل على العالمين، وتعلو كلمته في الدنيا، بحيث يتبع المقاتل في سبيل الله ذلك القانون العدل بنفسه. كذلك يحمل غيره من افراد البشر على اتباعه وامتثال أوامره».

وهو قول نرفضه رفضا تاما، فنحن لا نحمل غير المسلمين من افراد البشر على اتباع وامتثال اوامر الاسلام.

والمودودي كثير الاعتزاز بتعريفه «الانقلابي» فيعود اليه: «لكن المسلمين - أي الحزب الانقلابي - الذي يدين بالاسلام ويؤمن بمبادئه الانقلابية» ثم ينطلق لشرح «دعوة الاسلام الانقلابية». ومن حديثه يفهم انه كان يحاور الشيوعيين ومن ثم اراد التفوق عليهم في قضية الثورة العالمية فهو يقول:

لباب دعوة الاسلام الانقلابية وجوهرها، انها لا تخاطب سكان هذه الكرة باسم العمال أو الفلاحين أو الملاكين أو المتمولين من أصحاب المعامل والمصانع ولا يسميهم بأسماء أحزابهم أو طبقاتهم، وانما يخاطب الاسلام بني ادم كافة».

«ولا يغيبن عن بالكم ان دعوة الاسلام الى التوحيد وعبادة الله الواحد، لم تكن قضية كلامية أو عقيدة لاهوتية فحسب، شأن غيره من النحل والملل، بل كانت دعوة الى انقلاب اجتماعي ارادت ان تقطع دابر الذين تسنموا ذروة الالوهية واستعبدوا الناس بحيلهم ومكايدهم المختلفة». «كانت نداء لانقلاب اجتماعي عالمي. ما كانت بوادره لتخفي على المستأثرين بمناصب العز والجاه، المستبدين بمنابع الثراء من الذين يشمون رائحة الاضطراب السياسي قبل حدوثه بأعوام».

فهذه الدعوة الانقلابية، عند المودودي، موجهة بالذات ضد الطبقات الحاكمة «ممن تبوأوا مناصب السدنة والكهان، ومن استأثر بالملك والامرة، ومن استبد بمنابع الثروة». وهؤلاء هم الذين يحسون ويترصدون ويتوقعون الاضطرابات السياسية».

ويستمر المودودي في مجادلة الشيوعيين، فيميز الاديان، التي صنفها كلها في اطار «الانقلابية»، يميزها من الحركات الانقلابية البشرية، بعجز هذه الحركات عن الوصول الى هدف العدل الاسمي «فبينما تراهم يعطفون على طبقة ويبدون لها عواطف الولاء والمناصرة اذا بهم يرمون طبقة اخرى بعين الغضب والازدراء». أما رسل الله الكرام «فينظرون الى جميع المسائل ومشاكل الحياة الدنيا بعين الانسانية الخالصة النقية».

«الاسلام ليس مجرد مجموعة من العقيدة الكلامية، وجملة من المناسك والشعائر، كما يفهم من معنى الدين في هذه الايام. بل الحق انه نظام كلي شامل».

يقول: «يريد (أي الاسلام) ان يقضي على سائر النظم الباطلة الجائرة الجارية في العالم ويقطع دابرها ويستبدل بها نظاما صالحا ومنهاجا معتدلا، يرى انه خير للانسانية من النظم الاخرى، وان فيه نجاه للجنس البشري من أدواء الشر والطغيان وسعادة له وفلاحا في العاجلة والآجلة معاً».

«فكل من آمن بهذه الدعوة وتقبلها بقبول حسن يصير عضوا في «الجماعة الاسلامية» أو

«الحزب الاسلامي» وما ان يتكون هذا الحزب حتى يبدأ بالجهاد في سبيل الغاية التي انشيء لاجلها، فمن طبيعته، وبما يستدعي وجوده، ان لا يألو جهدا في القضاء على نظم الحكم التي أسس بنيانها على غير قواعد الاسلام واستئصال شأفتها، وان يستنفذ مجهوده في ان يستبدل بها نظاما للعمران والاجتماع معتدلا مؤسسا على قواعد ذلك القانون الوسط العدل الذي يسميه القرآن الكريم «كلمة الله». فان لم يبذل هذا الحزب الجهد المستطاع، ولم يسع سعيه وراء تغيير نظام الحكم واقامة نظام الحق، نظام الحكم المؤسس على قواعد الاسلام، ولم يجاهد حق جهاده في هذه السبل، فاته غايته وقصر على تحقيق البغية التي انشيء لأجلها».

فهو «حزب انشأه الله ليحمل لواء الحق والعدل بيده ويكون شهيدا على الناس. ومن مهمته التي القيت على كاهله، من أول يوم، ان يقضي على منابع الشر، والعدوان، ويقطع دابر الجور والفساد في الارض والاستغلال الممقوت، وان يكبح جماح الالهة الكاذبة، ويستأصل شأفة ألوهيتهم ويقيم نظاما للحكم والعمران يتفيأ ظلاله القاصي والداني والغني والفقير. فيتبين من كل ذلك ان هذا الحزب لابد له من امتلاك ناصية الامر ولا مندوحة له من القبض على زمام الحكم، لان نظام العمران الفاسد لا يقوم الا على اساس حكومة مؤسسة على قواعد العدوان والفساد في الارض، وكذلك ليس من الممكن ان يقوم نظام للحكم صالح ويؤتي أكله الا بعدما ينتزع زمام الامر من أيدي الطغاة والمفسدين ويأخذه بأيديهم رجال يؤمنون بالله واليوم الآخر ولا يريدون علوا في الارض ولا فساداً».

وهو يؤكد ان المسلم يستحيل عليه العيش في ظل حكم غير اسلامي، حتى وان نال حرية ممارسة العبادات. «فالمسلم ان اراد ان يقضي حياته مستظلا بنظام للحكم مناقض لمبادىء الاسلام الخالدة، وبوده ان يبقى مستمسكا بمبادىء الاسلام، سائرا وفق مقتضاه في اعماله اليومية، فلن يتسنى له ذلك، ولا يمكنه ان ينجح في بغيته ابدا، لان القوانين التي يراها باطلة والضرائب التي يعتقدها غرما ونهبا لاموال الناس والقضايا التي يحسها جائرة عن الحق وافتئاتا على العدل، والنظم التي يعرف انها مبعث الفساد في الارض، ومناهج التعليم التي يجزم بوخامة عاقبتها ومسيطرة على بيئته واهله واولاده، بحيث لا يمكنه ان يتخلص من قيودها وينجو بنفسه واهله من اثرها ونفوذها. فالذي يؤمن بعقيدة بنظام، فردا كان أو جماعة، مضطر بطبيعة عقيدته وايمانه بها ان يسعى سعيه في القضاء على نظم الحكم القائمة على فكرة غير فكرته ويبذل الجهد المستطاع في اقامة نظام للحكم مستند الى الفكرة التي يؤمن بها، ويعتقد ان فيها سعادة للبشر، لانه لا يتسنى له العمل بموجب عقيدته والسير على منهاجها الا بهذا الطريق. اذا رأيت رجلا لا يسعى وراء غايته أو يغفل عن هذا الواجب، فاعلم انه كاذب في دعواه ولما يدخل الايمان في قلبه». «فان الذي يذعن لنظم

الحكم القائمة على فكرة غير الفكرة التي يؤمن بها، كانه يعلن للناس انه كاذب في دعواه غير مخلص في عقيدته».

ولا جدال في اسلامية وثورية ووطنية هذا الفكر في ١٩٣٩ حيث المسلم الهندي مطالب بالثورة على نظام الحكم الاستعماري. ولاشك ان هذا الفكر هو الذي شكل الاساس النفسي والسياسي والعقائدي لفكرة «باكستان». أي حتمية انفصال المسلمين بدولة، مادام لا يمكنهم حكم الهند كلها، وما ترتب على ذلك من اثار بالنسبة لدور الاسلام في شبه القارة الهندية. ولكن ليست هذه هي القضايا التي نعالجها هنا، وانما الذي يعنينا هو الفقرة التالية مباشرة التي اكد فيها المودودي ان القضية التي يطرحها ليست قضية هندية، أو نابعة من ظروف المكان والزمان باعتباره مجاهدا هنديا مسلما، يعيش في ظل الهيمنة الاستعمارية البريطانية. ولا حتى هي قضية كل الشعوب المسلمة الخاضعة لحكم الاجنبي، أو لنظم غير اسلامية، بل يؤكد ان الانقلابية أو الثورة العالمية هي الهدف الذي سن الجهاد من اجله، فيقول تحت عنوان: «الانقلاب العالمي الشامل»: «لعلك تبينت مما أسلفنا انفا ان غاية الجهاد في الاسلام، هو هدم بنيان النظم المناقضة لمبادئه واقامة حكومة مؤسسة على قواعد الاسلام في مكانها واستبدالها بها. وهذه المهمة، مهمة احداث انقلاب اسلامي عام، غير منحصره في قطر، بل ما يريده الاسلام ويضعه نصب عينيه ان يحدث هذا الانقلاب الشامل في جميع انحاء المعمورة».

«هذه هي غايته العليا، ومقصده الاسمى الذي يطمح اليه ببصره، الا انه لا مندوحة للمسلمين أو أعضاء الحزب الاسلامي، عن الشروع في مهمتهم باحداث الانقلاب المنشود والسعي وراء تغيير نظم الحكم في بلادهم التي يسكنونها، أما غايتهم العليا وهدفهم الاسمى فهو الانقلاب العالمي الشامل المحيط بجميع انحاء الارض».

ويقول ان النظام الاسلامي لا يمكن ان يستقر ويأمن في بلد واحد (وهو ما ذهب اليه تروتسكي في خلافه مع ستالين) «ومن اجل ذلك وجب على الحزب المسلم، حفظا لكيانه وابتغاء للاصلاح المنشود ان لا يقنع باقامة نظام الحكم الاسلامي في قطر واحد بعينه، بل من واجبه الذي لا مناص له منه بحال من الاحوال ان لا يدخر جهدا في توسيع نطاق هذا النظام وبسط نفوذه في مختلف ارجاء الارض».

الفكرة واضحة كل الوضوح. الاسلام حزب انقلابي هدفه تقويض جميع النظم غير الاسلامية في العالم كله، واقامة الحكم الاسلامي في جميع الاقطار ومن دون الاعتراف بحدود اقليمية أو قومية أو جغرافية، انطلاقا من مسؤولية تحرير الجنس البشري، أو الانقلاب العالمي، ولحماية النظام الاسلامي القائم في رقعة معينة. لانه يستحيل التعايش مع اختلاف الأنظمة، ومن ثم فلابد من تصدير الثورة، أو الانقلابية الاسلامية لتأمين

الحدود، فهذه هي «الخطة التي سلكها، وهذا هو المنهاج الذي انتهجه النبي صلى الله عليه وسلم ومن جاء بعده وسار بسيرته من الخلفاء الراشدين».

ورغم ان الفقهاء من البداية قسموا الجهاد الى فرض عين وفرض كفاية، اي الجهاد الدفاعي عندما يهدد العدو ديار المسلمين، والجهاد الهجومي الذي يشنه المسلمون ابتداء ودونما خطر مباشر على دولتهم، الا ان المودودي يرفض ذلك ويقول: «لا مساغ لتقسيم الجهاد الى الهجومي والدفاعي، فذلك لا يصح اطلاقه على الجهاد الاسلامي البتة، وانما يصدق هذا المصطلح على الحروب القومية والوطنية فقط. لان هاتين الكلمتين المصطلح عليهما لا ينطق بهما وما جرى استعمالهما الا بالنسبة الى قطر مخصوص أو أمة بعينها واما اذا قام حزب عالمي مستند الى فكرة انقلابية شاملة لا تفرق بين امة ولا تخص قطرا دون قطر، ويدعو جميع الامم والشعوب على اختلاف اجناسها ولغاتها الى فكرته ومنهاجه، مفتوحة ابوابه لكل من يريد المشاركة في بث تلك الدعوة، ونشر تلك الفكرة، ولا يسعى الا وراء القضاء على الحكومات الجائرة، المناقضة لمبادىء الحق الخالدة واقامة حكومة صالحة مؤسس بنيانها على قواعد الحق والعدالة التي يؤمن بها ويدعو اليها. اما اذا كان الامر كذلك فلا مجال في دائرته البتة لما اصطلحوا عليه من نوعي القتال، الهجومي والدفاعي، وكذلك اذا نظرنا في المسألة بصرف النظر عن هذا المصطلح الشائع، تبين لنا انه لا ينطبق هذا التقسيم - الهجومي والدفاعي - على الجهاد الاسلامي بحال من الاحوال، فان الجهاد الاسلامي، اذا أردت الحقيقة، هجومي ودفاعي معا، هجومي لان الحزب الاسلامي، يضاد ويعارض الممالك القائمة على المبادىء المناقضة للاسلام، ويريد قطع دابرها، ولا يتحرج في استخدام القوى الحربية لذلك». وينفي ان يكون هدف «الحزب» اي الاسلام اكراه المخالفين على ترك عقيدتهم «وانما يريد الحزب الاسلامي ان ينتزع زمام الامر ممن يؤمنون بالمبادىء والنظم الباطلة حتى يستتب الامر لحملة لواء الحق ولا تكون فتنة ويكون الدين كله لله».

والتناقض واضح طبعا بين فكرة حرية العقيدة، واشتراط الاستيلاء أو احتكار السلطة، ونرى هذا في موقفه من قضية الاقليات أو غير المسلمين، أهل الذمة. فهو يعطيهم كل الحريات، الا حرية ممارسة الحكم وممارسة الشعائر المخالفة للاسلام. فهو يقول: «فالجهاد الاسلامي.. لا يتعرض لعقائد الناس ومناسكهم أو مناهج شؤونهم الاجتماعية التي اختاروها وأثروها لانفسهم، فلهم الخيار في ان يدينوا بما شاؤوا من العقائد ولهم الحرية التامة في ان يختاروا ما استحسنوه من المناهج، ولكنه لا يرضى ان تكون لهم الحرية في تسيير دفة الحكم على منهاج ما أنزل الله به من سلطان». ولكنه لا يتوقف عند قضية السلطة، بل يتوسع: «كذلك لا يسمح لهم ولا يعترف لهم بحق في ان تسير عقودهم ومعاملاتهم في دائرة المملكة الاسلامية على الطرق الفاسدة التي هي شر على المجتمع، وفيها خراب

العمران، وان كانوا قد تعودوها من قبل». «فالمملكة الاسلامية حفظا لمصالح المجتمع البشري وسعادته، بل ضناً بكرامتها، وحرصا على المحافظة على خصائصها ومقوماتها، لا تسمح لرعيتها من غير المسلمين ان يجروا على سننهم وتقاليدهم التي يعدها الاسلام خطرا على المجتمع، وان امكن ان لا يكون فيها غضاضة في شرائعهم ولا يجدون في انفسهم حرجا من التعامل بها حسب عاداتهم وتقاليدهم.

هذا عن غير المسلمين داخل «المملكة» الاسلامية، ولم يجد ما يبرر به هذا التدخل في معتقدات غير المسلمين، الا بان النظم الاخرى كانت اكثر سوء في معاملة الاقليات. وسناقش رأيه في قضية اهل الذمة، أو الاقليات غير المسلمة في الدول الاسلامية عندما ناقش كتابه «حقوق أهل الذمة». ولكن نلخص هنا رأيه في قضية الجهاد، أو عالمية الدعوة الاسلامية في الآتي:

١- المسلمون أوصياء على الجنس البشري، يحملون تكليفا الهيا بتحريره.

٢- الاسلام حزب انقلابي هدفه قلب نظام الحكم في الكرة الارضية جمعاء، واقامة حكومة اسلامية تحكم الجنس البشري كله، او تخضع هذا الجنس لحكم الله.

٣- الجهاد هو الوسيلة لتحقيق هذا الهدف.

٤- وهذا الجهاد هو فرض عين على كل مسلم، ولا يحتاج لعدوان او استفزاز من قبل الحكومات غير الاسلامية. بل هو من صميم الرسالة وضرورات امن «المملكة» الاسلامية.

ثم ننتقل الى سيد قطب رحمة الله عليه، فنجد انه قد ترجم وتوسع في شرح أفكار المودودي مع اعطائها نكهة تعكس نفسية الحركة الاسلامية في مصر في تلك الفترة.

بدأ «سيد قطب» بحثه بتطور الامر بالقتال كما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، مستشهدا بابن القيم الذي أورده في باب بعنوان «فصل في ترتيب هديه مع الكفار والمنافقين من حيث بعث الى حين لقي الله عز وجل».

وقد استعرض ابن القيم تطور احكام القتال كما نزلت تاريخياً، وخلص الى استقرار وضع النبي أو الدولة الاسلامية في علاقاتها مع العالم الخارجي، الى ما يشبه وضع سائر الدول في الظروف الطبيعية. فصار أهل الارض معه ثلاثة أقسام:

١- مسلم مؤمن به.

٢- مسالم له آمن.

٣- خائف محارب.

وهو وضع لا نرى أي خاصية فيه ينفرد بها الاسلام أو الدولة الاسلامية، فكل الدول، لها رعايا يؤمنون بنظامها. ودول مسالمة لها تأمنها وتأمن لها ودول محاربة سواء خائفة أو غير خائفة. ولكن «سيد قطب» يستنتج من العرض التاريخي لتطور تشريع القتال بان «قتال

المشركين كافة» هو الامر النهائي والواجب الدائم على المسلمين لان الاسلام نسخ كل ما قبله من احكام وتشريع. وهو ما قاله «المودودي» قبله باكثر من عشر سنوات. ويستنتج «سيد قطب» ان الاسلام يؤمن بالقوة وليس بالحجة وحدها. وانه دين يتميز «بالواقعية الحركية» فهو «حركة» ذات مراحل، وينتقد بعنف عرف عنه رحمه الله. المسلمين المنهزمين «المهزومين» روحيا وعقليا تحت ضغط الواقع اليائس لذراري المسلمين الذين لم يبق لهم من الاسلام الا العنوان، الذي يقولون ان الاسلام لا يجاهد الا للدفاع ! ويلحق ذلك بعلامة تعجب. «ويحسبون انهم يسدون الى هذا الدين جميلا بتخليه عن منهجه، وهو ازالة الطواغيت كلها من الأرض جميعا وتعبيد الناس لله وحده واخراجهم من العبودية للعباد الى العبودية لرب العباد».

ونلاحظ هنا انه تخطى في الواقع حدود المودودي، وان كان موقفه هو التطبيق الصحيح لشعارات المودودي، الذي اكتفى بطلب السلطة على الكرة الارضية، واستبعد قبول المسلم لاي حكم غير اسلامي. أما سيد قطب ـ رغم اعتذاره بعد ذلك بسطر واحد ـ فقد نص صراحة على ان مهمتنا هي «تعبيد العباد لله وحده. واخراج العباد من العبودية للعباد الى العبودية لرب العباد». ولا حاجة لاستقراء القلوب. للقول بان هذا يعني اخراجهم من أديانهم وادخالهم في «ملكوت الله» أو الدين الاسلامي، مادمنا نسلم انه هو الدين الوحيد الذي يحقق ذلك، لان المسيحي يعبد المسيح ويحمل صورته وينسم على صليبه، ويموت والصليب على شفتيه ويطلب الرحمة والغفران من قسيس ويخضع لتعاليم واوامر البابا. فاذا لم تكن هذه عبادة العباد، فماذا تكون؟

وقد روى عدي بن حاتم «انه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ (اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله) «الآية»، فقلت له انا لسنا نعبدهم قال أليس يحرمون ما احل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟ فقلت بلى. قال فتلك عبادتهم» رواه احمد والترمذي وحسنه

فاذا كان المسلم مكلفا بابطال عبادة العباد، فهذا يعني انه مكلف بابطال هذه الديانة. وادخال المسيحي أو اليهودي في الاسلام ولو من الناحية العملية، أو على الاقل منعه من ممارسة عقيدته.

ويحس سيد قطب بهذا المأزق الذي قادته اليه حدته وبلاغته الادبية، فيستدرك: «ولا يقهرهم ـ الاسلام ـ على اعتناق عقيدته. ولكن بالتخلية بينهم وبين هذه العقيدة، بعد تحطيم الانظمة السياسية الحاكمة أو قهرها حتى تدفع الجزية وتعلن استسلامها والتخلية بين جماهيرها وهذه العقيدة، تعتنقها أو لا تعتنقها بكامل حريتها».

وهذا تناقض غير مقبول في فقرة واحدة. فاذا كنا نحمل تكليفا الهيا باخراج الناس من

عبادة العباد الى عبادة رب العباد، تكليفا يتضمن المقاتلة، وحشد كل طاقات الجماعات الاسلامية أو الدولة الاسلامية للحرب في سبيل هذا الهدف، فذلك لا يستقيم ابدا مع القول بترك حرية «عبادة العباد من دون الله». ولا يفيد في ستر هذا التناقض، الايحاء بانه بمجرد تحطيم السلطة المعادية للاسلام او اجبارهم على دفع الجزية، فان رعاياها سيختارون الاسلام عن طواعية، ومن ثم فلا حاجة للقهر، ولا تناقض. لا ليس صحيحا، فقد قامت السلطة الاسلامية، في مصر والشام والهند، على سبيل المثال، لعدة قرون بلا منازع ولا مزاحم، ومع ذلك استمرت جماعات لها وزنها تعبد العباد، بل والبقر. فجهاد المسلمين، وقيام سلطتهم، لم ينجحا في اخراج الناس كل الناس من عبادة العباد والبقر الى عبادة الواحد. ولا نجد نصا واحدا يفيد تكليف المسلمين الجهاد لمنع المسيحيين أو اليهود من عبادة المسيح أو القسيس والحاخامات، واجبارهم على عبادة الله بالمفهوم الاسلامي. ومن ثم لا يستطيع المفكر الاسلامي ان يأكل الكعكة ويحتفظ بها، فيعلن تكليف المسلمين باخراج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله بالقوة، ثم يعلن في الوقت نفسه حرية العقيدة. لان حرية العقيدة، تعني بوضوح حق البعض في الشرك بالله (والعياذ بالله).

هذا بوضوح وصراحة، حرية العقيدة تعني حرية الشرك، حرية عبادة غير الله. بل وان تتولى السلطة الاسلامية حماية حقهم في الشرك بالله، وممارسة شعائرهم التي تعتبر في نظر المسلم شركا.

يقول سيد قطب:

«ان الاسلام هو الأصل العالمي الذي على البشرية كلها ان تفيء اليه، أو ان تسالمه بجملتها، فلا تقف لدعوته بأي حائل من نظام سياسي، أو قوة مادية، وان تخلي بينه وبين كل فرد، يختاره أو لا يختاره أو بمطلق ارادته ولكن لا يقاومه ولا يحاربه. فان فعل ذلك احد كان على الاسلام ان يقاتله حتى يقتله او حتى يعلن استسلامه».

وهو يهاجم بالحدة نفسها المستضعفين الذين يتحدثون عن «جهاد دفاعي» أو حرب دفاعية، مركزا على الفرق بين «استنكار الاسلام للاكراه في العقيدة»، وبين منهجه في تحطيم القوى السياسية المادية التي تحول بين الناس وبينه، والتي تعبد الناس للناس وتمنعهم من العبودية لله وهما امران لا علاقة بينهما ولا مجال للالتباس فيهما».

وسنلاحظ ان سيد قطب يبذل جهدا كبيرا للمواءمة بين افكار المودودي في المهمة العالمية للحزب الانقلابي بالاستيلاء على السلطة في العالم اسلامي كله، وبين شعار «حرية العقيدة» الذي تضمنته وثيقة حقوق الانسان بعد الحرب العالمية الثانية، وضرورة مراعاة وضع المسيحيين في مصر.

يقول:

«ان هذا الدين اعلان عام لتحرير الانسان في «الارض» من العبودية للعباد ومن العبودية لهواه ايضا. وهي من العبودية للعباد. وذلك باعلان الوهية الله وحده ـ سبحانه ـ وربوبيته للعالمين. ان اعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها: الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها واشكالها وانظمتها واوضاعها والتمرد الكامل على كل وضع في ارجاء الارض. الحكم فيه للبشر بصورة من الصور. او بتعبير اخر مرادف، الالوهية فيه للبشر بصور من الصور ذلك ان الحكم الذي مرد الامر فيه الى البشر. ومصدر السلطان فيه الى البشر هو تاليه للبشر. يجعل بعضهم لبعض اربابا من دون الله. ان هذا الاعلان معناه انتزاع سلطان الله المغتصب ورده الى الله. وطرد المغتصبين له الذين يحكمون الناس بشرائع من عند انفسهم، فيقومون منهم مقام الارباب ويقوم الناس منهم مكان العبيد. ان معناه تحطيم مملكة البشر لاقامة مملكة الله في الارض، او بالتعبير القرآني الكريم، وهو الذي في السماء اله وفي الارض اله. (ان الحكم الا لله. امر الا تعبدوا الا اياه. ذلك الدين القيم).

«ومملكة الله في الارض لا تقوم بان يتولى الحاكمية في الارض رجال باعيانهم ـ هم رجال الدين ـ كما كان الامر في سلطان الكنيسة، ولا رجال ينطقون باسم الالهة، كما كان الحال فيما يعرف باسم «الثيوقراطية» أو الحكم الالهي المقدس. ولكنها تقوم بان تكون شريعة الله هي الحاكمة، وان يكون مرد الامر الى الله وفق ما قرره من شريعة مبينة. وقيام مملكة في الارض. وازالة مملكة البشر، وانتزاع السلطان من ايدي مغتصبيه من العباد ورده الى الله وحده وسيادة الشريعة الالهية وحدها والغاء القوانين البشرية. كل اولئك لا يتم بمجرد التبليغ والبيان، لان المتسلطين على رقاب العباد، والمغتصبين لسلطان الله في الارض. لا يسلمون في سلطانهم بمجرد التبليغ والبيان، والا فما كان ايسر عمل الرسل في اقرار دين الله في الارض. وهذا عكس ما عرفه تاريخ الرسل وتاريخ هذا الدين على ممر الاجيال».

«ان هذا الاعلان لتحرير «الانسان» في «الارض» من كل سلطان غير سلطان الله، اعلان يراد له التحقيق العملي في صورة نظام يحكم البشر بشريعة الله، ويخرجهم بالفعل من العبودية للعباد الى العبودية لله وحده بلا شريك. ومن ثم لم يكن بد من ان يتخذ شكل «الحركة» الى جانب شكل «البيان» ذلك ليواجه «الواقع» البشري بكل جوانبه بوسائل مكافئة لكل جوانبه».

ولا نجد في الفكر الاسلامي ما يسمح بوصف الدولة الاسلامية بانها «مملكة الله» في الارض. ومن الطبيعي ان يكون الله هو ملك هذه المملكة. فهل الحاكم المسلم هو نائب الله أو ظله على الارض كما في المفهوم غير الاسلامي؟ الأمر الذي رفضه المسلمون من اليوم الاول فوصفوا اميرهم بانه خليفة رسول الله وليس خليفة الله.

على اية حال ان ما نقلناه من فكر سيد قطب في السطور الماضية يؤكد فكرة الالتزام

بالتصدي لجميع الحكومات بهدف ازالتها، واقامة حكومة اسلامية محلها، لان اي حكومة غير اسلامية لابد ان يكون الحكم فيها للبشر بصورة من الصور، وذلك بموجب تحديد ومفهوم هؤلاء الدعاة، الذين اعتبروا ان الاسلام هو التحرير الكامل والوحيد للانسان من عبودية الانسان، ولكن هذه السطور تثير قضية «الحاكمية» التي ناقشناها في مقدمة هذا الحديث.

وهكذا فرغم التحفظات التي يكثر المرحوم سيد قطب من نثرها بين فقراته، وعلامات التعجب التي يصعب فهم سر تعجبها، الا ان فكرته واضحة، ومتفقة مع الخط العام للمودودي، تمام الاتفاق، في ان الاسلام، أو «الحركة» عند قطب و «الحزب الانقلابي» كما سماه المودودي، مطالب ليس فقط باسقاط النظم غير الاسلامية من جميع اقطار المعمورة، بل واقامة الحكم الاسلامي هناك.

فالاسلام «كان لابد ان ينطلق في «الارض لازالة» «الواقع» المخالف لذلك الاعلان العام. بالبيان وبالحركة مجتمعين. وان يوجه الضربات للقوى السياسية التي تعبد الناس لغير الله. أي تحكمهم بغير شريعة الله وسلطانه، والتي تحول بينهم وبين الاستماع الى «البيان» واعتناق «العقيدة» بحرية لا يتعرض لها السلطان. ثم لكي يقيم نظاما اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا لحركة التحرر بالانطلاق الفعلي، بعد ازالة القوة المسيطرة سواء كانت سياسية بحتة، أو متلبسة بالعنصرية أو الطبقية داخل العنصر الواحد».

ولا اظن ان هناك مجالا لسوء الفهم، فالفكرة في غاية الوضوح: اسقاط النظم غير الاسلامية، واقامة نظام اجتماعي واقتصادي وسياسي جديد هو طبعا النظام الاسلامي. ولكن الغموض يأتي من المؤلف نفسه، فهو ـ كما قلنا ـ متردد بين تبني مفهوم المودودي، وبين مبدأ «لا اكراه في الدين» وضرورات العصر التي تأبى هذا الاكراه أو على الاقل «المجاهرة» به. لذا نراه يعود فيتحفظ بعد تلك الفقرة الشديدة الوضوح فيقول: «انه لم يكن قصد الاسلام قط ان يكره الناس على اعتناق عقيدته، ولكن الاسلام ليس مجرد «عقيدة» ان الاسلام ـ كما قلنا ـ اعلان عام لتحرير الانسان من العبودية للعباد، فهو يهدف ابتداء الى ازالة الانظمة والحكومات التي تقوم على اساس حاكمية البشر للبشر وعبودية الانسان للانسان، ثم يطلق الافراد بعد ذلك احرارا ـ بالفعل ـ في اختيار العقيدة التي يريدونها بمحض اختيارهم بعد رفع الضغط السياسي عنهم، وبعد البيان المنير لارواحهم وعقولهم. ولكن هذه الحرية ليس معناها ان يجعلوا الههم هواهم، أو ان يختاروا بانفسهم ان يكونوا عبيدا للعباد، وان يتخذ بعضهم اربابا من دون الله. ان النظام الذي يحكم البشر في الارض يجب ان تكون قاعدته العبودية لله وحده. وذلك بتلقي الشرائع منه وحده. ثم ليعتنق كل فرد في ظل هذا النظام العام ما يعتنقه من عقيدة»!

(وعلامة التعجب التي وضعها المؤلف هنا لا معنى لها الا اذا كان المؤلف أدرك ما في عبارته من تناقض لا مجبر) يقول: «وبهذا يكون «الدين» كله لله اي تكون الدينونة والخضوع والاتباع والعبودية كلها لله. ان مدلول «الدين» أشمل من مدلول «العقيدة». ان الدين هو المنهج والنظام الذي يحكم الحياة. وهو في الاسلام يعتمد على العقيدة، ولكنه في عمومه أشمل من العقيدة. وفي الاسلام يمكن ان تخضع جماعات متنوعة لمنهجه العام الذي يقوم على اساس العبودية لله وحدة ولو لم يعتنق بعض هذه الجماعات عقيدة الاسلام». ويزيد رأيه وضوحا في الفقرة التالية فيقول: ان الاسلام او الجهاد شرع لتحرير الانسان من «العوامل التي تتمثل في المعتقدات والتصورات، كما تتمثل في الانظمة السياسية القائمة على الحواجز الاقتصادية والطبقية والعنصرية التي كانت سائدة في الارض كلها يوم جاء الاسلام، والتي ماتزال اشكال منها سائدة في الجاهلية الحاضرة في هذا الزمان».

بدأ بالحدود الآمنة ثم طالب بالتطبيع، وها هو يطلب الوصاية لا السياسية فقط، بل العقائدية، الوصاية على الضمائر. فقد افترض ان المسلم مكلف بتحطيم النظم السياسية التي تعترض ابلاغ الدعوة، ثم تقدم خطوة، فحمل مسؤولية تحطيم النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي قد تسمح بابلاغ الدعوة الى رعاياها، ولكنها تعبد بحكم عقيدتها وتكوينها العباد للعباد ـ وبعد تحطيم هذه النظم، اضطر الى تحمل مسؤولية السلطة في تلك المجتمعات، واقامة شريعة الله، وبحكم الله وحده وبذلك تتاح الفرصة أو الحرية كاملة للرعايا «المحررين» لممارسة حرية العقيدة، ولكنه بادر فأعلن ان هذه الحرية يجب ان تمارس في اتجاه واحد هو اختيار الاسلام، كمنهاج وممارسة، وان سمح بعدم اعتناقه كدين بشكل رسمي. فالحرية التي يتحدث عنها «ليس معناها ان يجعلوا الههم هواهم او ان يختاروا بانفسهم ان يكونوا عبيدا للعباد، وان يتخذ بعضهم اربابا من دون الله».

فاعلان التحرر الذي يصدره، مثل قانون بريطانيا بتحرير العبيد في القرن التاسع عشر، لا يلزم فقط بتحرير العبد، بل ويمنع العبد نفسه من قبول العبودية.

وليس الاعتراض ـ هنا ـ ان تكون هذه هي دعوة سيد قطب والمودودي. فليست هذه هي الاولى من نوعها، وشعار «اجبروهم على الدخول في ملكوت الله أو مملكة الله» معروف ومارس من قبل ظهور الاسلام، ومنذ ان اصبح للكاهن سيف وهو يحاول منع «العباد» من بيع روحهم للشيطان ويفضل اهلاك الجسد في هذه الدنيا انقاذا للروح ولو رغم انف صاحب الجسد والروح. والشيوعية لا تسمح لشعوبها باختيار العودة الى نظام «الاستغلال والعبودية» حتى ولو أرادت، اذ ان مسؤوليتها في تحرير الجنس البشري تحتم عليها حماية هذه الشعوب من «اتباع هواها» وهذا ما عرف بمبدأ بريجنيف في عدم السماح لاي دولة خاضعة للتحرير السوفياتي بالخروج من المنظومة الاشتراكية او التخلي عن الاشتراكية، ومن قبله قال

ستالين: ان حق تقرير المصير يجب ان يمارس في اتجاه طلب الانضمام وليس الانفصال عن روسيا.

الدعوة ليست جديدة، وهي منطقية مع شعار تحرير الجنس البشري، ومتوقعة بعد تحمل مسؤولية اسقاط كل النظم غير الاسلامية، واقامة السلطة الاسلامية، ولكن الاعتراض هو في محاولة التخفي، فالله حق يحب الحق. فجميع النظم غير الاسلامية، يفترض فينا ان نؤمن بانها تتضمن نوعا من عبودية العباد للعباد، فهل شرع الجهاد لمنع المسيحيين من لبس الصليب أو الركوع بين يدي القسس وتلقي بركتهم، وهل سنخلع البابا بعد فتح روما، أو نمنع الكاثوليك من الخضوع لقراراته البابوية حتى الدينية البحتة مثل تطويب شخص ما كقديس؟ هل سنمنع المسيحيين من الاعتقاد بالوهية المسيح وانه ابن الله والتصرف وفقا لهذه العقيدة؟

هل استمرار المسيحية والمسيحيين الى اليوم في ظل «المملكة الاسلامية» كان نتيجة سوء فهم الصحابة ـ الفاتحين حقا ـ لمعنى الجهاد، او تقصير منهم في تنفيذ احكام ومتطلبات «التحرر» يوم كانت لهم القدرة كل القدرة لاجبار الناس على الدخول في «مملكة الله».

ألم يرفض عمر الصلاة في الكنيسة، ليبقيها لاسقفها ومن اتبعه ومن بعده، يطيعون فيها هواهم، ويعبدون المسيح ورهبانهم من دون الله كيفما شاءوا؟!

ألم يوجه عمرو بن العاص رضي الله عنه فاتح مصر، الرسل والمكاتيب الى بطريرك المصريين يعطيه العهود والمواثيق، ويدعوه للعودة الى كنيسته ليمارس فيها شعائر دينه، اي ان يتخذ المسيح وأمه الهين من دون الله؟ ويردد تحت حماية سيوف الصحابة «ان الرحمن اتخذ ولدا» سبحانه وتعالى عما يصفون؟ لقد اضطهد الرومان المسيحيون اقباط مصر وذبحوهم، وفر بطريركهم لان كنيسة الروم قالت بأن المسيح نصف اله فقط فجاء المسلمون وأمنوا اقباط مصر وحموا كنيستهم التي تقول بان المسيح اله كامل.

لا جدال ان فهم ومسلكية الصحابة الفاتحين يختلف جذريا عن هذا المنطق الذي تطرحه قوى مهزومة تحاول ستر هزيمتها بالتطرف في المطالب.

ويطالب «سيد قطب» بان ينقسم العالم الى ثلاثة اقسام، مسلمين، واهل ذمة يخضعون لسلطة المسلمين، ومحاربين خائفين لم يتم اخضاعهم بعد.

ويستشهد بالآية الكريمة: «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا». وهي الآية التي استندنا اليها في نظريتنا عن مفهوم الجهاد الاسلامي، أي حماية استمرار الصوامع والبيع والصلوات والمساجد (لاحظ ان الله سبحانه وتعالى شهد لها جميعا بان اسمه تعالى يذكر فيها). اي ان الاصل في الاسلام ـ من وجهة نظرنا ـ هو التعايش الدائم، وان الجهاد شرع لحماية هذا التعايش، الا ان سيد

قطب يرى العكس تماما: «ان الشأن الدائم ان لا يتعايش الحق والباطل في هذه الارض، وانه متى قام الاسلام باعلانه العام لاقامة ربوبية الله للعالمين، وتحرير الانسان من العبودية للعباد، رماه المغتصبون لسلطان الله في الارض، ولم يسالموه قط، وانطلق هو كذلك يدمر عليهم...»

وهذه جملة اعتراضية وضعها سيد قطب في عجالة حتى لا يتهم بتبني نظرية الجهاد الدفاعي التي اشبعها نقداً وتجريحاً، فنظريته هو والمودودي ان الاسلام لا ينتظر حتى يحاربه اعداء الله، بل يبادرهم هو بالهجوم لانه دعوة لتقض بنيان النظم غير الاسلامية من الاساس فهو يكمل: «وليخرج الناس من سلطانهم ويدافع عن «الانسان» في «الارض» ذلك السلطان الغاصب، حال دائمة لا يقف معها الانطلاق الجهادي التحريري حتى يكون الدين كله لله».

ويجهد «سيد قطب» رحمة الله عليه، نفسه للرد على سؤال: لماذا «توقف» أو لم يؤذن بالقتال أو الجهاد في مرحلة مكة، واول العهد بالهجرة، ليثبت وجهة نظره في ان الاصل في الاسلام هو «القتال» وان السلام هو الحالة العارضة المؤقتة، ولكنه يبرر ذلك بتفسير غريب فيقول ان الاسلام في العهد المكي كان يملك حرية التبليغ «بحماية سيوف بني هاشم ـ كان الرسول ـ يملك ان يصدع بالدعوة، ويخاطب بها الآذان والعقول والقلوب ويواجه بها الافراد. فلم تكن هناك سلطة سياسية منظمة تمنعه من ابلاغ الدعوة! أو تمنع الافراد من سماعه! (التعجب من سيد قطب) فلا ضرورة في هذه المرحلة، لاستخدام القوة، وذلك الى اسباب اخرى لعلها كانت قائمة في هذه المرحلة».

وحتى اذا قبلنا القول بحرية التبليغ وسيوف بني هاشم، فقد مر بنا انه يرفض قبول مجرد حق التبليغ، وكيف سخر هو والمودودي من دعوة الدراويش الذي يظنون ان مهمتهم هي التبشير بأسنة الاقلام والالسنة.. الخ.

اما عن حرية التبليغ التي أوقفت الجهاد، فقد كانت متوفرة على نحو اكبر في مرحلة المدينة. وقد اضطر الرسول في مكة، الى الدعوة سرا ثلاث سنوات، ثم عُذب اصحابه تعذيباً شديداً، وتعرض هو لاهانات مثبوتة كلها في كتب السيرة، وأشار اليها القرآن. واضطر اصحابه للهجرة الى بلد غريب اللون واللسان والدين هروبا من الاضطهاد الذي نزل بهم ـ رغم سيوف بني هاشم ـ واظن انه لا يخفى على فطنة القارىء ان حرية التبليغ لا معنى لها ان لم تكن هناك حرية التبلغ والقبول. وأي حرية والحجر على صدر بلال، وآل ياسر في العذاب الشديد. ثم كانت هجرة الرسول، التي كانت في قرارها، وتفاصيل احداثها، خير شاهد على انه صلوات الله عليه لم يكن يأمن على نفسه شخصيا وليس فقط على حرية التبليغ. ورغم ذلك لم يؤمر بالقتال ولا شرع له. وانما أمر به بعدما اصبح في

المدينة يرأس دولة ويملك ان يوجه الدعوة لا الى العرب بل الى ملوك الدول من حول الجزيرة العربية.

اما عن التفسير السيكولوجي الذي يطرحه الاستاذ الشهيد بان المنع من القتال في العهد المكي «كان لتدريب النفس العربية على الصبر ـ على ما لا يصبر عليه الفرد العربي عادة ـ من الضيم على شخصه أو على من يلوذ به، ليخلص من شخصه ويتجرد من ذاته».

فنقول ان التدريب كان لعدد محدود، ولا نفهم لماذا لم يكن الفرد العربي في المدينة بحاجة الى هذا التدريب؟ ولماذا اذن للمسلمين بالهجرة الى الحبشة والحرمان من هذا التدريب؟

ويستمر الاستاذ ـ رحمة الله عليه ـ في البحث عن سبب لمنع القتال في مرحلة مكة فيقول «وربما كان ذلك ايضا، لان الدعوة السلمية كانت اشد اثرا وانفذ، في مثل بيئة قريش، ذات العنجهية والشرف، والتي قد يدفعها القتال معها ـ في مثل هذه المرحلة ـ الى زيادة العناد، والى نشأة ثارات دموية جديدة كثارات العرب المعروفة التي اثارت حرب داحس والغبراء، وحرب البسوس اعواما طويلة. وتكون هذه الثارات الجديدة مرتبطة في اذهانهم وذكرياتهم بالاسلام فلا تهدأ بعد ذلك ابدا، ويتحول الاسلام من دعوة ودين الى ثارات وذحول تنسى معها وجهته الاساسية، وهو في مبدئه، فلا تذكر ابدا».

وهي فقرة عسيرة على الفهم. فلماذا تقتصر الثارات والذحول على مرحلة مكة، وهي حفنة من المستضعفين او من فلذة اكباد قريش، فان انهزموا أو انتصروا فلا عار ولا مذلة لقبيلة بارزة ضد قريش أو لقريش. والثارات وجدت بعد تلك المرحلة. والتاريخ الاسلامي حافل بشعارات «يالثارات بدر» و «أحن بدرية» و «ليت اشياخي ببدر» الخ و «هيه بني الأصفر».

وسواء صحت هذه الروايات أو وضعت فهي تعني وجود هذه الثارات ويعني ان فرضية تجنب ذلك في مكة لم تحقق الهدف المرجو، كما ان وجودها لم يمنع مبادىء الاسلام او وجهته السياسية من الوجود والبقاء.

ثم يقول: «وربما كان ذلك ايضا، اجتنابا لانشاء معركة ومقتلة في داخل كل بيت، فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة، هي التي تعذب المسلمين وتفتنهم، وانما كان ذلك موكولا الى اولياء كل فرد يعذبونه و «يؤدبونه» ومعنى الاذن بالقتال ـ في مثل هذه البيئة ـ ان تقع معركة ومقتلة في كل بيت. ثم يقال: هذا هو الاسلام. ولقد قيلت حتى والاسلام يأمر بالكف عن القتال. فقد كانت دعاية قريش في الموسم، في اوساط العرب القادمين للحج والتجارة ان محمدا يفرق بين الوالد وولده، فوق تفريقه لقومه وعشيرته. فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد، والمولى بقتل الولي، في كل بيت وفي كل محلة».

اذا منع القتال بشهادته، لم يمنع من ترديد الاتهام، ولطالما ظلت الدعوة تقسم الاجيال

والاسرات، شأن كل الدعوات العقائدية، فسيظل خطر الانشقاق قائما، وكذلك الاتهام به. ومن ثم فلا معنى لتفادي القتال في مكة، واباحته في المدينة ان كان هذا هو السبب، ففي بدر واحد تصادم الأبناء والاخوة، وانطلق قبل القتال وبعده بان محمد يفرق بين المرء واخيه والابن وابيه. بل لعله - اي الاتهام - كان في مكة أشد. فلم يفد منع القتال في اسقاط الاتهام، ولا عزز القتال حجة المتهمين.

ويطرح احتمالا اخر، وهو ان الله كان يعلم ان الكثيرين ممن يعذبون المسلمين سيكونون من جند الاسلام المخلص، بل من قادته. ألم يكن عمر بن الخطاب من بين هؤلاء؟

اذا كان الله سبحانه وتعالى منع القتال في مكة، حتى لا يقتل عمر بن الخطاب فلماذا سمح به قبل ان يؤمن سيف الله المسلول خالد بن الوليد أو عمرو بن العاص. ألم يكن من المحتمل ان يقتلا على الشرك في أحد؟

كل هذه حجج أدبية ومنطقية بارعة، من باب «الفنقلة» ولكنها مزالق يقود اليها الفكر الذي يبدأ بطرح نظرية مقدما، ثم يحاول تبريرها أو اثباتها لا استقراء الواقع الاسلامي ومحاولة فهمه ثم استخراج القانون أو النظرية من هذا الواقع.

ولا معنى لعرض كل هذه الاحتمالات والفروض لنصل في النهاية الى سبب شديد الواقعية، وتفسير صارخ في طابعه العملي: «وربما كان ذلك، ايضا، لقلة عدد المسلمين حينذاك وانحصارهم في مكة، حيث لم تبلغ الدعوة الى بقية الجزيرة، ففي مثل هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة الى قتل المجموعة المسلمة القليلة».

وهذا يذكرنا بقصة الضابط التركي الذي لم يضرب المدافع تحية للسلطان واعتذر بان لديه ٣٣ سببا منها انه ليس لديه مدافع.

فما دام المسلمون غير قادرين على النصر، بل قلة يتهددها الفناء لو حاربت. فلماذا البحث عن سبب اخر لتجنب القتال؟

الا اننا نضيف سببا اخر، وهو انه لا تجوز مقاتلة الناس من اجل «نظام» لم تتح الفرصة لتجربته على الواقع، فلما قامت «الدولة الاسلامية» في المدينة، شرع لها القتال. فالجهاد ليس عملية فردية، ولا ارهابية، ولا اغتيالات. وقتال المسلمين في مكة ما كان يمكن ان يتخذ الا احدى هذه الصور: الاغتيال الفردي، أو الارهاب الفدائي. وقد يكون هذا مشروعا في ظروف معينة، ولكن «الجهاد» من اجل اقامة مجتمع اسلامي او سلطة اسلامية، لا يمكن ان يكون عملية فردية بل تمارسه مؤسسة، سلطة لديها نموذج للمجتمع المطلوب تعرضه على الناس. وهذا الخطأ او الرغبة في عدم فهم لماذا لم يشرع القتال في مكة هو الذي قاد الحركة الاسلامية - مع اسباب اخرى - الى الارهاب.

على أية حال هذه مجرد جملة اعتراضية، أو تسجيل رأي من دون الخوض في اثباته.

فاذا انتقل الاستاذ الشهيد سيد قطب لشرح سبب منع القتال في اول العهد بالمدينة قال: «اولا: لان هناك مجالا للتبليغ والبيان، لا تقف له سلطة سياسية تمنعه وتحول بين الناس وبينه، فقد اعترف الجميع بالدولة المسلمة الجديدة، وكان واضحا ان السلطة الحقيقية في المدينة في يد القيادة المسلمة».

وهذا القول يطرح سؤالين: هل يسقط الجهاد اذا ما منحت حرية التبليغ؟ ولاشك ان هذه الحرية مكفولة الآن في اوروبا الغربية والولايات المتحدة وكثير من بلدان آسيا وافريقيا غير الشيوعية. أم يشترط قيام السلطة الاسلامية في البلد المطلوب الدعوة فيه؟.

وفي الحالة الثانية هل منع الرسول اليهود من عبادة هواهم، وأحبارهم، وأصر على اخراجهم من عبادة العباد الى عبادة الله؟

وهذا سؤال يجب ان يطرح بهذا الوضوح لكي تكون الاجابة عنه بوضوح السؤال نفسه. فليس في الاسلام ما يعتذر عنه، ولا ما يجبر دعاته على مضغ الكلمات.

ومرة اخرى فان السبب الثاني الذي يورده «لمهادنة» اليهود في المدينة، ينفي الحاجة الى السبب الأول. فهو يقول: «ثانيا: ان الرسول كان يريد التفرغ - في هذه المرحلة - لقريش.... الخ».

اذا فالمعاهدة مع اليهود، أو عدم مقاتلتهم، مجرد هدنة وتكتيك حربي في انتظار ان يفرغ لمقاتلتهم، ومن ثم لا معنى للحديث عن حرية التبليغ والتسليم بالسيادة الاسلامية...... الخ.

وكل الذين يدعون لشعار اخراج العباد من عبادة العباد وادخالهم قسرا في عبادة الله، لم يجدوا لا في القرآن ولا في السنة نصا يعزز دعواهم. ومن ثم فقد تمسكوا جميعا برواية منسوبة للمغيرة بن شعبة قالها في حوار علني مع رستم قائد جيش الفرس في معركة القادسية.

فهل نترك كل الآيات والأحاديث، ومنطق ووقائع السلوك الاسلامي لنأخذ ديننا من ربعي بن عامر، وحذيفة بن محصن، ثم المغيرة بن شعبه؟

وحتى اذا افترضنا انه كان هنالك مضبطة لاجتماع المغيرة ورستم، فان هذه الكلمات التي تقال بعدما نشبت الحرب فعلا وسالت الدماء، هي من ضروب الضرورات الحربية، وليس في هذه الكلمات ولا ما اعقبها من ممارسات ما يفيد ان الجيش الذي كان فيه المغيرة وصحبه قد اخرج العباد الفرس من ممارسة عبادة العباد بقوة السلطة الاسلامية، بل اكتفي بتحصيل الجزية، من المشركين مقابل حماية حقهم في الشرك وتأمينهم عليه.

وبعد ان ينتقد «سيد قطب» بعنفه المعهود «المهزومين» الذين يحاولون البحث عن مبرر للجهاد، بادعاء انه كان ضرورة دفاعية، يعود فيقول «هذه معركة مفروضة على الاسلام

فرضا، ولا خيار له في خوضها، وهذا صراع طبيعي بين وجودين لا يمكن التعايش بينهما طويلا».

فاذا كان الاستفزاز او التحرش أو العدوان محتوم من جانب غير المسلمين، ومن ثم فدفاع الاسلام عن نفسه ضرورة حتمية، فلماذا كان هذا الهجوم والاستهزاء بالذين قالوا ان الفتح الاسلامي كان دفاعاً عن النفس؟ ولماذا الازعاج بطرح سؤال خيالي وهو «هل لو كان ابو بكر وعمر والمسلمون قد أمنوا جانب الروم والفرس، ولم يبادرهم هؤلاء بالعدوان، كانوا سيمتنعون عن الغزو وفتح فارس وما شاء الله من ارض بيزنطة؟».

والجواب المطلوب معروف، فالسائل لا يؤمن بالتعايش، ولكن سائله لا يحق له ان يقول بعد ذلك ان القتال كان مفروضا على الاسلام: «لان مجرد وجوده يدفع بالمجتمعات الجاهلية من حوله، القائمة على قاعدة العبودية للعباد، الى محاولة سحقه دفاعا عن وجودها ذاته».

فنحن ندور في دوامة لا نستطيع ان نستقر فيها على موقف، هل الاسلام حركة هجومية مهمتها غزو الكرة الارضية واقامة السلطة الاسلامية على كل الجنس البشري؟ ومن ثم فلا حاجة لاستفزاز ولا مبرر ولا عدوان من جانب الآخرين. أم ان الآخرين سيهاجمون الاسلام فور ظهوره ومن ثم فهو في حرب دفاعية دائمة؟ لا نعرف، تارة يؤكد انه حتى ولو لم تبادر فارس وبيزنطة بالعدوان لغزاها المسلمون وتارة يقول انهما بدأتا بالعدوان فكان القتال هو الخيار الوحيد امام المسلمين ليعود فيقول «ان المعسكرات العادية للاسلام قد يجيء عليها زمان تؤثر فيه الا تهاجم الاسلام، اذا تركها الاسلام تزاول عبودية البشر للبشر داخل حدودها الاقليمية، ورضي ان يدعها وشأنها ولم يمد اليها دعوته واعلانه التحريري العام. ولكن الاسلام لا يهادنها الا ان تعلن استسلامها لسلطانه في صورة اداء الجزية، ضمانا لفتح ابوابها لدعوته بلا عوائق مادية من السلطات القائمة فيها. هذه طبيعته كدين، وهذه وظيفته، بحكم انه اعلان عام لربوبية الله للعالمين، وتحرير الانسان من كل عبودية لغير الله في الناس اجمعين».

ما المقصود بجملة تركها الاسلام «تزاول عبادة البشر للبشر؟ هل تنتهي هذه المزاولة اذا ما دفعوا الجزية؟ هل كف المسيحيون واليهود عن عبادة البشر طوال القرون التي كانوا يدفعون فيها الجزية؟

وملخص رأي سيد قطب هو:

- الاسلام دعوة او اعلان لتحرير الجنس البشري في كل الارض لاخراج العباد من عبادة العباد الى عبادة الله.

- هذا التحرير لا يتم الا بالقوة اي بالجهاد الذي يبدأه المسلمون: (فالاسلام اذا قبع داخل حدود اقليمية او عنصرية لا يحركه الا خوف الاعتداء، يفقد مبرراته الذاتية في

الانطلاق. ان من حق الاسلام ان يتحرك ابتداء، فالاسلام ليس نحلة قوم، ولا نظام وطن، ولكنه منهاج اله، ونظام عالم، ومن حقه ان يتحرك ليحطم الحواجز من الانظمة والاوضاع التي تغل من حرية «الانسان» في الاختيار وحسبه انه لا يهاجم الافراد ليكرههم على اعتناق عقيدته، وانما يهاجم الانظمة والاوضاع ليحرر الافراد من التأثيرات الفاسدة للفطرة، المقيدة لحرية الاختيار).

- وهو لا يقف عند حد اسقاط السلطة السياسية غير الاسلامية، واقامة السلطة الاسلامية بل يتدخل ايضا لتغيير منهجية ومسلكية الافراد الخاضعين لتلك السلطة، فان تحريرهم لا يعني «ان يجعلوا الهم هواهم، او ان يختاروا بانفسهم ان يكونوا عبيدا للعباد». ومن «حق الاسلام ان يخرج «الناس» من عبادة العباد الى عبادة الله وحده، ليحقق اعلانه العام بربوبية الله للعالمين وتحرير الناس اجمعين». وهو لا يترك الناس يمارسون عبادة البشر للبشر ولو داخل حدودهم الاقليمية.

- عبادة الله وحده لا تتحقق - في التصور الاسلامي، وفي الواقع العملي - الا في ظل النظام الاسلامي، فهو وحده النظام الذي يشرع الله فيه للعباد كلهم.

- الحرب هي العلاقة الدائمة، والمسالمة هي الحالات الطارئة المؤقتة والتعايش مستحيل.

هذه هي وجهة نظر المودودي التي تبناها وتوسع فيها الشهيد سيد قطب بانفعالية الظروف القاسية التي مرت بها الحركة الاسلامية، واذا كان قد قسا على الشيخ سيد سابق ووصفه من دون ان يسميه «بالمنهزمين»، لانه حاول «تبرير» الجهاد ووصفه بالدفاعي، فان الشعور بالهزيمة كما قلنا، لا يولد فقط رغبة في التنازل والمسالمة، بل وايضا رغبة في التطرف او المزايدة.

واعتقد ان الشهيد سيد قطب، كان يفكر في الشيخ سيد سابق وهو يتحدث عن «المهزومين» الذين يعتذرون عن الجهاد، او يقصرونه على «الدفاعي» لان هذا هو ما قاله سيد سابق:

«علاقة المسلمين بغيرهم علاقة تعارف وتعاون وبر وعدل، يقول الله سبحانه وتعالى في التعارف المفضي الى التعاون: «يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير». ويقول في الوصاية بالبر والعدل «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين، ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين». ويعلق على ذلك «ومن مقتضيات هذه العلاقة تبادل المصالح واطراد المنافع، وتقوية العلاقات الانسانية». ويقول سيد سابق «ان النهي عن موالاة الكافرين يقصد به النهي عن محالفتهم ومناصرتهم ضد المسلمين، كما يقصد به النهي عن الرضا بما هم فيه من كفر، اما الموالاة بمعنى المسالمة والمعاشرة الجميلة والمعاملة

بالحسنى وتبادل المصالح ، والتعاون على البر والتقوى فهذا ما دعا اليه الاسلام» . وقال عن معاملة الذميين «عدم اكراه احد منهم على ترك دينه او اكراهه على عقيدة معينة يقول سبحانه وتعالى: لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي» . ثانياً من حق اهل الكتاب ان يمارسوا شعائر دينهم فلا تهدم لهم كنيسة ولا يكسر لهم صليب» (وهذا التخصيص عن اهل الكتاب غير مفهوم فان المشركين من غير اهل الكتاب اخذت منهم الجزية وتركت لهم حرية العبادة وقال الرسول صلوات الله عليه وسلامه «اتركوهم وما يدينون» وهذه شاملة) .

ويقول سيد سابق : «بل ان من حق زوجة المسلم ـ اليهودية والنصرانية ـ ان تذهب الى الكنيسة او الى المعبد ، ولا حق لزوجها في منعها عن ذلك» .

«ثالثا: اباح لهم الاسلام ما اباحه لهم دينهم من الطعام وغيره ، فلا يقتل لهم خنزير ولا تراق لهم خمر مادام ذلك جائزا عندهم ، وهو بهذا وسع عليهم اكثر من توسعته على المسلمين» .

«رابعاً: لهم الحرية في قضايا الزواج والطلاق والنفقة ولهم ان يتصرفوا كما يشاءون فيها من دون ان توضع لهم قيود أو حدود» .

«يقول الله تعالى: (ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن . الا الذين ظلموا منهم . وقولوا امنا بالذي انزل الينا وانزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون) . «سورة العنكبوت» .

واضح انها وجهة نظر مخالفة تماما ، فالشيخ سيد سابق ، لا يعطي حتى الزوج حق اخراج زوجته من عبادة العباد ، بل انه اذا لم يذهب الى حد شراء الزوج صليبا لزوجته المسيحية تعلقه في صدرها كما كان عدي بن حاتم يفعل عندما جاء يسلم فهو على الاقل لا ينزعه من صدرها ، وهو بلاشك مكلف بنقلها في سيارته الى الكنيسة وانتظارها حتى تفرغ من عبادة العباد ، والقول بان الله سبحانه وتعالى اتخذ صاحبة وولدا . ثم يعود بها الى المنزل . فهكذا يأمره دينه في رأي السيد سابق وفي رأينا . بل يرى الشيخ سيد سابق ان الدولة الاسلامية لا تمنع رعاياها المسيحيين من ممارسة الرذائل مثل شرب الخمر ، ونحن نخالفه ، ولكن من منطلق غير منطلق المودودي وسيد قطب بالطبع . وهو يرى ان من حقهم ان يمارسوا حياتهم الزوجية وفق ما شرعه الانسان وليس ما شرعه الله .

ويمضي سيد سابق مخالفا سيد قطب في شرح اسباب الحرب الاسلامية فيختار موقف الجهاد الدفاعي يقول: «الحرب لا تجوز في نظر المسلمين الا في حالتين: الحالة الاولى ، حالة الدفاع عن النفس والعرض والمال والوطن عند الاعتداء .

الحالة الثانية : حالة الدفاع عن الدعوة الى الله اذا وقف احد في سبيلها بتعذيب من امن بها ، او بصد من اراد الدخول فيها ، او بمنع الداعي من تبليغها» .

ويقول ان الآيات امرت بقتال [illegible] يبدأون بالعدوان لكف عدوانهم «اما الذين لا يبدأون بعدوان ، فانه لا يجوز قتاله[illegible] ، لان الله نهى عن الاعتداء وحرم البغي والظلم في قوله : «وتعليل النهي عن العدو[illegible] الله لا يحب المعتدين دليل على ان هذا النهي محكم غير قابل للنسخ ، لأن هذا اخبار [illegible] محبة الله للاعتداء والاخبار لا يدخله النسخ لان الاعتداء هو الظلم والله لا يحب [illegible] أبدا» .

كنا نتمنى ان يرد الشهيد صراحة [illegible] هذا الرأي ، وان كنا نشهد له بأنه رد في تأكيده ان الغزو الاسلامي للبلدان التي لم [illegible] المسلمين العداء ، ليس عدوانا بل تحريرا لشعوبها ونعمة يحملها اليهم جند الله . [illegible] من باب «جرهم الى الجنة بسلاسل» او اجبروهم على الدخول في ملكوت الله» .

ويقول سيد سابق :

«ان هذه الحرب المشروعة غاية تنتهي اليها وهي منع فتنة المؤمنين والمؤمنات بترك ايذائهم وترك حرياتهم ليمارسوا عبادة الله و[illegible]موا دينه وهم آمنون على انفسهم من كل عدوان» .

فهو يكتفي باعطاء المسلمين حرية العبادة ، اما المودودي وقطب فلا يقنعان من دون اسقاط جميع الحكومات والنظم غير الاسلامية في «الكرة» او «الارض» او «المعمورة» .

يقول سيد سابق :

«ان حروب الرسول صلى الله عليه وسلم كانت كلها دفاعا ليس فيها شيء من العدوان . وقتال المشركين العرب ونبذ عهودهم بعد فتح مكة كله كان جاريا على هذه القاعدة» . اما قتال اليهود فلأنهم : «نقضوا العهد وانضموا الى المشركين والمنافقين ضد المسلمين ، ووقفوا محاربين لهم في غزوة الاحزاب» .

تأمل كيف يجادله الاستاذ الشهيد بالتي هي أحسن .

«والمهزومون روحيا وعقليا ممن يكتبون عن «الجهاد في الاسلام» ليدفعوا عن الاسلام هذا «الاتهام» يحاولون ان يحصروا الجهاد في الاسلام فيما يسمونه اليوم «الحرب الدفاعية» . »

غفر الله لهما .

ويقول سيد سابق ان الاسلام [illegible]جعل الاكراه وسيلة من وسائل الدخول في الدين ، بل جعل وسيلة ذلك استعمال العقل ، [illegible] الفكر والنظر في ملكوت السموات والارض ، يقول سبحانه: (ولو شاء ربك لآمن [illegible] في الارض جميعا أفانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) .

«اما النصارى وغيرهم فلم [illegible] الرسول صلى الله عليه وسلم احدا منهم حتى ارسل رسله بعد صلح الحديبية الى [illegible] الملوك يدعوهم الى الاسلام فارسل الى قيصر والى كسرى ، والى المقوقس ، والى [illegible] وملوك العرب بالمشرق والشام . فدخل في الاسلام

من النصارى من دخل، فعمد النصارى بالشام فقتلوا بعض من اسلم. فالنصارى حاربوا المسلمين اولا وقتلوا من اسلم منهم بغيا وظلما. فلما بدأ النصارى بقتل المسلمين ارسل الرسول سرية امر عليها «زيد بن حارثة»، ثم جعفر بن ابي طالب ثم عبد الله بن رواحة وهو أول قتال قاتله المسلمون للنصارى. ومما تقدم يتبين بجلاء ان الاسلام لم يأذن بالحرب الا دفعا للعدوان، وحماية للدعوة، ومنعا للاضطهاد وكفالة لحرية التدين، فانها حينئذ تكون فريضة من فرائض الدين، وواجبا من واجباته المقدسة ويطلق عليها اسم «الجهاد».»

ويمكن تلخيص رأي «سيد سابق» فيما يلي:

ـ التعايش او السلم هو الاساس والعلاقة الدائمة بين «مملكة» المسلمين وممالك غير المسلمين، والحرب حالة طارئة.

ـ الحرب لا تجوز الا في احدى حالتين: الدفاع عن النفس والوطن والمال ضد الاعتداء، او الدفاع عن الدعوة، اذا ما تعرض المؤمنون بها الى التعذيب او بصد من اراد الدخول فيها او بمنع تبليغ الدعوة.

ـ اذا وقعت هذه الحروب الدفاعية وانتصر المسلمون ودخلت بلاد العدو في سلطانهم، فليس يطلب من الرعايا غير المسلمين اكثر من الجزية والطاعة، مع حريتهم الكاملة في ممارسة دينهم.

هذا ما قاله «سيد سابق» في فقه السنة، وهذا ما قاله «سيد قطب» في «ظلال القرآن» والمطابع الاسلامية لا تكف عن طبع الكتابين، والمسلمون الطيبون يقبلون على الكتابين معا. ولو وصل الاخوان للحكم على عهد الشيخ سيد سابق والامام الشهيد حسن البنا، لصدر تشريع «الحرب الدفاعية» عن الجهاد. ولو كان الحكم من نصيبهم في عهد الاستاذ الشهيد «سيد قطب» لألغى هذا التشريع، وصدر تشريع «الحرب التحريرية».

ولا ضير في ذلك، ولا عجب، ولا انتقاد فهذه سنة الحياة، ولكن السؤال: هل يمكن اعتبار احد التشريعين تشريعا الهيأ؟! لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. هل من قائل بان سيد سابق غفر الله له يفتئت على الله ويغتصب سلطانه ويشرع للناس بدلا من الله؟!... ام هل يقال الشيء نفسه عن سيد قطب؟!

كلها اجتهادات بشرية، تستند الى القرآن والسنة، ومن ثم فهي اجتهادات اسلامية، قابلة للخطأ والصواب، تأخذ منها بما تقبله عقولنا وما يصير عليه اجماع الأمة، ونحن ندرك تمام الادراك انها من اجتهادات بشر ولكنهم اجتهدوا واملوا ان تكون من مرضاة الله سبحانه وتعالى وطبقا لمشيئته. فان اصابوا فلهم اجران وان اخطأوا فحسبهم اجر واحد.

غير انه تجدر الاشارة الى ان الشيخ سيد سابق لم يفته ان يؤكد ان «الامة الاسلامية» هي الامة المنتدبة من قبل الله لاعلاء دينه، وتبليغ وحيه، وهي منتدبة كذلك لتحرير الامم

والشعوب» (ص ٦٤٨ المجلد الثاني الطبعة الثالثة ١٩٧٧) ولم يتوقف ليشرح ما قد يعتبره البعض تناقضا بين مسؤوليات هذا الانتداب وبين اشتراط الموقف الدفاعي لمشروعية القتال. وانه بهذا النص قد الغى كل منطقة. واغلب الظن انه استدراك اراد به تفادي الانتقادات من «الصقور» وقفزه فوق هذا التناقض وسقوط الآخرين في هذا التناقض مرجعه العجز عن فهم طبيعة المسؤولية العالمية للاسلام والمسلمين، فهي في تصور المودودي، ان المسلمين مطالبون بتوحيد الجنس البشري كله تحت سلطة واحدة، هي السلطة الاسلامية. وهو تصور الشهيد سيد قطب نفسه.

اما نحن فنعتقد العكس تماما، نعتقد ان المسلمين مطالبون بمنع اية محاولة تستهدف توحيد الجنس البشري في دين واحد او نظام واحد أو سلطة واحدة فالتعدد والتميز هو صفة هذا الكون التي ارادها الله وصبغه بها. والتي تشير الآيات العديدة، على انها ثابتة دائمة بارادة الله تعالى، ومن ثم فمحاولة ازالة هذا التميز، هو حرث في البحر، ومعارضة لمشيئة الله، الذي لو اراد لجعل الناس امة واحدة. فالاسلام جاء بالتوحيد لمن يؤمن به، وجاء يكفل حرية الاختيار «للانسان» وشرع الجهاد لكفالة هذه الحرية، والتصدي لأية محاولة تسعى الى فرض وجهة نظر واحدة على البشر، وللذين يطبقونه: الخص رأيي في الجهاد في التالي:

ـ الاسلام يؤمن بالتعدد والتمايز، فهو الصيغة المقابلة والمؤكدة لوحدانية الله، فهو وحده الفرد الصمد، بينما التعدد والتناقض والتغير من صفات الكائنات، من صفات الكون المخلوق بارادة الواحد، وهذا التعدد والتمايز باق الى نهاية الكون.

ـ الاسلام شرع الجهاد لحماية هذا التعدد، وحماية حرية الاختيار، ومن ثم يجب ان يتصدى المسلمون لكل دعوة شمولية، تريد ان تفرض نظاما واحدا، او فكرا واحدا، أو عقيدة واحدة على الناس، سواء داخل المجتمع الاسلامي او على نطاق الجنس البشري.

ـ حروب المسلمين الاولى لها اسبابها العديدة، وفي مقدمتها اتاحة الفرصة للبشر للاختيار، بطرح النموذج الاسلامي في التطبيق على نطاق عالمي.

ولكن ليس من بين هذه الاسباب «العديدة» قناعة المسلمين بانهم يحملون تكليفا او تفويضا باخضاع الجنس البشري للسلطة الاسلامية. كما لا يجوز اغفال حقيقة، ان الروم قتلوا بعض الذين اسلموا، وكانوا يتهددون الدولة الاسلامية، حتى ان المسلمين في المدينة عندما طرق بيت احدهم ليلا، هب فزعا يسحب سيفه وهو يهتف: هل جاءت الروم؟.

فتوقع الغزو الرومي، كان يشغل بال المسلمين في المدينة ويقلق نومهم سنوات، قبل الحرب الكبرى، وقد توفي النبي والدولتان مشتبكتان في الحرب.

اما فارس فكانت تحتل او تهيمن بصورة ما على اجزاء من صميم جزيرة العرب، بعضها

داخـل في الاسلام مثل البحرين والاحساء. وكان سكان هذه المناطق رغم عروبتهم التي لاشك فيها، يدينون بالمجوسية، دين الفرس كنوع من التبعية. فلما تألق نجم العروبة بالاسلام. دخلت هذه المناطق في دين الله. وما كانت فارس لتسكت على ذلك، اضف الى ذلك ان كسرى كان واضح النية في الصدام، ورفض المعايشة، فهو لم يكتف بتمزيق رسالة النبي، وهو عمل ـ في حد ذاته ـ يكفي لاشعال الحرب بين الدول حتى وقتنا هذا. بل أمر ـ ايضا ـ بعض اعوانه باحضار النبي الى بلاطه مقيدا. أي غزو المدينة بالطبع.

وايضا يجب الا يفوتنا، ان المسلمين لم يحاولوا اخراج العباد الاحباش من عبادة العباد، الى عبـادة الله، بل استثنوهم. وامرهم النبي: «اتركوا الاحباش ما تركوكم». ومعروف حسن علاقـة الاحبـاش بالمسلـمين، وبالدولة الاسلامية. وهذا يعزز القول بان الدولة الاسلامية تقبل وترحب بالتعايش، مع من لا يبادرها بالعدوان. ومن لا يضطهد المسلمين او الداعين للاسلام.

وهكـذا انتشرت جيوش المسلمين شرقا وغربا ضد امبراطوريات اكبر واقوى، ولكنها توقفت عن عبور البحر الى الحبشة الاضعف والاقرب. بل وقد يقول البعض «والاخطر» استراتيجيا او جغرافيا وتاريخيا. فهي وحدها التي غزت الجزيرة حتى وصلت الى مشارف مكة، ولكن امرنا بترك الاحباش ما تركونا.

كما يجب ان نضـع في اعتبـارنـا انـه بقيام الدولة الاسلامية، فانها تتعامل مع قوانين واعتبارات، ليست كلها من الوحي وان كان سلوكها تحكمه تعاليم الوحي. الا ان القناعة بانه لا يمكن فتح مصر الا بعد السيطرة على الممر التاريخي عبر فلسطين، وانه لا استقرار في الشام الا بالسيطرة على مصر. هذه اعتبارات عسكرية تفتقت بالطبع بنور الاسلام، ولكنها ليست من الدين وليس من الضروري ان نجد لها تفسيرا دينيا.

ـ قيام السلطة الاسلامية في بلد من بلدان، لا يعني ابداً اخراج، ولا خروج رعايا هذا البلد من «عبادة العباد» لأن ذلك يتنافى مع حرية العقيدة التي يحميها المسلمون وينص عليها اسلامهم، بل من حق غير المسلمين الخاضعين للسلطة الاسلامية، ممارسة شعائر دينهم بحرية تامة. اما القضايا الاجتماعية والاقتصادية. وغيرها مما يتعلق بالحياة المشتركة داخل الـوطن الـواحـد، فتتقرر بالديموقراطية. اي بالاغلبية، وما يحقق المصلحة العامة، كما سنحدد ذلك في بحثنا عن وضع الاقليات.

ـ الجزية، هي ضريبة دفاع، بدليل ان خالد بن الوليد اعادها لأهل الشام في المناطق التي اضطر للانسحاب منها. فهو رأى انه مادام لا يقدر على الدفاع عن الاهالي، فلا حق له في جزيتهم. فهي دليل قبول سلطة الدولة، مثل الزكاة، ولا تعني الخروج من عبادة العباد، فقد اعفى الاسلام القساوسة والرهبان من الجزية ليستمروا في «عبادة العباد» الا

اذا فهمنا تعبير الخروج من «عبادة العباد» هو قبول السلطة الاسلامية. مع الاستمرار في الشرك وطاعة الرهبان في امور الدين.

ـ الجهاد يحمي المجتمع الاسلامي من الانحراف، من الخضوع لبطش حاكم او طبقة، ويمنع قيام طبقة العسكريين المحترفين.

ـ المسلم مطالب «بـالجهاد» ضد كافة اشكال السيطرة الاجنبية على وطن المسلمين، وحيثما وجدت، حتى ولو كانت خارج وطنه الخاص.

ـ الجهاد اليوم فرض عين لأننا في حالة دفاع عن انفسنا واوطاننا وديننا.

ـ نحن ضمير العالم، ونحن الجانب الثوري، ونحن القوى التحريرية للانسانية، لأننا المدافعون ضد النزعات الشمولية والهيمنة، المدافعون عن حق الانسان في الخلاف والتعدد والتمايز.

الفصل الثاني

.. الاقليات
في الدولة الاسلامية..

نقطة البدء في حديث أهل الذمة، هو اننا نرفض الاعتراف بوجود «أهل الذمة» في الاوطان الاسلامية القائمة. فليس المسلمون في مصر مثلا أهل الفتح ولا السلطة الاسلامية، سلطة فاتحة لمصر حتى يصبح اقباطها أهل ذمة. وليس للمسلمين أي حق في ميراث عمرو بن العاص، اكثر من حق المصريين الاقباط فيه. فالفتح وما قام وترتب عليه من علاقات سياسية وقانونية، هو حادث تاريخي انقضى وقته. ونحن اليوم، امام شعب واحد متكامل الحقوق والواجبات، اغلبيته العظمى مسلمة، واقليته مسيحية، فليس هناك أهل ذمة، ولا ما يترتب على ذلك من علاقات وأوضاع!

وربما كان الافضل في عرض وجهة نظرنا أن نقدمها من خلال مناقشة الدراسة التي وضعها المرحوم «المودودي» حول حقوق أهل الذمة، والتي ترجمت واعيد نشرها في مصر..

وقد جاء في مقدمة البحث، «انه مما لايقبل الجدل أنه ما قامت ولا تقوم في الأرض دولة اسلامية في أية ناحية من نواحيها، دون أن تكون فيها اقلية غير مسلمة مع اغلبيتها المسلمة».

وهي فرضية غريبة، فهناك اكثر من دولة في وقتنا الحاضر، لا تضم اقليات غير مسلمة، مثل السعودية والمغرب.. الخ..

ولا يتعجل القارىء ويظن اننا نتبع اسلوب القفش مع الاستاذ الجليل، فان هذه الملاحظة الغريبة منه، تخفي وراءها موقفا مبدئيا، فهو لا يفرق بين غير المسلم «المواطن» وغير المسلم «الاجنبي». ومن هنا كان «قانونه» صادقا.. اذ لابد من وجود غير مسلمين.

ثم يقول «الدولة الاسلامية، دولة قائمة على العقيدة وتختلف في نزعتها عن الدولة «القومية ـ الديموقراطية» اما الفارق، فقال إنه يفهم من المقارنة التالية بين الدولتين:

«١ـ أن الدولة الاسلامية تقسم القاطنين بين حدودها الى قسمين: قسم يؤمن بالمبادىء

التي قامت عليها الدولة، وهم المسلمون، وقسم لا يؤمن بتلك المبادىء وهم غير المسلمين.

٢ـ الدولة القومية تقسمهم الى طائفتين: طائفة تنتسب الى الجنس المؤسس للدولة القائمة والاخرى التي لا تنتسب اليه، وتعرف الطائفتان في المصطلح العصري بالاغلبية والاقلية. National Minority

واذا كانت لنا تحفظاتنا على تعريف الاقليات في الدولة التي سماها القومية ـ الديموقراضية، فاننا نعترض تماما على تعريفه للاقلية في الدولة الاسلامية، فمفهومه يتعارض تماما مع نظرتنا، فلو حكمنا بداية ان المواطنين غير المسلمين لا يؤمنون بالمبادىء التي قامت عليها الدولة، فقد جردناهم من كل ولاء، واستحال منحهم صفة المواطنة الكاملة. وسقط عنهم التكليف فلا تجوز مطالبتهم بالولاء لهذه الدولة وطاعة قوانينها. مادمنا قد قبلنا ابتداء أنهم كاقلية لا يؤمنون بالمبادىء التي قامت عليها الدولة!

لا....

نحن نعتقد أن اول شرط للمواطنة هو الايمان بالمبادىء التي قامت عليها الدولة، الايمان بالوطن والدولة، وقبول ما تختاره الاغلبية لتحديد شخصية هذه الدولة (وليس نظامها السياسي ولا حكومتها ولا صيغة اقتصادها في فترة من الفترات) بل الشخصية الحضارية فلا يجوز مثلا ان نقول بوجود طائفة في مصر بحكم دينها لا تؤمن بعروبة مصر..

فجوهر نظريتنا، هو ان يقوم المواطنون ببناء دولة على مبادىء الاسلام ووفق مفهومهم للاسلام. دون ان يطلب من كل مواطن أن يؤمن بالاسلام دينيا كشرط لقبوله هذه الدولة أو تمتعه بحقوق المواطنة فيها. ولأن نظرية «المودودي» لا تقبل هذا التصور، فأنه تنقل ما بين عزل غير المسلمين عن حقهم المشروع في ادارة وطنهم ودولتهم، أو «التصدق» عليهم بحقوق مواطنين من الدرجة الثانية، أو حتى حقوق المقيم غير المواطن، الى التطرف المضاد، أو اللاطائفية السوقية، فيعطيهم امتيازات، تشبه امتيازات الاجانب في عهد الحماية والمحاكم المختلطة، وتجعلهم طائفة فوق الاغلبية، وفوق القانون، وذلك كله من رفض فكرة المواطنة الكاملة، والدوران حول اجتهادات الفقهاء العظام في عصرهم، ومحاولة تطبيق تشريعات الدولة الاسلامية المنتصرة التي قامها الفاتحون، تطبيقها على مجتمعات مقهورة لا فاتح فيها الا الاجنبي المستعمر، مجتمعات تواجه مشكلة التحرر لا الفتح!

يقول المودودي:

«ان الحكومة في الدولة الاسلامية، لا يسير دفتها الا الذين يؤمنون بمبادئها، وهي ان جاز لها أن تستخدم غير المؤمنين لشئونها الادارية إلا انها ليس لها أن تقلدهم في نظامها مناصب القيادة للحل والعقد. أما الدولة القومية فلا تعتمد لقيادتها ومناصب الحل والعقد فيها الا على ابناء جنسها، ولا تكون الاجناس الاخرى القليلة العدد من رعاياها موضع

ثقتها واعتمادها. وهذا ما يجري عليه العمل فعلا ، في هذه الدولة وان لم يصرح به فيها أحد، ولئن قلد أحد من افراد الاقليات منصبا من مناصبها الرئيسية فانما يكون ذلك منها من باب التكلف والرياء ، ولا يكون لذلك الفرد يد تذكر في وضع الخطط العملية».

هناك لبس بين الجنس والاغلبية والاقلية، إلا أنه يجب القول ان هذه البلدان «القومية الديموقراطية» قد حلت مشكلة الاقليات نظريا باعطاء كافة الحقوق لجميع المواطنين بلا استثناء على الاقل في القانون المكتوب. وان ظلت الاغلبية تمارس سيطرتها، باتفاق غير معلن، كما يقـول شيخنا، أو بحكم الوضع الطبيعي، فليس عدم ظهور رئيس اميركي يهودي أو مسلم، نتيجة مؤامرة من الاغلبية و«الجنس المؤسس»، بل لأنه ـ حتى الآن ـ لا يمكن القول بانعدام وجود صالح لهذا المنصب من بين الاغلبية. اما انتخاب يهودي لمجرد اثبات مساواة الاقليات، فتلك هي اللاطائفية السوقية المبتذلة كما يسميها المجاهد الجزائري «عمار اوزيغان» عن حق!

ويفهم من كلام «المودودي» ان المواطنين غير المسلمين (اذا اعتبرهم مواطنين) لن تتاح لهم فرصة تولي المناصب القيادية. ولا حتى اختيار الذين يشغلون هذه المناصب، لأن اختصـاصات «أهل الحل والعقد» تشمل حق اختيار شاغلي المناصب القيادية، وكذلك توليهـا. ولـذا «فأهل الذمة» ليسوا مواطنين ولا حتى من الدرجة الثانية، لأن الزنجي الامريكي يمارس حق الانتخاب، وله نظريا الحق في أن يرشح نفسه، وان ينتخب لمناصب الدولة. ويوجد منهم بالفعل، اعضاء في اجهزة «الحل والعقد». وان كان تأثيرهم مازال بعيدا عن ان يؤثر في قرارات أهل «الحل والعقد» من الاغلبية البيضاء، التي لا تنتخب من السود ما يعكس نسبتهم الحقيقية، وحتى لو حدث ذلك، فسيظل الحل والعقد في يد تلك الاغلبية، وهـو ليس خطأ في النـظام الديموقراطي، بل ان محاولة تغييره قسراً تعني قهر الاغلبية والزامها بما لا تريد، فالخطأ هو في ايديولوجية، ونفسية، وقيم الاغلبية التي ترفض المساواة بسبب اللون.

الخطأ في عقيدة البيض العنصرية، وهذه لا سبيل الى تغييرها، الا بتطور تلك العقيدة لتصبح اكثر انسانية، أو بالقوة والضغط والمساومة من جانب الزنوج. والحل الثاني هو حل مؤقت، ويحمل طابع الارغام، سريع التمزق فور تغير موازين القوى أو زوال الحاجة لتأييد الاقلية. كما نرى الآن من الغاء لمعظم قوانين المساواة أو الاختلاط التي وضعت في ظل الـديموقراطيين، او بالاحرى، عندما كانت الدولة الامريكية بحاجة الى دماء الزنوج في حرب فيتنام.

فاذا كانت الدولة الاسلامية قد حكمها خلفاء حمر الشعر أو سود البشرة في القرن الثاني لقيامها، وصار كل فقهائها سوى فقيه واحد من الموالى، قبل انتهاء القرن الاول، فذلك

لأن «مبـدأ» أو عقيدة الدولة الاسلامية لا تعرف العنصرية، وليس لأن نظامنا كان اكثر ديموقراطية، أو لأن الاغلبية كانت تتعمد اختيار الاسود. بل لأن الاغلبية لم تكن تجد مبررا من قناعتها وفلسفتها، وفقا لعقيدتها، يحول دون أي لون أو جنس، من أن يصبح من «أهل الحل والعقد» مادام مسلما، حتى وان حفل ادبنا بالسخرية من «الاسود الخصي» أو من العرب الذين ملوكهم عجم، أو من الاعراب الذين كانوا يرعون الشاة قبل ان يتعلموا الجلوس على السرير، فتلك رواسب انسـانية يصعب القضـاء عليهـا. ويكفي الاسلام فخرا، انه منع تحولها الى ممارسة أو ادعاء تفوق في الواقع أو في الحقوق.

يقول المودودي :

«ان الدولة الاسلامية مضطرة ـ باعتبار نوعيتها ـ الى أن تميز بين المسلمين وغير المسلمين تميزا واضحا، وتحدد بصراحة الحقوق التي تستطيع ان تخو لها غير المسلمين والتي لا تستطيع ان تخولهم إياها. اما الدولة القومية فهي تسلك خطة النفاق، فتقرر من حيث نظريتها ان جميع سكـانها أمة واحدة، وتجعل لهم على صفحة القرطاس حقوقا متساوية. ولكن تميز بالفعل بين الاغلبية والاقلية، ولا تخول الاقليات شيئا من الحقوق على صفحة الارض»!

واظن اننا شرحنا الوضع في الدولة القومية ـ الديموقراطية بما يسمح لنا بالقول بان راي الشيخ فيه بعض التجني بالنسبـة لوضـع الاقليات، فهم ينالون «شيئا من الحقوق على صفحة الأرض».

وكان يمكن للمودودي ان يكون اكثر موضوعية، لو عرض الموضوع من زاوية تاريخية فعقد مقارنة بين موقفنا من الاقليات في ما يسمى بالعصور الوسطى، وموقف هذه الدول التي اصبحت قومية ـ ديموقراطية، فنحن حمينا كافة الاقليات، اما عندهم فقد ابيدت، أو عوملت معـاملة مازالت تلطخ تاريخ تلك الـدول بالعـار. فلما بدأ التخلف في العـالم الاسلامي، والتقدم في الدول المسيحية الغربية، تغير وضع الاقليات هنا وهناك لعوامل عديدة، ولكن بقي الجوهر، وهو المساواة الانسانية في حضارتنا، حتى وان وقعت حوادث مخالفة لتلك القيم، بفعل التخلف وفقدان الاستقلال والجهل بتعاليم الاسلام أو كردة فعل للتعصب العـدواني من الـدول الاوروبية. وفي نفس الوقت بقت النزعة العنصرية التي ترفض مساواة البشر، كامنة في صميم الانسان المسيحي الغربي، وان تعددت اشكالها، فهنـاك دائما ابدا العنصر المضطهد، أقلية منبوذة في تلك الحضارة.. انسان من الدرجة الثـانية، أو حيوان خلق على هيئة الانسان لكي يسهل على الانسان الحقيقي، الانسان الابيض استخدامه، أو استغلاله. فمع اعلان الديموقراطية في اوروبا والاعتراف بمساواة الاقليات، كان الاستعبـاد البشـع والاذلال، بل الامتهـان لكل خصائص الانسانية في المستعمرات. والمهاجرون الاوروبيون الذين اعلنوا وثيقة الحقوق الديموقراطية في الدنيا

الجديدة، وصرخوا دون أن تطرف لهم عين، بأن كل الناس سواء بصرف النظر عن اللون والجنس والدين، انصرفوا فور اعلان الوثيقة الى حلقات بيع الزنوج بالمزاد العلني، أو عادوا الى منازلهم حيث كان الانسان «الاسود» محروما من كافة الحقوق بسبب لونه، يعامل معاملة أقل من الحيوانات. وربما قتل ليلتها عدة مئات من الهنود، بتهمة اعتراض «الانسان» الامريكي، أو حتى مجرد الوجود في طريقه.. وما كان يخطر ببال هندي أو زنجي أو حتى يهودي أبيض أن يتزوج - وقتها من - مسيحية بيضاء.

وأوروبا الديموقراطية في الثلاثينات والاربعينات من القرن العشرين هي التي انفجرت فيها اشهر موجة عنصرية ضد اليهود.. فالمساواة أو القناعة بوحدة الجنس البشري كامنة في اعماق الانسان المسلم، حتى وان غطتها قشرة غليظة من التخلف، وبنفس القوة، فان الايمان باللامساواة، بالتفوق العنصري، كراهية المخالف هي النفسية الحقيقية، للانسان الغربي مهما حاول أن يغطيها بوثائق اعلان حقوق الانسان والديموقراطية وشعارات الحرية والمساواة والأخاء. ووقائع التاريخ خلال الـ ١٤ قرنا الماضية خير شاهد على ذلك.

يقول المودودي:

«ان المشكلة التي تواجه الدولة الاسلامية لوجود العناصر غير المسلمة في نظامها، تحلها هذه الدولة بأن تقنع تلك العناصر بما تعطيهم من الضمان بحقوق معينة وتمنع تدخلهم في حل الامور وعقدها في نظامها المبدئي. على انها تفتح لهم باب الدخول في الجماعة الحاكمة اذا رضوا بمبادىء الاسلام وقبلوها».

وهذا «التمييز» الذي حدده مرة اخرى، بالمنع من التدخل في «حل الأمور وعقدها» لا تجدى معه خفة اليد كأن يقال «حل الأمور وعقدها في نظامها المبدئي». فاذا كان المقصود تغيير الاسلام أو الغاء الاختيار الاسلامي للدولة، فهذا محظور بموجب الدستور حتى على المسلمين منذ لحظة اقرار الاغلبية للدستور الاسلامي. اما نظام الحكم في الدولة وتدبير الحياة اليومية، «فالمواطنون» يفترض أن يكونوا فيه سواء، فان طرح مطلب حرمان البعض أو القول بأن بعض المواطنين اكثر مساواة من بعض فتلك قضية يجب أن تطرح بوضوح.

كذلك لا معنى للاشادة بكرم الدولة الاسلامية اذ تسمح للمسيحيين بالدخول في الجماعة الحاكمة اذا اسلموا!! أو هذا على الاقل ما فهمناه من قوله، «اذا رضوا بمبادىء الاسلام وقبلوها».. على أية حال إن كان يقصد دخولهم في الاسلام، فذلك قول لا معنى له ولا حاجة للنص عليه اما اذا كان يعني قبول التطبيق العملي لهذه المبادىء في شكل نصوص قانونية عامة تشمل كل المواطنين، دون الايمان ولا القبول بلا اله الا الله محمد رسول الله. فان القضية تعتبر منتهية، ونكون قد اتفقنا، ولا حاجة للاستمرار في النقاش. ولكن مجمل حديثه لا يسمح لنا بهذا الظن، فهو يقصد دخولهم في الاسلام، ولكنه تلطف لكي لا

يمسكها عليه «المستشرقون الماكرون» واتباعهم من «المهزومين»، فجعلها «رضوا بمبادىء الاسلام وقبلوها». ومن ثم يجب أن نستمر في المناقشة:

يقول:

«اما الدولة القومية فتحل هذه المشكلة الناشئة من وجود العناصر الأجنبية في نظامها بتدابير ثلاثة مختلفة: أولها أن تقضي على فردية هذه العناصر بالتدريج حتى تذوب في الاغلبية. والثاني أن تستعمل الطرق الظالمة من القتل والسلب والنفي لمحو وجودهم في بلادهم، والثالث أن تنزلهم في حدودها منزلة المنبوذين. هذه هي التدابير الثلاثة التي كثيرا ما استخدمتها الدول القومية الديموقراطية في العالم ولاتزال تستخدمها حتى في هذه الآونة. وها هم المسلمون يذوقون وبالها في الهند في فلسطين المحتلة وفي الجزائر مع كثرة عددهم فيها..».

ولا نريد ان نناقش وضع الاقليات في البلدان القومية - الديموقراطية اكثر مما فعلنا.. ولا يجرمنكم شنئان قوم على الا تعدلوا.. ولسنا نحب ان يوصف اسلامنا بأنه افضل الموجود! أو الاقل سوءا! فهو في نظرنا افضل الممكن، والكمال المطلق الذي لا كمال بعده في العقيدة، كما في المعاملات. وما من نظام موجود أو وجد، أو سيوجد، سيتخطاه، اعنى سيتخطى الصيغ التي يمكن ان يصل اليها المسلمون من وحي دينهم.

ولكن لا يفوتنا ان نشير الى بعض الملاحظات. فالمسلمون في فلسطين وفي الجزائر ليسوا أقلية تضطهد من قبل مواطنيهم الاغلبية، بل هم الاغلبية، واصحاب البلاد الشرعيون، يتعرضون لقهر الاقلية الاجنبية المغتصبة المستعمرة. فلا مجال للمقارنة او الحديث عن وضع اقلية، فهذه مشكلة وطنية.

يقول: «ان الحقوق التي تمنح للذميين في الدولة الاسلامية، منصوص عليها في الشرع، ومن ثم فلا يمكن ان تنقص، ولكن للمسلمين ولا ريب ان يزيدوهم حقوقا اخرى، زيادة عليها، بشرط الا تعارض هذه الزيادة مبدأ من مبادىء الاسلام».

«اما الدول القومية - الديموقراطية فحقوق الاقليات فيها ممنوحة من قبل الاغلبية فهي رهن معاملة الاغلبية لها ولا ضمان بثباتها».

وهذا صحيح بالطبع، وان كنا نضيف أن الاسلام لا يكتفي بالنص على حقوق غير المسلمين - وان كان النص في حد ذاته ضروريا - الا انه - وهو الأهم - يربي العقلية والنفسية المسلمة على قبول هذه الحقوق كحقيقة مسلم بها، يربي الشعور بالانتماء الانساني والاخوة الانسانية، والمساواة الانسانية في اشكالها المتعددة. وسنعتمد على فتوى الشيخ بجواز زيادة حقوق أهل الذمة عندما نوضح رأينا.

ثم يقسم لنا اصناف الرعية غير المسلمة، وهو كما ذكرنا ينقل لنا من كتاب فقه وضع في

عصر الفتوح الاسلامية، عندما كان المجتمع ينقسم الى فاتحين لهم السيادة بحق الفتح، ومقهورين وقعوا وثيقة الاستسلام. وهي حالة لا وجود لها الآن، ويصعب فهم الاساس الذي يستند اليه في معاملة مسيحي هندي اختار عن طواعية الخروج من القومية الهندية والتمتع بجنسية الدولة الباكستانية، واشترك مع «محمد علي جناح» في تأسيس هذه الدولة، كيف يتحول المودودي بمجرد قيام الدولة الى أهل حل وعقد، ويطالب هذا المسيحي بدفع الجزية عن يد وهو صاغر؟!

متى فتح المودودي باكستان؟، ومتى عرض الاسلام او الجزية أو السيف على مواطنه المسيحي، الذي بقبوله جنسية باكستان قبل أن يعيش في دولة تقوم على الاسلام وتحكم بالاسلام؟!

والمسيحي السوري مثلا الذي حارب مع المسلمين ضد الاحتلال الفرنسي ثم الاسرائيلي ومن وراء ذلك ومن بعدهم، حتى اذا ظفر السوريون بالحرية واعلنوا الدولة السورية المستقلة الحرة التي لا يمكن ان تكون الا دولة اسلامية.. هل ينقلب عليه المسلمون فور النصر ويقولون له: ادفع الجزية التي دفعها رعايا هيرقل لخالد بن الوليد؟!

لا نص شرعي.. ولا فهم اسلامي.. ولا منطق يقول بهذا..

من هنا نرى اننا امام اوضاع مختلفة تطلب اجتهادات جديدة، لا أن نستخرج كتاب فقه من القرن الثاني الهجري وننقل عنه: «حقوق أهل الذمة والمسالم والمعاهد»! تلك قضايا تاريخية بالنسبة للبلاد الاسلامية القائمة، وان تكن مبادىء حية خالدة من ناحية صلاحيتها لترشيد وتنوير المجتهدين في ما سيفتح الله علينا من بلاد غير مسلمة، وهذه بالطبع لن تفتح الا بعد تحرير البلاد الاسلامية الموجودة، ذلك أن درأ الفساد مقدم على طلب المصلحة. وتحرير العالم الاسلامي القائم اليوم عبء سيستغرق عدة اجيال ومن ثم فالحديث عن الفتح وشروطه، يصلح فيه ما قاله الصحابي الجليل للذي سأله عن قضية نظرية.. «هل حدث ذلك؟» قال السائل: لا لم يحدث.. فرد الصحابي: «اذا حدث سنجتهد لكم..»

هذا اسلامنا..

ان البحث في كيفية معاملة اهل الذمة في البلاد التي سيفتحها المسلمون، قضية سابقة لأوانها، والمطلوب الآن هو الاجتهاد حول وضع الاقليات في البلدان الاسلامية القائمة حيث لا فاتح ولا ذمي.. بل وحدة وطنية عمرها ألف سنة، خلقت مواطنة كاملة، ومن ثم لا يجوز الاكتفاء بالنقل من كتب الفقه، لان الاصناف الثلاثة «للرعايا» التي اوردتها هذه الكتب والتي طرحها «المودودي» لا تنطبق على اوضاعنا في العالم العربي، ولا على معظم الدول الاسلامية وهي كما اوردها:

«الذين يدخلون في كنف الدولة الاسلامية بعقد صلح أو معاهدة».

اي صلح وأي معاهدة يمكن تصورها بين المواطنين المسلمين والمواطنين غير المسلمين مادمنا لا نفترض قيام حرب، فحتى لو حدث قتال خلال حرب التحرير، أو بناء المجتمع الاسلامي فنحن لا نتمنى، ولا نسعى لأن يتخذ شكل مواجهة مسلحة ضد الاقليات من ابناء الوطن الواحد. وقد اشترطنا ـ كما سيرد ـ ان تضم الحركة الاسلامية نسبة مؤثرة من غير المسلمين.

القسم الثاني، كما يرى المودودي، هم: «المغلوبون بعد الهزيمة في الحرب اي الذين فتحت بلادهم عنوة».

وقد اوضحنا انه في المستقبل المنظور لا نتوقع فتح بلد اجنبي عنوة، وربما استغرقتنا، ولعدة اجيال، مهمة تحرير البلاد التي فتحها عمرو وابو عبيده وخالد وقتيبة والمغيرة رضي الله عنهم.

(وربما كانت الحالة الوحيدة التي ترد هنا، ونرجو الا تتكرر، هي فتح أو تحرير فلسطين حيث غيرت الصهيونية الطبيعة السكانية. وهذه قضية تحتاج الى اجتهاد خاص. فهل سيقبل المحررون الجزية من اليهود، ويبقوهم في مساكن واراضي الفلسطينيين؟.. هذه قضية لم افكر فيها بعد..)

والفئة الثالثة ـ في تقسيم الشيخ المودودي ـ هي الذين ينضمون الى الدولة الاسلامية بطرق غير طريقي الصلح أو الحرب، ويقول «ان الفئات الثلاث من غير المسلمين، وان كانوا مشتركين في الحقوق العامة للذميين على السواء، الا ان هناك فرقا يسيرا بين الاحكام الواردة في الصنفين الأولين»..

ولما كنا لم نجد انطباقا بين هذه الحالات ووضع ذميينا، فسنضرب صفحا عن شرحه للفروق. لنناقش ما يقترحه من حقوق أهل الذمة..

يقول في صفحة ٩ انه «لا يجوز ان تطبق عليهم القوانين الجنائية الشديدة، ولكنه يعود في صفحة ١٥ فيقول: «ان القانون الجنائي في الدولة الاسلامية سواء للمسلم والذمي، ويتساوى فيه الاثنان درجة، فالذي يعاقب به المسلم على ما يأتي من الجرائم يعاقب به الذمي ايضا. وان سرق مسلم مال ذمي، أو سرق ذمي مال المسلم، قطعت يد السارق في كلتا الحالين». وهو لم يستثنى هنا الا حد الخمر، ولا ادري كيف يستقيم ذلك مع قوله في الصفحة التاسعة «ولا ان تنفذ عليهم القوانين الجنائية الشديدة». فليس في القانون الاسلامي أشد من القطع والرجم. وقد قرر انهم «سواء في حدود الزنا والقذف والسرقة» ص ١٥.

على اية حال لقد حاول بعض الاسلاميين ترضية غير المسلمين باقتراح استثناءهم من القوانين الجنائية، عندما تقدموا بمشروع قانون لتطبيق هذه الحدود، فغضب المسيحيون

المستنيرون تمسكا بمبدأ المساواة والخضوع لما يشرعه البرلمان (انظر آخر مقال كتبه الصحفي الوطني المرحوم الاستاذ سامي داود، قبيل وفاته ردا على اعلان وزير العدل بأن قانون حد السرقة والخمر لن يطبق على المسيحي. قال سامي داود «أيصبح في البلد قانونان؟ واحد للمسلمين، وواحد للمسيحيين ؟! نحن شعب واحد، ويجب ان يطبق علينا قانون واحد، مادام هذا القانون سيصدر من مجلس الشعب سلطتنا التشريعية المنتخبة». وقال ان قوانين المواريث الاسلامية تطبق على الجميع، فهل شكا أحد من ذلك فلماذا في النواحي الجنائية يصبح لنا قانونان، وكأننا شعبان».

ونحن نؤيده تماما، وهذا تفكير جيل الوحدة الوطنية، ولسوء الحظ مات فورنشر هذا المقال. وقارن هذا الموقف الواعي من المواطن القبطي بموقف الانتهازيين الاسلاميين الذين لا مانع لديهم من كسر الوحدة الوطنية لمجرد الظفر باصدار، ولا اقول تنفيذ قانون الحدود؟!

نحن نؤيد سامي داود، لأن المساواة امام القانون، وهي أول مبدأ في الديموقراطية والوحدة الوطنية، لا تتحقق اذا ما استثنيت فئة من «العقوبات الجنائية الشديدة» فهذا امتياز للص غير المسلم لا مبرر له، وليس من الحقوق الشخصية بأية حال ولا من حرية العقيدة. فالسرقة ليست قضية دينية، ولا قضية شخصية . . ومادام غير المسلم، يقبل ان يحكم عليه بالاشغال أو حتى الاعدام بموجب القانون الفرنسي، فما عليه أن يعاقب بعقوبة لها اصل اسلامي، مادامت قد شرعت من خلال الاجهزة التشريعية التي ارتضاها؟ . . وكل دول العالم تطبق القانون على الموجود على ارضها بلا استثناء حتى على الاجانب الذين لا يحملون جنسيتها ويرفضون مبدأها، بل والذين يحاربون هذا المبدأ جهرة، ولكنهم ماداموا فوق ارضها، فلابد أن يخضعوا لقانونها بصرف النظر عن شخصية أو جنسية أو معتقد الشخص، ولا أظن ان لصا مسيحيا سيدفع بأن معتقداته تفرض عليه السرقة، أو تشترط عقوبة خاصة لجرائم السرقة.

والمسلم الذي يضبط «متزوجا» بامرأتين في الولايات المتحدة أو بريطانيا يعاقب بموجب قانونها المسيحي - الموقف من هذه القضية، بينما لا يعاقبه نفس القانون اذا اثبت ان واحدة منهما ليست الا عشيقة، وانهم يؤمنون بالجنس الجماعي! . . بل ويسمح القانون الآن بزواج الرجل بالرجل، والمرأة بالمرأة ويرتب لهما حقوق الزوجية! . . وكل هذا مخالف لشريعة المسلم والمسيحي، ولكنه مضطر للخضوع له مادام قبل الانتماء للدولة . . كذلك نحن لا نقر «المودودي» في اباحة الخمر لغير المسلم اذ قال: «فلهم أن يصنعوا الخمر ويشربوها ويبيعوها».

فالدولة الاسلامية لا تحرم الخمر على رعاياها لأن الله امر بذلك، فقط، بل لأنه كما يعرف ويؤكد كل أهل العلم والطب، ان الخمر مفسدة للعقل، خطر على النفس والمال،

ومن ثم فقوانين تحريم الخمر أو بيع سن الشارب ومنع المخدرات في اوروبا وامريكا أو الدول الديموقراطية -القومية لا تميز بسبب المعتقد، أو حتى القناعة العلمية بأن الخمر لا تضر، أو الحشيش مفيد!

القانون هو القانون، ومادامت مصلحة العامة واحدة، فلا يجوز ان تحمي الدولة مواطنها المسلم من شرب الخمر حرصا على صحته وعقله، وتترك الحبل على الغارب لمواطنها غير المسلم يدمر نفسه أو يقتل الناس في الشوارع بسيارته التي يقودها مخمورا . . أو تعاقب الدولة مواطنا اذا اشترى «الخمر»، وتطيب خاطر «البائع». ان الدول الكبرى تحارب بعض الدول التي تزرع المخدرات داخل حدودها القومية بحجة انها تصل الى رعاياها، ولا تقبل منها التعلل بالاستقلال. فكيف تسمح الدولة لبعض مواطنيها بصناعة وبيع ما تعتقد أنه ضار بصحة الاغلبية؟!

وقال المودودي إنه يباح لهم: «نكاح المحارم واقتناء الخمور والخنازير» وهذا يتعارض بالطبع مع ما قاله في موضع آخر «من انهم لا يتركون وعوائدهم القبيحة» ولكن لا اعتراض لنا على الخنزير وما يعتبره المسلمون من المحارم، في حدود الآداب العامة المتفق عليها في المجتمع . . فاذا وجدت فئة تؤمن بالشذوذ الجنسي أو زواج الاب والبنت، فنحن لا نستبعد تدخل القانون العام . .

واخيرا اننا نعتقد ان هذه الامتيازات التي يعطيها «المودودي» للص والسكير غير المسلم انما تهدف في الحقيقة الى حرمان المواطن الشريف من سلطة التشريع والمواطنة الكاملة. كذلك اباح لهم «ابراز الشعائر الدينية، والتقاليد القومية، وتأديتها بكل اعلان واظهار، شرط أن يكون ذلك في مواضعهم وقراهم الخاصة، ولكنهم إن كانوا في القرى والبلاد الاسلامية الخالصة، فللدولة الاسلامية الخيار في أن تطلق لهم في ذلك، او تضع عليهم دونه بعض القيود».

ثم عاد وكره «اظهار شيء مما ذكرنا من بيع الخمر والخنزير والصليب وضرب الناقوس في امصار المسلمين، وهي التي يقام فيها الجمع والاعياد والحدود، وفي امصار المسلمين يمنعون من اخراج صليبهم وأصنامهم في اعيادهم، ومن الخروج في الشوارع والأسواق ضاربين الناقوس جهرة فان اظهروا شعائرهم هذه في جوف معابدهم فلا جناح عليهم».

نعم لا جناح عليهم! . .

ولكن ألف جناح علينا إن تصورنا أو قبلنا ذلك على أنه تطبيق لروح الاسلام السمحة، الشامخة، المنزهة عن هذا اللون من التفكير، الذي أثمر «الغيتو» في اوروبا، والذي لم تعرفه حضارتنا أبدا . .

مرفوض هذا التفكير الذي كان ثمرة اوضاع وظروف خاصة، اعتبرت فيها المظاهر

الدينية، كنوع من التحدي، ولكن المجتمع السليم لا تستفزه تلك المظاهر ولا تسيء اليه. وليس في الوطن الواحد، امصار المسلمين «وغيتو» لغير المسلمين، ولا توجد قرية في مصر ليس فيها مسجد تقام فيه الجمعة، وبجواره كنيسة تدق نواقيسها.

ولا معنى لاصدار تشريع يحرم «اظهار» الخنزير أو بيعه!!

المسلم العربي لا ينظر هذه النظرة التي تميز اخواننا الباكستانيين، الذين يهتمون اهتماما زائدا «باللحم الحلال».

الخنزير محرم على المسلم وكفى.. ولكنه ـ اي الخنزير ـ ليس عدوا، ولا نجاسة يفر منها، أو يستفز منظره المسلم الى حد التذابح، كما في حوادث البقرة في الهند، والمسلمون لا يضيرهم أن يباع الخنزير في نفس المحل الذي يبيع اللحم الحلال، مادام ذلك واضحا ومميزا. ولا اعتقد انه يحرم على الجزار المسلم أن يبيعه، فان آية التحريم تقتصر على أكله، والا لحرم عليناالتعامل في الدم، الذي حرم بنفس الآية.. فتبطل بنوك الدم، بل ويبطل حتى نقل الدم!

اما حق المواطنين في الفرح باعيادهم والاحتفال بها، حيثما وجدوا، وفي حدود القوانين العامة التي تنظم هذه الامور بلا تفرقة، فهو حق مكفول بالنسبة لجميع المواطنين على قدم المساواة.

واعطاهم «المودودي» الحق في تجديد ما يهدم من معابد ولكن ليس لهم الحق في أن يحدثوا في «امصار المسلمين» معابد جديدة ونقل عن ابن عباس «أما مصر مصرته العرب، فليس لهم أن يحدثوا فيه بناء بيعة ولا كنيسة ولا يضربوا فيه بناقوس ولا يظهروا فيه خمرا ولا يتخذوا فيه خنزيرا، وكل مصر كانت العجم قد مصرته ففتحه الله على العرب. فنزلوا على حكمهم فللعجم ما في عهدهم وعلى العرب ان يوفوا لهم ذلك».. وكما قلنا هذه فتاوي عصرها، وكانت تعالج امورا تتعلق بالسيادة، ونفي الادعاء في بلاد بناها المسلمون، ولم يكن فيها غيرهم من قبل. وهذه النصوص تؤكد حق المواطنين أو اهل البلد من غير المسلمين، ولا تنفي حقوقهم كما يبدو من القراءة السريعة، فمقابل الحماية الكاملة، والاعتراف بحقوقهم في بلادهم، فليس لهم الادعاء في مالم يكن من بلادهم ولا ساهموا في تمصيره اي تعميره او انشاءه.. ولكنها نصوص انتهى عصرها، ولا يمكن اخراج خريطة لمصر والشام في عهد عمر بن الخطاب والبحث عما مصره العرب وعما كان يسكنه العجم.. ومن ثم اصدار تراخيص البناء على ضوئها!.. ومعروف ان بناء المعابد في كل دول العالم، تنظمه القوانين.

والمهم هو الاقرار بأنهم مواطنون يتمتعون بكافة الحقوق وعلى قدم المساواة، وهو ما لا يقره «المودودي» وناقلوا افكاره.

واستثنى المودودي أهل الذمة من الخدمة العسكرية، وجعل الدفاع عن الوطن

الاسلامي من واجب المسلمين وحدهم وذلك «أن الدولة التي تقوم على مبدأ لا يقاتل من ورائها ولا ينبغي أن يقاتل الا الذين يؤمنون بصدق ذلك المبدأ، وهؤلاء وحدهم الذين يستطيعون أن يلتزموا حدود الشرع ومبادىء الاسلام في الحرب. وان قاتل غير هؤلاء لحفظ الدولة الاسلامية قاتلوا كاجراء Mercenaries . ولم يمكنهم مراعاة الحدود الخلقية التي قررها الاسلام، لأجل هذا كله قد اعفى الاسلام، أهل الذمة، من الخدمة العسكرية ولم يفرض عليهم إلا أن يؤدوا نصيبهم من نفقات الدفاع الوطني، وما الجزية في الحقيقة الا هذا النصيب المفروض عليهم. فهي ليست عنوان الطاعة والخضوع فحسب. بل هي كذلك بدل للاعفاء من الخدمة العسكرية، وعوض عن واجب القيام بحفظ الوطن».

وهو بالطبع منطق صعب، والداخل فيه مفقود..

فاذا كان الوطن وطنهم، ومادمنا نطالبهم بدفع نصيب في نفقات «الدفاع الوطني» فكيف يكون قتالهم دفاعا عن هذا الوطن قتال مرتزقة؟!

كيف يدفع المواطن ضريبة الدفاع عن الوطن، ثم يقال له: انت محروم من شرف الدفاع عنه بالدم لأنك لا تؤمن بمبدأ الدولة..؟ وما الفرق بين الوطن والدولة.. وما الفرق بين المال والدم من ناحية الانتماء والالتزام؟!

وما دمنا لا نأتمنه ولا نسمح له بالدفاع عن الوطن، فلماذا نطالبه بالدفاع عن تلك الدولة، التي اسقطت اعتباره لأنه لا يؤمن بمبدأها.. لماذا يمول نفقات «الجهاد» الذي يهدف لنشر هذا المبدأ الذي حكمنا عليه بمعارضته؟!

ومن قال ان سلوك الجندي في القتال أو الاحتلال تحكمه مبادئه واخلاقياته وحدهما، اين القانون العسكري الصارم الذي يضبط مسلكية الجند ويخضع له الجميع؟!

المرء لا يستطيع ان يجمع الصيف والشتاء فوق سطح واحد، يستحيل ان نجمع بين مفهوم الوطنية المعاصرة، ومفهوم دار السلام ودار الحرب.. بين ضريبة الدفاع الوطني، وبين الجزية.. لا يمكن ان ننقل من كتاب فقه عمره ألف سنة وضع في ظل الدولة الاسلامية المجاهدة المنتصرة، ثم «نهذب» هذا الذي نقلناه ليصلح للنشر في صحيفة التايمس أو نتقدم به لمحاورة لجنة حقوق الانسان التي وضعت ميثاقها في غيبة المسلمين المهزومين؟!

دفاع المواطن غير المسلم عن وطنه لا يحوله الى مرتزق أبدا، وقد حارب غير المسلمين اكثر من مرة الى جانب جيوش المسلمين دفاعا عن اوطانهم، وعن الدولة المسلمة التي كانت تحكم هذه الاوطان، بل وقاتلوا مع الجيوش المجاهدة التي جاءت لتحرر اوطانهم من سيطرة بيزنطة المسيحية، أو فارس المجوسية.. وكتب الفقه حافلة بالجدل حول مصيرهم في الآخرة، ولكن ما من أحد سماهم مرتزقة.

وبعد أن فرغ الشيخ من قضايا الخنزير والناقوس، واستبعد غير المسلمين من الجيش، مع ان فقهاء الحركة الاسلامية في مصر والشام، افتوا بسقوط الجزية مادام «الذمي» يؤدي الخدمة العسكرية. ينتقل «المودودي» الى الحقوق السياسية فيقول: «لنبدأ قبل كل شيء بمسألة الانتخاب، فالدولة الاسلامية، لما كانت حكومة مبدئية، ما كانت لتحتال في أمر حق التصويت لغيرالمسلمين بتلك الخدع والحيل التي تستعملها الحكومات القومية - الديموقراطية في أمر حق التصويت لاقلياتها. ان رئيس الحكومة في الاسلام وظيفته أن يدبر أمر الدولة وفق مبادىء الاسلام. وان مجلس الشورى لا عمل له الا أن يساعد (كذا ج) الرئيس على تنفيذ هذا النظام المبدئي. لذلك **فالذين لا يؤمنون بمبادىء الاسلام لا يحق لهم أن يتولوا رئاسة الحكومة أو عضوية مجلس الشورى بأنفسهم كما لا يصح لهم أن يشتركوا في انتخاب الرجال (كذا) لهذه المناصب كالناخبين**. ويجوز ولاشك ان يمنح هؤلاء حقوق العضوية والتصويت في المجالس البلدية والمحلية. لأن هذه المجالس لا تتناول المسائل المتعلقة بنظام الحياة. وانما تكون وظيفتها تدبير الامور لتحقيق الضرورات المحلية». ص ٣٢/٣١.

لعل بعض المخضرمين يذكرون المجالس البلدية في الاسكندرية التي كانت تضم الاجانب...!.. ولا ندري ما الهدف من ترجمة هذه الافكار واعادة نشرها في العالم العربي.. هل صحيح تطالب اي حركة اسلامية في العالم العربي بهذاالوضع للمواطنين غير المسلمين؟!

الا ان «المودودي» لا يستطيع في النصف الثاني من القرن العشرين، أن يبرر حرمان مواطنين من حق الانتخاب والترشيح، لكنه أيضا لا يستطيع ولا يتصور غير المسلمين بين اهل الحل والعقد، فليست هناك سابقة لاشتراكهم في الشورى في المدينة لا في عهد الرسول ولا في عهد الخلفاء الراشدين، ولذا يلجأ المودودي الى حل طريف، هو دعوتهم لأن يلعبوا بعيد..!

فيقول: «ويجوز أن يؤلف للطوائف غير المسلمة مجلس نيابي مستقل حتى يتمكنوا بواسطته من قضاء حاجتهم الاجتماعية، ومن عرض وجهة نظرهم في شئون الدولة الادارية. وهذا المجلس ستكون عضويته وحق التصويت فيه خالصة لغير المسلمين، وتكون لهم فيه الحرية الكاملة، وبواسطة هذا المجلس:

«١- يجوز لهم أن يقترحوا القوانين الجديدة أو يصلحوا أو يعدلوا القوانين السابقة، فيما يتعلق بشؤونهم واحوالهم الشخصية، وستنزل مقترحاتهم هذه منزلة القانون بعدما يصادق عليها رئيس الحكومة.

«٢- سيكون لهم أن يقدموا شكاويهم واعتراضاتهم ومشوراتهم ومقترحاتهم فيما يتعلق

بنظام الحكومة ومقررات مجلس الشورى، بكل حرية وستنظر فيها الحكومة بعين العدل والانصاف.

٣- سيكون لهم أيضا أن يوجهوا اسئلة الى الحكومة الاسلامية عن الامور التي تتصل بطائفتهم أو بجميع الدولة، على العموم، وسيكون هناك من قبل الحكومة من يجيبهم عن تلك الأسئلة» ص ٣٣/٣٢

وهذه «المنح» كلهالا دخل لها بسياسة الدولة وادارتها، بل بالعكس إن البند الأول قد تعتبره الاقليات تدخلا في شئونها، إذ أن لهذه الطوائف نظما معينة، وجهات خاصة محددة في دينهم، هي التي تعدل قوانين احوالهم الشخصية. ولماذا يحتاج هذا المجلس المشكل من ابناء الطائفة وحدهم، والذي يشرع للطائفة وحدها، وفي احوالها الشخصية، لماذا يحتاج لتصديق رئيس حكومة لم ينتخبوه ولا يملكون اسقاطه، ولا يشتركون في حكومته. ولا يؤمنون «بمبدأه» ولا يؤمن بمبدأهم!..

اما البند الثاني والثالث فلا يمثلان أية مساهمة جدية أو رقابة على شئون الحكم. إن الخطوة التالية لقيام مجلسين لكل طائفة مجلس قاصر عليها، هو تشكيل حكومتين ثم تقسيم الوطن.. ولا يمكن ان يقبل مواطنون مجلسا بصلاحيات اقل من مجلس اللوردات!

ومن العجيب ان الشيخ كفل لهم حرية تبادل نقد الدين مع المسلمين، في حدود القانون، وحرية اغراء المسلم بالارتداد، فيعاقب المسلم فقط! ولا أدري هل يقصد حرية التبشير، ويكتفي بمنع خطره باعدام المسلم الذي «يقتنع» بالدعاية التي تحميها حكومته؟!

قال المودودي - رحمة الله عليه - ان الاقليات من غير المسلمين «سيكون لهم حق الدخول في جميع الوظائف الحكومية.. الا.. المناصب الرئيسية المعدودة. والمراد بالمناصب الرئيسية، المناصب ذات المنزلة الاساسية الخطيرة في نظام الاسلام المبدئي ويمكن لجماعة من أهل الخبرة والتجربة أن يرتبوا ثبتا جامعا لهذه المناصب، على اننا نقول على وجه بيان للقاعدة الاساسية في هذا الباب ان الخدمات التي تتعلق بوضع الخطط العملية، وتوجيه دوائر الحكومة المختلفة، هي ذات المنزلة المهمة الخطيرة، ومثل هذه الخدمات لا تسند في كل نظام مبدئي الا الى الذين يؤمنون بمبادئه، اما اذا استثنينا هذه الخدمات فيجوز أن يولي أهل الذمه - على حسب أهليتهم - أرفع المناصب واعلاها فيما يتعلق بادارة شئون الدولة، فلا يمنع شيء - مثلا - من توليهم منصب «المحاسب العام» (أو الصراف العام في مصرح!) أو المهندس العام أو ناظر البريد العام. كذلك ليست المناصب المخصصة للمسلمين في الجندية الا الخدمات العسكرية، اما سائر شعب الجندية التي لا تتعلق بالحرب والقتال مباشرة فستكون مفتوحة للذميين».

والشيخ يتحدث وفي خاطره الدولة الايدلوجية، على الطراز الشيوعي او الفاشي وينسى

ان كل مواطن في تلك الدولة، يستطيع اعتناق الشيوعية أو الفاشية، وان الحزب الشيوعي أو الفاشي لا يقصر عضويته على الجنس المؤسس للدولة. حتى وان مثل مصالح هذا الجنس، ولكن المواطن غير المسلم لا يستطيع اعتناق الاسلام لكي يحصل على منصب رئيسي. وواضح أيضا أنه يحاول التوفيق بين نظريته عن «سيادة المسلمين» وبين متطلبات المساواة الوطنية. ولا ندري ما يمنع ترقية «مدير» البريد العام الى منصب «وزير» البريد الا اذا كان هناك نص: منا الوزراء ومنكم المدراء.. فان اختصاصات و «اضرار» أو اسرار المنصبين متساوية، بل هي في معظم النظم الحديثة أهم في درجة المدير من منصب الوزير.

وماذا عن البرق والهاتف؟ كيف نسلم هذه الاتصالات لشخص لا نأتمنه على جلسات مجلس الوزراء، ثم نضع تحت تصرفه كل مخابرات الدولة؟!

والجيش.. الذي عاد الشيخ فطلبهم لخدمة العلم، بعد أن حرمهم من ذلك قبل صفحات ليس الا.. وان استمر التناقض واضحا في موقفه فلا ندري مادام لا يأتمنهم على اراقة دمهم في جبهة القتال.. فما هي شعب الجندية الاخرى التي يمكن أن يعملوا فيها.. ما هي شعب الجندية «التي لا تتعلق بالحرب والقتال مباشرة»؟

استحال علينا ان نخمن واحدة، الا اذا كنا سنجند فرقة من مليون قبطي بقيادة الفريق «جورج سيدهم» ترفه عن المحاربين المسلمين؟!

ولم يقل لنا هل سيستمرون في دفع الجزية، رغم خدمتهم للمجهود الحربي في القوات المسلحة حتى وان اعفوا من القتال؟

وهو يبيح للذميين سائر المهن والحرف الخاصة، فهي «مفتوحة على مصراعيها للذميين» وهو بذلك يرتكب نفس الخطأ التاريخي الذي كان من أهم اسباب دمار «الممالك» الاسلامية، عندما اكتفى المسلمون بالسياسة والحرب، وتركوا صناعة الثروات للذميين ثم الاجانب!

مؤكد ان الاستاذ «المودودي» قد ظلم ولايزال بنشر اراءه، هذه، التي كتبت منذ ثلاثين سنة.. وان تكن اجتهادات الاسلاميين في تلك الفترة قد تطورت تطورا كبيرا الا انها لاتزال اسيرة تلك المفاهيم، ولو بمجرد الحرص على اعادة طبعها، ولذا فهي لم تستطع ان تخطو الخطوة المطلوبة **باعلان المساواة التامة بين المواطنين، وانتهاء عهد الذمة، وطرح الاسلام كفريضة دينية للمسلمين، وصيغة حضارية لغيرهم**. وقد حام الشهيد «سيد قطب» حول هذه القضية، ولكنه لم يتوغل فيها كما كان المرجو، صده الحاجز المودودي، وذلك عندما اكتفى بوصف الجزية بأنها قضية تاريخية ولذا يرفض مناقشة تفاصيلها، اما نحن فنقول:

● الاسلام هو دين الغالبية العظمى من الامة العربية، والمحرك الاصيل لقوى هذه

الأمة، وهو القادر وحده على خلق تيار التحرر والتجدد، وبذلك يشهد التاريخ المنتصر، وتجارب الحلول الفاشلة خلال ما يقرب من مائتي سنة، أو منذ الغزوة الاوروبية الاخيرة..

● الاسلام أو التشريع الاسلامي هو وحده التراث التشريعي والقانوني والفكري.. أو الحضاري الذي يمكن نسبته للمنطقة، فهو وحده الأصيل، غير المستورد، ينبع من جذورنا فعلا، ويدخل في صميم تكويننا النفسي، وما من أمة تنهض الا على مقوماتها الذاتية. ومهما فتشنا، وبكل حسن النية والرغبة الصادقة فليس لنا من تراث فكري أو قانوني أو هيكل حضاري أو ممارسات في الحكم والتشريع الا التجربة الاسلامية، ومن ثم فان التنكر لها - كما قلنا - يعني الاصرار على العبودية الفكرية والروحية، للحضارات الاخرى المعادية، والتي لا يمكن التفاعل معها، أو التعامل معها على قدم المساواة، بل لابد من الفناء فيها. فالاسلام هو الذاتية العربية أو المصرية.

● الحركات المسيحية الوطنية ورجال الكنائس العربية، وفي مقدمتهم كنيستنا المصرية، نظروا دائما للاسلام هذه النظرة. فالمسيحية من ناحية، لم تطرح فكرا يتعلق بتنظيم الدولة أو الحكم، بل تجنبت ذلك بوضوح تام واصرار شديد منذ قولة المسيح الاكثر من مشهورة: «اعطوا ما لقيصر لقيصر» أي ان الحكم هو من شأن رجال الدولة، وليس لرجال الدين المسيحيين فيه من حق، ولا للمسيحية فيه برنامج محدد، «لأن من ينهاهم عن محبة العالم، وما فيه لا يقرر لهم معاملاته» ولأن المسيح رفض حتى أن يقسم للرجل ميراثه مع اخيه. وقامت العلاقة بين الكنيسة والسلطة على هذا المبدأ الذي قرره الانبا اثناسيوس «ليس لرجال الدين ان يمارسوا حكما ارضيا، ولا للامبراطور ان يقوم بعمل كنسي».

فهذا من ناحية المبدأ، اما من ناحية الممارسة، فلم تقم ابدا سلطة مسيحية وطنية في العالم العربي، لأن كنائسنا بدأت منشقة عن سلطة روما - بيزنطة، محاربة من هذه السلطة، ولم تأمن على دينها الا في ظل السلطة الاسلامية بعد الفتح التعريبي.. ولذا فليس لها أي تراث سلطوي. ومن ثم - كما قلنا - ليس امامنا جميعا في الوطن العربي، مسلمين ومسيحيين، الا احد حلين في اقامة الدولة العصرية المطلوبة: اما الاعتماد على تراثنا، استقراءه وتطويره.. او استيراد نموذج اجنبي وتحويل بلادنا وشعوبنا الى حقل تجارب، وحيوانات مختبر بلا هوية ولا ذاتية.

● المسيحي العربي قبل ان يحكم بتشريعات لا تنتسب للمسيحية، سواء لأن المسيحية لا تقدم تشريعات للحكم أو لأن القوانين الغربية الحديثة، لا تهتم باعلان نسبتها الى الدين، بل بعض هذه القوانين استورد من دول تنكر الدين وتجهر باستبعاده. ومن ثم فلا معنى لرفض المسيحي العربي تشريعا صالحا لمجرد أنه صادر عن الفكر الاسلامي.

● النزعات الطائفية في اوساط الاقليات، والتي ظهرت بشكل سافر في الايام الاخيرة،

ترجع بالدرجة الاولى الى النشاطات الخارجية التي تستهدف ضرب الحركة الوطنية وتمزيق الوحدة الجماهيرية، وهو دور مفهوم وقديم ويتم الآن لحساب الهيمنة الاسرائيلية وعملت على نجاحه الاجهزة العالمية في الدول المؤيدة لاسرائيل، والمتخوفة من احتمال انبعاث الوطنية العربية، ويمكن استقصاء الجذور الفكرية، بل حتى البرنامج العملي للتحركات الطائفية في مؤلفات ونشرات صدرت في الخارج على يد مؤلفين اجانب اتصالاتهم باجهزة المخابرات والتبشير اكثر من مفضوحة، ومازال الفكر المتطرف يأتي من تلك المصادر وهو ما تنبه له عدد من العلمانيين، من المسلمين والمسيحيين، بل وبعض المتدينين من المسيحيين فثاروا لوطنيتهم، وحذروا مواطنيهم مما يدبر لهم (انظر كتابات الاب متى المسكين والاب غريغوري حداد، والدراسة الموسوعية الممتازة لطارق البشري، وكتابات المؤرخ والمفكر القبطي البارز وليم سليمان الذي يكشف بالوثائق، الاصابع الأجنبية، والمعادية لاستقلالية الكنائس العربية الوطنية ودورها في احداث ومحدثات الفتن. وانظر ايضا نشاط البروفيسورة ايفون حداد.).

الا ان هذه الاصابع الاجنبية لا تتحرك في فراغ، والفتنة تحتاج لمتعصب في كلا الجانبين، والشارع الاسلامي لا يخلو من تأثيرات شريرة، ولكن اهم من ذلك كله، - في اعتقادي - هو ان التيار الاسلامي قد وقف جامدا، لم يحاول ان يطرح برنامجا قوميا، يكسب اليه الجماهير والقيادات المسيحية الوطنية. وقد أدت العزلة الفكرية، الى عزلة تنظيمية، وجفوة.. فاحتكاكات..

وقد آن الاوان لطرح هذا البرنامج الاسلامي - القومي، ولعل هذا الحديث وما قد يثيره من مناقشات، يشكل مساهمة في خلق المناخ الفكري الملائم لظهور هذا البرنامج.

● لم تعد هناك قضية ذميين أو أهل ذمة، فتلك قضية تاريخية مصاحبة للفتح، وللدولة التي قامت على اساس الفتح الاسلامي، ولا وجود لها اليوم. فكل الاوطان العربية يسكنها مواطنون شركاء في الوطن والتاريخ والحقوق والواجبات.

● لا مجال للحديث عن الجزية، فهي قد شرعت من نص الآية، على المحاربين الذين ينهزمون ويرفضون الدخول في الاسلام. ونحن لانحارب مواطنينا المسيحيين ولا نعرض عليهم لا الاسلام ولا السيف.

● «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» هي الأساس الدستوري الاسلامي في كفالة المساواة الدائمة، ولا يجوز لاحد ان ينقح الحكم الشرعي، فيجعله، «لهم بعض مالنا، وعليهم بعض ما علينا»؟ أما عن الممارسات التاريخية، فيجب النظر اليها من واقع الظروف التاريخية لدولة ظهرت في ظروف شديدة الخصوصية وامتدت من خلال الصراع المسلح مع دولة مسيحية ظلت تشكل الخطر الدائم عليها أو المواجه الرئيسي. كما يجب الاخذ في

الاعتبار الظروف التي نشأت فيها الدولة الاسلامية، وممارسات الشورى الاولى. فالمدينة لم تكن بها اقلية مسيحية يعتد بها أو تمثل جزءا اساسيا من مواطنيها. واليهود كان لهم وضعهم الخاص، فهم الى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كانوا يرفضون الاندماج في المجتمعات التي يعيشون فيها، ويعتبرون هذا الاندماج مؤامرة على جنسهم، حتى لو سمح لهم بالاحتفاظ بدينهم. فهم يعزلون انفسهم ويشكلون كيانا منفصلا. والثابت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم، حاول الدخول معهم في تنظيمات ادارية تستند الى الاعتراف «بحقوق لهم». ولكن نتيجة موقفهم، وحرصهم على التميز، اتخذت هذه التنظيمات شكل العلاقات الدولية بين كيانين. حتى وصفت بالمعاهدة. وان كانت قد اكدت ان العلاقة الطبيعية التي يبدأ بها الاسلام هي التعايش لا المحاربة. الا أن هذه العلاقة لم تتطور الى المواطنة، أو المشاركة، بل جاءت الحرب فصفت الوجود اليهودي نهائيا. فهم لم يعتبروا مواطنين ابدا، ولا حتى أهل ذمة، ولا هم اعتبروا انفسهم مواطنين أو جزء من الكيان العربي.. اما عمر رضي الله عنه، فقد أجلا اليهود والمسيحيين من جزيرة العرب، لضرورات الأمن خلال اكبر حرب خاضتها جزيرة العرب أو حتى عرفتها المنطقة، حرب غيرت وجه المنطقة الى الأبد. وفي الاربعينات من القرن العشرين اعتقلت الولايات المتحدة جميع مواطنيها من اصل ياباني وهي تحارب اليابان التي يفصلها عنها المحيط الهادي كله.. وهي تمتلك قنبلة ذرية.. وعمر رضي الله عنه كان يكره حتى السماح بوجود العبيد الفرس، المأسورين في الحرب مع فارس، ويستشعر الخطر منهم على أمن العاصمة لولا فتاوي ابن عباس والعباس، وقد تحققت مخاوفه رضي الله عنه بأفدح ثمن.. مصرعه بأبي وأمي..

في زمن كان الدين هو الولاء، ولم تكن القوميات ولا مفهوم الوطنية قد ظهر، أكان عمر يترك اليهود والنصارى في جزيرة العرب وكل شبابها القادر على حمل السلاح في قلب فارس وجبال الشام؟ ولا ادل على أنه ليس موقفا طائفيا هو سلوك عمرو سلوك الفاتحين المسلمين مع المسيحيين واليهود في الشام ومصر.

فهم لم يكن في جزيرة العرب، وبالاحرى في المدينة، غير المسلمين حتى نستدل من عدم اشتراكهم في الشورى في ذلك الوقت على عدم جواز اشتراكهم فيها للأبد.. أو سقوط حقهم في تولي مناصب الدولة.. ثم لا يجوز أن نغفل التصور الخاص والمنطقي في ذلك العصر لفكرة السلطة. وقد رفض المسلمون ان تكون الامامة في الانصار بحجة واحدة حاسمة هي أن «العرب لا تطيع الا هذا الحي من قريش». ورغم وضوح التفسير، وانه لا يعتمد على نص أو فقه يحرم الخلافة على غير قريش، وانه ضرورة سياسية تلجأ اليها الدولة، أو النخبة الواعية القائدة، الا ان بعض الذين يرون في جميع الاجتهادات نصا دينيا، ويعتقدون أن النص يجمد التاريخ وليس يفسره ويحركه للامام، هؤلاء مازالوا يتحدثون في

القرن الخامس عشر عن إعادة الخلافة الى قريش.. مع اننا قلنا لهم انه لو صح حديث «الخلافة في قريش ما اقاموا الدين» فهو من احاديث النبوآت وليس التشريع كقوله صلوات الله عليه «لتتبعن حذو من سبقكم حتى اذا دخلوا جحر ضب.. أو قوله «ثم يصبح ملكا عضوضا» فيكون الذين اقاموا الملك العضوض - بهذا المفهوم - هم الذين اقاموا السنة.. واطاعوا أمر الرسول!!..

وعمر رضي الله عنه عندما عين مجلس الشورى للخلافة، لم يجد الا ستة يستحقون هذا الامر، وكما بينا خطأ الاستدلال بهذه الاحداث، على حرمان المسلمين من خارج قريش من حقوق أهل الحل والعقد، كذلك لا يجوز الاستدلال بها أو غيرها في معاملة الاقليات اليوم. فهذه ظروف تاريخية اجتهد فيها ائمتنا، فاحسنوا الاجتهاد ولا يجوز كما علمنا عمر رضي الله عنه ان نجعل اجتهاد البشر قيدا على حركة التاريخ.. وعلى امكانيات الدين الصالح لكل زمان ومكان. فمن طبيعة الزمان التغير وطبيعة المكان الاختلاف. ومن ثم فباب الاجتهاد مفتوح الى يوم القيامة لمواجهة هذه المتغيرات.

لم يعرف التاريخ الاسلامي مجلسا تشريعيا بالمفهوم المعاصر، حتى يمكن ان نستشهد به على تمثيل الاقليات، ولا جرت انتخابات بالمعنى المفهوم. كانت البيعة تتم في نطاق معين، فمهما قيل عن عدد الذين اشتركوا في اجتماع السقيفة.. فلا يمكن القول أن بيعة ابي بكر قامت بانتخاب المسلمين في جميع انحاء الجزيرة العربية كما يفهم من انتخابات اليوم.. والذين كانوا خارج السقيفة مباشرة لم يعرفوا النبأ الا بعد أن تمت البيعة. وانما يجوز القول أن الحزب الحاكم أو أهل الحل والعقد رشحوا ابا بكر في السقيفة واستفتيت الأمة عليه في البيعة العامة بالمسجد وكان الحق مكفولا لأي مسلم في الاعتراض بالطبع..

وجيوش المسلمين في الشام وفارس لم تعرف «بانتخاب» عمر الا عندما وصل النبأ بالبريد، وكان قد تولى السلطة فعلا وجاء نبأ ولايته مع قراره بعزل قائد الجيش الذي لم يشترك في انتخابه.. وان كانت وقائع التاريخ لا تشير الى أنه - أي قائد الجيش - قد رأى ان من حقه معارضة ما اتفق عليه المسلمون في المدينة. وقد اشرنا الى حصر عمر حق الانتخاب والترشيح في ستة.. فهل يجوز أن نستشهد بذلك على ان المسيحيين ليس لهم حق الانتخاب؟

اذا كان عمر بن الخطاب لم يجد «عمرا بن العاص» فاتح مصر، أهلا لا للترشيح ولا حتى الانتخاب، ونفس الشيء عن معاوية حاكم الشام وامير المؤمنين فيما بعد.. فهل كنا نتوقع ان يعين عمر في مجلس الشورى قبطيا مصريا أو مسيحيا شاميا؟.. وهل يجوز ان نستدل بأنه لم يفعل، على عدم جواز تولي المسيحيين اليوم عضوية تشكيلات الحل والعقد؟!..

حسب هذا السلف الصالح، انهم اقروا مبدأ البيعة، أي جعل الشرعية، لا تكتمل الا بموافقة الأمة. فالحكم لا يغتصب ولا يورث بالدم الازرق. ولا ينتزعه قائد منتصر. وانما القيادة السياسية، ترشح وتختار ثم تعرض الأمر على الأمة، أو على الجماهير معترفة بحقها في الرفض أو حتى الخلع. وكله حدث.. فقد قتلت الجماهير أحد الخلفاء، ورفضت الجماهير وبعض اهل الحل والعقد خليفة آخر.. ورفض الحسين خلافة يزيد... الخ ورأى الرافضون ان من حقهم، بل وواجبهم الاسلامي، مقاتلة الخليفة أو الامير المرفوض حتى يخلعوه.

كل شروط الديموقراطية، كل مبادىء الشورى بمعنى الرأي الجماعي، لا الاستئناس برأي البعض! كل صيغ الرقابة من الأمة على السلطة، كل الادلة التي تؤكد ان الأمة هي مصدر السلطات، طرحت وتأكدت بممارسة هؤلاء الائمة، في الصيغ المناسبة لظروفهم وبيئتهم، وبقى علينا ان نبنى على هذه الأسس، الصيغ الديموقراطية التي تناسب عصرنا، فليس من الضروري أبدا ان يكون رئيس الدولة هو الامام، وأن ينتخب مدى الحياة.

نحن نرى ان منصب رئيس الدولة ليس محدد الصيغة في الاسلام، فقد بويع للخلفاء ومدى الحياة، ثم جاء الملك الوراثي، مع استمرار البيعة وهو ايضا مدى الحياة بالطبع، وان كنا شخصيا نؤمن بالنظام الملكي، ونعتقد انه هو الافضل للبلاد العربية والاسلامية عموما، وانه يحل مشكلة رئاسة الدولة، وقضية الحق «النظري» للاقليات في التطلع اليها. لأنه في الدول الملكية تتقبل شعوبها حصر رئاسة الدولة في عائلة هي عادة من دين ومذهب أو حتى جنس ولون الاغلبية، وهذا يفسر تشبث الانكليز بالملكية، لأنها تبعد عن رئاسة الدولة، الكاثوليكي واليهودي.. وانظر المشاكل التي بدأت تظهر في امريكا أو الوحدة الوطنية في بعض البلاد العربية، وما يمكن أن يحدث لو اصبحت جمهورية.. الخ. الا اننا نقول انه في النظام الجمهوري، ورغم تأكدنا بأن الاغلبية ستختار رئيس الجمهورية من بينها، الا اننا لا نرى مانعا «نظريا» من قبول حق أي مواطن في ترشيح نفسه فضلا عن أن يصوت في انتخابات الرئاسة.. مادام الرئيس يقسم على احترام «الدستور الاسلامي» ويتعهد بحمايته وتنفيذه..

أما ما يثار من دفوع شكلية، مثل أن الرئيس في الدولة الاسلامية هو قائد الجيش أو الامام الذي يؤدي الصلاة الجامعة، فتلك قضايا تاريخية ونظرية، لم تقع الا في عصر الرسول، عندما كان الاسلام في المدينة، والمسلمون يمكن جمعهم في مسجد واحد.. ولكن لا سيدنا ابو بكر ولا سيدنا عمر ولا سيدنا عثمان قادوا الجيوش التي فتحت نصف العالم. والجيش الذي ادخل مصر في الاسلام لم يسعده الحظ بأمير المؤمنين اماما للصلاة طوال جهاده ومرابطته في مصر، ولا أظن أنه يدور ببال أحد أن رئيس الدولة الاسلامية

سيصلي بكل رعيته.

لقد اصبح لكل مسجد امامه. والخليفة العثماني استمر يحكم ويصلي به الامام لعدة قرون. وقد انقسم الأمر الى فقهاء وأمراء منذ ايام عمر بن الخطاب، الذي كان يقول: قضية ولا أبا حسن لها.. وهلك عمر لولا علي، في قضايا الفقه. ولكنه لم يجد عليا أحق بالحكم منه لأنه افقه. وما من دليل يثبت أن أمير المؤمنين يجب أن يكون أفقه اهل عصره، ولا حتى اكثرهم تدينا.. فيمكن أن يوجدفقيه أو شيخ للأزهر يصلي بأهل العاصمة، اذا تصورنا مسجدا يضم هذه الملايين.

أما اهل الحل والعقد، وهم في الدولة الحديثة، القيادات السياسية والمؤسسات الدستورية، فاننا لا نرى أي مبرر لمنع غير المسلمين من عضويتها وانتخاب اعضائها، فقد قرر ابن خلدون أن «اهل الحل العقد» هم الذين يطيعهم السواد الاعظم من الناس، ويقبلون قراراتهم. أو يحملهم «اهل الحل والعقد» بما لهم من قوة ونفوذ على الطاعة، أي القوة التي تضمن وحدة الامة، وتمنع انقسامها، أو «الفتنة» بالمصطلح الاسلامي. وقد رأينا أنه لما فقد أهل الحل والعقد في المدينة، السيطرة على العامة، انتقلت الشرعية أو السلطة للبيت الذي تعود حكم العرب والسيادة قبل ظهور الاسلام. وانتقل مركز القيادة نهائيا من الحجاز، ولم يعد اليه ابدا، فلما تبددت قوة العرب سقط الالتزام بأن تكون الخلافة في قريش، وافتى الفقهاء بأنها «لمن غلب» وظهر ائمة من كل جنس ولون.. وبالتالي فأهل الحل والعقد هم الذين يحققون المصلحة العامة: وحدة الأمة وسلامة الوطن.. أي هم القيادة السياسية لهذه الامة، التي تكفل لها حرية وأمن ممارسة عقيدتها، وليس من الضروري أن تكون قيادتها الدينية، فابن عباس وابن عمر كانا يفتيان في المدينة، «وابن هند» يحكم في دمشق، ويوفر لها الأمن من الخطر الفارسي والرومي.. والفتنة الداخلية.

وكما قلنا من قبل، لا يمكن قبول حزب سياسي في الساحة يسعى للسلطة، حتى ولو كان تحت شعار بناء الدولة الاسلامية أو حكم الاسلام الا اذا ضم بين صفوفه نسبة من المواطنين غير المسلمين المؤمنين ببرنامجه السياسي، وان رفضوه من الناحية الدينية، بمعنى أنهم يوافقون على ان هذا البرنامج هو الصيغة الوطنية والحضارية الملبية لتطلعات الشعب، والحل الأمثل لمشاكله الداخلية والخارجية ولكنه ليس من عند الله.

من الطبيعي أن يطالب هذا الحزب الناخبين من مسلمين وغير مسلمين بالتصويت لمرشحيه، ومن الطبيعي أن يكون له مرشحون من كافة الديانات، ومن الطبيعي اذا فاز بالحكم أن يشكل الوزارة من اعضاء حزبه بنسبة تكوينه.

فان شاء «لجوج» مزعج، أن يطرح فرضية انتخاب الاغلبية المسلمة لحزب اغلبيته من المسيحيين ورئيسه مسيحي لاقامة دولة الاسلام! فردنا: أنهم احرار فيما اختاروا لأنفسهم

ليس لنا عليهم من سلطان، وليس لهم أن يحتجوا اذا ما أصبح «أمير المؤمنين» من أهل الذمة «سابقا» فكيفما تكونوا يولى عليكم!

نحن لا نعتقد انه من الناحية العلمية سينتخب غير مسلم لمنصب رئيس الدولة او حتى رئيس الوزراء حيث تصل نسبة المسلمين الى تسعين بالمائة (في الوطن العربي) ومن ثم فالجدل حول هذا الموضوع ينبع من الرغبة في الشقاق وليس الاتفاق.

ونحن نعتبر النظام الاسلامي، هو الذي يأخذ بالديموقراطية، وبأوسع وأصدق الاشكال في تمثيل ارادة الشعب، ولا نقبل التحايل حول هذا المبدأ تحت شعارات من طراز «نسيج وحدة» ولا «شرقية ولا غربية» أو الطعن بفساد النظم الديموقراطية الغربية.. الخ. فنحن نعرف ان هذه النظم ناقصة، وهي لابد ان تكون ونعرف ان الاسلام نسيج وحده، لانه يستطيع تغطية احتياجات كل عصر، وفي عصرنا الحاضر فان «الثوب» الشرعي الذي نريده من النسيج الخاص، هو الديموقراطية، ولابد ان يطرح ذلك بوضوح وبالتحديد..

● اما الجيش فلابد ان يضم جميع المواطنين على قدم المساواة، يقاتل فيه المسلم جهادا في سبيل الله ويقاتل فيه المسيحي وطنية أو «عن احسابهم». ولا يجوز ان تتهم فئة من المواطنين بأنها غير مؤتمنة أو غير راغبة في الدفاع عن الوطن. إن هذا الاتهام ـ لوصح ـ يسقط المواطنية، ويصل الى الاتهام بالخيانة العظمى، ويصبح فيه «فتوى البدائع وفتح القدير» «ان الذي يسقط الذمة، خروج الذمي الى دار الحرب أو خروجه على الدولة الاسلامية علنا وبث الفتنة في البلاد» وهي اعمال كما ترى تسقط الذمة والحماية عن شيخ الاسلام لو ارتكبها..

ورفض الدفاع عن الوطن، اذا ما تعرض لهجوم أو احتلال هو خروج على الدولة، والتحاق بدار الحرب ولو من ناحية الموقف العملي، اما اذا كانت الحرب هجومية، أو جهادية بالمفهوم الذي طرحناه وايده في معظم كتاباته الشيخ «سيد سابق» أي ان الدولة الاسلامية تشن حربا على دولة تعتدي على حرية العقيدة، أو حرية الاختيار، أو تحاول الهيمنة وفرض سيطرتها الايدلوجية، أو السياسية، فان المسيحي ملزم أو حتى متحمس للقتال، لأن دستور الدولة ينص على ذلك، ولأن هذا الدستور ينص ايضا على الحرب، اذا ما تعرض «ذمي» للاضطهاد في ذلك البلد حتى ولو كان بلدا اسلاميا. فهو موقف اسلامي وانساني في نفس الوقت، ينطلق من الدفاع عن حرية الاختيار والعقيدة، ويلزم الدولة بمقاتلة اي حاكم مسلم، يحاول فرض الاسلام على رعاياه غير المسلمين. ومن ساواك بنفسه فقد أنصفك وزاد!..

إما ان كانت الحرب الهجومية التي يدعو لها البعض، أي شن الحرب ابتداء على دولة غير معادية، وتكفل بالقانون والممارسة حرية العقيدة لرعاياها، وليست لديها تطلعات توسعية، الهجوم عليها لمجرد تطبيق مفهوم هذا البعض ـ الخاطىء ـ عن الجهاد، وهو

«اخراج العباد من عبادة أو سلطة العباد» واقامة سلطة اسلامية هناك. فهذه الحرب، من حق غير المسلم معارضتها، فان لم يفعل فسنبذل كل جهدنا لضمة الينا في معارضتها، وحبذا بالسجن ضد قرار الحكومة من هذا النوع، بل وسنعمل على اسقاط الحكومة والغاء اجتهادها الخاطىء.. هذه حالة موجودة في البلدان الديموقراطية حيث يرفض عدد من المواطنين «التجنيد» لأنهم لا يقرون مشروعية الحرب التي تجندهم الدولة لها، وهم يخضعون للعقوبات التي تفرضها الدولة، وهذا طبيعي وضروري، حتى ينتصر الرأي الأخر ويصبح هو القانون، ولكنه لا يسقط المواطنة عن أي من الطرفين.

وهذا ما نطالب به في ظل دولتنا الاسلامية شرط أن تبقى كل الاجتهادات في الاطار البشري، ولا يدعي أحد أنه يشرع من قبل الله أو بتفويض من الله، أو ان روح القدس تتقمصه عندما يتولى منصبا بين أهل الحل والعقد، فكلنا بشر وكلنا خطائون ولا سبيل لتغيير الخطأ الا بمعارضته ودعوة الناس الى اعادة التفكير.

وهكذا تسقط الجزية لسببين، أنه لا فاتح ولا مفتوح، ولأنه لا يمكن تصور قيام دولة حديثة تحرم على قسم من مواطنيها الخدمة العسكرية.

فاذا ما اتفقنا على ان النظام الديموقراطي القائم على الانتخاب لجميع المناصب الرئيسية والسلطة التشريعية، ودون الخوض في التفاصيل، فهو يقوم على حق الاغلبية في التعيين والمحاسبة والعزل، والتشريع. وما دمنا قد اتفقنا على هذا النظام، وانه وحده في الحاضر وفي المستقبل المنظور، هو اقرب الصيغ للنظام الاسلامي، وأقدرها على عكس فلسفة وروح الاسلام. فلا يحق لأي مواطن أو فئة أن تضع تحفظا، أو تطلب ضمانات، فالاغلبية لا تملك أن تعطي الاقلية الا ضمانة المساواة، اما ما يترتب على تطبيق المساواة فلا أحد يتعهد به مقدما، ولا أحد يحق له أن يشترط، والا فقدت المساواة معناها. فاذا رفض الناخبون المسلمون مثلا انتخاب المسيحيين. كان على المسيحيين أن يسعوا ديموقراطيا لتغير موقف الاغلبية، لا أن يشترطوا لاعتبار الانتخابات حرة، نجاح نسبة من مرشحيهم.. لا .. هذا الشرط اخلال بالديموقراطية والمساواة، اذ يجعل المرشح غير المسلم يتمتع بامتياز خاص، وغالبا يكون اعطاء هذا الامتياز تغطية لسلب الجماهير ما هو أهم - كما قلنا - فالذي حطم وحدة باكستان، هو جيش الدولة المجوسية التي يترأسها مسلم! كما تم الفتك بالسيخ في عهد الرئيس السيخي!

..... وغير المسلمين

والآن وقد صفينا موقفنا مع المسلمين.. نسأل غير المسلم ما هو مبرر اعتراضه عندما تختار الاغلبية، الاسلام، هوية للدولة، وتضع التشريعات التي تعتبرها مستوحاة من فلسفة وتشريع الاسلام، وغير متعارضة معها..

ما هو وجه الاعتراض؟

التشريعات الدستورية - كما رأينا - ستكون في الاطار الديموقراطي سواء انتخب رئيس الدولة ملكا أو رئيسا. وسيكون للمسيحيين كافة الحقوق، وعلى اساس المساواة التامة في تشكيل المؤسسات الدستورية.

تبقى القوانين الاقتصادية والاجتماعية والجنائية والشخصية:

النظام الاقتصادي، وهو قضية وطنية تهم جميع المواطنين، وتؤثر فيهم على السواء. ومن ثم فان اختيار هذا النظام من حق الأمة. وطالما لم تكن هناك صيغة دينية مسيحية تفرض نظاما اقتصاديا معينا، أو تحرم نظاما بعينه، فان المسيحيين لن يضاروا «دينيا» من تبني المجتمع لصيغة اقتصادية بعينها. والمسيحيون يعيشون - الآن - في ظل كافة اشكال النظم الاقتصادية المعروفة، ولا يرون في أي منها عدوانا دينيا على معتقداتهم. ومن ثم فلا مبرر لافتراض انهم سيعادون نظاما اقتصاديا بعينه لمجرد أن اخوانهم المسلمين يعتبرونه من دينهم!

والحقائق المعروفة حتى الأن عن النظام الاقتصادي الاسلامي والتي يطالب المسلمون بفرضها، تكاد تعد على اصابع اليد الواحدة

فالمسلمون يطالبون بالزكاة..

وهي لا تفرض الا على المسلمين، وهي على أية حال «ضريبة» غير كافية لمواجهة اعباء الدولة في الظروف الحالية، ومن ثم ستكون هناك ضرائب اخرى يخضع لها الجميع.. ولن يفوت المشرع ان يحقق العدل الاقتصادي بفرض ضريبة على المسيحيين مقابل الزكاة، أو استقطاع قيمة الزكاة من الضريبة العامة على الايراد التي يدفعها المسلم كما يجرى الحال مع التبرعات في معظم الدول، ويمكن للمسيحي أن يتبرع هو ايضا للاغراض الدينية أو الخيرية، ويعامل بالمثل.

المسلمون يطالبون بتحريم الربا..

وهذه قضية يثبت كل يوم صحة المنظور الاسلامي اليها، لا على الصعيد الفردي، ولا في اطار الوطن الواحد، بل على الصعيد العالمي. واذا كان النظام المالي العالمي سينهار فسيكون السبب الأول هو «الربا» أو الفائدة.. والبرنامج الاصلاحي للجمهوريين أو

الرئيس ريغان بالذات يكاد ينحصر الآن في نقطة واحدة، هي نجاحه في خفض معدل الربا.. ومعظم دول العالم الثالث على وشك الافلاس بسبب الربا أو الفوائد على ديونها وهي لو اعلنت افلاسها فستجذب معها الى الهاوية، كل البنوك التي اقرضتها بالربا.. ثم تتداعى السلسلة، فلو أمكن للمسلمين حقا أن يقيموا نظاما اقتصاديا داخل بلادهم، وفي علاقاتهم مع الدول الاسلامية على الاقل، بدون ربا، فسيكون هذا أهم تحرير لشعوب العالم الثالث بل واشارة للعالم الرأسمالي الغني، لكي يفكر في تغيير اسسه، والا فان نظامه سينهار من القواعد دون حاجة الى غزوه. اما اذا فشل المسلمون وتبين أنه لا يمكن العيش في هذا العصر دون الربا، فاننا نقول أنه ما من مجتمع ولا حضارة ولا دولة ولا مجتمع في التاريخ قبل الهلاك والدمار والانهيار من أجل التمسك بنص، فاعطونا حق التجربة، ونحن على يقين أن تحريم الربا هو أول شرط لتحرر شعوب العالم الثالث، وخطوة اساسية في بناء اقتصاد وطني ولابد من محاولتها.

وعلى اية حال ان المعارضة لتحريم الربا لا تستند لأي التزام ديني، فليس في دين المسيح، ما يلزم المسيحي بدفع أو قبض الفائدة.. وحتى اذا قيل انها غير محرمة في دينه، فكذلك «الملكية» مثلا ليست محرمة، ولكن المسيحي قبل ويقبل التشريعات الاشتراكية التي تحد من ملكيته وتحد من حقه في التصرف في هذه الملكية. فالاصل أنه لا يجبر متدين على ممارسة ما يحرمه دينه، أما ما لم يرد فيه نص بالتحريم فهو يخضع للمصلحة العامة وقرار الاغلبية.

ماذا بقى على اللائحة الاقتصادية الاسلامية يخشى غير المسلم أن يتعرض له اذا قامت دولة الاسلام؟ لا شيء.. من ناحية المطالب المحددة، اما ما عدا ذلك فهي مبادىء عامة لا خلاف عليها الا عندما تتحول الى قوانين وهذا الأمر سيكون باذن الله مطروحا للنقاش العام والتفكير المشترك والقرار للاغلبية.

ومن الناحية الاجتماعية؟

ويبدو اننا يجب أن نكرر للمرة الألف، انه ليس في المسيحية تشريعات دينية، في هذه القضايا.. لأن المسيح رفض ان يكون ملك اليهود، ورفضت الكنيسة من بعده ان تحكم مباشرة، أي ان يكون رئيس الكنيسة هو رئيس الدولة.

والمجتمع الاسلامي اليوم يختلف في تشكيله واحتياجاته اختلافا جوهريا عن المجتمع الاسلامي في صدر الاسلام، ومن ثم ستحتاج في كثير من القضايا الى الاجتهاد لاستصدار تشريعات مناسبة، وهذه ستمر عبر القنوات التشريعية الوطنية، التي تمثل مجموع الأمة، فنحن بحاجة الى تشريع للنقابات، ولمزاولة المهن الحرة، وتنظيم هذه المهن، وللأجور وساعات العمل، والمسرح والسينما والاذاعة.. والضمانات الاجتماعية، والسلم الوظيفي

والتقاعد.. وتنظيم الوزارات.. ولا استطيع ان أجد حالة يتحتم فيها الخلاف مع غير المسلمين لسبب ديني.

قد يثير البعض قضية الحجاب، أو «التزمت» الاعلامي، والحياة الاجتماعية، وقد اشرنا الى ذلك في حديثنا عن تحريم الخمر، عندما قلنا ان التحريم سينظر اليه من الناحية الاجتماعية والصحية، وان الدولة عندما تشرع لمنع الخمر لن تستند فقط لآية التحريم الملزمة بالطبع للمسلمين، بل الى النتائج الثابتة من ناحية الضرر على صحة المواطن وسلامة المجتمع، ولا أظن ان رجال الدين المسيحي سيثورون اذا منعت الخمر الا في الطقوس الدينية، أو رفع سن شرب الخمر للمسيحي الى ٢١ سنة، أو حظرت قيادة السيارات على المسيحي اذا شرب اكثر من كمية معينة، لأن هذه التشريعات كلها موجودة في دول غير اسلامية ويؤيدها رجال الدين المسيحيون هناك. والاتجاه العام العالمي يميل نحو تحريم شرب الخمر، واعتبارها رسول الشيطان فعلا.. وكل دول العالم تتمنى التخلص منها، ولكنها لا تستطيع.. لا لأن الاسلام حرمها والمسيحية اباحتها.. فالولايات المتحدة حاولت جاهدة أن تمنع الخمر، وحرمتها، ولم يرتفع صوت واحد يقول ان هذا المنع اعتداء على الدين المسيحي، أو حرية المسيحي في السكر.. ولكن السلطة الامريكية فشلت بسبب الضعف البشري، وقوة الجهات المستفيدة من تسميم المواطنين، والذي انتصر في معركة الخمر في امريكا، هم المافيا، وتجار الخمر، وليس المسيحية.. تماما كالتدخين الذي يجمع العالم كله على انه سم قاتل، ولكن المؤسسات التي تحقق دخلا هائلا من زرع السرطان في صدور البشر تمنع اصدار القرار المنطقي بتحريمه.

ومن ثم اذا اختلفنا في موضوع الخمر فلن يكون على اساس ديني، ولن يمتد التحريم الى خمر القداس او المراسم بحال من الاحوال..

اما عن الحدود، فيمكن القول ان الخمر رغم تحريمها بالقرآن والسنة والاجماع، لم يرد فيها حد لا في القرآن، ولا في السنة، ولذا فقد تركت «لتقدير» الحاكم. قال «علي بن ابي طالب» رضي الله عنه ان حد الخمر «لم يسنه رسول الله» رواه البخاري ومسلم وابوداود. وقال «ما كنت لا قيم على أحد الحد فيموت فأجد في نفسي منه شيئا الا صاحب الخمر فانه لو مات وديته (اي دفعت ديته، كما في القتل الخطأ) وذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسنه».

وفي عهد الرسول كانوا يضربون شارب الخمر بالثياب والنعال، وهو ما يحدث عادة للسكران اليوم «في قسم البوليس».

وحد شك فيه علي بن ابي طالب رضي الله عنه هذا الشك، يعطينا الحق في الاجتهاد على ضوء الظروف الاجتماعية والسياسية. والطبية، مطمئنين الى ان الاتجاه العام في العالم

كله يميل الى وجهة نظر الاسلام بأن شرور الخمر اكبر من أي احتمال لمنافعها.

اما موضوع «الحجاب» أو بمعنى أصح احترام انسانية المرأة، الكف عن التطلع الى لحمها، والتعامل مع عقلها أولا، فلا أظن ان رجل الدين الاسلامي اكثر تزمتا من رجال الدين المسيحيين، والمرأة المسيحية المتدينة لا تقل احتشاما وعفة وتحجبا عن المرأة المسلمة في صعيد مصر أو ريف الشام، وكل الرجال والنساء من المسيحيين والمسيحيات يريدون ويسعدهم أن تفرض علاقات اجتماعية سليمة تحمي ابناءهم وبناتهم من مشاكل الاباحية والتحلل، ولا أظن ان كثيرا من المجتمعات تبيح لبعض افرادها الاعفاء من القانون الاخلاقي او الاجتماعي للبلد بحجة انهم لا يؤمنون به ولا يفوتني هنا ان انتقد موقف رجال الدين ـ وقد ذكرنا ذلك في اكثر من مقال وكتاب ـ الذين يجعلون عورة المرأة محور الفكر الديني وقضية القضايا، والذين يهتمون اهتماما مبالغ فيه بالجنس.

اننا نعتقد ان التشنج الجنسي الذي يتصف به بعض الدعاة، هو ظاهرة تخلف وتأثر بمفاهيم غير اسلامية. ومن المغالطات المفضوحة أن يدعي خصوم الاسلام، انهم يخشون الحكم الاسلامي لما يحمله من تضيق في المسألة الجنسية؟! عجبي! لاكثر من خمسة قرون وهم يتهمون الاسلام بأنه دين شهواني اباحي، جنسي.. الخ الآن أصبحنا ضد المتعة الجنسية؟..

الاسلام هو الاكثر انسانية، والاكثر مرونة والاكثر استجابة للرغبات الطبيعة فهو دين الفطرة.

بقي ان نقول كلمة نوضح فيها الفرق بين رأينا وبين موقفين متطرفين على أقصى اليمين واقصى اليسار ان صح التعبير.

الموقف الاول نادى به الشيخ علي عبد الرازق بناء عل تنسيق مع السلطة البريطانية خلال الحرب العالمية الاولى، وكان يهدف الى اصدار فتوى للمسلمين بجواز الخروج من سلطان اميرالمؤمنين وطاعة المعتمد البريطاني!.. هذه الفتوى صدرت خلال الحرب العالمية الاولى ولحساب الانجليز، والغريب ان كل المدافعين عن الشيخ وكتابه، لا يشيرون الى هذه الحقيقة، بل يزيفون التاريخ بادعاء انها صدرت بعد الحرب وخلال مناقشة الوضع بعد الغاء الخلافة اي بعد عشر سنوات من تاريخ التأليف الحقيقي.. وبهذا يتسنى لهم أن يخلعوا عليها اهدافا تحررية ديموقراطية، او على الاقل الاجتهاد البريء!

علي عبد الرازق نفى الحاجة الى دولة أو سلطة اسلامية زاعما ان الدولة او السلطة الاسلامية ليست من الاسلام..

والرأي الاخر هو الذي يقول ان الهوية الاسلامية للدولة قضية تخص المسلمين وحدهم، ولا تعني غير المسلمين، وأقصى المطلوب منهم هو الحياد، مقابل المعاملة «السمحة» التي

يقدمها الحكم الاسلامي.

نحن نخالف الرأيين..

نحن نعتقد انه لا وجود لمجتمع اسلامي، بل لا تطبيق حقيقي للدين الاسلامي الا بالسلطة الاسلامية، لأن الاسلام لا يضم مؤسسة اخرى غير مؤسسة الدولة تحمي الفرد والمجتمع والوطن، ومن ثم فالغاء السلطة الاسلامية يقترب جدا من الغاء الاسلام، ودعنا من هذر الغلمان الذين تفرغوا لاثبات ان المسلمين ليسوا مطالبين بالحكم بما انزل الله!..

ولذلك نرى انه لابد من قيام الدولة الاسلامية التي ينص دستورها على اسلاميتها بكل ما تعنيه هذه الكلمة، من التزام دستوري وقانوني وفلسفي وحضاري.. فاذا نص على ذلك والتزم به الجميع، وقام مجتمع مسلم حر الارادة، وجاء الدور على تشكيل جهاز الحكم في هذه الدولة المسلمة عندئذ يجب ان يشترك المواطنون جميعا في الاختيار والحل والعقد.. وهذا لاننا نخالف الرأي الأخر فنحن نعتقد ان الهوية «الاسلامية» للوطن، هي اختيار حضاري وليس اختيارا دينيا.. فكل من يعيش فوق أرض الوطن العربي، هو مسلم الحضارة والتاريخ والموقف بصرف النظر عن دينه أو حتى لو كان لا يؤمن بدين...

الفصل الثالث

.. عن الاناجيل!

قلنا في اكثر من موضع في كتاباتنا اننا لا نلزم أحدا بالوهية الحل الاسلامي، وانما ندعو للالتزام بالاسلام كفلسفة وهوية حضارية، وكبرنامج عمل في مواجهة التحدي الحضاري، غير ان المتعمق في دراسة الاسلام يكتشف قضايا ومواقف واجابات يصعب على العقل «العلمي» نسبتها الى عبقرية «محمد» (صلى الله عليه وسلم) وحتى لو فرضنا وجود هيئة من حكماء العالم اجتمعت لاعداد القرآن، في غار حراء أو دار الارقم، وعكفت على هذه المهمة عشرات السنين، للتأكد من خلوه من جميع التناقضات التي وقع فيها الفكر السابق على الاسلام من دعوات وفلسفات. وافترضنا ان هذه اللجنة المزعومة قد احيطت علما بكل المعرفة المتاحة في عصرها، فستظل هناك قضايا لا يمكن نسبتها علميا لتلك اللجنة الوهمية!

فالعقل «العلمي» الذي يرفض وجود «اله» و «وحي» لأنه ما من دليل مادي يمكن به اثبات هذا الوجود، هذا العقل يجب ان يرفض بنفس القوة نسبة علم الغيب، ومعرفة ما لم يقع، او العلم بما يستحيل علمه بوسائل العصر المعين، يجب ان يرفض نسبة ذلك ـ ان وقع ـ لبشر، والا فقد هذا العقل صفة العلمية التي يتحلى بها. فاذا كان العقل العلمي يرفض وجود قوة غير مادية قادرة على جعل رجل يصعد في الفضاء. فان هذا العقل ايضا يرفض تصور قدرة هذا الرجل على رفع نفسه فوق قانون الجاذبية بدون آلات ولا تكنولوجيا. فاذا ثبت ان هذا الرجل رفع نفسه فعلا، ورآه الناس يمشي متبخترا فوق السحب، فلا بد من تفسير خارج دائرة القوانين العلمية المعروفة.

فمن الممكن الادعاء بأن «محمداً» ـ صلوات الله عليه ـ كان يتمتع ببلاغة نادرة، جعلته يتحدى أهل عصره، وسائر العصور أن يحاكوه في «القرآن» بل وكان لديه من التمكن في اللغة، ما يجعله يفرق بين اسلوبه في القرآن، واسلوبه في الحديث، ما يميزه البلغاء والبسطاء من الناس تمييزا واضحا لا يختلف فيه اثنان. .

ومن الممكن الادعاء بأنه كان فلتة في البلاغة، وانه لا وحي نزل عليه، بل نوبات صرع، تجعله يقول في صرعه واضطرابه، ما يعجز بلغاء عصره، وما تلاه من عصور، عن تقليده وهم في عنفوان صحوهم، وكمال عقلهم، وبلا صرع!

ممكن!

ومن الممكن ايضا الادعاء بأن لجنة حكماء بيت الارقم او غار حراء قد درسوا العقائد القائمة، واستطاعوا تحديد مسار تطور المعرفة، ومن ثم فقد حرصوا على تجنب المزالق التي تورط فيها كتبة العهد القديم والجديد. . والتي ـ عرفوا بطريقة ما ـ انها ستتناقض مع حقائق العالم او مع قيم الاخلاق او التصور الواجب لله ورسله بعد اكثر من ألف سنة! . .

فالاسلام اكد صحة المصدر للدينين اليهودي والمسيحي، بل ان بعض كتاب اليهودية، اعترفوا بفضل الاسلام عندما اطلق على اليهود، ولأول مرة، هذا اللقب العميق الدلالة، المثير للاحترام والاعجاب، وهو تعبير «اهل الكتاب» في زمن كان العالم كله يتبارى في اطلاق النعوت المشينة على اليهود. وهذا التعبير بالطبع، يشمل المسيحيين. ولكن هؤلاء سيحتاجون لألف سنة اخرى لكي يعترفوا بجميل المسلمين. وتعبير أهل الكتاب لا يمكن ان ينطلق من موقع عنصري أو محاولة ازدراء أو انتقاص. فالكتاب هو آية الاسلام الكبرى. والتصور الاسلامي يدور اساسا حول تقدير وتعظيم «الكتاب» حتى ان حرية العقيدة مكفولة لأية جماعة لديها «كتاب» وقد فسر فقهاء الاسلام عدم فرض الاسلام على المجوس وقبول الجزية منهم بأنهم كان لديهم كتاب واضاعوه. ومن ثم فاطلاق لقب «اهل الكتاب» على المسيحيين واليهود، هو موقف ينضح بالتكريم والاخوة، والمحاسبة ايضا، حتى وان كان ينطلق من موقع الصدق مع النفس، أو من الحقيقة الالهية التي لا تنطق عن الهوى[1].

الاسلام اذن اعترف بصدق الدين اليهودي والدين المسيحي (وهو في حد ذاته موقف فوق البشر) كذلك اعترف الاسلام بأن التوراة والانجيل هما كتابان شقيقان، وسابقان على القرآن. وان الثلاثة موحي بها من لدن الله سبحانه وتعالى. وفي اكثر من موضع كرر القرآن بعض الوقائع والاسماء التي وردت في التوراة والانجيل، ولكن القرآن في نفس الوقت خلا من كل الاخبار والروايات المثيرة للشك أو الحرج، التي وردت في التوراة والانجيل المتداولين اليوم بين الناس. . ومن ثم فما من مسلم سيشور في ضميره ذلك السؤال الذي ازعج المسيحيين دهرا، حول «الاضرار» التي ترتبت، أو المشاكل التي ثارت في المسيحية نتيجة تبنيها للنص التوراتي أو العهد القديم! . . فليس في القرآن، مثلا، ما يوحي بأن خلق الأرض والسماء والكون تم منذ خمسة الآف سنة أو عشرة الآف سنة . . أو مائة مليون، بل

١ ـ بينما يبحث الفاتيكان في القرن العشرين هل المسلمون يعبدون الها ام مازالوا يعبدون الاصنام كما قال المسيحيون عنهم خلال ١٣ قرنا! . .

إن أية حقيقة يكتشفها العلماء عن هذا العمر، الذي يمتد بضعة ملايين مع كل اكتشاف جديد، تنطبق على التصور القرآني، أو لا تتعارض معه. بينما استطاع علماء المسيحية استناداً الى نصوص التوراة وحساب اعمار الرسل أن يحددوا «بالضبط» سنة خلق آدم، وكانوا في غاية التواضع والزهد، كما ينتظر من مسيحيين طيبين، فلم يتجاوزوا عدد أصابع اليد في حساب الآف السنين التي عاشها الانسان في هذا الكون[٢] !

وليس في القرآن أن سيدنا لوط ـ والعياذ بالله ـ شرب خمراً وضاجع ابنتيه وهو الذي طلب هلاك خمس مدن كاملة بتهمة الانحراف الجنسي!

ولا أن المسيح «ابن» الله، أو أنه صلب ثم قام، ولا أن ابراهيم أغرى فرعون بزوجته لينجو هو بجلده! أو أن نوحا لعن ابنه فأصبح اسود اللون، وعبداً لأخويه «غير السود» أبد الدهر!

أقول إننا لابد أن نفترض وجود لجنة حكماء اجتمعت في غار حراء، واجرت تنقيحا في التوراة والانجيل فاستبعدت كل النصوص، التي قدرت ان العقل المتنور في القرن العشرين وما بعده لن يقبلها بل ووضحت مواضع الشك لتجنب التفسير القاصر الذي طرحته المؤسسات الدينية قبل الاسلام، فاذا كان الله قد خلق السموات والارض في ستة أيام، فان هذا التشبيه أو التعبير أوحى لمفسري التوراة والانجيل بعقد مشابهة بين الزمن الالهي والاسبوع البشري، وبالتالي بين الله والانسان ورأوا الله سبحانه وتعالى «يتعب» من «الشغل» طوال الاسبوع، فيرتاح في اليوم السابع، ولا شك ان القرآن لو تحدث كما فعل عن خلق الأرض «في ستة ايام» وسكت، لكان من الطبيعي أن يتأثر النص بتفسيرات العهد القديم والجديد، ولكن القرآن تنزه عن هذه المقارنة الساذجة بين ايام الله وايام الارض بين قدرة الله وجهد الانسان فقالت الآية «وما أصابنا من لغوب» اي ما اصابنا من تعب. . !
وهو تعبير يبدو غريبا رغم صدقه، اذ ان انسان القرن العشرين لا يتصور نسبة التعب أو الحاجة الى الراحة لله سبحانه وتعالى، بل ان المسلمين الذين تلقوا عن الرسول مفهوم التوحيد الخالص، لابد أنهم قد تعجبوا ثم صدقوا وآمنوا من هذا «النفي» او لزوم ما لا يلزم، فما كانوا قد اطلعوا على النص التوراتي الذي نسب لله التعب من العمل ستة ايام ومن ثم منحوا ـ الله سبحانه وتعالى عما يصفون ـ عطلة الاسبوع! . . ولكن «اللجنة اياها» كانت قد اطلعت على هذا النص المعيب في التوراة، وكانت متفوقة عقليا الى حد انها رفضت نسبة التعب لله، فحرصت على الرد على التوراة! . .
وهذه اللجنة لم تكن فقط متفوقة في علم التوحيد وتنزيه الله عن المشابهة بالمخلوقات وهذا

٢ ـ بالحساب التوراتي ظهر الانسان منذ ٥٧٤٦ سنة (عام ١٩٨٤ ميلادية) أي عام ٣٧٦٢ ق.م

يمكن تصوره، وان كان يستحيل تصور دراسة بهذه الدقة للتوراة، الا ان اللجنة ايضا كانت متفوقة على عصرها في علم الجيولوجيا، وعلم الفلك، واطلعت بطريقة ما على نظرية النسبية في الزمن، ولذلك عرفت خطأ بل سخافة التفسير الحرفي لنص خلق الكون في ستة ايام، ولذلك حرصت على تنبيه الاجيال القادمة الى نسبية الزمن لكي لا يخطئوا التفسير، فنبهتم الى أن اليوم قد يكون على الارض ٢٤ ساعة، وفي بعض النجوم البعيدة ٢٤ ألف ساعة. ولذلك وضعت «اللجنة» في القرآن اكثر من نص يؤكد نسبية الزمن مثل قولها: «وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون». أو «في يوم كان مقداره خمسين الف سنة» (سورة المعراج). . «في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون». ولاحظ ان هذا التعدد، يؤكد نسبية الزمن، وعدم التقيد بفترة محدودة، ويبرز الفارق عن النص الذي ورد في الانجيل بأن اليوم مع الله مثل الف سنة، فهي في الانجيل محددة بألف سنة، وهي أيضا تقرن ذلك بقدرة الله على انجاز ما يستغرق ألف سنة عند البشر، فهذا هو المعنى الذي يتبادر للذهن، بينما هي في القرآن لا يمكن أن يفهم منها الا نسبية الزمن، لانه سبحان وتعالى ليس له معدلات متصاعدة في العمل فمرة ألف سنة، ومرة خمسة اضعاف. . بل الحديث يدور حول اختلاف الزمن لا اختلاف معدل الانتاج! . .
وانظر قوله تعالى: «قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم» البقرة.
«قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم» الكهف. . وفي الحالتين اختلف الزمن الحقيقي عن الزمن المحسوس.
هذه نصوص لا تحتمل الشك في معرفة قائلها بنسبية الزمن، واذا كان رجل الدين، يطالبه رجل العلم بتقديم تفسير للنص على خلق الارض في يومين، أو الارض والسموات في ستة ايام، لأن جميع الحقائق العلمية تؤكد ان عمر الارض يتجاوز بلايين البلايين من أيامنا هذه. فان رجل العلم مطالب بدوره بتقديم تفسير لمعرفة «محمد بن عبد الله» مواطن من «مكة» في القرن السابع الميلادي، بنسبية الزمن، ورده مقدما على هذا السؤال بطرح تلك النسبية!

حيث ان جميع الحقائق العلمية تؤكد استحالة وصول عقل بشري الى نسبية الزمن بهذا الوضوح في القرن السابع الميلادي. ولا حاجة للقول بأن موقف رجل العلم هنا اكثر حرجا من موقف رجل الدين ومن ثم فان التسليم بوجود «جهة» غير بشرية عالمة بنسبية الزمن، اقرب للعقل وأسهل في التصديق من افتراض علم «محمد بن عبد الله» او «اللجنة» بتلك النسبية! . .

قوة عالمة خارج الزمان والمكان وفوق مستوى علم العصر وكل عصر، هي التي أوحت بالقرآن، وجعلته فوق مستوى النقد في كل عصور. ولكن لا نريد أن نقفز الى هذه

التيجة، بمجرد مثال واحد حول النسبية، بل تعالوا نطوف في بعض الكتابات والملاحظات التي تجمعت عندي منذ ان طرحت على نفسي هذه التساؤلات . .

«موريس بوكايل» كان مسيحيا متدينا وخريج مدارس الأحد . . وضع دراسة سريعة عن موقف العلم من الانجيل والقرآن، جمع فيها، بعض المتناقضات التي وقع فيها كتاب التوراة، بحكم حقيقتين: الأولى أنهم بشر ومن ثم فالمعرفة المتاحة لهم هي معرفة عصرهم ـ على أحسن تقدير ـ والثانية هي اهتمامهم بسرد التفاصيل لاضفاء طابع «الدقة» أو المصداقية على رؤيتهم، أو لترسيخ الايمان في قلوب العامة، ومن الامثلة التي جمعها:

● «في سفر التكوين قبل الفيضان مباشرة قرر الرب تحديد عمر الانسان بمائة وعشرين سنة». «ستكون ايامه مائة وعشرون سنة». ولكننا نلاحظ بعد ذلك ان العشرة الذين خلفوا نوحا تراوحت اعمارهم ما بين ١٤٦ و ٦٠٠ سنة! والتناقض بين الاثنين شديد الوضوح والنص الاول هو نص Yahvist وضع في القرن العاشر قبل الميلاد، اما الثاني فهو من Sacerdotal بتاريخ متأخر.

وفي القرآن تحديد لمدة وجود نوح في قومه، والمدة التي نامها أهل الكهف، والتي اماتها الله للرجل وحماره، ولكن لا يوجد هذا التناقض لأن القرآن لم يحدد عمر البشر، بل تحدث عنه بالصيغة الموجودة فعلا في الواقع والتي تتفق مع اي تطور مقبل . . فمنهم من يموت صغيرا، ومنهم من يعيش حتى يعمر ويفقد الذاكرة . . الخ .

● «في سفر التكوين ٣ قضايا تخالف حقائق العلم وهي ١ـ خلق الكون ومراحله . . ٢ـ تاريخ هذا الخلق، وتاريخ ظهور الانسان ٣ـ وصف الفيضان .

فمن ناحية تاريخ الخلق، كما ذكرنا، يقدر العلماء تاريخ الارض «بأربعة بلايين ونصف بليون سنة» وهو فرض قد يصفه البعض بدقة جحا في عد النجوم، وهو بالطبع قابل للتعديل ببضع مئات الملايين فوق أو تحت، ولكن تحديد التوراة يخرج نهائيا من نطاق البحث العلمي اذ جعلها ٥٧٤٦ سنة مع حسم ٣٪ فرق السنين القمرية! . كذلك يقول ان التوراة جعلت ظهور الارض مصاحبا لظهور الانسان، وهو مخالف لجميع الحقائق العلمية المتاحة الآن .

وهذا صحيح . . بينما النص القرآني واضح الدلالة في اسبقية وجود الارض على الانسان، بزمن الهي او فلكي غير معرف، إذ ان الله سبحانه وتعالى قال للملائكة: إني جاعل في الارض خليفة، وهذا يعني ان الارض كانت موجودة ومعروفة عندالملائكة، قبل خلق الانسان، وهو ما يتفق مع الحقائق العلمية المعاصرة ويجعل عقل المسلم الجيولوجي اكثر هدوء وأقل حاجة لألعاب اكروبائية للتوفيق بين النص والعلم . . بل نحن نذهب الى ان سائر الكائنات الحية كانت موجودة في الارض قبل خلق الانسان وهذا تفسير استخلاف

الانسان، فالخليفة لا يكون في الفراغ .

كذلك فان تحديد سنة الفيضان، والتأكيد على انه اغرق الدنيا كلها واباد الكائنات الحية باكملها . . وان الحياة عادت من خلال «نوح وزوجته وثلاثة اولاد بزوجاتهم، ما حملوه معهم من الحيوانات . . هذا التحديد يجعل اي دارس للجيولوجيا في محنة بين ابسط حقائق العلم وبين الايمان بالنص التوراتي المقدس . . فضلا عن التناقضات بين نسخ التوراة، فالنص القديم حدد مدة الفيضان بأربعين يوما وأن الماء غطى الكرة الارضية حتى قمم الجبال . . اما النسخة الأحدث فقد اغرقت الارض مائة وخمسين سنة . . وزادت بان حددت تاريخ الفيضان فكان سنة ١٦٥٦ بعد خلق آدم و ٢٩٢ قبل مولد ابراهيم وهذا يتناقض مع حجم البشر في عصر ابراهيم، حتى لو سلمنا أن ما تحدث عنه «الكتاب المقدس» من شعوب هم كل الجنس البشري: المصريون والعرب والكنعانيون . . . الخ ! . .

ونحن نضيف أن القرآن لم يضع المسلم في اي مأزق . . فهناك فيضان . . ولكنه لم يغرق الكرة الارضية كلها، بل قوم نوح أو مدينة نوح أو بلدة نوح وقد دمر الله مدينة قوم لوط، ومدينة قوم عاد وثمود وليس في أي منها اشارة الى فناء العالم . . فما الذي يجعل حالة نوح حالة خاصة تفني البشرية مع قوم نوح؟! وما ذنب المصريين مثلا الذين لم تبلغهم الدعوة؟!

وقد لاحظنا ان كل الآيات التي تتحدث عن نوح تقرن رسالته بقومه، بتحديد واضح وكأنها ترد على هذا الوهم:

اول سورة نوح يبدأ بهذه الآية: «انا ارسلنا نوحا الى **قومه** . . ان انذر **قومك**» فهو لم يرسل الى «العالمين» كما قيل في رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام، بل الى قومه خاصة، وأمر بانذار قومه فقط، ومن ثم فالعقوبة قاصرة على قومه . .

« ولقد ارسلنا نوحا الى **قومه** اني لكم نذير مبين» هود

«لقد ارسلنا نوحا الى **قومه** فقال ياقوم اعبدوا الله» الاعراف

«ولقد ارسلنا نوحا الى **قومه فقال ياقوم**» المؤمنون . والذين كفروا هم من قومه، والذين اغرقوا هم الذين كفروا به وليس الطايع مع العاصي أو كل الجنس البشري . .

فقال الملأ الذين كفروا من **قومه** » هود . .

«واوحى الى نوح انه لن يؤمن من **قومك** الا من قد آمن . . »

«وكلما مر عليه ملأ من **قومه** سخروا منه» هود

«فقال الملأ الذين كفروا من **قومه** » المؤمنون

«كذبت قبلهم **قوم نوح** واصحاب الرس » القمر . .

ونوح دعا الله سبحانه وتعالى: «وقال نوح ربي لا تذر على الارض من الكافرين ديارا انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا» سورة نوح .

ولم يقل «لا تذر من العالمين» والفرق واضح . . بل خشي ان يضلوا «عباد الله» فهم لم يكونوا كل الجنس البشري . . بل كان هناك عباد آخرون يخشى من تضليل قوم نوح لهم . والله قال له اركب فيها «ومن اتبعك» وقال «فانجيناه والذين معه» ولم يحدد عددهم لا بثمانية ولا بثمانين ألف . . حتى الحيوانات التي أمر بحمل زوجين من كل نوع ، فهي لطعامهم وحياتهم ، وليس في النص ما يفيد أنها لاعادة تعمير الأرض أو حفظ النوع الذي غرق !

وقد لجأ الاكليروس الى الاعيب «اكروباتية» بحق، كما يسميها المؤلف «موريس بوكايل» لستر تناقض الانجيل، فقال الأب «دوفو» مترجم الانجيل» ان الكتاب المقدس يحتفظ بذكرى فيضان مدمر اصاب وادي دجلة والفرات، ثم بولغ فيه كما هي العادة عبر الاجيال حتى اتخذ صورة كارثة عالمية!» «ولكن ليس هذا هو المهم (؟! ج) المهم هو أن المؤلف «المقدس» قد ضمن هذه الذكرى تعاليم خالدة عن عدالة الله ورحمته . . الخ . ويعلق: «موريس بوكايل» وهكذا يوجد التبرير لتحويل خرافة الى تنزيل مقدس!»

وقبل تفسير الاب دوفو، عكف علماء الكنيسة على اكتشاف «سر» الفيضان، فقالوا أنه لم يقع فيضان، بل انه صورة بلاغية رمزية فسفينة نوح هي المسيح والكنيسة من ركبها نجا من الفيضان . . فالثمانية الذين ركبوا المركب يرمزون لليوم الثامن الذي قام فيه المسيح من الموت والسفينة من الخشب، والصليب من الخشب، والماء هو ماء التعميد . . الخ[3].

«أما القديس اغسطين فقد حل المشكل على هذا النحو: «عندما اواجه بنص في الكتاب «المقدس» يتناقض مع الواقع اقول: اما ان نسختي مزورة أو أن المترجم لم يكن أمينا على الأصل، أو أن فهمي عاجز أو قاصر» . .

ولم يشرح كيف يمكن للمؤمن أن يعتمد على كتاب مقدس يحتمل التزوير والغش والخطأ في الترجمة؟!

المهم تجنب القرآن التفاصيل، لأنه لم يكن في استطاعته مفاجأة الاجيال الماضية بحقائق علمية ستكتشف بعد قرون، ولأنه تنزيل مقدس، لم يقع في خطيئة «الكذب» ومن هنا التحفظ بشدة على اولئك الذين يبذلون الجهد لاثبات وجود «الحقائق» العلمية في القرآن ، وعصر الأيات لتنطق بالمعلومات الجيولوجية والبيولوجية، ذلك لأن العلم البشري من طبيعته التطور والتغير، باكتشاف ظواهر جديدة تشكل القوانين، وهي بدورها تؤدي الى طرح نظريات تفسر أو تنسق بين هذه القوانين، ولهذا فالنظريات غير دائمة، ولا هي نهائية، بل تتعدل باستمرار، وتتعارض، وتتطور، وليس من الضروري ان تتطور نحو الاصوب والاكمل دائما، بل قد تأخذ شكلا متعرجا. ولكن يفترض في كل عصر التسليم بصحة

---

٣ - العلم والقرآن والانجيل ص ٣٨

نظرياته، واعتبارها آخر صيحة في العلم. ولذا قلنا أنه لو طرح القرآن النظريات العلمية المعاصرة، التي نفترض نحن الآن تمام ويقين صحتها، لو فعل ذلك لبدا مخالفا، وغير علمي في عصر نزوله، لأن علماء ذلك العصر سيجدون اخباريات القرآن «غير علمية». فالاعجاز القرآني تمثل في تنزهه عن تبني مفاهيم ونظريات علماء عصره، والا لبدا اليوم متخلفا متناقضا مع العلم المعاصر.

معجزة القرآن الدائمة أنه ما من حقيقة علمية متفق عليها اليوم أو في اي عصر تجعل المؤمن في حرج أمام نص قرآني متعارض معها، فيغمغم «إن الارض تدور ولكن مادام الكتاب المقدس يقول لا . فهي لا تدور!» . . أما الذين حرفوا التوراة والانجيل فقد حلا لهم أن يدعموا مصداقية الكتابين، بدس ما اعتبروه «حقائق» متفق عليها في عصرهم، فكان أن اضبحت هذه «الاساطير والنظريات» حقائق مقدسة، وجزءاً لا ينفصم من الكتاب المقدس، فلما تقدمت المعارف والعلوم، وثبت خطأ هذه الاساطير والنظريات، شكك ذلك في مصداقية الكتاب المقدس باعتبارها من صميم «حقائقه» وكان ذلك الحرج الذي عاناه ويعانيه المؤمن، والالاعيب الاكروباتية في تبرير التناقض.

القرآن لم يتجاهل الكون وحقائقه، ولا اتخذ اسلوبا يفسره، كل من شاء على هواه، فهو قد حض على التفكير العلمي، واعطى ايحاءات تؤكد أنه من لدن عليم خبير، لا يتحدث في العلم المادي، أو قل لا يقيد الكلمة الخالدة باطار العلم المتغير، إلا انه محيط بهذا العلم، يوجه الانسان للبحث وطلب المزيد، فليس في القرآن أية إشارة بعكس الكتب الدينية الأخرى، إلى أن الارض هي مركز الكون، أو أنها ثابتة لا تتحرك، أو أهم ما في هذا الكون، ولا يعنيني أن يكتشف أحدهم أنه قال بكرويتها أو بدورانها حول الشمس، فالمهم أنه لم يقل العكس، والأهم أن كل آياته توحي بادراك كامل للامحدودية الكون، وان ما نراه في هذه المجموعة الشمسية لا يزيد عن جناح بعوضة، بالنسبة الى مملكة الكون اللانهائية . . فهناك دائما ما هو اكبر . . ويخلق مالا تعلمون» . وان كل ما نراه ثابتا يتحرك، فالشمس والقمر والارض كلها تتحرك بسرعة هائلة . وهذا التصور للكون لا ينبع اعجازه من انطباقه على معلوماتنا عن الكون، اليوم . . بل من كونه يحض الانسان على رفض المسلمات، رفض الظواهر الحسية، الخروج من اطار المعرفة المحدودة، رفض المحسوس الناقص، بحثا عن العقلي «اللانهائي» أو الاقرب للكمال . . ودون ان نسقط في اغراء اكتشاف انشتين في القرآن، نكتفي في الحديث عن منهاج القرآن في معالجة العلوم، بما اشرنا اليه عن نسبية الزمن بطرح مقاييس مختلفة لليوم . فمرة مقداره الف سنة، ومرة خمسون الف سنة . . ولو حدد رقما واحدا لكان هذا هو اليوم «الالهي» بفعل قوى غير مادية، ولكن التعدد، (واذا أضيفت قصة اهل الكهف والحمار) اكد أن هذا القانون مادي وعام عن نسبية الزمن، فقد

يكون ٢٤ ساعة، كما هو الحال في ارضنا، وقد يكون ألف سنة أو خمسين الف سنة وهكذا . .

ان هذه الآيات تطرح مبدأ نسبية الزمن، ومن ثم كان بوسع «عالم القرن التاسع عشر» أن يفهم امكانية خلق الارض في ستة أيام وهو الذي توصل الى تقدير عمر الارض بملايين السنين، ولكنها كانت ايضا قادرة على الايحاء له بنظرية النسبية، وحثه على الاجتهاد لاثباتها على الطبيعة . .

واذا كانت حركة الشمس «الظاهرة» تنطبق مع الآية: والشمس تجري . . وان كانت لا تفسر «لمستقر لها» لأن من يراقب الشمس بالعين المجردة يراها تجري أو تدور لتعود في نفس الموقع مرة كل يوم أو كل سنة . . فلا معنى لأنها تجري لمستقرها، اذ ان هذه الحركة أو الامتداد في الكون لم تكتشف الا منذ سنوات قليلة، إلا ان آية وترى الجبال راسيات وهي تمرمر السحاب، لا يمكن تفسيرها، الا بمعرفة دوران الأرض حول نفسها . . والأهم من ذلك أنها تحرض المفكرين، على تأمل السكون والحركة، ونسبية المعرفة، وقصور الحواس عن الالمام بكل حقائق العلم، واختلاف الحقائق المحسوسة عن الحقائق المدركة بالعلم والعقل . . الخ .

لهذا نحن لا نقف كثيرا عند معارضات بوكايل وغيره ـ من المجتهدين المهتدين باذن الله ـ بين اساطير التوراة والانجيل وبين حقائق «العلم» في القرآن . . وانما يعنينا الموقف في حد ذاته، الموقف من اكبر حقيقتين في عصره، وهما «التوراة والانجيل» فقد تجنب القرآن كما قلنا كل الروايات التي تثير الجدل والشك لدى المؤمن المثقف. ولكن ذلك لم يكن كافيا لأنه بشهادته بصحة الوحي اليهودي والمسيحي، واعلانه أنه «مصدقا لما معكم» «مصدقا لما بين يديه» «مصدق لما معهم» ثم اشاراته المستمرة للتوراة والانجيل وتطابق اسماء الرسل وبعض الوقائع، كل هذا كان لابد أن يحمل الاسلام مسئولية كل ما بالتوراة والانجيل من تناقض واقوال مخالفة للحقيقة والعقل، تماما كما حملت الكنيسة المسيحية مسئولية التوراة كاملة بتبنيها حرفيا على انها هي الكتاب المقدس المنزل بكل ما فيه .

كيف استطاع الاسلام ان يتجنب هذا المأزق؟ . . كيف امكنه ان يعلن بشجاعة وصدق صحة الدينين، وانتمائهما لنفس المصدر في القرن السابع الميلادي، وهو ما تضيق به صدور رجال الكنيسة اليوم، رغم تقدم المعرفة والموضوعية، ورغم الضرورات السياسية التي تحتم مجاملة المسلمين ونفطهم . . كيف اعترف الاسلام بصحة الكتابين مصدرا وتجنب في نفس الوقت مسئولية ما بهما من اخطاء بشرية . .

لو كان الاسلام من تدبير بشر مهما كانت حكمتهم، لكان الاسهل عليهم، اعلان زيف الدينين من الاساس، خاصة وانهما لا عزوة لهما في جزيرة العرب، ولا ضرورة تحتم عليه

مهادنتهما. فالرسول لم يكن مضطراً لمهادنة او كسب اليهود والنصارى .

ولكن لأن الاسلام هو الدين الحق، كان لابد ان يشهد بالحقيقة، وهي صحة التنزيل على موسى وعيسى، ومن ثم صدور التوراة والانجيل من نفس المصدر الذي انزل منه القرآن . . وفي نفس الوقت القى بالتحدي المهول، وهو اعلان تزوير الكتابين المتداولين بين الناس في القرن السابع الميلادي!! اعلان انهما تعرضا لتحريف وتعديل على يد البشر، مما يستحيل معه التمييز بين ما بقى من الوحي الأصلي وبين ما ادخلته الاهواء والتعديلات على يد الحكام والكهان . . الا بتحكيم القرآن . .

«من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه» (النساء) «وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعدما عقلوه» البقرة .

وهو «ادعاء» حرر الاسلام من كل ما لا يتفق مع تعاليمه، ولكنه في نفس الوقت كان «ادعاء» خطيرا، فكيف يتقبل «عقل» المسلم، فضلا عن اليهودي أو المسيحي ان رجل الدين المؤمن، يقدم على تعديل وتحوير «الكتاب المقدس» . . كيف يصدق العقل، ان رجل الدين الطاهر المقدس الذي ترهبن واعطى حياته كلها لله . . يفعل ذلك؟

كيف يصدق انهم ينقحون الكتاب «المقدس» ثم يطلبون من المؤمنين تلاوته وحفظه باعتباره كلمة الله! وكأن الله سبحانه وتعالى ـ عما يصفون ـ رئيس تحرير جريدة عربية، يكتب له محرر ويقول بقلم رئيس التحرير! . . وكيف يطمئن قلب المسلم، وهو قد رأى مدى حرص المسلمين على حفظ حروف القرآن، بل الحرص على ملء صفحة المصحف من اقصى طرفيها على نحو لا يترك مجالا لدس حرف واحد، وكيف نجح المسلمون في حفظ كتابهم بدون تغيير ١٤ قرنا . .

كيف يتقبل المسلم، فضلا عن المسيحي واليهودي اتهاما بأن رجال الدين اليهود والمسيحيين عجزوا عن حفظ كتابهم، بل اكثر من هذا كانوا هم اداة التحوير والتبديل . . وما الدليل؟ . . هذا هو «الكتاب المقدس» نسخة واحدة مطابقة في كل مكان (في القرن السابع) ومعتمد ومشهود بصحته من اليهود والمسيحيين . . ما الدليل على التحريف؟!

صحيح ان التناقضات بدأ اكتشافها في وقت مبكر في القرن الثالث أو الرابع عشر، ولكن ليس قبل القرن السادس عشر حتى اكتشف أحدهم أن موسى عليه السلام لم يكن بوسعه تسجيل واقعة وفاته»[٤]!!

وأول دراسة باسم «النقد التاريخي للعهد القديم» كانت في عام ١٦٧٨ التي وضعها الاب «ريتشارد سيمون» . . ولكن «في القرن الثامن عشر» فقط طرح السؤال هل «كتب موسى التوراة»؟! ثم بدأت الدراسات تتوالى عن تعارض وتناقض ما جاء في التوراة،

---
٤ ـ ص ١١ كتاب العلم والقرآن والانجيل

واستحالة اتفاقها مع وقائع التاريخ الثابتة، ولكن السؤال أو بمعنى اصح الاجابة لم تطرح بوضوح وصراحة وأدلة الا في القرن العشرين بعد أن اكتشفت برديات «نجع حمادي» و «البحر الميت» وظهرت نسخ من التوراة والاناجيل مخالفة للنصوص المعتمدة. . وأمكن للدارسين أن يقرروا «ان العنصر البشري شديد الوضوح في العهد القديم، وليس من الصعب ادراك تغير النص الاصلي خلال عمليات النقل والترجمة عبر الفي سنة» «اجزاء كاملة جرى فيها تنقيح وقائع التاريخ لتنطبق على المفهوم الديني». واكتشف العلماء ان التوراة تتكون من نسختين واحدة «الأصلية» وهي نسخة YAHVIST والثانية أصغر عمرا وتسمى Sacerdotal . . ولوحظ ان النسخة الأولى الاقدم لم تشر الى عطلة نهاية الاسبوع التي نالها الرب بعد خلق الكون! ولكنها أضيفت الى النص الثاني الذي قسم الايام بالمفهوم الزمني الآدمي، حتى طابقت ايام الاسبوع، ومن ثم كان على الله ان يتوقف عن العمل يوم السبت تنفيذا لتعاليم الدين اليهودي: «فقد رتب الامر كله ليدور حول «السبت اليهودي» ولاقناع اليهود باحترام السبت مادام الله نفسه ارتاح فيه»(٥) .

وهذا هو الاساس في التعديلات التي ادخلت على التوراة والاناجيل، فلخدمة الجماعة الدينية يجرى تعديل النصوص لتصبح اكثر ملاءمة مع فكر المسئولين في هذا المجتمع، واكثر تلبية لاحتياجاتهم واهدافهم بالنسبة لمجتمعهم، وهكذا يصبح الله موظفا عند الكهنة، فالله شرع السبت ليرتاح فيه العاملون وليجبر السادة المستغلين على اعطاء عبيدهم ومن يستغلون، عطلة يوم في الاسبوع . . ورجال الدين اليهود، استفادوا من هذا التشريع، وارادوا تأكيد مشروعيته، فكانت هذه الاسطورة عن الله يقضي عطلة نهاية الاسبوع مسترخيا بدون عمل؟!

ولكن النسخة المتداولة والنصوص المحفوظة في القرن السابع الميلادي والى عهد قريب كانت تتضمن، فقط، الرواية المخالفة للقرآن، نعني الرواية الثانية المتحدثة عن تعب الله، وعطلة نهاية الاسبوع، فكيف توصلت لجنة «غار حراء» الى النسخة الأصلية وتبنت مفهومها؟! واكتشفت التزوير في النسخة الثانية قبل علماء اليهودية والمسيحية بعشرة قرون على الاقل؟!

تحدى القرآن العالم باعلان تحريف التوراة والانجيل على يد البشر، دون أي دليل مادي، في القرن السابع الميلادي؟! واليوم وفي القرن العشرين فقط شهد اليهود والمسيحيون بصدق «الادعاء» الاسلامي. . .

ولنتأمل أحدث دراستين صدرتا هذا العام عن التوراة والاناجيل، بعدما تجمعت حقائق خلال النصف الاول من هذا القرن جعلت مسيحيا مثل «موريس بوكايل» يقول: «ومن

٥ ـ ن . م ص ٢

هنا حق لنا القول بأننا يمكن أن نجد في العهد القديم، تناقضات، واخطاء تاريخية، وفرضيات، لا أساس لها وتتناقض مع حقائق العلم الثابتة، وهو أمر طبيعي في أي عمل بشري تم خلال فترة زمنية طويلة» . وقد اقتضى الأمر أن يعدل مجمع الفاتيكان (١٩٦٢ ـ ١٩٦٥) صياغة نص خمس مرات حتى توصل الى ان «العهد القديم يمكن اي انسان من معرفة من هو الله؟ . . ومن هو الانسان؟ وكذلك كيف عامل الله الانسان على ضوء العدل والرحمة. وهذه الاسفار رغم أنها تتضمن موادا وقضايا غير صحيحة (OBSOLETE) (ومعناها الحرفي تخطاها الزمن). الا انها تحمل نفحة التعاليم المقدسة الصادقة. . ».

و «ان العهد القديم يتضمن اشياء Imper fect and obsolete ، ونحن نتمنى أن يتبع هذا الاعتراف تنقيح التوراة بحذف ما لم يعد مقبولا في القرن العشرين في كتاب هو بصرف النظر عن اخطاء واضافات البشر، هو «شاهد على التعاليم الحقة القادمة من عند الرب» . .

وقد بادر «اليهود» باصدار طبعة مفسرة من التوراة تعترف بأن الكتاب المتداول الآن بين الناس «مقدس» و «مزور» أو لا ينطبق على الحقيقة تماما، ومن صنع البشر الذين وضعوا فيه معتقداتهم وتفسيراتهم. . وقد صدر من الدراسة الجديدة سفر واحد هو «التكوين» بقلم: «جنتربلاوت» W. Gunther Plaut وصادر عن الهيئة العبرية الامريكية. وقد بدىء في العمل فيه ١٩٧٤ وطرح اخيرا في الاسواق. ويتضمن نصوص التوراة بالعبرية والانجلبزية مع شرح وتعليق، لاقى اعجابا وتأييدا من كافة الدوائر اليهودية الدينية والعلمانية تجلى في اصدار التعليمات لليهود والمعابد والمراكز الدينية اليهودية باعتماد الكتاب وتلاوته ودراسته. . .

والمقدمة تقول حرفيا:

«هذه الدراسة تنبع من فرضية ان سفر التكوين، كما هو الحال في الاسفار الاربعة المكونة للتوراة هي كتاب بشرى من وضع البشر»، وقد وضع المؤلف هامشا هنا نعتقد أنه يحسن الوقوف عنده لحظة، فقد قال ان التوراه مصطلح عبري يطلق على اسفار موسى الخمسة، سفر التكوين هو اول هذه الاسفار. وتعبير «العهد القديم» لا يستخدمه اليهود لان هذا يعني وجود عهد جديد. ولذا فان كلمة BIBLE انجيل التي سيستخدمها في هذا الكتاب تشير الى الانجيل العبري ولا تتضمن كتاب المسيحيين». ولاحظ كيف ان هذه «المعلومة» التي يرى انه مضطر لتعريفها لقراء القرن العشرين، عرفها الاسلام، فهو لم يتحدث قط عن «العهد القديم» ولانسب كل الكتاب المتداول والمقبول من الكنيسة على أنه «توراة موسى». . بل تحدث عن «التوراة» فقط التي أنزلت على موسى. . وهذه الاسفار الخمسة الوحيدة المتفق على علاقتها بموسى صلى الله عليه وسلم، وهي التي يعلن المؤلف انها بوضعها الحالي من صنع البشر، أما بقية الاسفار فأضيفت في قرون لاحقة وعلى يد مؤرخين

اكثر منهم انبياء، في الفترة ما بين القرنين العاشر والاول قبل الميلاد . .

يقول الحبر اليهودي «جنتربلاوت» «محرر» اخر طبعة من التوراة[6]: «كثير من الناس ينكرون بديهية ان التوراة من صنع البشر، بل يعتقدون ان التوراة هي «كلمة الله» انزلت مباشرة او بوسيلة ما من الله على موسى. والبعض يوافق على ان النص خلال انتقاله من جيل الى جيل، يحتمل أنه تعرض لبعض اخطاء النسخ، ولكن الكتاب في مجمله، كما يصرون، هو كلمة الله وليس كلمة بشر . . وهذه النظرة السلفية الارثوذكسية تعني انه اذا قال الكتاب: «ان الله خلق» فهذه حقيقة لأن كلمة الله هي في حد ذاتها حق . . كما تعني وجهة النظر هذه انه بما أن التوراة منزلة من الرب، فلا بد ان كل كلمة فيها لها معناها ومن ثم لا مجال لزيادة حرف فيها (المفروض كده ج). ويقولون: ربما نعجز عن فهم بعض ما في التوراة، ولكن ذلك نقص في البشر وليس في الكتاب. واذا ما بدا أن العلم الحديث يتعارض مع كلمات التوراة فذلك يعني احد احتمالين: اما ان هذا العلم الحديث سيثبت خطاه، أو أننا لا نفهم النص التوراتي جيدا . . هذا هو موقف اليهودية ـ الارثوذكسية والمسيحية السلفية، وكل الشارحين في الماضي».

وهذا يعني، انه حتى يومنا هذا يوجد من يصرون على حرفية الكتاب المقدس، وانه كله من عند الله . . فكيف وصل الى علم محمد بن عبد الله وجود الاختلاف حتى استدل بذلك على ألوهية القرآن: «أفلا يتدبرون القرآن، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا» (النساء) . . هل يعقل، كما سيقول الذين في قلوبهم مرض، انه كانت توجد جماعات تتحدث عن تحريف التوراة قبل ١٤ قرنا؟!

محال!

فكما شرحنا لم يكن بوسع أي عقل بشري، ان يصل الى هذا الرأي وهو: «ان التوراة والانجيل كتب مقدسة منزلة في الأصل، ولكنها حرفت» فالموقف البشري لا يخرج عن أحد احتمالين: منزل ومصدق ومقبول حرفيا . . وهذا ما قاله المسيحيون عن التوراة . . أو باطل مكذوب ومخترع كله. وهذا ما قاله اليهود عن الاناجيل المسيحية . . اما موقف القرآن الذي يتبناه «المثقفون» اليهود والمسيحيون اليوم فكان فوق طاقة البشر في حينه . . . وهو: أصل منزل . . ومتداول محرف . .

وينطلق المفسر الجديد للتوراة، او بالاحرى المعتذر عن التوراة، في توضيح موقفه المخالف لرأي من يسميهم بالحرفيين او الارثوذكس أي المتمسكين بحرفية النص وتنزيله، فيقول انه ينطلق من اقرار بشرية مصدر التوراة، لا الوهيته، ولكن من يتبنى هذا الموقف ـ

٦ ـ قبل الطبع . . نستدرك هنا، فقد اصدرت مجلة المختار، طبعة أحدث اختصرت فيها الكتاب المقدس الى الثلث ! . .

هو يقول ـ سيواجه بسؤالين: «هل للرب علاقة ما بالتوراة . . ؟ وكيف يتميز هذا الكتاب عن سائر الادبيات التاريخية؟». ويجيب:

«هل للرب علاقة بالتوراة؟» «اذا كان الرب ليس مؤلف التوراة بالمفهوم السلفي، فان التوراة هي كتاب يدور حول فهم الانسان للرب وخبرته معه، وهذا الفهم قد اختلف عبر القرون، بقدر ما اختلفت تلك الخبرة. وبما أن التوراة قد تداولت شفاهة في البداية، ولم تكتب الا بعد عدة أجيال، فان النص المكتوب النهائي قد تضمن افكاراً متباينة عن الرب والانسان. وكلها تقف متجاورة في الكتاب وتخبرنا بتغير وتطور قناعات اسلافنا. وعلى هذا الاساس فان الكتاب ليس من عند الله ولكن من صنع البشر. **وبينما ساهم افراد في تأليفه أو وضعه**، فان أهل الكتاب أو شعب الكتاب تبنوا التوراة، وفرضوا عليها شخصيتهم. والبعض قد يكتفي بهذا المفهوم ولا يتخطاه، ومن ثم يتعاملون مع التوراة كوثيقة أثرية، سيقـولـون هذا مـا رآه المؤلفـون، ومن اتبعهم، في العـالم. ومن المفيد دراسـة ارائهم ومعتقداتهم.» (اي ان اليهود هم الذين قدسوا الكتاب بتبينهم له وليس العكس . ج).

«ولكن هذه الدراسة ـ يقول مؤلف آخر طبعة من التوراة! ـ تذهب أبعد من ذلك فنحن نذهب الى انه من الممكن القول بأن التوراة هي السجل القديم المتميز لبحث اسرائيل عن اله، ومحاولات اسرائيل تسجيل اللقاء بين الانسان والمطلق. ولذا فان الكتاب تشيع فيه **نفحة قدسية**، إن التوراة هي **شهادة رجال** لهم شفافية روحية غير عادية. **فالله ليس مؤلف الكتاب**، بل هو من وضع رجال، ومع ذلك فان صوت الرب يمكن ان يسمع خلال كلمات **هؤلاء الرجال** اذ ما انصتنا بقلوب مفتوحة»

«والسؤال الذي يطرح نفسه . . هل هذا صحيح بالنسبة لكل آية وحكاية في التوراة؟ (الكلام مازال حرفيا لليهودي) نحن لا نرى ذلك، ولكن من الصعب ان نعرف اذا ما كان **هذا الصوت الذي يتكلم ينطق بالحق الابدي، أو يعكس فهم أو حتى سوء فهم عصر بعينه**، وادراكنا هو أننا لسنا في الموضع الذي يتيح لنا ان ننتقد مطمئنين العصور الماضية من موقع المتفوق، ففي مواجهة التقاليد العريقة التي تواجهنا يجب ان نتحلى بالتواضع والحذر. وهذا لا يعني بالطبع ان نحني الرأس لكل الاحكام، أو ان نعامل الاسطورة كالحقيقة أو ان نغمض العين عن هذه النصوص التي تصور الله في صورة بشرية».

سبحان من رفض هذه النصوص ورفض أن يغمض المؤمن العين عنها منذ ١٤٠٠ سنة؟! . .

سبحانه . .

ويختم مقدمته قائلا: «وهذه الدراسة للتوراة ليست اعتذارا ولا توثيقا أو تحقيقا لكل فقرة فيها. انها محاولة لتزويد القارىء المعاصر بادوات الفهم ثم تترك الخيار له».

سبحان من قال للقارىء «المعاصر» قبل ١٤ قرنا: «من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه».

ومرة اخرى هذه دراسة لم تقم بها جهة غير يهودية، ولا حتى يهودية ملحدة، بل هيئة دينية معترف بها، تضم اكثر من حاخام. وهي دراسة تحاول اخيرا.. التسليم بما اصبح يقينا في عقل المؤمن اليهودي، وهو وجود تناقض لا يجبر بين الحقيقة وبين «معلومات» التوراة، بل بين هذه المعلومات وبعضها.. وقد حاول الحاخامات والباباوات والقسس وكبار رجال اللاهوت، جبر هذا التناقض بلعبة «التفسير» أو كما تضرب نفس الدراسة مثلا عن قصة «برج بابل» التي كانت تهتم في الماضي بعجرفة الانسان، وانما تفهم اليوم عن تحذير عن «لا انسانية الحياة في المدن»[7]. والاسطورة في التوراة، ان الانسان بنى برجا واراد ان يصعد الى السماء فخاف رب التوراة، وقرر تمزيق وحدة الانسان، ومن ثم «بلبل» السنتهم ومن هنا ظهرت اللغات وعجز الناس عن التفاهم. وهذه الرواية لم تعد تتلاءم مع الدراسات الحالية لاصل اللغات، ولا مع الصورة المفترضة لله، وكذلك كيف تجرى مصارعة حرة بين هذا الاله ويعقوب ينتصر فيها الاله بصعوبة أو بالنقط وليس بالضربة القاضية؟! أصبح من المستحيل ان يتقبل انسان القرن العشرين هذه التفاسير، ومن ثم كان لابد أن تواجه القيادات التوراتية الموقف بصورة اكثر عقلانية، فتقدم له التفسير الذي قدم لانسان القرن السابع المسلم اي ان هذا الكتاب ليس كتاب الله المنزل، وانما هو بقايا مشوهة محرفة، لمعرفة سابقة عن الله، او للتنزيل الذي اوحى لموسى.. تلك الحقيقة التي احتاجت اوروبا وامريكا لأربعة عشر قرنا للوصول اليها، ولا نقول «الاعتراف» بها، طرحها محمد بن عبد الله كحقيقة مؤكدة أو بديهية في مكة والمدينة قبل ظهور اية حقيقة علمية قاطعة، ولا حتى مجرد شك أو اشاعة بوجود تناقض ما في التوراة والانجيل فاليهود والمسيحيون في عهد النبي كانوا يجمعون على صدق حرفية التوراة.. واكتشاف ان موسى لا يمكن ان يسجل حادثة وفاته احتاجت الى ٢٦ قرنا لكي يراها انسان، ولا حتى من المسلمين!. الا يثير ذلك الاعتزاز في نفسك كمسلم.. الا تجعل غير المسلم يفكر اكثر في مصداقية الاسلام؟

تعالوا نقلب هذه الدراسة، او احدث طبعة من التوراة الكاملة.

تقول مقدمة التوراة الجديدة:

«القارىء المعاصر يجب أن يفهم بوضوح أن رجل الانجيل كتب الانجيل في ظروف عصره وليس عصرنا، ومن ثم فقراءة الانجيل يجب ان تكون محاولة لفهمه»

هل في القرآن آية واحدة تحتاج لهذا الاعتذار؟!

---

٧ - ربما اخذ حكام كمبوديا بهذا التفسير ولذلك طردوا السكان من المدن للريف!!

«إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون».. وبالحق انزلناه وبالحق نزل».

تقول الدراسة:

«ان الرجل المعاصر كثيرا ما يشيح بوجهه عن التوراة لأنه تعرض لطريقة في التفسير، تفهم النص حرفيا، فاذا جاء في النص ان الله خلق المرأة من ضلع الرجل أو عن ثعبان يتكلم، فان الحرفيين يفسرون الحكاية بأنها تعنى بالضبط ما تقوله الكلمات.

«فضلا عن ان التوراة التي نستعملها الآن هي مجرد احدى النسخ المتاحة لنا ـ ولو أنها النسخة المعتمدة ـ وايضا حقيقة ان معظم الارثوذكس الذين لا يعرفون الأصل العبري، يقيمون حجتهم على ترجمة بعينها. وهي بدورها مجرد تفسير أي ليست مصدرا مباشرا».

وهذا دليل آخر على مصداقية الاسلام، ودعواه بوجود توراه أصلية صحيحة غير متداولة، وان النسخ المتداولة هذه مزورة أو تفسيرات بشرية خاطئة مغرضة للنص الاصلي الضائع، أو ترجمات مشوهة، بل كل هذا معا.. تزوير وحذف واضافة.

تقول:

«ان القارىء المعاصر الذي يعرف تاريخ وطبيعة النص يجب ان يتذكر أن الفهم الحرفي للتوراة يفضي الى تصورات فادحة الخطأ. «فحتى حكماء اليهود القدامى الذين آمنوا بان التوراة كتاب منزل من السماء (اللجنة الناشرة لا تؤمن بذلك ج) لم يأخذوا بحرفية النص، بل تعاملوا مع النص بتوقير ولكن حاولوا دائما ان ينفذوا خلف حروفه».

وبالطبع هناك فارق بين التفسير الحرفي، وبين الغاء النص كله والتأكيد على انه من صنع البشر. فالمفسر للقرآن قال ان آية «يوم يكشف عن ساق»، لا تعني ان لله ساقا، كما يأخذها الحرفي، بل هي كما نقول، «وشمرت الحرب عن ساقها» وليس للحرب ساق.. فالآية صحيحة ومنزلة، ولكن التفسير الحرفي الذي لا اساس له الا الجهل باللغة هو الخاطىء. وهذا يختلف تماما عن قولهم: «القدماء اعتبروا الارض مركز الكون، وان قوانين الطبيعة ليست ثابتة، ولكنها خاضعة لارادة الله. وهذه النظرة هي الاساس في كثير من الحكايات، وخاصة في بداية سفر التكوين الذي أصبح عقبة كؤود تصد عن قراءة التوراة».

وتخلص الدراسة الى ان التوراة ليست كتاب الله، **ولا من عند الله، بل هي كتاب انساني عن الله،** فيه ارشادات وايحاءات وبعض الوجود الالهي».

ولا اظن ان الرأي الاسلامي يختلف كثيرا عن هذا الذي وصلت اليه الدراسة أو اللجنة الناشرة. «ان القارىء يجب أن يفهم ان التوراة تحتوي على مواضيع كثيرة متنوعة: تاريخ، اساطير، فولكور، اغاني، امثال، شعر، وبصفة خاصة في الفصول الاولى من سفر التكوين، توجد اساطير وخرافات، تدور حول الكائنات البشرية والقوى الالهية.. قصة أريد لنا ان نفهم انها وقعت، ولكنها بمجرد وجودها تعبر أو تشرح أو تؤكد جوانب مهمة في

الوجود، فالاسطورة عن «جنات عدن» توضح أصل الموت، وتدعم النظرة المسيحية عن خطيئة الانسان الموروثة ومن ثم حاجته الى الخلاص».

«الاساطير هي ملاحم الماضي متضخمة في ذاكرة الجماهير، ولكنها في العادة لا تشرح ولا توثق. من هذا النوع قتال يعقوب عند البئر[8] (التكوين ٢٩ : ١٠) «وبانتقال التوراة من خلق العالم الى خلق شعب اسرائيل، تفسح الخرافة مكانها للاسطورة، وتلك بدورها للتاريخ بمعناه الحديث».

هذا هو منهاج الدراسة فكيف كان التطبيق؟ . .

تحت عنوان: «الرب في سفر التكوين» تقول الدراسة اليهودية: «منذ أول جملة في سفر التكوين يبدو واضحا أن وجود الرب قضية مسلم بها. فلا نجد نقاشا أو شكا حول هذه القضية. كذلك لا نجد أي تساؤل حول وجود آلهة اخرى. ومن هذه الناحية نجد أن سفر التكوين يختلف جذريا عن الاسفار الاخرى في التوراة. بينما سفر الانبياء ابراهام واسحاق ويعقوب، يفيدنا أنهم تميزوا بعبادة الاله الواحد، واخلصوا له الطاعة والخدمة وحده. ولكننا لا نجد هنا التوحيد المطلق الذي عرف في الايام الاخيرة. ومن ثم لا ينتسب اليهم، بل يمكن القول انهم آمنوا بأن الالهة الاخرى حقيقية (!!ج) ولكن واحدا فقط من هذه الآلهة تعاهد معهم، ومعه هو ربطوا حياتهم ومستقبل نسلهم».

وهذا بالطبع عكس المفترض «علميا» اذ أن المؤرخين ،علماء الاديان والانسان يقولون بأن تعدد الآلهة كان سابقا على فكرة التوحيد. . ولكن الصورة التي تعرضها الدراسة، عن حق، مطابقة للتفسير الاسلامي، فقد كان التوحيد أول ما نزل على الناس، ثم انحرفوا وضلوا. . ووجود التوحيد في اقدم الاسفار دليل أن التشويه عملية لاحقة ومتأخرة. . وان كانت الصيغة قد لحقها التشويه حتى في السفر الأول. .

ثم يتساءل: «كيف كتبت التوراة» ويرد: «منذ قرون بدأ الشك حول قضية هل التوراة من وضع مؤلف واحد هو موسى؟ . . الا انه ليس قبل القرن التاسع عشر عندما خضعت التوراة لدراسات مكثفة ونقدية على مستوى شديد التخصص. وقد لاحظت الانتقادات الأولى اختلاف استعمال اسماء الرب في مختلف اجزاء التوراة، والتناقض بين الوقائع والارقام، واختلاف الاسلوب. . وفي فترة لاحقة، استطاع النقاد تحليل النص التوراتي على نحو ميزوا به عدة مؤلفين، وعدة كتاب اعادوا الصياغة، ووضعوا نظريات حول الأزمنة والاحداث التي كتبت فيها هذه الفصول ثم جمعت أخيراً في هذه التوراة التي لدينا الآن. وتقول احدى هذه الدراسات، انه كانت هنك ٤ وثائق اساسية بتركيبها معا في القرن

٨ - المصارعة مع الله!! والتي رفضها الفهم الاسلامي قبل ١٤ قرنا!

الخامس قبل الميلاد ظهر كتاب واحد هو التوراة. التي اعلنت مقدسة بتشريع رسمي حوالي عام ٤٠٠».

ومعنى هذا الكلام ان التوراة بنسختها الحالية فرضت نفسها في الساحة قبل ١١٠٠ سنة من مولد محمد عليه الصلاة والسلام، واعتمدت كنسخة مقدسة واختفت أية كتابات مغايرة، أو أراء حول اختلافها أو تناقضها قبل مولد الرسول بقرنين. . ومع ذلك استطاع الرسول الحصول على النسخ المتعارضة ومقارنتها اما من مكتبة الاسكوريال بالفاتيكان أو مكتبة الكونغرس! (ولابد من تفسير جنوني لاصرار البعض على رفض منطق العقل والتسليم بمعرفة فوق بشرية في القرآن).

ثم تمضي الدراسة في شرح الخلاف بين كتابات المؤلف الذي تحدث عن الرب باسم «يهوه» YAHVEH والاخر الذي سماه «اللهم» أو الله ELOHIM والاثنان اشتركا في تأليف سفر التكوين. . وهناك اراء حول وجود مؤلف ثالث من أصل اسرائيلي بل من أصل كنعاني. وبموجب هذه الأراء فان موسى الذي عاش في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، لا دخل له في كتابة التوراة، بل وضع اسمه عليها كمؤلف عندما تم تكريس الكتاب. .

وبالطبع نحن نقول بوجود توراه حقة، نزلت على موسى وكتبها موسى، وقدمها لبني اسرائيل، ولكنهم حرفوها، وشوهوها فضاع من الاصل ما ضاع، واضيف ما اضيف، فاختلط بالنزر القليل الذي بقى من الاصل، وهو ما يوافق ما جاء في القرآن، ومن ثم فهذا الكتاب المتداول ليس مقدسا، ولا يعتمد عليه، لان الثابت هو وجود التحريف به والمشكوك هو وجود اجزاء صحيحة ولكنها غير معروفة ولا مقطوع بصحتها. . ولكن هناك تلك «النفحة» الالهية.

وباختصار فان آخر رأي يهودي، عن التوراة يعترف بأن «التوراة» أو العهد القديم المتداول حاليا ليس من عند الله بل من وضع بشر وحافلة بالاساطير والخرافات. . التي لا تتفق لا مع الواقع ولا التاريخ ولا العلم ولا الحقيقة. . وكما قال القديس اوغسطين «لا يمكن أن يعلم الله الناس ما يخالف الحقيقة».

وصدق الله العظيم القائل:

«فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا، فويل لهم مما كتبت ايديهم وويل لهم مما يكسبون».

لا استطيع مهما كبر السن، وخبت الحماسة، الا أن اهتف: الله اكبر. . اني لمحمد بن عبد الله ان يعرف تزوير الكتاب في القرن السابع الميلادي؟! الا انه من لدن عليم خبير.

اشهد أن محمدا رسول الله حقا

سامحوني فهو موقف صدق وشكر.

والعهد الجديد . . أيضا !

هذا عن العهد القديم . . فهل ينطبق نفس القول والفعل على العهد الجديد؟

سنستعرض هنا بصفة اساسية، المصادر التالية: العلم والانجيل والقرآن لموريس بوكاي . والدم المقدس والوعاء المقدس تأليف: مايكل بانيت، ريتشارد ليغ، هنري تكوين . والمسحية نشأتها وتطورها تأليف شارل جينيبير رئيس قسم تاريخ الاديان بجامعة باريس . وانجيل لوقا ترجمة ونشر اللجنة المصرية . . والجنس في التاريخ للمؤلفة «تدهيل» . . واخيرا قراءة حديثه لنا في الاناجيل الاربعة واعمال الرسل . . وبعض المصادر الاخرى .

ويقول «موريس بوكايل» ان الدراسات النقدية للانجيل حديثة العهد جدا، بل يقول انه الى ما قبل ظهور البروتستانت، وباستثنائهم، لم يكن من المعتاد ان يقرأ المسيحي الانجيل كله، بل كان يكتفي بكتاب الصلوات الذي يتضمن بعض المختارات . اما النص الكامل فلم يكن يوزع . وفي احدى مدارس الكاثوليك التي درست فيها، كان عندي نسخ من اعمال فيرجيل وافلاطون، ولكني لم أحصل على نسخة من «العهد الجديد» واخيرا عرفت لماذا لم يكن يسمح لنا بنسخة بالفرنسية من الانجيل . لان ذلك سيجعلنا نسأل اسئلة يعجز الاساتذة عن الاجابة عليها» .

ولكننا نعتقد انه حتى قبل ان تظهر مشكلة السؤال المحرج، فان فلسفة وتكوين نظام الكهنة يجعل الكتاب او اللاهوت سرا خاصا لا تجوز اتاحته للعامة أو العلمانيين . ولاحظ انه لا توجد في الاسلام، هذه التسمية التي تميز بين رجل الدين «والمدني» أو المسلم العادي . . وفي الاسلام، يبدأ الانسان العادي ثقافته بقراءة القرآن، ونسبة هائلة من العامة ممن لا يندرجون في طبقة المثقفين او العلماء تحفظ القرآن كله . . ولذا فالقرآن متاح على أوسع نطاق .

ويرى بوكايل ان «الاناجيل» تشبه الحديث عند المسلمين، فكلاهما يضم مجموعة الاقوال والافعال المنسوبة للمسيح ومحمد . . . وبعض الاحاديث كتبت بعد وفاة محمد بعشرات السنين، تماما كما هو الحال في الاناجيل . وكلاهما يحمل شهادة بشرية عن احداث ماضية، وكما سنرى ـ هو يقول ـ فان كتبة الاناجيل الاربعة لم يكونوا شهود عيان لما رووه، ونفس الشيء عن الحديث[9] . ولكن المقارنة تنتهي هنا فان الاحاديث قد نوقشت ومازالت تناقش، وهي كلها صحيحة وحسنها وضعيفها وموضوعها موجودة، «اما في الاناجيل، فقد حسم الأمر في القرون الأولى، حيث اعتمدت الكنيسة اربعة اناجيل، رغم خلاف هذه الاربعة حول عدة نقاط . وصدرت الأوامر بوصم الاناجيل الاخرى بعبارة «apocrypha» اي موضـوع . . مدسـوس . . » «والفـارق الثـاني ان المسيحيين ليس لديهم كتاب منزل ومكتوب في نفس الوقت بينما القرآن ينطبق عليه الشرطين» .

وهو يقصد ان المسلمين لديهم كتاب يجمعون على صحته وعلى تنزيله، وايضا تمت كتابته في وقت لا يسمح بوقوع تحريف أو تغيير، كما تؤكد كل الادلة على أن النسخ المتداولة الآن هي نفس النسخة المتداولة منذ أول لحظة، والتي تحمل شهادة النبي بأنها من عند الله . كتاب جمع في عهد النبي، وحفظ في حياة النبي، حفظه عدد من الرجال والنساء، الموثوق فيهم الى ابعد حد، والذين يتأكد صدقهم من تعددهم، ومعارضتهم لبعض، وشهادتهم جميعا بأنه روجع على النبي ثم جمع مدونا في عهد ابي بكر ثم نسخ في كتاب في عهد عثمان أي قبل مرور ٢٥ سنة على وفاة النبي، بل أقل من عشرين سنة لأن عثمان حكم من سنة ١٢ الى سنة ٢٤ بعد وفاة النبي، أو من ٢٢ هجرية الى ٣٤ هجرية . وهي فترة قصيرة جدا تضمن وجود عدد كبير من الحافظين للقرآن، ومن جيل يعتبر تغيير نقطة على حرف في القرآن الاثم الاكبر . ومن ثم فكل الأدلة تؤكد أن هذه النسخة المتداولة الآن، هي ما جاء به محمد وأقرها قبل وفاته، بصرف النظر عن التصديق بنسبتها لله أم لا . . وهذه حالة مفقودة في التوراة، كما رأينا بشهادة احبار اليهود، ومعدومة في الانجيل كما سنرى باجماع الدارسين . . وإذا كان «بوكايل» يشبه الاناجيل بالاحاديث من ناحية انها رواية بشر، الا اننا يجب ان ننبه الى ان احدا لم يقل ان كتب الحديث منزلة من عند الله .

٩ ـ ومقدمة لوقا تصلح مقدمة في علم الحديث فهو يقول: «ان الكثير قد كتبوا عن تلك الاشياء التي تؤمن بها يقينا، والتي وصلتنا من شهود عيان» . . فهذا يعني ان الكتابات كثرت عن المسيح وقصته، وانه رأى أن يقدم المعلومات الصحيحة التي وصلته من شهود عيان، فهو ليس منهم اي انه لم يشاهد المسيح ولا عاصر الوقائع التي كتب عنها . «ولذلك استحسن ان اكتب انا أيضا وانا امتلك فهما كاملا لكل الاشياء منذ البداية ايها العزيز تاوفليس» . ولاحظ انه حسب ترتيب الانجيل الحالي، فلم يسبقه في الكتابة الا اثنان متى ومرقص . . فكيف يتحدث عن «الكثيرين» الذين كتبوا الا اذا كان الكثيرون قد كتبوا على عهده، ثم حذفت واختفت اناجيلهم! . .

وتقرر الدراسات أن الكنيسة اعتمدت نسخا معينة من الاناجيل «واعدمت كافة النسخ المخالفة، وظهرت حتى الآن مسائل في برديات البحر الميت، بل ونسخة من الوصايا العشر ترجع للقرن الثاني بعد الميلاد مخالفة للوصايا الحالية . وكذلك بقايا اوراق القرن الخامس عشر التي عثر عليها قرب القاهرة»[10] .

والدراسات التي اجريت على الاناجيل، بداية من فرط الايمان والرغبة في التعرف على كتابها، والشخصيات التي عاشرت المسيح، أو اكتشاف ما بين السطور من تنبؤات، ثم في فترة متقدمة لاكتشاف تفسير للتناقض في نسب المسيح أو بعض الوقائع، ثم مع اكتشاف وثائق ومعلومات، ونصوص قديمة للتوراة والاناجيل . . هذه الدراسات قد كشفت حقيقتين :

١ـ ان هذه الانـاجيل المعتمدة اليوم، ليست الاناجيل الوحيدة التي كتبها معاصرون للمسيح، وان هناك اكثر من انجيل كتبه شهود عيان، ثم حذفت كلها ونهائيا من مكتبة المسيحيين .

٢ـ ان هذه الاناجيل المعتمدة لم يكتبها المسيح، ولا كل كتبتها كانوا شهود عيان، وانما كتبت لاهداف عقائدية خلال الصراع بين ورثة المسيح ومن ثم فقد حملت بصمات هذا الصراع . . وان كانت «اغلبية المسيحيين تعتقد أن الاناجيل كتبت بواسطة شهود مباشرين لحياة المسيح، ولذا فهي تتضمن وقائع لا تقبل الشك حول حياة المسيح وتعاليمه» . ولكن هذا غير صحيح ، كما أن هذه الاناجيل تحتوي على تناقضات بعضها يمكن تفسيره بسهولة بنظرية الصراع اليهودي ـ الروماني وسنتعرض لها . .

وبعضهـا لا تفسـير له . . وهـذه الاناجيل هي بالضبط كما سماها سانت جوستين في منتصف القرن الثاني : «مذكرات الحواريين» .

ويقرر «بوكايل» أنه «منذ رفع المسيح الى النصف الثاني من القرن الثاني، كان الصراع يدور بين تيارين، أحدهما يمكن تسميته مسيحية بول (بولس الرسول أو اليهودي الذي قيل انه كان يضطهد اتباع المسيح وكان اسمه شاول فظهر له المسيح على طريق دمشق . . وهداه واصبح هو ابـرز شخصية وصبـغ المسيحية بصبغته، ربما الى انشقاق البروتستانت . . ومـازالت بصماته على الكاثوليكية الى اليوم حتى قيل ان المسيحية الحالية هي «بولسية») والاخر هو التيار اليهودي ـ المسيحي وببطء شديد انتصر التيار الاول على الثاني» ، ويقول ان «بول كان مهتما بكسب «الاميين» ولذا اعفاهم من الختان والسبت والخنزير . . الخ . الفريق العبري وصف بول «بالعدو» واتهمه بالعمالة وأنه بوجهين . . وحتى عام ٧٠م كانوا

١٠ ـ العلم والانجيل والقرآن

هم الاغلبية، وظل بول «حالة منعزلة». وكان زعيمهم جيمس وهو يمت بالقرابة للمسيح، ومعه كان في البداية، بيتر (بطرس) وجون. وجيمس كان رأس الكنيسة العبرية، وكانت عائلة المسيح هي رأس هذه المجموعة وتحتل مكانا بارزا في كنيستها في القدس ولما مات جيمس خلفه سيمون «ابن عم الرب» (جيمس هذا هو اخو «الرب» ولكن بوكايل ـ كما سنرى ولا نفهم لماذا ـ يرفض القول بوجود اخوة للمسيح. وليعذرنا القارىء فان كان «للرب» ام واب كدعواهم فما العجب ان تكون له خالة وعمة واعمام... وربنا لا تؤاخذنا بما قال هؤلاء).

«وخلال القرن الاول كانت الكنيسة العبرية منتشرة في كل مكان، قبل رسالة بولس، وهذه هي المسيحية الشرقية او «الاصيلة». وانجيل توماس الممنوع منسوب لهذه المدرسة.. التي كانت منتشرة على طول ساحل الشام وافريقيا.. ولكن في عام ٧٠ ثار اليهود، واحتل الرومان القدس، وابادوا التجمع اليهودي، فانقلب الوضع، ويقول الكاردينال داينال «انه بعدما اعتبر اليهود خارجين عن القانون في الامبراطورية، حرص المسيحيون على فصل انفسهم عنهم. وعندئذ انتصر الفريق الهيليني في المسيحية، وانتصر بول بعد وفاته، أو في قبره.. وفصلت المسيحية نفسها سياسيا واجتماعيا من اليهودية، أصبحوا الفريق الثالث..
ورغم ذلك ظلت المسيحية اليهودية مسيطرة ثقافيا حتى ثورة اليهود عام ١٤٠ ميلادية. وفي الفترة من ٧٠م الى ١١٠م أنتجت اناجيل مرقص ومتى ولوقا ويوحنا ولم يتضمنوا الوثائق المسيحية الاولى، مثل رسائل بول التي سبقتها بزمن. ووفقا لما كتبه كلمان فان بول كتب خطاباته الى تسالونيكا سنة ٥٠ ميلادية. واختفى بول قبل سنوات عديدة من انتهاء انجيل مرقص. وبول هو اكثر الشخصيات المثيرة للجدل في تاريخ المسيحية، فقد اعتبر خائنا لافكار المسيح، من قبل عائلة المسيح، ومن قبل الحواريين الذين ظلوا في القدس حول جيمس. لقد انشأ بول مسيحية على حساب هؤلاء الذين جمعهم المسيح حوله لنشر تعاليمه، وهو لم يعرف المسيح خلال حياته، وأعطى الشرعية لرسالته باعلان ان المسيح بعث من الموت، وظهر له على الطريق الى دمشق. ومن المعقول ان نتساءل ماذا كانت ستكون عليه المسيحية، بدون بول؟..

«فيما يتعلق بالاناجيل، فمن المؤكد انه لو لم يوجد هذا الصراع. لما وصلت الينا الكتابات الحالية، فقد ظهرت في وقت اشتداد الصراع بين الجماعتين، فهذه الكتابات المحاورة، كما يسميها الأب Kannengiesset ، ظهرت في العديد من المؤلفات عن المسيح. وهذا في الفترة التي انتصرت فيها نظرة بول عن المسيحية، نهائيا، وبدأت تختار ما يلائمها من نصوص. وهذه النصوص أصبحت تشكل الشريعة التي استبعدت كل النصوص الاخرى التي لا توافق الخط الذي تبنته الكنيسة بوصفها غير معتمدة، أو غير أرثوذكس». اما كيف

اختفت الجماعة الأولى: مسيحية آل دواد، أو آل عمران.. فيقول الكاردينال دانيل: «عندما عزلوا من الكنيسة الكبرى التي كانت قد حررت نفسها تدريجيا من اليهودية، اندثروا بسرعة في الغرب، أما في الشرق فظل يمكن تلمس آثارهم في القرنين الثالث والرابع الميلادي، وخاصة في فلسطين والجزيرة والاردن وسوريا وما بين النهرين.. وبعضهم انضم الى الكنيسة الكبرى ومازال يحمل الآثار السابقة، ويوجد ذلك في كنائس الحبشة». ويقول ش. جينيبير «انقرض اصحاب عيسى المباشرين، وبعضهم هاجر الى جنوب نهر الاردن في اثناء الثورة اليهودية الكبرى عام ١٦٦، ولم يعد لهم أثر يذكر في تاريخ المسيحية. وصارت جماعات مكروهة متخلفة عن المسيحيين في الجانب الاوروبي الذين اصبحوا لا يشعرون برابط يربطهم ببني اسرائيل، كما اصبحوا يحملون الشريعة اليهودية معنى رمزيا بحتا برغم تصريح المسيح فيما مضى بأنه لن يبدل من هذه الشريعة حرفا»
ويقول مؤلف كتاب «المسيحية في تاريخ اوروبا»: «في الاسكندرية تبنى المسيحيون فلسفة الاغريق، وفي قرطاجة الفلسفة اللاتينية، وسيطرت الكنيسة اللاتينية على ايطاليا وبلاد الغال (فرنسا) وشمال افريقيا. وموازيا لها دين آخر حول الاسكندرية ثم حول العاصمة القسطنطينية». ويقرر بوكايل: في الفترة الاولى للمسيحية، لا توجد اشارة للاناجيل الى زمن طويل من اعمال بولس وليس قبل منتصف القرن الثاني أو بعد عام ١٤٠م على وجه الدقة حيث توفرت اشارات عن كتابات انجيلية وبالرغم من ذلك فمنذ بداية القرن الثاني سجل الكثير من المؤلفين المسيحيين معرفتهم بجانب كبير من كتابات بولس».
وتقرر الترجمة الرسمية للاناجيل انها لم تصبح شريعة، الا حوالي عام ١٧٠م أما متى كتبت فهناك زعم شائع بأن انجيل متى ومرقص ولوقا كتبت قبل عام ٧٠م ولكن هذا الزعم مرفوض الا فيما يخص مرقص إذ يحتمل. اما بالنسبة ليوحنا الذي يريدنا البعض أن نصدق أنه عاش الى عام ١٠٠ ميلادية، فان غالبية الناقدين لا يؤيدون الزعم بأنه يوحنا الذي كتب الانجيل الرابع يقول «كلمان» في كتابه العهد الجديد المنشور عام ١٩٦٧ منشورات جامعة فرنسا:
ان الاناجيل ظهرت من خلال مواعظ وتبشير الرسل الذين بشروا، برواية تاريخ حياة المسيح». «خلال ثلاثين او اربعين سنة كانت الاناجيل مجرد احاديث أو سيرة مروية شفويا، مجرد وقائع واقوال متفرقة جمعها الرسل، كل بطريقته، ووفقا لشخصيته وثقافته واهتماماته.. وقد جمعت هذه بشكل حكاواتي، مثل «وبعد ذلك» «فلما كان» «ولما رأى».. ولذا فصيغة الاناجيل لمتى ومرقص ولوقا هي صيغة أدبية وليست مستندة على حقائق تاريخية».
ونشرح كلام بوكايل هذا فنقول ان المسيحية في بدايتها ولدت في هيكل اليهود، وفي مناخ يهودي كامل.. فالأم معتكفة في الهيكل، وزكريا من احبار بني اسرائيل، والاسطورة

المتنظرة عن المسيح انه «ابن داود» الذي سيصبح «ملك اليهود» ويحررهم . . ولما رفع المسيح ، تولت عائلته «الرسالة» على طريقة اليهود «بيت هارون» «بيت داود» الخ . . وكان كل اهتمامهم باليهود وباثبات انه هو ملك اليهود اي انها كانت تدور في اطار التطور الى فرقة يهودية ، حتى التبشير كان قاصرا على اليهود . . ولكن بظهور «بولس» ويقينه باستحالة منافسه «آل المسيح» في عقر دارهم او كنيسة فلسطين العبرية ، فقد انطلق الى روما ، وقرر التبشير بين غير اليهود ، أو «الاميين» . . ومن ثم كان عليه أن يتحرر من الطابع اليهودي ، فلما توجه اكثر نحو تبشير روما ، كان من المستحيل اقناع الرومان بالدخول في دين يهودي ، بل كان لابد لكسب الرومان أن تعاد صياغة التعاليم والتاريخ . . فتطور ابن الانسان الى ابن الله ، لكي يوافق من ناحية عقلية الرومان عن الرجل ـ الاله أو قيصر الاله . . ومن ناحية لكي يكون في مكانة قيصر على الاقل لان الرومان وقيصر لن يؤمنوا بابن داود ، ولكن لا عيب في الخضوع لابن الله (الوحيد) كذلك نقح التاريخ لتحميل اليهود المسئولية الكاملة فيما نزل بالمسيح ، وبرئت ساحة الرومان تماما ، بل بالعكس ظهروا في هيئة الذين حاولوا بكل قوة انقاذ المسيح ففشلوا ، ولما وقعت ثورات اليهود ، وتم سحقهم ومطاردتهم تحول «منقذ» اليهود الى المتنبيء بدمار هيكلهم[11] والمتسبب في عذابهم لأنهم رفضوه فحتى هذه لم يكن الرومان فيها اكثر من منفذين للعنة المسيح لليهود وارادة الرب . . وصارت «لعنة اليهود» وكراهيتهم صلب العقيدة المسيحية .

وصحيح اننا سنجد تطورا غريبا في الاناجيل ، يكشف الرغبة في التنصل من اليهود والتودد للرومان . . الا أن هؤلاء الكتاب ، كانوا مؤمنين ، وصادقين مع انفسهم ، ومن ثم فقد سجلوا ما شاهدوا أو سمعوا من مدرسة «ابن داود» ولذا قد يندهش القاريء عندما يجد ان المسيح المتهم بأنه ابن الله ، أو الذي تقوم ديانته الحالية على هذا الفرض اي انه «ابن الله» سبحانه وتعالي عن ذلك . هذا المسيح لا يتكلم عن نفسه الا بعبارة «ابن الانسان» ولا ندري أي نفي لهذا الزعم يمكن أن يصدر عن المسيح ، اكبر من هذا الاصرار على الحديث عن نفسه «كابن الانسان» وهو أول وآخر رجل استخدم هذا التعبير أو التحديد الصارم عن نفسه ورغم ذلك فقد أصروا على تحويل من قدم نفسه «كابن الانسان» الى ابن الله!!

وصحيح هناك مرات محدودة جدا نسب فيها الى المسيح وصف نفسه «بابن الله» ولكن هذه تحتمل تأويلين سنتعرض لهما بالتفصيل . . المهم أنه فعلا كانت هناك اعادة صياغة

---

١١ ـ لا شك أنه مما يفيد الحركة العربية في القدس التشبث بنبؤة المسيح بأنه «لن يبقى حجر على حجر في الهيكل» لوقا ٢١/٦ ، وذلك للتأكيد بان الحائط المزعوم لا يمكن ان يكون من بقايا الهيكل . . والا لكانت نبؤة خاطئة اذا كان قد بقى من الهيكل اكثر من حجر على حجر بما يكفي لتكوين حائط كامل!

للاناجيل لتلائم انتصار المدرسة الرومانية الامبراطورية التطلع والوثنية الجذور ، ولكن الجذور اليهودية التوحيدية ، والشوفينية التطلع والتصور ما فتئت تطل من بين السطور . وهذا كما يرى معظم الدارسين ينطبق على انجيل متى : «اول الاناجيل في العهد الجديد[12] ، وقد كتب لاثبات ، ان المسيح قد أتم التاريخ اليهودي ، وهو المسيح الذي كان اليهود ينتظرونه ، ولذلك يكثر من الاستشهاد بالعهد القديم ، ويبدأ بنسب المسيح ، ويصله بابراهيم عبر داود» «وفيه نجد المسيح يكلم شعبه : «لا تذهبوا بين الاميين ، ولا تدخلوا مدينة سامرية ، بل «اذهبوا الى خراف بني اسرائيل الضالة» . . «انما بعثت لانقذ خراف بني اسرائيل الضالة» متى ١٥ ـ ٢٤ . ولكن في نهاية الانجيل يمد متى رسالة المسيح الى كل الامم ويجعل المسيح يعطي هذا الامر : «اذهبوا واعطوا بشارة لكل الأمم» متى ٢٨ ـ ١٩ ـ مع اعطاء الاولوية لبني اسرائيل ويقول «أ . تريكوت» عن هذا الانجيل : «تحت القشرة اليونانية ، فان عظم ولحم هذا الكتاب ، يهودي ، وكذلك روحه . ففيه شعور يهودي وعلامات مميزة لذلك» .

«ويعتقد «كلمان» ان مصادر انجيل متى هي جماعة من المسيحية ـ العبرانية كانت تحاول قطع اتصالها باليهود ، مع اعتزازها في نفس الوقت بالعهد القديم» .

ومشكلة العهد القديم ، حلتها الكنيسة حلا بارعا ، فاذا كان الايمان بالتوراة ، عنصرا فعالا في كسب اليهود للكنيسة الجديدة . وايضا ، لاعطاء هذه الكنيسة تراثا هائلا من الفكر اللاهوتي ، فان المشكلة كانت في ارتباط هذا الكتاب باليهود ، فالتمجيد فيه يعود بالتالي على اصحابه اليهود ، وكان الحل هو تسميته بالعهد القديم اي اضافته للعهد الجديد ، وايضا اصبح غير ذي موضوع ، بقيام العهد الجديد ، وهكذا احلوا «الرب» من التزامه نحو اليهود . . وايضا لعنوا اليهود لأنهم كفروا بالعهد الجديد . . اصبح العهد القديم مجرد مقدمة أو مدخل للعهد الجديد ولا اهمية له في حد ذاته بدون العهد الجديد ، وهكذا حصلوا على التوراة بدون اليهود . واذا كان ذلك قد بدا وقتها حلا عبقريا فسيكتشفون بعد ألف سنة أو اكثر انها كانت غلطة دفعوا ثمنها غاليا ، عندما عادت المسيحية ـ اليهودية الى الانتصار في شكل الانشقاق البروتستنتي ، ثم خضوع الكنيسة الكاثوليكية لمطالب اليهود الذين تحدثوا من مركز قوة هو اعتراف الكنيسة بكتابهم على انه الحق والاصل . .

والخلاصة انه باتفاق الآراء فان الاناجيل هي ايضا من صياغة البشر ، وانها لم تكن مطابقة للحقيقة ، وان التناقضات العديدة بها أدت الى اثارة تساؤلات ومن ثم طرح افتراضات أو الغاء مسلمات سابقة ، فمؤلف العلم والقرآن والانجيل يقول :

---

١٢ ـ أولها في الترتيب من ناحية النشر ولكن ليس اقدمها .

«لا أحد يعتبر «متى» الآن من رفاق المسيح، رغم ان رجال الكنيسة الاوائل وصفوه بأنه كان موظفا في جمرك «كفر نعوم» عندما دعا المسيح ليلحق به ولكن هذا الرأي لا يصمد للنقد اليوم» «وقد استعار «متى» بغزاره من انجيل مرقص، مع ان مرقص هذا لم يكن من تلاميذ المسيح»[١٣] وقد علق الاسقف المسئول[١٤] عن تدريس اللاهوت في المعهد الكاثوليكي في باريس على وصف «متى» لصلب المسيح بأنه يصلح سيناريو «المسيح سوبر ستار»!

وقال الاب «كانغستر» في كتابه «الايمان بالبعث.. وبعث الايمان» وهو أستاذ بالمعهد الكاثوليكي في باريس: «لا يجوز أن يأخذ المرء حرفيا، الوقائع الواردة عن المسيح في الاناجيل لأنها كتبت لتلاءم ظروفا بعينها، أو أن المؤلفين كتبوها تحت تأثير اعتقادات أو تقاليد مجتمعهم وعصرهم عن المسيح» وهو يؤكد «أن أحداً من مؤلفي الاناجيل الاربعة لا يمكنه أن يدعي أنه كان شاهد عيان للقيام[١٥]» (أي قيام المسيح من الموت بعد صلبه المزعوم).

وهذه شهادة مهمة.. فالرواة لم يشهدوا القيام، ولا كتابتهم كانت تنزيلا، ولا حتى مطابقة للحقيقة المجردة، بل كتبت لتخدم الكنيسة وتحت تأثير عصرهم وعصر المسيح.. وهو يرجح بهذا القول أنهم لم يكونوا شهود عيان أو رواة من الدرجة الاولى للاحداث. وانعدام شهود لقيام المسيح سيفسر لنا الشكوك التي ظهرت في قضية الصلب، كما سيأتي تفصيله.

يستعرض الكاتب الفرنسي بوكايل التناقضات في الاناجيل الاربعة، ومحاولات الآباء المثيرة، لتفسيرها أو تبريرها، ويقول انه «كان اكثر احتراما لعقلية المثقفين، لو قيل انها اخطاء في النسخ»! مثل قول متى ومرقص ولوقا على لسان المسيح ان معجزته سنكون مثل معجزة يونس الذي بقى في بطن الحوت ثلاثة ايام وثلاث ليال. وكذلك سيبقى المسيح في الظلمات أو باطن الارض نفس المدة، ولكن الذي حدث حسب روايتهم أنه بقى ثلاثة ايام وليلتين فقط! واعتذر الكهنة بأن «ذلك تعبير شائع ولا يجوز أن يؤخذ حرفيا»!

اما انجيل «مرقص» فهو اقصر الاناجيل واقدمها، ومع ذلك فلم يكتبه حواري، بل على افضل تقدير كتبه «تابعي» (اي تلميذ لاحد الحواريين) ولكن نفس الأب المعتذر نبه الذين كانوا يعتقدون أن هذا الانجيل هو من وضع الحواري مرقص، الى ان متى ولوقا ما كانا ليعتمدا على انجيل مرقص لولا علمهم أنه يعتمد على رواية أحد الرسل»

١٣ ـ بوكايل عن O. Culmann.
١٤ ـ الأب Kannengiesser
١٥ ـ ص ٤٧ بوكايل.

وهكذا نرى ان السند مقطوع، لأن هذا «الصحابي» غيرمعروف وهذا يكفي عندنا لاسقاط الحديث.. ولعل هذا يثبت عدم دقة تشبيه بوكايل للاناجيل بعلم الحديث، فعلم الحديث عندنا اكثر ضبطا والتزاما بقواعد التاريخ الحديث على الاقل.

وهذا المصدر المجهول المصدر، والذي اعتمد عليه انجيلا متى ولوقا هو «أغلط الاناجيل الاربعة واقلهم صنعة حتى انه لا يستطيع أن يروي».

ويتساءل الباحث الفرنسي.. كيف نقبل كحقيقة دينية هذه الرواية المتناقضة وفي موضوع من صلب العقيدة، وهو القيام بعد الموت.. «ففي الاناجيل الثلاثة لوقا ومرقص ويوحنا.. طالبوا السيد المسيح بمعجزة فقال إن معجزته مثل معجزة يونس وهي الموت والدفن والبعث. وحدد المدة بثلاثة ايام وثلاث ليال.. اما في انجيل متى فرد عليهم «لا معجزة لهذا الجيل».

كيف يطلب منا أن نؤمن بواقعتين متناقضتين على لسان المسيح؟

وينقل عن الأب «كننغسر»: «أن الجزء الاخير من انجيل متى اضيف الى الانجيل الأصلي ولا وجود له في مخطوطين كاملين قديمين للانجيل!» ومن مراجعة هذا الجزء يستطيع المرء أن يأخذ فكرة جيدة عن مدى الحرية التي يتعامل بها المسيحيون مع نصوص الاناجيل حتى بداية القرن الثاني الميلادي» ويعلق بوكايل على هذا النص بقوله: «اي اعتراف خطير يقدمه لنا عن تدخل اليد البشرية فيما يفترض انه وحي الهي أو كتاب مقدس».

(نحب أن نضيف نحن هنا ملاحظة، فالحقيقة ان كتاب الاناجيل ومعاصريهم، بل ولاكثر من قرن، لم يحاولوا تزوير قدسية الاناجيل، ولا تصرفوا أو عوملوا على اساس ان كتاباتهم هذه وحي أو حتى مقدسة، وانما مجرد تسجيل لما سمعوه، وتناقلوه عن حياة المسيح.. فلما تقادم العهد، وظهر جيل «ايمان العوام» وقامت المؤسسة الدينية، خلعت القدسية على كتاباتهم وشخصياتهم. تماما كما حدث للاحاديث عندنا، فالعامة مثلا في مصر يعتبرون الحلفان على «البخاري» يعادل إن لم يكن أهم من الحلفان على القرآن! وهذه القدسية لكتاب البخاري لم تدر في خاطر صاحبه ولا معاصريه ولكنه نتيجة تدهور الفهم مع ارتفاع مؤشر الايمان التسليمي أو اللاعقلي).

اما «لوقا» فقد اعترف هو نفسه، وأراح الناس، بأنه ليس شاهد عيان، أي لم يكن من الصحابة أو الحواريين.. ولكنه يعتمد على رواية شهود عيان، وذلك في خطابه الى العزيز «تيوفيلوس» وقد وصفه الأب كانغنسر بأنه: «روائي كبير».

«لوقا» قال بصراحة انه سمع كثيرين يكتبون عن وقائع حياة المسيح (تماما كما تعددت كتابة الحديث مما دفع المدققون لبدء التدوين المحقق) ولما كان قد جمع معلومات كثيرة عن هذا من شهود عيان، فقد قرر أن يكتب هو أيضا، ولم يزعم أن روح القدس نزلت عليه ولا

تقمصته وهو يكتب. . ومن ثم فلا مسئولية عليه إن اعتبر البعض كتابه هذا منزلا ومقدسا. . ولا غرابة ولا لوم عليه ان اورد بعض الاساطير التي لا اساس لها من الصحة.

«لوقا كان من الاممين، اي غير يهودي، ولذا نلمس وضوح موقفه من اليهود من أول لحظة. . فقد حذف كل العبارات اليهودية في انجيل «متى»، وابرز على لسان المسيح كفران اليهود، مبرزا علاقته الطيبة مع السامريين الذين يكرههم اليهود، مع اننا في انجيل «متى» نرى المسيح يطالب الرسل بتحاشيهم «لا تدخل بيت سامري»! وهذا مثل صارخ على كيف استخدم كتاب الاناجيل السيد المسيح نفسه في خدمة وجهة نظرهم الشخصية وذلك بجعله يقول ما يؤيد دعواهم. وربما فعلوا ذلك باخلاص تام (!ج) ولكن كيف يمكن أن ننكر بعد ذلك ان الاناجيل هي كتابات فرق متصارعة أو مادة للجدل متأثرة بظروف كتابتها»[١٦].

وهو نفس ما حدث في الاحاديث، فالفرق المختلفة منذ ازمة علي ومعاوية، بدأت تضع الاحاديث التي تخدم موقفها أو تبرر تصرفها، فاذا جاء احد اليوم واعتبر احاديث هذه الفرق مقدسة فهو المسئول بالطبع. . مع الاشارة مرة اخرى الى ان علماء الحديث، محصوا هذه الاحاديث، ورفضوا شهادة الاطراف المتصارعة، وهو ما لم يحدث في الاناجيل الا حديثا جدا وبأسلوب يفتقد للمصارحة والوضوح. .

ولوقا كان مرافقا لبولص واغلب الظن انه كتب أنجيله بايحاء من بولص» والخلاف واضح بين طفولة المسيح في «متى» وطفولته في «لوقا»، كما رفع «متى» نسب «المسيح» الى «ابراهيم»، وهو ما يكفي لاثبات اليهودية، التي كان «متى» اكثر التصاقاً واهتماما بها، اما «لوقا»، فقد رفع النسب الى «آدم» (ربما لتقليل أهمية ابراهيم، أو لاثبات وحدة البشر باعتبار دعوة بولص لمسيحية عالمية وليس لاولاد ابراهيم فقط. . . ج)

وفي انجيل «ربنا» يسوع المسيح للقديس لوقا، الذي قامت بترجمته الى العربية لجنة اعتمد تشكيلها «قداسة البابا كيرلس السادس» بطريرك الكنيسة المصرية وصدر في عهد «البابا شنودة بابا الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية في كل افريقيا والشرق وبلاد المهجر»[١٧] قالت اللجنة في تفسير لا يهودية انجيل لوقا: «وانجيل لوقا موجه الى اليونان جميعا لانه كتب باليونانية. . ولذلك اهتم لوقا بايراد اقوال السيد المسيح، والمواقف، التي

---

١٦ ـ انظر كيف يقول المسيح في انجيل واحد: «من ليس ضدنا فهو معنا» لوقا ٩/ ٥٠ وايضا «من ليس معي فهو علي» لوقا ١١/ ١٣. . وهما نقيضان لا يجتمعان. كذلك الخلاف في تفسير نقد اصحابه في حادثة العطر قال لوقا أنهم لاموه لان المرأة التي عطرته بالعطر كانت خاطئة. اما في متى ومرقص فلأن العطر كان غالي الثمن ويمكن ان ينفق على الفقراء.

١٧ ـ وسنشير اليه بانجيل لوقا ـ ط. م. اي الطبعة المصرية.

يتضح فيها انه جاء لخلاص جميع الناس من كل الأمم، ولا يحصر خلاصه في اليهود وحدهم». «ان القديس «لوقا» رفع في انجيله (٣: ٢٣ ـ ٣٨) نسب الرب يسوع المسيح لا الى ابراهيم كما فعل القديس «متى» في انجيله (١: ١ ـ ١٧) وانما الى آدم ابي الجنس البشري كله. ثم انه يورد قول السيد المسيح له المجد: «وينبغي ان يبشر باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا بين كل الأمم».

«هذا الى ان انجيل القديس لوقا تجنب كل ما يؤذي مشاعر الأمم غير اليهودية **فلم يورد مثلا قصة المرأة الفينيقية الكنعانية السورية اليونانية التي عندما توسل التلاميذ الى معلمهم بشأنها قال: «ما أرسلت الا الى الخراف الضالة من بيت اسرائيل». ولما سألته هي قائلة: «يارب أعني» قال لها: «لا يليق أن يؤخذ خبز البنين ويلقى للكلاب». متى ١٥: ٢٤ ـ ٢٦»** بحروفه عن انجيل لوقا ط. م.

ولم تفسر اللجنة المترجمة والناشرة، رغم صراحتها وجرأتها في ايراد هذه الحقائق، لم تفسر كيف يقول المسيح ما يُسيء الى الأمم؟! وكيف يسجل انجيل ذلك، ويحذفه انجيل آخر. . وبأي حق يقيم لوقا من نفسه رقيبا على قول السيد المسيح له المجد. . فيحذف هذا النص أو يخفيه عن اليونان؟! ومع أى مسيح نتعامل. . ؟ هذا الذي اعتبر الجنس البشري من غير اليهود كلاب، وقال ـ باعتراف اللجنة المسيحية ـ ما يسيء الى الأمم؟. . أم الذي بُعث «لكل الأمم»؟! لقد قررت اللجنة ان لوقا «من اصل يوناني لا يهودي ويشهد اسمه اليوناني الاصل على ذلك فهو باليونانية لوكاس». .

وهكذا حذف ما يسيء الى أهله من كلام المسيح!

وحاشا لله ان يقول «المسيح» رسول الله ما يحتاج الى الاعتذار عنه أو مواراته!

وقبل ان نناقش تطور الصراع اليهودي ـ الروماني على المسيح وتأثير ذلك على الاناجيل نستمر في توضيح ما تعرضت له هذه الاناجيل من تحريف، ذلك انها ـ كما قلنا ـ كتبت في فترات متباينة ومن كتاب لهم وجهات نظر مختلفة في هذا الصراع، فبعضها تفوح منه اليهودية اكثر من البعض الآخر، ولكن الاناجيل كلها تعرضت لرقابة الكنيسة بعدما استقر الأمر للكنيسة الرومانية المنتصرة، ومن ثم جرى تعديل هنا وحذف هنا واضافة فصول كاملة، ورغم ذلك يمكن اكتشاف التباين. .

واللجنة التي اشرفت على اخراج «الترجمة المسكونية»[١٨] للانجيل «اضطرت للاعتراف كقاعدة عامة بان لوقا لم يكن مهتما في انجيله بالدرجة الاولى بتسجيل حقائق تنطبق على الواقع المادي».

---

١٨ ـ اي نسخة موحدة معتمدة لكل المسيحيين بصرف النظر عن طوائفهم. .

اما انجيل يوحنا فقد «وصف بأنه يختلف تماما عن الاناجيل الثلاثة الاخرى في كل شيء في تبويبه، واختياراته، وجغرافيته . . بل حتى في النظرة الدينية . . (الاناجيل الثلاثة اختلفت في وصف واقعة التناول في العشاء الاخير، اما انجيل «يوحنا» فلم يشر اليها!)

وقال «ان الخلاف شديد حول تحديد شخصية «يوحنا» كاتب الانجيل، فقد ذهب البعض الى انه شاهد عيان وهو ابن زبيدي واخو جيمس، وكتب انجيله في نهاية القرن الاول. الا ان اللجنة المسكونية قررت «ان الاغلبية لا تقبل فرضية ان الانجيل كتبه الحوارى يوحنا فمن المحتمل أن يكون الانجيل الموجود حاليا طرح للتداول بواسطة تلاميذ الرسول يوحنا، الذي اضافوا اليه الفصل الحادي والعشرين، وربما بعض التعليقات مثل ٢/٤ وربما ١/٤ ، ٤٤/٤ ، ٧٣/٧ ب ، ١١ ، ٢ ، ١٩ ، ٣٥ ـ وفيما يتعلق بواقعة المرأة الزانية. فالجميع يوافقون على أنها من أصل مجهول جرت اضافتها أو دسها في وقت متأخر». ولكنها رغم ذلك جزء من نص مقدس! . .

«الفقرات ١٩ و ٣٥ كأنها تحمل توقيع شاهد عيان. التوقيع الوحيد الصريح في كل انجيل يوحنا، ولكن المعلقين يعتقدون انها اضيفت في وقت لاحق ويعتقد اكثر المعلقين مسيحية، واشدهم تحفظا أن الفصل الحادي والعشرين أضيف بواسطة تابعي، أجرى تعديلا ايضا في النص الاصلي للانجيل وقد فسر «كلمان» الخلاف في انجيل يوحنا هكذا: «ان روح القدس تجعله يضع على لسان المسيح ما يناسب الهدف»[19] !!!!

واحصت لجنة الترجمة المسكونية للانجيل اوجه الاتفاق والخلاف في الاناجيل الثلاثة وخرجت بالآتي: «الفقرات المتفقة في الاناجيل الثلاثة هي ٣٣٠ فقرة، بينما انفرد كل انجيل بوقائع خاصة كالآتي:

«٣٣٠ في متى و ٥٣ في مرقص، وخمسمائة في لوقا. أما انجيل يوحنا فقد استبعد من المقارنة لأنه انجيل مختلف تماما! فحادثة السمك والخبز وقعت وفقا لرواية لوقا في حياة المسيح، اما عند يوحنا فبعد وفاته وقيامه!»

«والخلاصة اننا عندما نقرأ الانجيل والعهد الجديد، فاننا لا يمكن ان نطمئن الى اننا نقرأ كلمات عيسى، ولذا فالأب بنوا يقدم الانجيل لقرائه بهذا التحذير: «اذا كان القارىء ينبه الى أنه لا يسمع صوت المسيح مباشرة. الا انه يسمع صوت الكنيسة التي يثق في أنها هي المعينة إلهيا للترجمة للسيد الذي تحدث الينا على الارض منذ زمن طويل، ومازال

١٩ ـ ص ٧٠. ولا يجوز ان يؤخذ هذا القول على سبيل الفكاهة. فالمهم ان هذا هو تفسير رجل مثل كلمان في ١٩٦٠ على علمه. ومن ثم يمكن ان نفهم صدق وطهارة الذين كتبوا الاناجيل بما يخدم وجهة نظرهم أو قناعتهم، ويرجح كفتهم في خلافات الكنيسة الأولى. . بل ربما نفهم من هذا التفسير العجيب نفسية واضعي الاحاديث المكذوبة على رسول الله!

يتحدث الينا في علياته»[20]

والمجمع الفاتيكاني الثاني قرر انها «بدون شك (الكنيسة) نقلت الينا باخلاص كلمات المسيح ابن الله الذي علمها بالفعل خلال حياته بين البشر من اجل خلاصهم النهائي»

ولا اظن اننا بحاجة الى تعليق، فهذا هو رأي الاسلام منذ ١٤٠٠ سنة، وهو ان هذه الاناجيل «الرسمية» المتداولة اليوم ليست انجيل المسيح، ولكنها وجهة نظر الكنيسة عن المسيح، ونحن نؤمن بوجود انجيل نزل على المسيح، وبشر به، ولكنه ليس من هذه الاناجيل بشهادة كبار رجال الكنيسة اليوم. فالمسيح يتحدث عن «الانجيل» ومادمنا قد تأكدنا من اجماع الروايات المسيحية على ان الاناجيل الموجودة حاليا كلها كتبت بعد اختفاء المسيح، فان هذا الانجيل الذي يتحدث عنه المسيح هو الذي ورد ذكره في القرآن، وهو الانجيل الصحيح . .

قال المسيح في رواية مرقص: من يضحي بحياته في سبيلي وسبيل الانجيل سينقذها» مرقص ٣٥/٨. وقال في مرقص ايضا: «حيثما يقرأ هذا الانجيل سيذكر فعل هذه المرأة» مرقص ٩/١٤ . . وفي لوقا انه لما جاء مبعوثا يوحنا للمسيح قال لهما المسيح: «قولا له انه يتلو الانجيل للفقراء . .» ولا مجال للشك بعد ذلك في وجود «انجيل» يبشر به المسيح، ويتلوه على الفقراء، قبل ظهور الانجيل الحالي الذي تتفق جميع الروايات على انه كتب بعد اختفاء المسيح بأربعين سنة على الاقل! . .

كيف عرف محمد هذه الحقيقة؟ . . فقال: « وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين»[21] «واذا علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل» المائدة ١١٠ «قال اني عبد الله اتاني الكتاب وجعلني نبيا» مريم ٣٠ «وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الانجيل» المائدة.

لا نملك الا احد تفسيرين:

١ ـ اطلع محمد بن عبد الله، أو لجنة غار حراء على هذا النص الوارد في انجيلي مرقص ولوقا، ومن ثم عرفوا بوجود انجيل آخر كان يقرأ على ايام المسيح وكان المسيح يبشر به، ومن ثم اتصلوا بكافة الجهات ودور الآثار وحصلوا على نسخة منه ولاحظوا أنه يختلف عن الاناجيل المتداولة، فأطلقوا هذا التحدي، وهو وجود انجيل الهي مقدس نزل على المسيح، أما هذه الاناجيل فهي مزيفة موضوعة ولم ترد على لسان المسيح . . في وقت غفلت فيه الكنيسة عن هذه الحقيقة وهذه النصوص أربعة عشر قرنا الى ان تطورت الابحاث،

٢٠ ـ بوكايل.
٢١ ـ المائدة

وتحررت هذه الابحاث من سيطرة الكهنوت، وتبين فعلا وجود «اناجيل» اخرى منعت وحرقت.. وتأكد فعلا ان الاناجيل الاربعة الموجودة حاليا لم يكتبها المسيح ولا أملاها، وانها تعرضت لتبديل كبير وتحريف شديد..

٢- أن يكون محمد هو فعلا رسول الله الذي أعلمه بهذه الحقائق.. وهذه الآيات هي فعلا من لدن العليم الحكيم..

يقول بوكايل «في فجر المسيحية كانت هناك كتابات كثيرة عن المسيح جرى تداولها ولكن الكنيسة أمرت باخفائها ووصفت بأنها موضوعه، وبعض هذه الوثائق حفظت. وعلقت لجنة الترجمة بأنها «استفادت من التقدير العام لهذه الوثائق المحرمة».. وذلك صحيح بالنسبة لخطاب برنابا، ولكن الكثير لسوء الحظ نبذ بقسوة، ولم يصلنا الا شذرات، اعتبرت تضليلا وأبعدت عن عيون المؤمنين مثل انجيل الناصري واناجيل العبرانيين واناجيل المصريين التي عرفناها من خلال استشهادات آباء الكنيسة ونفس الشيء بالنسبة لانجيل توماس وانجيل برنابا. وربما حذفت مئات الاناجيل واستبقيت أربعة»..

ولدينا رواية ثابتة في «الانجيل» عن حرق الوثائق الدينية والكتب المخالفة للعقيدة، وهو ما فعله «بول» لأول مرة في تاريخ البشرية، بولس الرسول مؤسس الكنيسة الكاثوليكية هو أول من فرض الرقابة الايدلوجية واول من استن المصادرة والحرق، فاليونان والرومان بل حتى اليهود لم يحرقوا كتابا واحدا، والدليل هو مكتبة الاسكندرية التي كانت تضم الآف الكتب، ان لم نقل مئات الألوف. وكان استعلاء اليهود الانعزالي، وعدم اهتمامهم بالفكر غير اليهودي، فضلا عن انعدام سلطة يهودية قادرة، اغلب سنوات التاريخ - سببا في تجنيب اليهود خطيئة حرق الكتب، وان لم يسلموا من خطيئة التحريف والتزوير.. ولكن بولس الرسول، ما ان تجمعت له القدرة وعدد من التلاميذ حتى نفذ أول مظاهرة في التاريخ لحرق الكتب المخالفة لتعاليمه، واشرف بنفسه على الحرق وسجل بفخر أن الكتب التي احرقت قدرت بخمسين الف قطعة من الفضة و «هكذا علت كلمة الرب وسادت». [٢٢] وكانت بداية عهد الظلام في الغرب وربما في العالم كله لولا أن تدارك الله البشر بالدين الذي اعاد العزة مرة اخرى للكتاب، واكد احترام رأي المخالفين..

وما يعنينا هنا هو حرق الاناجيل والروايات، وربما الانجيل الأصلي الذي كانت تتبناه وتبشر به كنيسة القدس من تلاميذ وأهل المسيح.. وفي فجر التاريخ الكنسي بدأ الطعن في صحة الاناجيل يقول كتاب «ساعة الاصلاح»: «الجماعات الكاذبة التي ظهرت منذ اوائل عهد المسيحية والتي كانت لا تعترف بالاناجيل ولا بنقاوته» وقد قررت لجنة الترجمة

٢٢ - اعمال الرسل ١٩/ ٢٠

المسكونية انه «لا أمل في الحصول على النص الأصلي» للانجيل.

وهذا ما قاله الاسلام، ولم يبق - وفق عقيدتنا - الا تلك الاشارات التي وردت في القرآن، والتي كما سنرى تؤكدها الدراسات الحديثة، مثل التأكيد على انسانية المسيح،

وقد اهتم النقاد بالتناقض والخطأ الوارد في شجرة نسب المسيح ولكنهم ركزوا على نقطتين هما - في اعتقادي - اقل أهمية مما استلفت نظري أنا شخصيا وهو:

نسب المسيح في «متى» جاء هكذا: «من ناحية جوزيف زوج مريم التي ولد منها عيسى الذي سمى المسيح، فهو (اي جوزيف) ابن يعقوب بن ماثان بن العاذر بن اليود، بن حايم بن صديق بن عازور بن الحكيم بن عبيد بن ذرو بابل بن شيلاتيل بن جكونياه بن جوسيه بن عاموس بن منسى بن حزياق بن آحاد بن جوتام بن عزيه بن جورام بن جوشابات بن عاصا بن عبيجه بن روحو بوام بن سليمان بن دافيد».

وقد استلفت انتباهنا، ان النسب الى «داود» مرفوع عن طريق «جوزيف»؟! زوج أمه. وهذا نسب مثير للدهشة ويعزز الاتهام اليهودي والعياذ بالله!.. ولا أدري كيف يمكن «لابن الله» أن يثبت انه ابن داود من ناحية ابيه الآدمي؟! أو زوج أمه؟!

ويبدو أن ناسخ انجيل لوقا تنبه الى هذا العجب فحاول تصحيحه، فجاء كما يقول المثل «يكحلها عماها» أو زاد الطين بله.. فقد قال الآتي: «المسيح بدأ دعوته وهو حوالي ٣٠ سنة، وبصفته ابن (كما هو المفروض) ليوسف بن هيلي بن جانيا بن يوسف بن ماتا يثاس بن عاموس بن ناحوم بن اسلي بن ناجي بن معاذ بن ماتا يثاس بن سمين بن جوش بن جوده بن يونس بن رحيسا بن ذرو بابل بن شاليتيل بن نرى بن ملخى بن عدى بن قصام بن المدام بن متى بن ليفي بن سيمون بن يهود ابن جوزف بن جونام بن الياكيم بن ميليا بن مناه بن مثاثا ابن ناثان بن دافيد».. الخ!

لوقا وضع بين قوسين عبارة: (كما هو المفروض)! ولا أدري من هو الذي «فرض» ذلك الا عصبة الافك من اعداء المسيح الذين اتهموه بأنه ابن غير شرعي ليوسف النجار! وبناء على هذا المفروض رفع لوقا نسبه الى داود واستخرج شجرة عائلته!!

وواضح من قراءة الاسماء انهما يتحدثان عن شخصيتين مختلفتين تماما، كما يستطيع أي موظف في بنك او ادارة تحقيق الشخصية اكتشاف ذلك فورا.. اذا ما طالبهما بالاسم الثلاثي فقط وليس شجرة العائلة الى داود!..

فمسيح «متى» مكتوب في بطاقته عيسى بن يوسف بن يعقوب...! ومسيح لوقا اسمه عيسى بن يوسف بن هيلي!!

والاول ينحدر من سليمان بن داود اما الثاني فمن ابن آخر لسليمان اسمه «ناثان بن داود»!!

صحيح ان هناك اختلافا في نسب النبي بعد عدنان . . الخ ولكن ما من أحد يضع نسب النبي عليه الصلاة والسلام في موضع التقديس أو النص الذي لا يمس . . ومن الجنون ان يطلب أحد أو يعتبر نصين متناقضين عن نسب الرسول، كلاهما صحيح ومقدس؟!

ولكن هذا التناقض لا يهمنا كثيرا، فهو خطأ محتوم من بشر يتصدى لرفع او تقصي نسب لعدة اجيال، فضلا عن الوصول بالنسب الى ابراهيم او آدم! اما غير المفهوم وغير المقبول، فهو كيف يرفع النسب عن طريق زوج الأم؟ كيف يكون المسيح ابن داود عن طريق زوج الأم وليس عن طريق مريم كما فعل القرآن . . فهي مريم بنت عمران واخت هارون . . وهو دائما المسيح «عيسى بن مريم» ولا يمكن أن ينسب الا هكذا . . . الا ترى اننا اكرم للمسيح من عباده . .

وقد خطر لي في البداية، ان هذا الخطأ الفظيع يرجع الى موقف الكنيسة الأولى من المرأة عموما ومن السيدة «مريم» وهناك دراسة خاصة اعددناها حول كيف تعلمت الكنيسة «الغربية» بالذات احترام مريم وحبها من الاسلام، الذي جعل كرامة مريم سابقة على امومتها للمسيح، وكرمها على نساء العالمين اي بما فيهم أم النبي وزوجاته، لا لأن المسيح افضل من النبي بل لأن مريم هي الأفضل لاسباب شرحناها في تلك الدراسة التي ستَرد في موضعها . . وقد حاولت الكنيسة المصرية، او بمعنى اصح لجنة ترجمة ونشر انجيل لوقا، متأثرة بالفكر الاسلامي تصحيح هذا الخطأ فقالت: «ان لمريم كرامة في ذاتها وان كرامتها في فضيلتها اسبق من كرامتها كأم للمسيح أي ان كرامتها في فضيلتها هي التي رشحتها لأن تصير أما للمسيح»[24] وقالت ان المسيح «تجسد في احشاء عذراء من نسل داود».

وهذا ما يقضي به المنطق وقالت ايضا ان نسب المسيح الى ابراهيم عن طريق مريم فقالت «انجز وعده لابراهيم وذريته بمجيء المسيح مخلص العالم من نسله لانها كانت من نسل ابراهيم وذريته».

اقول انني فسرت هذا النسب الغريب في الاناجيل، بأنه يرجع الى انكار مريم ورفض نسب المسيح اليها، ولو كان الثمن نسبته الى «يوسف النجار» والعياذ بالله، ولكني لاحظت أيضا موقف الاناجيل من الحمل والمولد نفسه، فانجيل مرقص وهو اقدم الاناجيل لم يشر اطلاقا لا الى الحمل ولا مريم ولا الملاك، بل جاء بالمسيح بلا مقدمات، ونفس الموقف في انجيل يوحنا لا مريم ولا حمل . . وفي متى انها حبلت وهي في بيت «يوسف النجار» الذي

٢٤ ـ انجيل لوقا ط . م ص ١٦٤

اتهم الحمل، ولكنه لم يشأ الفضيحة، وجاءه «هو» الملاك في الحلم وطمأنه . اما في انجيل «لوقا» وهو بالمناسبة اقرب الاناجيل الى رواية القرآن فقد بشرها الملاك بالحمل . . وانجيل مرقص ويوحنا لم يوردا شجرة العائلة . فهل يعني ذلك ان المسيحيين الاوائل أو الذين كتبوا الاناجيل لم يأخذوا بفكرة «العذراء» او الحمل بلا دنس، بل كان الشائع بينهم انه فعلا ولد من مريم زوجة يوسف النجار، ولكن بطريقة عجائبية ظلت تتطور حتى جمعت بين الابوة البشرية والالهية، تماما كالاسكندر المقدوني فهو ابن فيليب وابن الاله في نفس الوقت، وكذلك فراعنة مصر، والآلهة من قياصرة الرومان، كلهم يذكرون في شجرة النسب منسوبين الى آباء بشر ولكنهم في نفس الوقت، أولاد آلهة . . دخلوا بطريقة ما في عملية التقليح . . . ؟! . . ولذلك لم تجد الاناجيل حرجا في الحديث عن اخوة المسيح، دون حاجة للاشارة الى انهم من أمه.

هل لم تبرز فكرة الميلاد بدون أب الا في وقت متأخر، ومع تطور وشيوع نظرية «ابن الله»؟! . .

هذا الموقف تلمس آثاره في التفاسير الحديثة التي تحاول ان تتدارك هذا الموقف أو ان تفنده بشيء من التشنج الخاطىء، فنحن مثلا لا نقر تفسير البروفسور «بوكايل» لمعنى «أحصنت فرجها» اذ يستنتج من ذلك انه لا يمكن أن يكون لها من اولاد سوى عيسى عليه السلام «فهو استثناء بيولوجي» ويفسر ما جاء في الانجيل من اشارة الى «أخ» و«أخت» المسيح بأنه خطأ في الترجمة . وقد اشار انجيل متى الى اخوة واخوات للمسيح . ونحن لا نأخذ بتفسيره فليس هناك ما يمنع تزوج مريم من يوسف النجار بعد أن حملت وولدت المسيح، وليس قبل ذلك، وربما انجبت اخوة للمسيح واخوات من أمه طبعا . . فهو بشر معجزته أنه بلا أب . . والاحصان لا يعني الرهبنة أو العقم . . بل العفة، ولا نقول ان المسيو «بوكايل» متأثر بتراث «الوهية» المسيح ومن ثم فالفرج الذي وطأه الله أو حل بالرب (سبحانه وتعالى عما يصفون) لا يجوز له أن يلقح أو يحمل بانسان! . . لا . . فالرجل موحد والحمد لله . والمسيح استثناء بيولوجي من ناحية «انعدام الاب» وليس استثناء لمريم! . . وليس هناك ما يمنع في مفهومنا الاسلامي ـ من أن تكون له أم عادية، وزوج أم واخوة واخوات . . بل وحتى أن يكون له هو ابن كما تدعي الدراسة العجيبة التي ستتعرض لها[26]

وقالت اللجنة الناشرة لانجيل لوقا (ط . م): «العذراء الطاهرة العفيفة على الرغم من خطبتها ليوسف، كانت قد عشقت العفة الكاملة، وأرادت أن تحيا لله بتولا كل ايامها . ولم يكن زواجها الاسمي بيوسف الا ضرورة اقتضاها وضعها كفتاة يتيمة الابوين بلغت نحو

٢٦ ـ «الدم المقدس والوعاء المقدس».

الرابعة عشرة من عمرها. وكان لابد أن تخرج من الهيكل كما تقضي بذلك الشريعة، وكان لابد بالتالي من أن تكون في كنف رجل يحميها. ويتضح هذا العزم على العفة الكاملة والبتولية التامة من قولها للملاك في دهشة مثيرة.. كيف يكون لي هذا.. وأنا لا اعرف رجلا؟» والملاحظ ان عبارة العذراء مريم وهي تنفي معرفة الازواج لم تكن بالنسبة للماضي فقط. وانما تدل على اعتزامها ان لا تعرف رجلا في الحاضر والمستقبل ايضا، وهذا أمر يدعو الى العجب حقا، فان رسالة الملاك جاءتها وهي في بيت يوسف. ولو لم تكن مصممة على البتولية الدائمة، لما كان ثمة معنى لاعتراضها، لاسيما ان البشرى هي في صيغة المستقبل، اذ قال لها الملاك: «ستحبلين» مما يدل دلالة قاطعة على ان السيدة العذراء مريم التي عاشت منذ الثالثة من عمرها في جو الهيكل اعتزمت ان تعيش بتولا دائما»[٢٧]

ولتسمح لنا اللجنة، فهم بشر ونحن بشر، وكلها اجتهادات، ونحن وهم نؤمن بالمسيح وأمه الطاهرة البتول التي احصنت فرجها.. ولكن تفسير اللجنة هو مما تقول عنه العامة في مصر «يغني ويرد على روحه».. فقد احست اللجنة بالتناقض الواضح في قولها: كيف أحمل وأنا لم اعرف رجلا» وهي في بيت رجل واخبر عن المستقبل، فأقصى ما يصل اليه فهمها هو أنه - اذا كانت فعلا في حالة زواج اسمي مع فراق جسدي! - هو أن الملاك يريدها أن تعرف هذا الرجل الموجود معها تحت سقف واحد وزوجها امام الله والناس.. لا أن تقول أنه يفهم من سؤالها... الخ..

اما الزواج الاسمي ففي النفس منه الكثير.. اذا كانت هي قد نوت ان تكون «بتولا» مع ان هذا الوضع غريب وغير معروف في اليهودية.. ولكن حتى لو فرضنا انها قررت أن تكون «بتولا» فما الذي اجبر «يوسف» على قبول ذلك وكيف استطاعت فتاة في الرابعة عشرة من عمرها يتيمة الابوين أن تفرض «التبتل» على يوسف، اذ لم تكن له زوجة اخرى في حدود علمنا جميعا..

وهذا الخلط ينبع من فرضية زواج يوسف، وهي في اعتقادنا لا اساس لها ورواية القرآن، لذلك اكثر وضوحا ومنطقية و «دليل» على تلافي جنة حراء لكل الثغرات التي في روايات الانجيل. فالقرآن واضح الدلالة بأنها حملت به وولدته قبل أن تتزوج يوسف النجار - ان كانت قد تزوجته - بدليل أنها لما ابلغت بقرار الحمل ارتاعت وسألت كيف يحدث هذا لها، ولم يمسسها بشر والمتزوجة لا تقول هذا، وحتى اذا قبلنا تفسير أنهما اتفقا على عدم المعاشرة الجنسية، فأنه لا يفسر دهشة قومها واتهامهم لها على الفور بل سؤالهم الواضح: يامريم أني

٢٧ - ص ١٦٠ انجيل لوقا ط. م.

لك هذا.. واوقح الناس لا يسأل امرأة متزوجة من أين لك هذا عن طفلها؟!.

رواية القرآن اذن واضحة لا تحتمل الشك في أن الحمل والولادة تما بلا زواج.. ومن ثم فلا حاجة لحيل اكروبانية.. لتفنيد اتهام اليهود، أو بالاحرى لتفسير السكوت في الاناجيل على قصة الحمل ومعجزته «البيولوجية».. بل ان بعض الاناجيل قالت ان يوسف علن للناس انه والد المسيح رغم انه يعلم كذب ذلك.. فكيف نحاسب الناس وقتها على رفض تصديق «والد» المسيح؟!

«اذ قالت الملائكة: يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها في الدنيا والاخرة، ومن المقربين. ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين. قالت ربي اني يكون لي ولدٌ ولم يمسسني بشر، قال: كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون». آل عمران.

«ويكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما» النساء.

وقد لاحظنا ايضا في شجرة العائلة التي قدمها «لوقا» انه عندما رفع النسب الى آدم وضعه هكذا: «ابن قايين بن اينوس بن شت بن آدم ابن الرب».

وهذه نقطة مهمة جدا ننبه اليها الآن وسنرجع اليها في تفسير «الآب» في الاناجيل. فاما أن يكون لله سبحانه وتعالى ابنان!.. آدم والمسيح.. وهو ما لم يقله أحد لا في اليهودية ولا المسيحية.. اعني ان آدم هو ابن الله.. بمعنى النسب الالهي.. واما انها اخذت بمعنى انه من خلق الله مباشرة بلا أم ولا أب من البشر، ومن ثم فهو «ابن الله» كما ينسب الطفل المجهول الاب الى الطبيب الذي ولده.. وغفرانك اللهم..

وعلى هذا الاساس نفهم عبارة «الابن» و «الاب» وابن الله، بمعنى ان المسيح ايضا ليس له أب، فهو ابن الله، كما كان آدم هو ابن الله بهذا التعبير الساذج، ولكن لما تبنت الكنيسة فكرة الاله - الرجل تغير مضمون العبارة. واصبحنا نرى المسيح ابن الله بمعنى الالتحام وايضا هو ابن جوزيف النجار عند لوقا؟!..

ولمن شاء أن يدقق نعرض ملاحظات النقاد حول شجرة النسب وهي كما قلنا ثانوية، مادمنا سلمنا أن الاناجيل ليست مقدسة ولا منزلة بل من صنع البشر..

في العهد القديم ١٩ اسما بين ادم وابراهيم ولكن لوقا اضاف اليهم شخص اسمه «كاينان cainan» فأصبحوا عشرين! وجاء ترتيب هذا الكاينان ١٣ لسوء حظه! ومن داود الى المسيح ٤٢ جيلا او اسما في لوقا اما في متى فهم ٢٧ فقط..

«متى» قسمهم ما بين ابراهيم وداود ١٤ جيلا ومن داود الى النفي لبابل ١٤ جيلا ومن السبي الى المسيح ١٤ جيلا.. ولكن الذي حدث ان القسم الاخير سقط منه اسم.. ورغم ذلك استمر شراح الكنيسة يعلقون على أهمية هذا التقسيم ١٤: ١٤: ١٤.. ومغزى

الرقم ٧ المتكرر. . وكل الاساطير الممكنة والالاعيب حول الارقام، وهي معروفة عندنا ايضا، ولكن ما من أحد توقف ليقول باجماعة انها ليست ١٤ : ١٤ : ١٤ بل ١٤ : ١٤ : ١٣ وهـذا يبطل كل التخريجات. . وكما يقول البروفوسير بوكايل بحق: «ليس العجيب سقـوط الاسم، بل الغـريب سكـوت جميع الشراح والـواعـظين بالانجيل عن هذا السقوط»! . . بل ان الاب دانيال يتطوع بالشهادة في عام ١٩٦٧ بأن «متى ولوقا حصلا على نسب المسيح من ارشيف العائلة». الذي لم يعثر عليه أحد طبعا. . ولم يقل لنا لماذا كان هذا الارشيف يضم شجرتين مختلفتين»[٢٨].

وحاشا لله أن يكون لمن ولد تحت النخلة، أو في «مزود»، أرشيف عائلة! وحاشا لله ألف مرة أن يكون في هذا الارشيف ما اورده مؤلفا الانجلين عن نسبته الى «ابيه» يوسف النجار! . .

وما دمنا نؤمن مسلمين ومسيحيين ان عيسى ليس ابن يوسف ابدا، فما الذي يعنينا من نسب يوسف؟! . .

نقول كلمة عن «مريم» وكيف انتقل احترامها الى الكنيسة الغربية من المسلمين. .

تقول السيدة «تناهيل» مؤلفة كتاب الجنس في التاريخ:

«الكنيسة الغربية كانت تنظر للمرأة من خلال صورة حواء المسئولة عن سقوط البشر فلما حلت مريم «التي جاءت مع العائدين من الحروب الصليبية، تغيرت النظرة لصالح المرأة وكان ذلك في القرن الرابع عشر»[٢٩].

فالحق ان الاسلام اهدى «مارية» أو «ماري» للغرب المسيحي وساهم مساهمة مباشرة في تحرير المرأة الأوروبية، ومن سخرية التاريخ ان هذا تم في ذات الوقت الذي كانت المرأة المسلمة، تتراجع لتدخل الحريم التركي المؤلم في تخلفه.

فقبـل الاحتكـاك بالمسلمين والاطلاع على القرآن، والتعرف على موقف الاسلام من السيدة مريم لا نجد لها كبير ذكر لا في الاناجيل ولا في طقوس الكنيسة.

حب مريم جاء من الفكر الاسلامي، من صميم الدين الاسلامي، بعد الاحتكاك العظيم في الحروب الصليبية. واذا كنت بيزنطة قد سبقت كنائس الغرب في احترام «مريم» وتقديسها فلأن بيزنطة جاورت المسلمين اربعة قرون قبل مجيء الاوروبيين في الحروب الصليبية، والا فان فكرة الخطيئة الأولى ومسئولية حواء عن سقوط البشر، موجودة في تعاليم

٢٨ ـ بوكايل عن كتاب «انجيل الطفولة».

٢٩ ـ sex in history PP 245

الكنيستـين، واية مقـارنة بين الاناجيل واعمال الرسل وتراث الكنيسة حتى القرن الرابع عشر، وبين القرآن، حول مريم، تؤكد أنه لا وجود لمريم في الفكر المسيحي الأول. أو انها كما تقـول المؤرخـة المذكورة: «ظلت الى القرن الثالث عشر مجرد قديسة عادية». اما في الاسلام فقد اعلنت منذ القرن السابع، منذ نزول الوحي، لأن الوحي لا يتطور. اعلنت «سيدة نساء العالمين» فهي التي اصطفاها الله على نساء العالمين هي «البتول» التي احصنت فرجها. . في القرآن عيسى ابنها يقول: «وبارا بوالدتي» وفي الانجيل ينسب اليه قوله لها: «مالي ومالك يا امرأة» ولم يناديها مرة واحدة «اماه»! وقد حذف ذكرها تماما من انجيلين. وجاءت في الثالث عرضا. اما في انجيل لوقا فقد وردت في اكثر من موضع، واورد على لسـانها عشر ايات مجدت فيها الرب لما اسبغه عليها وعلى خادمه اسرائيل. . كما تحدث لآبائنا لابراهيم ونسله الى الابد»[٣٠].

ونستعرض سريعا عرض الاناجيل للسيدة مريم، فنقول انها لا وجود لها في انجيل متى، لا في صلبـه ولا في قيامه بل نقرأ: «حضرت نسوة من بينهن ماري المجدلية، وماري أم جيمس وجوسية، وأم اولاد زبيدي» متى ٢٧/٥٦

وعـلى القبـر كانت «ماري المجدلية وماري الاخرى» متى ٢٧/٦١ والارجح ان هذه الأخرى هي أم جيمس، والا فانها طريقة عجيبة في الحديث عن ماري أم المسيح! . .

كذلـك عدد مرقص النسـاء الذين جاءوا معه من القدس، وليس فيهن أمه (مرقص ١٥/٤٠ ـ ٤١) وتولى دفنه: «ماري المجدلية وماري أم جوسس وماري المجدلية وماري أم جيمس وسالومي احضرن عطورا طيبة لتطييه».

ولا يمكن الاستدلال من «متى» و «مرقص» اذا كانت أمه قد ماتت قبله؟ وفي مرقص الـذي لم يشر ـ كما قلنا الى الحمل أو الميلاد وردت أول اشارة الى «مريم» عليها السلام هكذا: «ثم جاء اخوته وأمه ووقفوا بالخارج وبعثوا إليه ينادونه» «قال الناس: الأم والاخوة بالخارج يريدونك فاجابهم: من هي أمي؟ ومن هم اخوتي» مرقص ٣/٣١/٣٣. وفي لوقا: «وجـاءت أمـه واخوته وقال واحد: الام والاخوة يقفون بالخارج يريدون رؤيتك فأجاب قائلا: «امي واخوتي هم من يسمعون كلمة الله ويعملون بها» لوقا ٨/١٩ ـ ٢١.

والسؤال أو القصة كلها لا معنى لها الا اذا كانوا فعلا اخوته من أمه طبعا. . لأن مغزى القصة كما جاء في السطور التالية: «والتفت للذين حوله وقال انظروا: انتم أمي وأخوتي» مرقص ٣/٣٤ أي ان اخوة العقيدة مقدمة على اخوة الدم. هذا يعزز الرأي الذي يقول بوجود اخوة للمسيح من أمه، وان احدهم كان يرأس الكنيسة في فلسطين وهو جيمس.

٣٠ ـ انظر لوقا ١/٤٦ ـ ٥٥

ويعزز ذلك ان الناس تساءلت: «أليس هذا النجار ابن مريم اخو جيمس وجوسيس ويهودا وسيمون اليس اخواته هنا معنا، وهن غاضبات عليه» مرقص ٦/٣ ولاحظ ان نسبته هنا الى «ابن مريم» جاءت على لسان اليهود وللتحقير. . الا انه يفهم من هذا النص انه كان له اخوة ذكور واخوات اناث. وفي يوحنا: «وحتى اخوته لم يؤمنوا به» يوحنا ٧/٥ ولا يمكن أن يكون الحديث ، هنا ، عن اخوة الا اخوة الدم . .

ويوحنا بالطبع كما يتوقع القارىء، وهو أديب فنان قدم عملا فنيا يهتم بالفن على حساب الحقيقة، ولذلك لم يفته بالطبع الاستفادة من عنصر فني ممتاز وهو «الام» وسنجد «ماري» مع المسيح في حفل عرس، ولكنها عندما تطلب منه طلبا يرد عليها: «مالي وما لك ياأمرأة . . ان ساعتي لم تحن بعد» يوحنا ٢/٤

وستلاحظ في الاناجيل كلها ان المسيح لم ينادي امه مرة واحدة «أماه!» على كثرة مناداته «ابي» . . وسبحان القائل على لسانه «وبارا بوالدتي». كذلك ذهبت ماري مع المسيح الى كفر ناعوم (يوحنا/٢)

ولم يكن يوحنا الفنان بالذي يفوته احضار ماري في حادث الصلب، بينما أغفل الأخرون الاشارة اليها. . يوحنا بالعكس قال:

«الآن يقف بجانب صليب عيسى . . أمه وخالته ماري زوجة كليوفاس، ومارية المجدلية. وعندما رأى عيسى أمه والتلميذ الذي يحبه عيسى واقفين. . قال لأمه: أمرأة خلي بالك من الأبن. . ثم قال للتلميذ: خلي بالك من الأم. . ومن تلك الساعة اخذها هذا التلميذ معه في بيته». يوحنا ١٩/٢٥ - ٢٧

ولاحظ ان «المسيح» هنا - ايضا - رغم عاطفية المشهد لم ينادها: أماه!. . بل قال: «ياامرأة». . مما يجعلنا نتساءل هل قوله للتلميذ: «خد بالك من الأم» يقصد به أم المسيح أو أم التلميذ؟ . . والفرض الثاني هو ما أخذ به مؤلفا «الدم المقدس» وبنوا عليه نظرية زواج المسيح وأن هذا التلميذ هو ابنه. وهم على اية حال اطهر قصدا من المتخرصين الفاجرين الذين يحاولون الأن استخراج تفاسير فاسدة مثل خلقهم، عن هذا «التلميذ» الذي «يحبه» المسيح. وهو التلميذ الذي نسب اليه، أوروى انجيل يوحنا. . شاهت وجوه الكاذبين المتخرصين.

اما اعمال الرسل فتؤكد أن ام المسيح عاشت بعده وكانت تصلي مع التلاميذ «مع المرأة، ومارى أم عيسى والاخوة «اعمال الرسل ١/١٤ وهي منسوبة الى لوقا. .

والسؤال من هي «المرأة» التي لا تحتاج لتعريف. . هل هي زوجته؟! وهل لهذا يأتي ترتيبها حتى قبل أم المسيح واخوته؟!

فمريم عليها السلام ليس لها في الاناجيل الأربعة سفر، ولها في القرآن سورة كاملة،

وجاء اسمها في القرآن ٣٤ مرة وفي ١٤ سورة، وذكر «عيسى» في القرآن ٢٥ مرة منها ١٥ منسوبا الى أمة: «عيسى بن مريم» وورد لقب المسيح في القرآن ١١ مرة منها ثماني مرات «المسيح ابن مريم». ولم يرد ذلك ولا مرة في الاناجيل ولكي لا يقال أن ذلك هو الطبيعي لحرص الاناجيل على تأكيد انه ابن الله، نقول انه حتى عندما اراد كتاب الاناجيل اثبات نسب المسيح الآدمي، لتأكيد أنه «ابن داود» نسبوه ليوسف النجار وليس لمريم!!

مريم عندنا بالنص القرآني افضل من أم نبينا عليه الصلاة والسلام وافضل من جميع زوجاته وبناته. . وتأمل ذلك الصحابي رضى الله عنه الذي «ثنيت له وسادة ليحدث «فقال: «خديجة هي خير من ركب الابل من النساء» ثم تنبه الى خطورة المنزلق الذي ساقه اليه لسانه فبادر قائلا: «ومريم بنت عمران لم تركب الابل قط»!

حسبك هذه الواقعة لتعرف مدى مكانة مريم عليها السلام في نفوس المسلمين. واذا كان المسيحيون تعلموا احترام مريم من المسلمين، فقد شوهوا الموقف، اذ كرموها باعتبارها أم المسيح أو أم الاله. . اما عندنا فمكانة السيدة مريم، وما اكرمها الله به لا يرجع الى انها ولدت المسيح. . حاشا لله ان تكرم الامهات في ديننا بنباهة أو صلاح الاولاد، والا لكان لآمنة بنت وهب السبق، الذي لا يدرك فقد ولدت خير الخلق، وخاتم الانبياء والرسل وامامهم يوم المعراج والاسراء. . وحبيب الله والشفيع اليه. . على الاقل من وجهة نظر المسلمين.

ولكن مريم حازت تلك المكانة، لعاملين: الاول انها كانت صالحة عابدة قانتة. . مؤمنة صابرة. . أحصنت فرجها، وكانت لها معجزاتها التي شاهد زكريا بعضها. . وهو الرزق الذي كان يأتيها من عند الله. . وكلما عجب زكريا من وجود ذلك في غرفتها التي اعتكفت فيها للعبادة، ردت عليه رد المؤمنة الواثقة: «هو من عند الله» «ان الله يرزق من يشاء بغير حساب» فتاريخها وصلاحها وطهرها ومعجزاتها سابقة على ميلاد المسيح. .

والعامل الثاني هو ان الله ابتلاها بأقسى امتحان تتعرض له عذراء عابدة، ناسكة زاهدة محصنة عفيفة. . وهو الحمل بدون زواج، ولا والد معروف لحملها. . مما عرضها في زمانها ومحيطها وجيلها لأشنع اتهام، بل مازال اليهود والمشركون يرددونه الى اليوم. وقد ابلغها سبحانه وتعالى بذلك، وادركت هي خطورة ما سيترتب على هذا الاختيار الالهي لها. . بل وتمنت لو كانت قد ماتت قبل هذا وصارت نسيا منسيا، لادراكها الكامل بما سيقال عنها، وماستتعرض له، واهون ما جوبهت به هو التذكير بأن أمها لم تك بغيا؟! ومع ذلك آمنت وصبرت وصدقت ما يستحيل على كثير من العقول حتى اليوم تصديقه. .

وقبول مريم ومباركتها وتفضيلها على نساء العالمين، بعبادتها، سابق على ابلاغها فضلا عن حملها للمسيح:

«اذ قالت امرأة عمران ربي اني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني انك انت السميع العليم. فلما وضعتها قالت ربي إني وضعتها انثى والله اعلم بما وضعت وليس الذكر كالانثى واني سميتها مريم واني اعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم. فتقبلها ربها بقبول حسن، وانبتها نباتا حسنا. وكفلها زكريا، كلما دخل عليها زكريا المحراب، وجد عندها رزقا. قال يامريم أنى لك هذا. قالت هو من عند الله. ان الله يرزق من يشاء بغير حساب».

«واذا قالت الملائكة يامريم، ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين. يامريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين».

من هنا يحق لنا القول ان «مريم» في المسيحية هي هدية المسلمين للعالم المسيحي. وان كانت صورتها أو ممارسات حبها وتوقيرها، قد اتخذت صيغة مخالفة للعقيدة الاسلامية. بحكم العقلية الغربية، والتطور الذي اصاب الفكر المسيحي.

تقول مؤلفة «الجنس في التاريخ»:

«حتى مطلع القرن الثاني عشر لم تكن «مريم» اكثر من احدى القديسات في التقويم المسيحي الغربي، ولكن بمجرد ما استوردت عبادتها من بيزنطة (وقد شرحنا مصدر ذلك ح) حتى جذبت عواطف واعجاب القديس برنارد رجل الكنيسة المشهور الذي كان مسؤولا عن اصلاح نظام الرهبنة، وبنفوذه انشئت مئات الاديرة في اوروبا حيث وهب الرهبان انفسهم فيها «للعذراء» يلبسون الرداء الابيض تحية لطهارتها، ويضيفون محرابا خاصا «للسيدة» في كنائسهم. ولم يكد يحل القرن الثالث عشر حتى كان الشعر والشعراء الجوالون يخلطون بين «السيدة» و «العذراء» بين «الحب المقدس» و «الدنس» واصبحت العذراء «سيدتنا» Notre Dame Our Lady شخصية ارستوقراطية مميزة اكثر انسجاما في بيوت الامراء في قصور الغرب، منها في الخان المشهور في بيت لحم. ولكن في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، تحولت بتأثير الفرنسسكان أم الفقراء والبؤساء. و «العائلة المقدسة التي لم يكن لها مكان في الاناجيل، اتخذت مكانها في مجتمع القرن الخامس عشر في روما»: «ولو أن العامة ـ الذين لا يرتبط الدين عندهم بالمنطق ـ كانوا على استعداد لقبول مريم كعروس المسيح وأمه [٣١] في نفس الوقت!.. مما ثار مشاكل منطقية في العقيدة. وعند جودفري اوف ادمنتونت انها ايضا عروس العضوين الاخرين في الثالوث المقدس (أي الاب والروح القدس ح) «وقد ظلت ماري شوكة في جنب الفكر الكنسي لمخالفتها النظرة المسيحية عن

٣١ ـ ولعل هذا ما جعل فرويد يستنتج ان كل ذكر في اوروبا مصاب بعقدة اوديب!

وضع المرأة، حتى اضطرت في النهاية لاعلانها حالة خاصة![٣٢]».

واخيرا فاننا كنا نرجو من لجنة ترجمة انجيل لوقا، لو اشارت الى المصادر الانجيلية التي استمدت منها تفسيرها الاول من نوعه في تاريخ المسيحية عن ان مكانة مريم سابقة على امومتها للمسيح.. وهو ما يتفق مع وجهة نظرنا. ولان اللجنة لم تفعل وجهودنا لم تثمر في العصور على أي اصل مسيحي هذه النظرة.. لذلك حق لنا القول ان اللجنة نقلت مشكورة ـ هذا التفسير من الفكر الاسلامي. واظن اننا تخطينا المرحلة التي كان الآخرون ينقلون فيها افكار المسلمين ويسبونهم.

٣٢ ـ الجنس في التاريخ ص ٢٥٧

ومعروف أن القرآن قال على لسان المسيح : «ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه احمد» (الصف). وقد ورد هذا النص في انجيل برنابا المتداول بين العرب، وغير المعترف به من الكنيسة الا أن جدلا كبيرا ثارويثور داخل الكنيسة الى اليوم، وادي الى اعتناق عدد من رجال الدين المسيحيين للاسلام، دار حول النص الوارد في انجيل يوحنا، الذي رأي هؤلاء القساوسة والعلماء أنه يشير الى هذا النص القراني. . ويعتقد هؤلاء ان الكنيسة عدلت النص الاصلي المطابق للقرآن، من واقع مصلحتها كمؤسسة، لا يمكن أن تؤكد انها مجرد مرحلة وان خاتم الانبياء هو القادم. . (انظر مناقشة القسيس في دولة جنوب افريقيا والذي اسلم).

وقد ورد النص هكذا في انجيل يوحنا:

«سأصلي للرب وسيعطيكم معزى آخر يبقى معكم الى الأبد» يوحنا ١٤/١٦ والكلمة الواردة في الاناجيل هي Paraclete وهي التي تشرحها القواميس بأنها تعني «روح القدس» بينما أصل الكلمة في رأي القائلين بالتحريف هي Parakletos ومعناها . . the comforter وان كانت ترجمتها كما هو الحال مع الجذور اللاتينية تتسع للمعزى. . المريح . . الشافي. . المحمود. . . باختصار لا علاقة لها بروح القدس. هذا من ناحية اللغة، اما من ناحية المنطق فلو كان المسيح يتحدث عن روح القدس لما احتاج للفظة «آخر» والا فمن حقنا ان نسأل من هو «الاول» هل المسيح هو روح القدس؟! وهل روح القدس متعددة حتى يكون هناك اول وآخر وثالث. . الخ . . فاذا كان يقصد ان روح القدس ستأتي مرة اخرى، فانها تحتاج الى رسول أو نبي ينطق باسمها او تنطق بما توحيه اليه. . وروح القدس هي جبريل. . وجبريل أو الوحي لا يظهر للناس ولا يخاطبهم عامة. . اذن المسيح يبشرهم بنبي آخر سيكون هو الاخير الشافي الوافي المعزي عن فقدان المسيح. .

وواضح التعديل في النص الانجيلي، فاذا كانت الآية الاولى ١٤/١٦ يوحنا قد جرى فيها تعديل بسيط في الاملاء غير المعنى، فان كاتب الانجيل عندما وصل للنص التالي الذي يتحدث عن هذا القادم الذي به تختم رسالة السماء، فهويبقى الى الابد، حتى رأى من واجبه كمسيحي ان يشرح من هو المعزى فجاءت الآية ٢٦ في نفس الاصحاح كالآتي: «اما المعزى (الذي هو روح القدس) الذي سيرسله الآب باسمي، فسيعلمكم كل شيء ويذكركم بكل شيء بكل ما قلته لكم» يوحنا ١٤/٢٦.

وواضح هنا انها عبارة اضيفت اثبت بها الناسخ رأيه في من هو المعزى، لأن المسيح لا يحتاج لهذا الشرح، ولم يقله في النص الأول. . وحكاية وضع الشرح على النص، وخطأ الناسخين فيما بعد واعتباره جزء من النص معروفة، وقد وجدت في بعض الصحف عند

المسلمين الذين تنبهوا لخطورة ذلك فحرقوها تماما. وقد اشرنا الى وضع ناسخ لانجيل لوقا عبارة (كما هو مفروض) بين قوسين بعد قوله ان يوسف هو والد المسيح او زوج مريم، فهذه ليست من الاصل، ولكنها جملة استدراكية من الناسخ المتعبد. .

الناسخ هنا اضاف عبارة «الذي هو روح القدس» كما اضاف «سيرسله الآب باسمي» والله لا يرسل آخر باسم الاول، فكلهم رسله وعباده.

ولكن النص ظل شجى في حلق «المؤسسة» التي لا تريد الاعتراف بنبي آخر بعد عيسى، ولذلك اجرت تعديلا اكثر جرأة للمرة الثالثة في الاصحاح التالي مباشرة. . ففي البداية كان المسيح سيدعو الله لكي يرسل لهم آخر يهدي أو يريح للأبد. . أو بالضبط كما قال القرآن، يحكم بين اهل الكتاب فيما هم فيه مختلفون فيرتاحون من هذه القضية التي تعذب ضمائرهم . اي خاتم النبيين، فاذا به يتحول الى روح قدس سيرسلها الله ولكن باسم المسيح . . واخيرا اذا بهذا القادم سيرسله المسيح شخصيا.

ومتى جاء المعزى الذي سأرسله لكم من لدن الآب فحتى روح الحق القادم (أو الصادر) من الآب سيشهد لي». يوحنا ١٥/٢٦

وربما كانت الاضافة للجزء الاخير الذي يبدو اصيلا وهو «فحتى روح الحق القادم من الآب (الله) سيشهد لي. . » فقد شهد رسول الله حقا بصدق المسيح ونزهه عن كل ما رموه به من اكاذيب وذكر بكل اقواله الصحيحة ومن بينها هذه الآية التي عصفت بها الاهواء حتى جاء نصها الاصلي في قوله تعالى «ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد»[٣٣]

غير ان السؤال هو كيف عرفت لجنة غار حراء بأصل هذا النص وكيف عرفت بالفرق الطفيف بين Paraclete و Parakletos فاعتمدت الثانية وركبت عليها الآية . . ؟ هل من اشاعة عن اتقان رسول الله أو أحد من صحابته للغة اللاتينية؟!

واخيرا فقد اعتذرت الانسكلوبيديا العالمية، بما يوصف حقا ببارد العذر فقالت: «ان الانجيل لم يدعي كما فعل القرآن بأنه ترجمة ذاتية اوتوبيوغرافي لله، املاها بمعجزة ما على النبي»! . .

حقا القرآن أدعى ذلك، رغم بشاعة التعبير (اوتوبيوغرافي) . . وما من خلاف أو تناقض أو خطأ أو حقيقة واحدة تشكك في دعوى الرسول عن الوحي الى اليوم . وايضا نوافق على

٣٣ ـ في انجيل برنابا اسمه محمد . وهذا تفسيره اما تعدد اسماء رسول الله كما هو معروف ، عند المسلمين، واما ان الراهب الذي حصل او بالاحرى سرق نسخة انجيل برنابا التي كان يحتفظ بها البابا في خزائنه، ثم ترجمها الراهب واعتنق الاسلام، اقول ربما اراد هذا الراهب «الصالح» توضيح الكلام فاستبدل النص وجعل الأسم محمدا بدلا من احمد وهو حسن النية لأنه على يقين من تعبير الاسمين عن نفس الشخص صلوات الله عليه .

ان الاناجيل لم تدعي انها «منزلة»، فلماذا تعامل ككتب مقدسة ومنزلة . . لماذا لا نعترف أنه ليس في الوجود، ولا لدى البشر من كتاب يدعي انه من عند الله، الا «القرآن» ونناقش هذا الادعاء ان كانت لدينا حجة واحد تنقضه أو نتقبله كحقيقة وليس ادعاء؟

هل اتخذ المسيح صاحبة وولدا؟

وهذا ينقلنا الى كتاب «الدم المقدس والوعاء المقدس»، وهو كتاب احدث ضجة هائلة، وتخطى كل الانتقادات السابقة، وطرح فروضا واستنتاجات يشيب لها رأس الملحد قبل المسيحي، وقد اشترك في تأليفه ثلاثة: مايكل باينت، وريتشارد ليغ، وهنري لنكولن. الذين انغمسوا في موضوع الكتاب من خلال اعدادهم لبرنامج للاذاعة البريطانية عما يعرف باسم «كنز كنيسة رينيه لوشاتو» أو ما يصفه ناشر الكتاب «بأخطر سر في تاريخ المسيحية. والقصة تدور حول مجموعة وثائق تعارض تعاليم الكنيسة الكاثوليكية من الاساس. . وان اسقف هذه الكنيسة الصغيرة عثر على هذه الوثائق فابتز بها الفاتيكان الذي اغرقه بالمال لكي لا يبوح باسرار هذه الوثائق. . وقد تتبع المؤلفون هذه الوثائق ظنا انها تحتوي على سر مؤامرة سياسية أو فضيحة جنسية أو مالية، لكنهم ذهلوا ـ على حد قولهم ـ «عندما وجدوا ان الأمر اخطر من ذلك بكثير وأنه يتعلق بصميم العقيدة المسيحية».

وكما أن نصف علم الكيمياء وخواص المادة اكتشف خلال البحث الخاطىء عن مادة تحول الرصاص الى ذهب، كذلك فان الاكتشافات «الجانبية» في هذه الدراسة: «الدم المقدس والوعاء المقدس» أهم بكثير من الهدف والنتيجة التي يحاول المؤلفون اثباتها. . وكما لا ينتقص من علمية تجارب الباحثين عن اكسير الذهب. انهم كانوا يجرون وراء سراب علمي. . كذلك يمكن القول ان دراسة هؤلاء الثلاثة هي دراسة علمية بكل معنى الكلمة، وإن كانت النتائج، بعضها يبدو غير قابل للتصديق مثل الجانب التآمري، الذي يستحيل العثور على دليل مادي عليه، لما للباباوية من تاريخ عريق شديد التعقيد في العمل السري، واسكات المعارضين، فان ما يعنينا هنا وما اثبته المحققون الثلاثة بأدلة ووثائق لاجدال في صحتها. ولا شك في مسيحيتها هو الآتي:

١ـ المسيحيون الاوائل ومعظم كتاب الاناجيل الأصلية لم يشكوا قط في بشرية المسيح،

ولا خطر في بالهم لحظة واحدة شبهة ألوهيته. وهذه حقيقة اكدها الاسلام بالطبع، منذ اللحظة الاولى، وفي مواجهة تعاليم الكنيسة التي كانت قد فرضت منذ زمن وجهة نظرها بألوهية المسيح. وان كان المؤلفون قد اضافوا أن المسيح تزوج وانجب تأكيداً لبشريته، وصحيح أنه لا يوجد في التراث الاسلامي ما يعزز هذا القول، ولكن ايضا لا يوجد في الفكر الاسلامي ما ينفي أو يستبعد أن يتزوج المسيح، فهو بشر من بشر.

٢ـ **اثبت المؤلفون أن المسيح لم يصلب «يقينا» ولكن «شبه لهم»** وتلك قضية من اعجاز القرآن، كما سيرى القارىء على نحو مثير حقا، فقد قال سبحانه وتعالى «وما قتلوه يقينا». و «ماقتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم». وقد اجتهد الفقهاء في تفسير «شبه لهم» وذهبوا الى القول بأن الله سبحانه وتعالى القى شبهه على أحد خصومه فصلبوه بدلا من المسيح وهذا يتفق مع التفاصيل الغريبة في الاناجيل عن عملية القبض على المسيح، الا أن هذه الدراسة تقدم تفسيرا آخر اكثر «علمانية» واقرب لتصديق العقل المادي لذلك التعبير القرآني العجيب!

٣ـ ان الاناجيل قد حرفت وعدلت، بل ان العقيدة ذاتها قد اعيد صياغتها بما يتفق ومتطلبات المهادنة مع قياصرة روما. ثم مع احتياجات الباباوية وصراعاتها مع ملوك وامراء اوروبا. وبالطبع ـ وهو ما اغفله الباحثون كالعادة ـ المواجهة مع الاسلام الذي اعاد طرح المفاهيم الصحيحة للمسيحية الأولى.

٤ـ ان الجماعات التي تمسكت بالمفاهيم المسيحية السليمة قد عزلت من التيار الكنسي العام، وحذفت من التاريخ المسيحي الذي كتبته الكنيسة الكاثوليكية، وما انشق عنها في قرون متأخرة.

٥ـ استطاعت جماعات كاثوليكية، لاشك في مسيحيتها، اعادة اكتشاف بعض التعاليم الاولى للمسيح والمسيحيين الاوائل، وذلك من خلال اتصالهم بالمسلمين أو بالعثور على نسخ أصلية من الانجيل في المشرق . . . وقد تعرضت هذه الجماعات للابادة الدموية الجماعية، رغم عراقة مسيحيتها بل وانجازاتها الهائلة في سبيل الصليب. . كما حدث لفرسان الهيكل الذين انتزعوا بيت المقدس من المسلمين واقاموا مملكة القدس الصليبية ما يقرب من ثمانين سنة، وكانوا «اقوى مؤسسة في العالم المسيحي باستثناء البابوية وحدها». . ثم طوردوا وقتلوا على دواليب العذاب الدامية في محاكمات دبرتها لهم كنيسة روما بتهمة أنهم يدوسون ويبصقون على الصليب في طقوسهم الخاصة، وهي تهمة توحي بأن فرسان الهيكل عادوا من الشرق المسلم بشكوك حول الصليب وما يرمز له. . كما اتهموا بمؤامرة مع المسلمين، وعبادة «محمد». . كذلك أبيدت طائفة المتطهرين «Cathar» والتي يقول المؤلفون أن بقاياها «السرية» لاتزال موجودة الى اليوم، رغم الابادة الشاملة التي شنتها

الكنيسة ضدهم في القرن الثالث عشر (١٢٠٩) وأن لهم بابا خاصا توفى عام ١٩٧٨ في جنوب فرنسا، وأنهم مازالوا يحتفظون بذلك «السر الممنوع» عن حقيقة المسيح الذي كانت معرفتهم له سبب الحملة التي شنها البابا عليهم، وعندما سأل قائد الحملة، ممثل البابا: «كيف نميز بين الكافر والمؤمن»؟ رد عليه الممثل البابوي: «اقتلهم جميعا ياأخي. . وسيميز الرب عباده»! وكتب ممثل البابا في المذبحة الى البابا انوسنت (واي براءة؟) الثالث في روما يقول: «لم نستثن منهم أحداً لا بسبب الجنس ولا السن»! وقد استمرت هذه الحرب أربعين سنة، وكانت حربا صليبية حقيقية، دعا اليها البابا نفسه، وكان المتطوعون فيها يحملون شارة الصليب مثل الصليبيين الذين قاتلوا في فلسطين، والمكافأة كانت نفس جائزة المحاربين ضد المسلمين في فلسطين: غفران جميع الخطايا. . الاعفاء من الكفارة. . وضمان مكان في الجنة. . بالاضافة الى حق نهب وامتلاك كل ما تصل اليه يد المقاتل من مال الاعداء أو الكفار!

وهؤلاء «الهراطقة» كما تقول الدراسة، كانوا يسكنون في منطقة Languedoc في جنوب فرنسا، وعندما وقعت المذبحة، كانت منطقة مستقلة تتبع من الناحية الثقافية واللغوية، المؤسسات الاسبانية السياسية وليس الشمال، ويحكمها «كونت أوف تولوز» وفيها ازدهرت اكثر الحضارات والثقافات تقدما في العالم المسيحي، وتقول الدراسة انهم كانوا يقبلون بشغف على دراسة الاغريقية والعربية والعبرية. . بعكس الجهل المتفشي ـ وقتها ـ في العالم المسيحي. . وكانت المنطقة خاضعة لتأثيرات فلسفية ودينية، اسلامية ويهودية[1]. واخطر اتهام وجهته الكنيسة البابوية لهذه الطائفة، واستحقوا عليه دمار مملكتهم وذبحهم بلا «تمييز من جنس أو سن»: «انهم انكروا تجسد المسيح، وانكروا امكانيه صلبة، وهذا هو السر الذي احتفظ به القادة، اما الاغلبية فاعتبرت المسيح مجرد نبي لا فرق بينه وبين غيره من الانبياء، مخلوق فان، مات على الصليب في سبيل المحبة والمبادىء.

وباختصار لم يكن هناك من سر ولا طبيعة خاصة، ولا الوهية في الصلب ذاته. اذا ما كان حقا قد وقع هذا الصلب. الذي كان موضع شك الكثير من ابناء تلك الطائفة».

على أية حال «ان جميع ابناء هذه الطائفة كانوا ينكرون بعنف رمز الصليب وما يدور حوله، وبالتالي فقد رفضوا ليس فقط عبادة الصليب بل انكروا ايضا التعميد والتناول».

وتعليقنا ان تأثرهم بالفكر الاسلامي شديد الوضوح، وسواء اكان المنطق الاسلامي نجح في اقناعهم، أو ان المسلمين في تلك القرون وبعد ان استقروا خمسة قرون في فلسطين

[1] ١ـ كل الكتابات الغربية عن الاندلس أو تأثير العصر الاسلامي على اوروبا تدس «اليهودية» في البحث ولكن اي ثقافة كانت لليهود في هذا الوقت؟!

وشمال افريقيا واسبانيا عثروا على وثائق واناجيل قديمة (انظر مثلا اهتمام المصادر الاسلامية بانجيل برنابا الممنوع من التداول بين المسيحيين) وان هذه الوثائق المسيحية قدمت للصليبيين فاقتنعوا بالمنطق الاسلامي «كانت هذه الطائفة تؤدي الصلاة في الهواء الطلق أو حيثما اتفق بلا كنائس ولا مذابح» . . أو انهم هم عثروا بجهودهم على الاناجيل القديمة عندما اندفعوا ينقبون بحثا عن الذهب، دون أية اهتمام بقدسية أو حرمة الامكنة . . أو وصلوا الى ذلك الفهم بالاطلاع على القرآن . . ولذلك كانت اية اشارة للقرآن تعادل الاشارة للشيطان في دوائر المسيحيين .[٢]

وهناك ظروف عديدة، بالطبع، منعت هؤلاء الذين اكتشفوا المسيحية الحقيقة، من اعتناق الاسلام . . بل كان تشبثهم بمسيحيتهم هو سلاحهم في مواجهة الاتهامات البابوية . وقد شهد لهم القديس «سانت برنارد» الذي جاء اليهم ليخرجهم «من الكفر الى الايمان القديم» ففتن بعبادتهم وقال: «ما من طقوس اكثر مسيحية من سلوكهم واخلاقهم الطاهرة» . وقد تم القضاء عليهم عام ١٣٤٤ . وفرت بقاياهم الى الكهوف ورؤوس الجبال! اما فرسان الهيكل فتضيف هذه الدراسة انهم كانت لهم صلات ودية متعاطفة مع الثقافتين الاسلامية واليهودية»[٣] . ويقول انه «من خلال الاتصال بالثقافة الاسلامية واليهودية تشبع فرسان الهيكل بافكار مخالفة للمسيحية الرومانية التقليدية . وكان قادة الفرسان يستخدمون سكرتارين عرب ودرس عدد كبير منهم اللغة العربية في الاسر وكانوا يتقنون هذه اللغة» وبالطبع اثارت اهتمامهم الآيات والاحاديث والتفاسير عن المسيح، كما يثير اهتمام اي مسلم «متدين» الكتابات عن الاسلام في جامعات روما أو كاليفورنيا أو باريس . .

---

٢ ـ ولذلك ايضا، كان التزوير المفضوح على القرآن والاسلام وقد دهش مؤلف فرنسي لأن استاذا مرموقا للاهوت في جامعة الجزويت في ليون بفرنسا يعرف القرآن بأنه ترجمة ذاتية لله املاها بمعجزة ما على محمد» وذلك لدائرة المعارف وهذا في القرن العشرين . وفي القرن الثامن عشر ارسل البابا بنديكت الرابع عشر الذي كان يوصف بالمتنور يهنىء فولتير (١٧٤١) على مسرحيته السخيفة المتعصبة عن : «محمد أو التعصب» والتي احتلت مكانها في سجلات «الكوميدي فرانسيز» . ولا ننسى ان فولتير هو امام حرية الرأي في الحضارة الغربية المعاصرة وعند ببغاواتنا السود الوجوه . .

وعندما خجلت هذه الجماعات من جهلها واصدرت وثيقة قرب نهاية القرن العشرين تقول «لقد آن الاوان لنبذ التصورات البالية الموروثة من الماضي ومن التعصب والمهاترات ازاء المسلمين والذي يحمل اللوم فيه الغرب المسيحي» منعوا تداول هذا النص على العامة لكي تبقى في جهلها واني اتساءل كم مسلم قرأ الانجيل وكم مسيحي في اوروبا وامريكا لديه ادنى فكرة عن القرآن؟!

٣ ـ فرسان الهيكل كانوا في فلسطين وهم الذين اقاموا مملكة القدس . . ومن ثم فاضافة «اليهودية» دائما هو لاسباب معاصرة الآن، والا فبالله ما هي الثقافة اليهودية الموجودة في فلسطين في القرن الثاني عشر؟! ولكن الغرض مرض كما يقولون، او تأثير الغزو الفكري اليهودي الذي اعاد كتابة التاريخ لكي يصبح اليهود وحدهم هم صناع حضارة اوروبا، وايضا، وأهم، الضحية الوحيدة لكل عمليات الاضطهاد والابادة ولو في المريخ! انظر، ادعاء بيغن ان الذي بنى الاهرام هم اليهود!!

وقد تمت حملة الاعتقالات والاعدامات يوم الجمعة ١٣ أكتوبر ١٣٠٧ في فرنسا، واصدر البابا قرار حلهم في ١٣١٢ .

واجبروا في البرتغال على التحول الى فرسان المسيح، بدلا من فرسان الهيكل «وكان منهم فاسكو دي جاما وهنري الملاح، وحملت سفن كولومبوس، صليبهم الأحمر الذي حملوه الى القدس قبل ثلاثة قرون . وكولومبوس نفسه كان زوج بنت احد فرسان المسيح» . «وهكذا نجا بعض فرسان المعبد من المذبحة واستطاعوا الاستمرار، حتى القوا بكل ثقلهم خلف اضخم وانجح ثورة ضد الفاتيكان أي حركة مارتن لوثر . وهكذا انتقموا لاسلافهم بعد قرنين من الزمان ضد الكنيسة التي خانتهم وغدرت بهم» .

ويقال ان قائد فرسان الهيكل دعا ـ وهو على دولاب العذاب ـ البابا كلمينت والملك الفرنسي فيليب لكي يلحقا به في محكمة الرب، وبعد شهر من احراقه حيا (مارس ١٣١٤) توفى البابا كليمنت بالدوسنطاريا وبعد عام مات الملك فيليب بمرض غامض لم يعرف سره الى اليوم» ويزعم المؤلفون ان فرسان المعبد الخبراء في السموم عجلوا ترحيل الملك لتلبية دعوة زعيمهم الشهيد» .

وسنضرب صفحا عن كل الفصل المخصص «لاكسير الذهب» أو المؤامرة وتفسير كل احداث التاريخ بانها من صنع فرسان الهيكل . . حتى الثورة الفرنسية كانت من تدبيرهم (أو سلفهم الماسوني) انتقاما لمصرع «جاك دي مولاي» زعيمهم . . . الخ . .

كل هذا لا يعنينا ولا يؤثر على أهمية «الحقائق» التي جمعوها، لا سلبا، ولا ايجابا . . يقولون : «ان فرسان الهيكل كانوا على صلة ما بسر يتعلق بأصل المسيحية جعلهم يتهمون بأنهم اعتنقوا الاسلام» (ج!!) «وانهم يعتقدون بوحدة عضوية بين الفكر الاسلامي والمسيحي واليهودي، وان عددا كبيرا من فرسان الهيكل اعترفوا على دولاب التعذيب أو على لهيب النار التي تم شواءهم عليها تحت اشراف آباء الكنيسة، اعترفوا بوجود «Baphomet وان هذا اللفظ ورد في سجلات التعذيب في مواقع بعيدة كثيرة وعلى لسان عدد أكبر من أن يكون مجرد تلفيق أو محاولة لانقاذ النفس بارضاء القس المتولي التعذيب» . . وقد ذهب عدد من المؤرخين الى ان «بوهمت» أو «بوفهمت» هذا هو تحريف لاسم الرسول (صلى الله عليه وسلم) أو «ابو محمد» أي ان فرسان المعبد اتهموا بعبادة أو اتباع محمد، ولكن المؤلفين ينفون ذلك تماما، ويقولون ان الكلمة هي تحريف من «بوفهامه» المغربية وانها تعني المعرفة، وأن فرسان الهيكل وصلوا أو اتبعوا أصل المعرفة «ابو الفهيم» .

وهذه تخريجة على طراز الشيخ زبير هو تحريف شكسبير . وتحتاج الى «فهامة»! ولماذا تكون المعرفة بالعربي؟! . . وكيف يكون أصل المعرفة شخص يعترف عليه في التحقيق ويعترف بوجود علاقة ما معه . . وسواء أكان «أبو فهامة» أو «أبو الفهم» شخصية معروفة

عند المغاربة تملك الحقيقة التي آمن بها فرسان المسيحية أو انها ترمز «للمعرفة» التي يملكها المسلمون، فلا جدال أن الدراسة تثبت امتلاك هؤلاء الفرسان لحقيقة «ما» اسلامية تنقض عقيدة الباباوات في روما من جذورها، وأنهم اصبحوا أقرب للتصور الاسلامي منهم للتصور الباباوي ومن ثم استحقوا الابادة على دواليب العذاب. . وهذا السر ـ كما سترى ـ هو بشرية المسيح وعدم صلبه.

«ان اخطر اتهام وجه لفرسان الهيكل انهم ينكرون بل ويبصقون على الصليب، وليس واضحا ماذا كان الفرسان، ينكرون بهذا الموقف؟! هل كانوا ينكرون المسيح، أو مجرد انكار الصلب؟» وتورد الدراسة عددا من الاعترافات مما أثبت في محاضر التعذيب، وكلها بالطبع، يجب أن تؤخذ بتحفظ شديد سواء من ناحية دقة تصريحات رجل يشوى حيا، أو امانة تسجيل ذلك القس الممتلىء بالايمان الوحشي والمنتدب لحرقه لكي يحصل منه على ما يبرر هذا الحرق. . الا ان جميع الاعترافات تدور حول فكرة واحدة، انهم كانوا يتداولون فيما بينهم داخل التنظيم، ان المسيح ليس الها، وانه لا تجوز الا عبادة الله وحده. . الاكبر والاعلى»(٤)

وتزعم الدراسة ان البابا يوحنا الثالث والعشرين كانت له علاقة بذلك التنظيم السري الذي مازال يعمل ـ في زعم المؤلفين ـ منذ فجر المسيحية لاثبات بشرية المسيح وأنه تزوج وله نسل. .

ومما تجدر ملاحظته ـ من جانبنا ـ ان هذا البابا هو الذي برأ اليهود من تهمة صلب المسيح، وأوقف لعنهم من اجل هذه التهمة في الصلوات، وان كان الشائع انه فعل ذلك بسبب ميول يهودية عنده، أو ضغوط صهيونية عليه، أو انتصار التيار المسيحي ـ العبري، الذي هزم في فجر المسيحية ويعود الآن. . الا ان نظرية الدم المقدس تعطي تفسيرا أقل يهودية، وان كان أكثر اثاره. . فماذا يقول المسيحيون، اذا عرفوا أن أحد بابا واتهم بل واحداً من اشهرهم، لم يكن يؤمن بقصة الصلب! واليك ما قاله المؤلفون حرفيا:

«ومهما تكن الحقيقة في كل تلك الملابسات، فلا جدال في ان البابا جون الثالث والعشرين، كان مسئولا عن تطوير الكنيسة الرومانية ـ الكاثوليكية وجعلها تعيش ـ كما قال احد المعلقين ـ في القرن العشرين. وقد تحقق ذلك في معظمه باصلاحات المجلس الثاني للفاتيكان الذي دشنه البابا جون. كذلك يعتبر البابا جون مسئولا عن تغييرات أخرى، فقد غير موقف الفاتيكان من الماسونية، على سبيل المثال ـ واضعا بذلك حداً لسياسة العزل التي دامت اكثر من قرنين (حرمت الماسونية بقرار باباوي في ١٧٣٨ بواسطة البابا كلمنت

٤ ـ ص ٥٨ الدم المقدس والوعاء المقدس الطبعة الأولى.

الثاني عشر) معلنا أنه من الممكن ان يكون الكاثوليكي ماسونيا. وفي يونيه ١٩٦٠ نشر خطابا رسوليا على جانب كبير من الأهمية يدور اساسا حول «دم المسيح النفيس» اذ أعطى أهمية تاريخية لا سابقة لها لهذا الدم، مؤكدا ان المسيح: «عانى كانسان، وأن خلاص البشرية قد تحقق باراقة دمه. وفي خطاب البابا جون، نجد أن مشاعر المسيح الانسانية واراقه دمه لها نتائج اكبر من «القيام». (اي قيامه بعد الصلب في التعاليم المسيحية الحالية) بل اهم من عملية الصلب في حد ذاتها. وكانت نتائج هذا الخطاب هائلة، كما قيل، لأنها تغير كل اسس العقيدة المسيحية، فاذا كان خلاص البشر قد تم بمجرد اراقة دم المسيح، فان موته وقيامه يصبحان قضية ثانوية. . بل حتى لا مبرر لهما.

«ان خطاب البابا يوحنا يتضمن في الواقع ان وفاة المسيح على الصليب لم تعد شرطا مطلوبا لتمام صحة العقيدة المسيحية. فما من ضرورة لافتراض موت المسيح على الصليب لكي يثبت صدق الشريعة»(٥)

مرة اخرى لا نتدخل في التخريجات، ولكن نذكر القارىء بانه اذا كان من الممكن ان يكتشف بابا روما في القرن العشرين ان المسيح «ما قتلوه وما صلبوه» ولكنه لا يستطيع اعلان ذلك صراحة، ولا استطاع أن يوقف عبادة الصليب بل طواه النسيان، واذا كان البابا يملك أن يغير هكذا باعلان من ذاته فيجعل الدم أهم من الصلب والقيامة. . وفي القرن العشرين للمسيحية، فهل نستكثر ما قاله القرآن عن محاولات طمس الحقيقة، وقدرة الكنيسة على التغيير والتبديل، في العصور المظلمة، حيث كانت المعرفة محتكرة بين فئة محدودة جدا، والاناجيل لا يقرأها العامة، وامكانية اخماد الاصوات المتشككة اكثر سهولة، وحيث كنت وسائل الاحاطة بها يكتشف شبه معدومة؟!

٥ ـ ص ١٣٥ الدم المقدس.

يقول المؤلفون انه في القرن التاسع عشر، ومع ظهور الديالكتيك الالماني في دراسة التاريخ، تماشت الكنيسة الكاثوليكية مع التيار، فقررت انشاء معاهد ومتخصصين لدراسة وتمحيص أو اثبات صحة الاناجيل، وهذه هي الحركة التي عرفت باسم حركة الكاثوليك المجددين، وكرد على التحدي الذي طرحته تشكيكات المدرسة الالمانية. بهدف بناء جيل من المؤمنين بحرفية الانجيل ومسلحين الى جانب الايمان بالعلم الحديث للرد على المشككين ولكن الذي حدث «ان هذه الحركة جاءت بنتيجة عكسية، فبقدر ما حاولت الكنيسة تسليح الشباب من دعاتها بالمنطق والاساليب الحديثة للدفاع عنها، بقدر ما تزايد تخلي هؤلاء عن المهمة التي جندوا من أجلها. وكلما توغلوا في دراساتهم. وبقدر ما تعمقوا في دراسة الاناجيل، بقدر ما ثارت تساؤلات واعتراضات في نفوسهم على العقيدة الرسمية. ولم يكد ينصرم القرن التاسع عشر حتى كفت حركة الكاثوليك المجددين عن لعب دور طليعة المدافعين عن الكنيسة، بل اعتبروا منشقين وهراطقة، وشكلوا اخطر تهديد للكنيسة منذ انشقاق «مارتن لوثر» اذ اعلن هؤلاء الدراسون. الذين اعدوا للدفاع عن حرفية الاناجيل، ان الاناجيل المتداولة، ليست وثيقة غير قابلة للنقد، وقد ردت الكنيسة باعلانهم ماسونيين.. ثم عاقبتهم «بالحرمان»، ووضعت كتاباتهم في القائمة السوداء المحرمة. ثم أصبح يطلب من القسس، القسم على التبرؤ منهم قبل أن يرسم أحدهم قسا».

وتخلص الدراسة من هذه الوثائق والوقائع الى أن «الاناجيل الاربعة تعتبر عند المسيحيين نصوصا محكمة لا يرقى اليها الشك. ومنذ الطفولة يتعلم المسيحي أن قصة المسيح كما وردت وحفظت في الاناجيل الأربعة هي ان لم تكن من وحي الاله، فهي على الاقل معصومة. وان الاربعة «رسل» الذين يفترض انهم كتبة الاناجيل شهود عدول لا يرقى لهم الشك تؤكد شهادة كل منهم الآخر.. ومن بين الذين يسمون أنفسهم مسيحيين اليوم، توجد قلة نسبيا، تعرف حقيقة ان الاناجيل الأربعة ليست فقط متناقضة بل واحيانا تختلف جذريا!»

«بالنسبة للتراث الشعبي، فان الشائع هو ان أصل وميلاد المسيح حقائق جد معروفة ولكن العكس تماما هو الحقيقة، فهذه «الحقائق» جد مبهمة في الاناجيل، فليس الا في انجيل متى ولوقا، نجد اية اشارة لاصل وميلاد المسيح. وفي نفس الوقت نجدهما مختلفين حول هذا الامر، فوفقا لرواية متى ـ على سبيل المثال ـ نجد ان المسيح كان ارستوقراطيا، اذا لم نقل ملكا شرعيا من نسل داود وسليمان.. اما في رواية لوقا فان عائلة المسيح ولو أنها

تنحدر من بيت داود الا انها من فرع أقل شأنا[٦]، ومن كتابات لوقا هذا نشأت اسطورة النجار الفقير» «والنسابان (متى ولوقا) يختلفان حتى يمكن القول انهما يتحدثان عن شخصين مختلفين. والتعارض بين كتاب الاناجيل لا يقتصر على شجرة العائلة وانما يقول لوقا ان المسيح عندما ولد زاره رعاة، أما «متى» فجعلهم ملوكا[٧]. ولوقا يقول ان عائلة المسيح عاشت في الناصرية، ومن هناك سافروا الى بيت لحم (من اجل احصاء لا تؤكد وقوعه أية مصادر تاريخية) حيث ولد المسيح في فقر المزود. ولكن وفقا لانجيل متى فان اسرة المسيح كانت ميسورة الحال من سكان بيت لحم بصفة دائمة. والمسيح نفسه ولد في بيت وليس في مزود البقر ووفقا لانجيل متى، فان اضطهاد هيرود Herod هو الذي دفع العائلة للهرب الى مصر وليس الا بعد عودتهم من مصر حتى انهم سكنوا الناصرة[٨].

ويقولون: «شئنا أو ابينا فان الحقيقة التي تفرض نفسها هي أن أحد الانجيلين أو هما معا خطأ. وفي ضوء مثل هذه الحتمية الساطعة، فلا يمكن اعتبار الاناجيل معصومة أو حقائق لا يرقى اليها الشك، وكيف تكون معصومة وهي تشكك في بعضها البعض؟! وكلما تعمق المرء في دراسة الاناجيل، اتضحت له حقيقة تناقضها، فهي لا تتفق حتى على يوم الصلب. ففي انجيل يوحنا وقع الصلب في اليوم السابق على عيد الفصح (عند اليهود) ووفقا للاناجيل مرقص ومتى ولوقا فانه وقع في اليوم التالي! ولا حتى اتفقت الاناجيل على شخصية المسيح وصفاته، فكل انجيل يتحدث عن شخصية مختلفة.. فهو المخلص في هيئة الحمل الوديع في لوقا، ولكنه في متى قوى ملكي السيادة جاء «لا يحمل سلاما بل سيفا» وهناك أيضا خلاف حول كلمات المسيح» الاخيرة على الصليب. ففي رواية متى ومرقص نراه يقول: «الهي لماذا هجرتني» وفي لوقا نراه يقول: «ابي اغفر لهم، فهم لا يدرون ماذا يفعلون». اما في يوحنا فهو يقول ببساطة: «انتهيت»[٩].

«في ظل هذه التناقضات فان كتاب الاناجيل يمكن اخذهم كمصادر مثيرة للتساؤل

٦ ـ تشير القرآن الى صلة داود بعيسى، دون تحديد ومؤكدا في نفس الآية ان نسب عيسى الوحيد هو من ناحية امه قال تعالى: «لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم» (المائدة).
وهذا التزامل مع فارق الزمن يشير الى صلة اكثر من صلة الاخوة في النبوة، ويمكن أن يكون المسيح حفيدا لداود عن طريق مريم.

٧ ـ تشير الى هذا حيث رفع لوقا نسبة الى ناثان بن داود وليس سليمان.

٨ ـ لاحظ انه حتى هذه الدراسة التوثيقية لم تنتبه خطأ اثبات نسب المسيح عن طريق زوج أمه!

٩ ـ الوضع يمكن ان يكون قد قال اكثر من جملة وكل واحد كتب ما نقل اليه، ولكن لاحظ انه في «متى» و «مرقص» يسدني ... بينما في لوقا الروماني «ابي».. وهو فارق ليس باهين بل هو صميم العقيدة.. وستعرض لذلك بتفصيل اكبر.

وبالتأكيد ليست قاطعة، انهم لا يمثلون كلمة الله الحق، ولو كانوا، **فلا بد أن كلمة الله التي جاءوا بها قد تعرضت للرقابة والصياغة والمراجعة والتنقيح، واعادة الكتابة على يد** البشر. الانجيل، وكما يجب ان نذكر يشمل العهدين القديم والجديد، **هو مجرد مختارات من عدة اعمال، وفي اكثر الحالات، على نحو تعسفي، اذ كان يمكن ان يكون اكبر مما هو** حاليا، ولا مجال للقول بأن الاجزاء المختفية قد فقدت بل بالعكس حذفت عن عمد. ففي عام ٣٦٧ وضع اسقف الاسكندرية اثناسيوس قائمة بالاعمال التي تشكل العهد الجديد، وقد اعتمدت هذه القائمة من المجلس الكنسي عام ٣٩٣ ثم مرة اخرى من مجلس Carthag بعد أربع سنوات. في هذه المجالس اتفق على عملية اختيار فجمعت عدة أعمال معينة لتشكل العهد الجديد كما نعرفه اليوم، وتم تجاهل الاعمال الاخرى، **فكيف ننظر الى عملية الانتقاء والحذف على انها عمل الهي؟** كيف يمكن لمجمع كهنة أن يقرر على نحو معصوم، ان اعمالا بعينها تشكل الانجيل وغيرها لا يصلح؟.. وخاصة اذا كان بعض الكتب التي استبعدت تتفق تماما مع حقائق التاريخ؟!»

«والانجيل الحالي ليس فقط ثمرة عملية انتقاء، بل وتعرض ايضا لعمليات تنقيح وتعديل وتبديل ومراجعة شاملة ومثيرة. فعلى سبيل المثال، اكتشف عام ١٩٥٨ البروفسور «مورتون سمث» من جامعة كولومبيا في دير قرب القدس، خطابا يحتوي على فصل مفقود من انجيل مرقص»(١٠). وهذا الجزء المختفي لم يفقد بل، ألغي عمدا بايعاز ان لم يكن بالحاح الاسقف كليمنت اسقف الاسكندرية وأحد ابرز آباء الكنيسة الاوائل. ويبدو ان كليمنت هذا، تسلم خطابا من شخص يدعى تيودور، يشكو فيه جماعة غنوصيه(١١) Carpocratians، الذين يفهم من الخطاب انهم فسروا بعض فقرات من انجيل مرقص في ضوء مبادئهم، التي لم تكن تتفق مع فهم كليمنت أو تيودور هذا، الذي كان يهاجمهم، وابلغ عنهم كليمنت وفي الخطاب الذي عثر عليه البروفسور سمث رد عليه الاسقف بالتالي: «لقد فعلت خيرا باخفاء تعاليمهم الخرساء.. فهم النجم الحائر الذي اشارت اليه النبوة، الذي يخرج عن طريق الوصايا المحدد، الى ضياع هاوية الشهوة وخطيئة الجسد، لأنهم عندما يفخرون بمعرفة - كما يفعلون - اسرار الشيطان، انما يلقون بانفسهم في عالم الظلمات الزائف. انهم يفخرون بانهم احرار، وهم عبيد شهواتهم. مثل هؤلاء يجب معارضتهم بكل الوسائل، فحتى **لو قالوا شيئا صحيحا**(١٢) فان محب الحقيقة يجب الا

١٠ - راجع ما قلناه عن احتمال عثور «فرسان الهيكل» على مخطوطات مسيحية اصلية في فلسطين خلال الحملة الصليبية.

١١ - احدى المذاهب المسيحية التي ظهرت في وقت مبكر وتستنكر المادة.

١٢ - ولا يجرمنكم شنئان قوم على الا تعدلوا.

يقرهم حتى ولو كان متفقا مع قولهم. ولا يجوز ان تقارن هذه الحقيقة التي تبدو صادقة بمنطق الانسان، لا يجوز ان تقارن بالعقيدة..»

وملخص ما يقوله كليمنت: «لو أن خصومك قالوا الحقيقة فيجب ان تنكرها وتكذب لكي تهزمهم. ولكن ليس هذا هو كل ما جاء في الرسالة، ففي الفقرة التالية يناقش كليمنت ما جاء في انجيل مرقص، واساءة استخدامه من قبل هؤلاء الهراطقة في نظره. يقول: «بالنسبة لمرقص، فخلال اقامة بطرس في روما، كتب سجلا باعمال السيد «Lord» ولكنه لم يعلنها كلها، ولا اشار الى الاسرار، بل اختار ما اعتقد انه مفيد لتقوية ايمان الذين كان يعلمهم. ولكن عندما مات بطرس شهيدا، وجاء مرقص الى الاسكندرية، **واحضر معه كلا من «ملاحظاته» و «ملاحظات» بطرس التي نقل منها الى كتابه السابق الاشياء المناسبة للتقدم نحو المعرفة، وهكذا ألف انجيلا اكثر روحانية للذين تم كما لهم**، ورغم ذلك فانه لم يبح بالاشياء التي لا يجوز التفوه بها، ولا كتب تعاليم الرب. ولكن مجرد اضافة قصص جديدة للقصص التي سبق له كتابتها، وابرز أقوالا معينة بعلم ككاهن my stagogue ان تفسيرها يقود المستمعين الى اعماق قدس الحقيقة المختفية بسبعة حجب بلا تقييد ولا اسراف في الرأي».

نتوقف لحظة عن النقل للتعليق:

١- لاحظ ان اسقف الاسكندرية يتحدث عن انجيل مرقص، كملاحظات، من تأليف مرقص، وجرى تعديلها، وهي كتاب مرقص، فلا تنزيل ولا وحي كما ظنت وآمنت الاجيال اللاحقة.

٢- لاحظ عراقة فكرة «الطبقية» في المعرفة، فهناك ما يصلح للعامة وهناك لمن أعلى درجة.. وهذا ليس في الاسلام، الذي يعتبر بحق أول دين جماهيري، بلا اسرار ولا طقوس خاصة، ولا تعدد مستويات المعرفة...

نعود لرسالة كليمنت المكتشفة عام ١٩٥٨:

«وعندما مات مرقص ترك «مؤلفاته» لكنيسة الاسكندرية. حيث لاتزال تحت حراسة شديدة، تقرأ فقط من قبل هؤلاء الذين تأهلوا لقبول وفهم الاسرار الكبرى، ولكن بما ان الشياطين الخبيثة تهدف دائما الى تدمير الجنس البشري لذلك فان Carpocrates بايعاز من الشياطين، ومستخدما الخداع، استطاع ان يستعبد احد الكهنة في كنيسة الاسكندرية وحصل منه على نسخة من الانجيل السري (؟!) ثم عمد الى تفسيرها وفقا لمعتقداته الدنسة الكافرة، بل وايضا خلط الاكاذيب بلا حياء، بالكلمات المقدسة».

ويعلق المؤلفون المسيحيون: « **وهكذا يعترف كلمنت بكل صراحة، بوجود انجيل سري معترف به أو موثوق به لمرقص. ثم يعطي تعليقاته لتيودور بانكار هذا الانجيل**: «لمثل

هؤلاء، كما قلت، لا يجوز ان نستسلم أبدا، وعندما يواجهوننا باكاذيبهم، لا يجوز ان نعترف ابدا بنسبة هذا الانجيل لمرقص (رغم اعترافه بأنه حقيقي اودعه مرقص بنفسه امانة عند الكنيسة وان هؤلاء الهراطقة حصلوا على نسخة حقيقية منه بواسطة أحد رجال الكنيسة ورغم ذلك يطالبه بانكار وجوده؟! ج) بل يجب ان ننكر ذلك حتى تحت القسم لانه لا يجوز ان تقال كل الحقيقة لكل الناس»!

ارجع بخاطري إلى ايام الشباب، مرحلة الشك، وعندما قرأت الآية: «الذين اتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون»[١٣].. اشهد انني لم اصدق الآية، وانني تساءلت وقتها كيف يقبل رجال لا شك في ايمانهم، بل وبعضهم استشهد في سبيل هذا الايمان.. كيف نصدق انهم يحذفون من الانجيل، أو يكتمون حقيقة وردت به..؟!

لم يكن البروفوسير «مورتن سمث» قد اكتشف رسالة الاب كلمنت، (١٩٥٨) ولا قامت بعثة البي بي سي بنشر هذه الوثيقة التي يقول فيها حد مؤسسي الكنيسة بالفم المليان.. «انكر وجود انجيل مرقص الصحيح والسري، واذا اضطرت للقسم فاقسم كاذبا أنه غير موجود، وان هذا النص الذي يسألونك عنه مزيف وأنت تعلم يقينا أنه صحيح»!!!!

سبحانك اللهم.. صدق وحيك.. وعجبا لتلك اللجنة في غار حراء التي عرفت ذلك قبل اكتشاف البروفوسير بألف واربعمائة سنة؟!

ولكن لا يجوز أن نظن الكفر أو الغش السيء في هؤلاء الرجال، أعني لا يجوز أن نحكم على سلوكهم بعقليتنا الاسلامية، التي لا ترى في الدين اسرارا أو طلاسم يدق فهمها على العامة، وليس فيه نخبة ترى ان من حقها وحدها الاستئثار بالمعرفة، ومن ثم فلا يتصور عقل اسلامي حذف آية، أو حديث واخفائه عن العامة أو انكاره ـ رغم الاعتقاد بصحته ـ في محاورة مذهبية أو دينية، بل حتى الروايات المشكوك فيها جدا، اثبتتها المراجع الاسلامية مع ما بها من دس واضح أو ما تثيره من شكوك في الاذهان، اثبتها المؤرخون المسلمون وفندوها أوردوا قدر جهدهم، لم يفترض واحد فيهم في نفسه الوصايا على الجماهير أو الفكر الاسلامي، ومن ثم حذف أو نقح أو انتقى او نقى التاريخ.. كل الروايات بل كل الدس على رسول الله وزوجاته اثبتت كلها، وكل الذين يظنون أنهم ينالون من الطود الشامخ، نقلوا افتراءاتهم من مصادر اسلامية.. ولكنهم باءوا بالفشل، امام هذا الدين الذي لم يعتمد على كذبة واحدة، ولا اخفى حقيقة واحدة، ومن ثم لا تضيره الاكاذيب..

اقول لا يجوز أن نطبق المستوى العلمي والتاريخي الرفيع في الفكر الاسلامي، على هؤلاء

١٣ ـ البقرة..

الآباء الطيبين الذين تشربوا طقوس كهنة مصر وروما.. حيث الاسرار، والمعلومات الخاصة، عند الكاهن الاكبر أهم من الدين ذاته، أو على الاقل اهم ما فيه.. ومازال هذا المفهوم سائداً مع الاسف، ولذلك تجد «سفر الرؤيا» أهم من الانجيل! والاهتمام بمحاولة اكتشاف اسرار هذا السفر أو العلم اللدني كما تسرب الينا مفهومه في عصور الانحطاط..

نعود لكتاب الدم المقدس:

يتساءل المؤلفون المسيحيون: «ما هو هذا الانجيل السري الذي أمر كليمنت تلميذه بانكاره والذي كان هؤلاء الهراطقة أو المعارضين للكنيسة يسيئون تفسيره؟ لقد اجاب كلمنت على هذا السؤال بأن اورد النص حرفيا.. قال في خطابه:

«أما اليك فانا لا اتردد في الاجابة على الاسئلة التي وجهتها» ثم يقتبس كلمنت نص ما جاء في الانجيل السري عن حادثة بعث العاذار من القبر.. ويعلق المؤلفون: «هذه الفقرة لا وجود لها في انجيل مرقص الحالي، وان كانت القصة معروفة، وهي بعث العاذار الموجودة في الانجيل الرابع المنسوب ليوحنا. ولكن في نص مرقص المحذوف، نجده يشير الى صيحة عظيمة من القبر قبل ان يصل اليه المسيح، وهذا يطرح احتمالا قويا بأن العاذار لم يكن ميتا...» الخ.

ثم كلام لا دخل لنا فيه.. فنحن نؤمن أن المسيح أحيا الموتى فعلا وانه كنبي طاهر ومعصوم ولا يشترك في «الاعيب» أو مؤامرات كما يرجف الراجفون.. وما يعنينا ان جهة ما انتقت بين روايات الاناجيل المختلفة، وهم اكثر من اربعة، واثبتت الرواية التي تتفق مع مفهومها عن المسيح وحذفت الروايات الاخرى، هذه الجهة كانت ترجح الوهية المسيح.

يقول المؤلفون: «على اية حال، ان الحقيقة الهامة هنا هي ان هذا المشهد والفصل المقتبس منه لا يظهر في «اي انجيل حديث او معتمد لمرقص. فالاشارة الوحيدة لعاذار هي في انجيل يوحنا. وهذا يعني أن نصيحة كلمنت عمل بها ليس فقط بواسطة تلميذه تيودور، بل بسلطات نافذة، أيضا، أي بوضوح لقد تم حذف حادثة «لازار» تماما من انجيل مرقص».

«واذا كان انجيل مرقص قد مزق على هذا النحو العنيف، فانه أيضا قد حمل باضافات مزورة. ففي النص الاصلي ينتهي الانجيل بالصلب والدفن والقبر الخالي، فليس هناك بعث[١٤] ولا اجتماع بالحواريين، وبالطبع هناك اناجيل حديثة تحتوي على نهايات اكثر شهرة، من نهاية مرقص، نعني نهاية تتضمن البعث (القيام) ولكن كل الدراسات الانجيلية الحديثة تكاد تجمع على ان هذه النهاية هي اضافات متأخرة للانجيل ترجع للقرن الثاني،

١٤ ـ مرقص هو مؤسس الكنيسة المصرية المرقسية.

والحقت بالوثائق الاصلية. وهكذا فان انجيل مرقص يقدم مثالين لنص مقدس، يفترض انه من وحي الله[15]، **جرى التلاعب فيه باعادة الصياغة والحذف والمراجعة بيد الانسان**. «**وليس هذا فرضا، بل حقيقة مقبولة من جميع الدارسين، فهل يحق لنا ان نفترض ان انجيل مرقص، هو وحده الذي تعرض للتحريف**؟! أم ان **نفترض تعرض كل الاناجيل لنفس المعاملة**؟ .. ومن ثم فنحن لا نستطيع ان نقبل هذه الاناجيل على علاتها كحقيقة مطلقة لا يأتيها الباطل، ولكننا ايضا لا نستطيع تجاهلها، فهي بالتأكيد ليست مزيفة بالكامل، بل يمكن أن تزودنا ببعض الايماءات لما حدث فعلا في الارض المقدسة (فلسطين ج) منذ الفي عام».

المهم ان هنـاك اجمـاعا في الدوائر المسيحية المثقفة على ان الاناجيل المتداولة، الآن، ليست الانجيل الأصلي، ولا حتى النص الحرفي «لملاحظات» كتبة هذه الاناجيل. ومن ثم فعندما يقول القرآن منذ ١٤٠٠ سنة وبدون علماء آثار ولا فقهاء لاهوت ولا خبراء قراءة البرديات: ان الاناجيل محرفة فهي معجزة لا تصدر الا عن من احاط علمه بكل شيء.. وعندما يقول القرآن ان الانجيل الأصلي كان به آية تبشر بنبي من بعده اسمه احمد، فلا يجوز لنا ان نشك لا في وجودها، ولا في حذفها، «فالقديس» الذي يأمر بحذف معجزة بعث عاذار لاسباب تتعلق بالمصلحة المسيحية العامة». وان كنا نجهلها ولا نفهمها الآن الا انه لا يصعب علينا أن نفهم المصلحة «العليا جداً للكنيسة الرومانية في حذف آية تبشر بنبي عربي. ولاحظ هنـا ان القـرآن قال اسمه «احمد» والاسم الشائع أو البشري للنبي عليه الصلاة والسلام هو «محمد» ولو كان من عند غير الله، لما عجز أن يقول اسمه «محمد» أو لو كان القرآن قد تعرض «للتنقيح» لما تردد «رجل صالح» في «تصحيح» الاسم!.. ولكن لنا أن نستنتج ان النص كان موجودا بالفعل في الانجيل الاصلي، وبعض النسخ المتداولة، ومن هنا كان طرح هذا التحدي وبالاسم الالهي، فمعروف ان اسم النبي البشري هو محمد واسمه في السماء احمد وطه وياسين.. والحكمة في تسمية جده له بمحمد، رغم الرواية التي تقول ان الملائكة نادته أمام أمه «بأحمد» ان الايمان بالرسول لا يجوز أن يتم بمجرد مطابقة الاسم، كما يفعل الآن كل من اسمه «محمد عبد الله» فيدعي أنه المهدي.. وانما الدليل هو القرآن، والاخبار بالنص الذي ينكرونه «ولو تحت القسم».

وسنعرض لبعض الملاحظات ـ التي تعنينا ـ في تلك الدراسات فقد لاحظوا بحق ان الاناجيل تخلو من نقد الحكم الروماني في فلسطين كما لاحظوا، ما بذلته الاناجيل من جهد

---

١٥ ـ النشرات المسيحية تصف الاناجيل بانها «كلمة الله» وليست مجرد وحي او «انجيل ربنا يسوع» حسب رواية فلان.. مرقص او متى او يوحنا

لكسب السلطة الرومانية، واعادة تفصيل المسيحية لتصبح الرداء الجديد للقيصر.. وان «النصارى» ليست مشتقة من مدينة «الناصرة» وهذا يتفق مع النص القرآني.. قال من انصـاري.. قال الحواريون نحن أنصار الله.. الخ. فأصبحوا بذلك «النصارى» وتقول الـدراسـة ان «الناصرة» يشك في انها كانت موجودة على زمن المسيح. ونعتقد نحن انها اتخذت اسمها من «النصارى»..

وملاحظات الدراسة (الدم المقدس والوعاء المقدس) على الاناجيل هي باختصار:

● الاناجيل لم تكتب في حياة المسيح بل في الفترة ما بين ثورتين يهوديتين اي ما بين سنتي ٦٦ الى ٧٤ ثم ما بين سنة ١٣٢ و ١٣٥.

● وأول الاناجيل هو انجيل «مرقص» الذي كتب خلال فترة الثورة الاولى (ثورة اليهود ضد روما) أي ما بين ٦٦ ـ ٧٤ أو بعدها بقليل ماعدا الجزء الخاص بالبعث، فهو اضافة مزورة الحقت به بعد ذلك. ومرقص لم يكن واحدا من تلاميذ المسيح الاصليين، وجاء من القـدس، ويبدو أنه كان مرافقا للقديس بولس، وانجيله يحمل بصمات التفكير البولسي بوضوح، ولكن اذا كان مرقص مواطنا من القدس، كما يقرر كلمنت (بابا) الاسكندرية فان انجيله تم تأليفه في روما، وكان موجها الى الجمهور الاغريقي ـ الروماني، وهذا في حد ذاته يفسر الكثير، فعندما جرت كتابة انجيل مرقص كان اليهود في ثورة ضد الرومان، وجرى صلب الآلاف من اليهود بتهمة الثورة ضد النظام الروماني. ولذا فقد كان على مرقص ان اراد البقاء لانجيله واقناع الجمهور الروماني، أن يضع هذه الظروف في اعتباره، فلم يكن بوسعه ان يقـدم المسيح كعـدو للرومـان، او اعـطاء طابـع سياسي لشخصية (وظهور) المسيح.. لكي يضمن تداول رسالته كان عليه ان يبرىء الرومان من ذنب موت المسيح، أن يغسل يد النظام القائم، ويضع اللوم في موت المسيح على بعض اليهود.. وقد جرى تبني هذا الموقف ليس فقط في الاناجيل الاخرى، بل ومن قبل الكنيسة المسيحية الاولى، وبدون هذا الموقف لم تكن الاناجيل ولا الكنيسة ستعيش الى اليوم» فالرومان قبلوا المسيح باعتباره عدو اليهود!..

ومـع صحـة الـوقـائـع التي يسردها، فاننا نخالفه في استنتاجه الاخير، اذ نعتقد ان «الانجيل» الحق، والمسيحية كانا سيعيشان وأفضل بذكر الحقيقة.. واذا كان اباء المسيحية وخـاصة بولس وجماعته قد حرصوا على كسب روما، ولو خسروا أنفسهم، إلا أن اليهود مسئـولـون عن رفض دعـوة المسيح وتبنيهم لقـرار وفعل التخلص منه، حتى وان خاب مسعاهم، الا انهم افتخروا «بقتل المسيح».

تقول الدراسة:

«اما انجيل لوقا فقد كتب حوالي عام ٨٠ ولوقا نفسه على ما يبدو كان طبيبا اغريقيا،

كتب انجيله لموظف روماني كبير في «قيصريه» العاصمة الرومانية لفلسطين ومن ثم كان لابد أن يتخذ نفس الموقف (تبرئة الرومان وادانة اليهود ج). فلما جاء زمن تأليف متى (٨٥ م) لانجيله كان هذا الموقف قد تبنى رسميا وأصبح حقيقة راسخة واكثر من نصف انجيل متى منقول من انجيل مرقص. وان كان قد كتب بالاغريقية ويحمل تأثيرات اغريقية واضحة. ويبدو ان المؤلف كان يهوديا وهاربا من فلسطين وهو غير «متى» الحواري الذي عاش قبل ذلك ولم يكن يعرف الا اللغة الآرامية.

● ان انجيل لوقا، وهو الانجيل الثالث، ولو أنه الاخير تأليفا، ومؤلفه غير معروف، الا انه الاقرب الى الوقائع التاريخية الثابتة، ويتضمن من الوقائع ما لم يرد في الاناجيل الاخرى. ويدل على معرفة اكثر باماكن الاحداث على عهد المسيح وينسب هذا الرأي الى «معظم الدارسين للاناجيل».

ثم ننتقل الى اهم قضية في الكتاب وهي الصلب.

لنبدأ حديث «الصلب» بالآية القرآنية التي اشارت الى مسألة صلب المسيح، قال الله تعالى عن اليهود: «فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الانبياء بغير حق، وقولهم قلوبنا غلف، بل طبع الله عليها بكفرهم، فلا يؤمنون الا قليلا. وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما. وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، وما قتلوه وما صلبوه، ولكن شبه لهم. وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقينا» النساء.

والآية عجيبة تجبر على التأمل المتأني، فهي تنفي ان اليهود قتلوا المسيح، رغم ادعاءهم ذلك، وتنفي هذا مرتين بلا ثلاث مرات في آية واحدة! «وما قتلوه وما صلبوه» «وما قتلوه يقينا» ثم هذا اللغز.. «شبه لهم»!..

(واذكر في ايام المراهقة والضلال، حوار مع عصام حفني ناصف غفر الله له فقد كان ابوه صالحا، وعضوا في لجنة طباعة المصحف. وكان عصام ملحدا.. وتساءلنا ما دخلنا نحن المسلمين، اذا كان اهل القتيل يقولون قتل، والقتلة يعترفون نعم.. قتلنا المسيح - لماذا حرص محمد على نفي قتل المسيح..؟ فرد هو «كعالم واكبر سنا» لان النبي كان يخشى لو قال بقتل المسيح، ان يفعل قومه به مثل ذلك.. والغريب اننا عمينا وقتها عن بداية الآية التي تشهد على اليهود بقتل الانبياء.. فالنفي هو للمسيح خاصة لا حصانة فرضها النبي على كل الانبياء. وقد مات قبل ان ينتبه للآية لسوء حظه، والحمد لله ان عشت حتى آمنت، وها هي الدراسات الحديثة تؤيد ما قاله القران حرفيا).

نتابع تأمل الآية المعجزة.. فهي تتحدث عن «شبه لهم» «في شك» «اختلفوا فيه» «مالهم به من علم».. «الا اتباع الظن» عبارات قاطعة وغريبة وشديدة اليقين والايحاء بوجود خطأ كبير في اشاعة الصلب.. فهي ليست مجرد نفي لوقوع الصلب.. والا كان يكفي وما قتلوه وما صلبوه.. او حتى و«ما صلبوه» وانتهى الامر.. ولكن الآية توحي بوجود لبس كبير.. شك.. حادثة صلب مشكوك فيها.. ولنسمع ماذا تقول الدراسات الحديثة قبل ان نقول رأينا:

«انجيل لوقا قال ان رجل المسيح لم تكسر، وهذا يعني انه من الممكن ان يعيش ثلاثة ايام على الاقل. بينما رفع من على الصليب بعد عدة ساعات فقط، اي وهو حي. وقال انجيل مرقص ان بيلاط ابدى دهشة من سرعة الوفاة».

«وان صلبه جرى في حديقة خاصة، ولم يكن صلبا عاما كما جرت العادة، فلم تشهده المدينة، ولا حتى كان المشاهدون المحدودون على مقربة منه بما يكفي لتمييز شخصه أو حقيقة ما يجري. «وكان المشاهدون على مسافة، لا يتضح معها من الذي يصلب ولا اذا ما كان هذا المصلوب قد مات حقا على الصليب».

وما قتلوه يقينا . . .

«وهكذا مع ابعاد الجمهور الى مسافة كافية جرت عملية صلب حل فيها بديل محل الملك ـ الكاهن (المسيح ج) على الصليب، أو على الاقل جرى صلب الملك ـ الكاهن، ولكن ليس الى حد الموت»[16].

«ولكن شبه لهم . . »

«وعند الغروب حيث تصبح الرؤيا اقل، نقل «جسد» الى قبر قريب بصفة خاصة، ومن هناك اختفى بأعجوبة ، لمدة يومين».

ويؤكد الؤلفون وجود بعض الدراسات التي تتحدث عن وفاة المسيح في سنة ٧٤م وهو في الثمانينات من عمره وان «هناك ادلة قاطعة بوجود المسيح على قيد الحياة في عام ٤٥ ميلادية أي بعد ٩ سنوات من تاريخ الصلب المزعوم».

تقول الدراسة: «ان التعاليم المسيحية التي وصلت الينا، هي محصلة عملية انتقاء وحذف وتعديل جرت عبر القرون، فالمسيح والعهد الجديد وضعا في صيغة تخدم مصالح جماعة معينة أو افراد كانت لهم وستكون، مصلحة خاصة في حماية هذا التصور. واي محاولة للمساس بهذه المصالح، كما حدث في انجيل مرقص المصادر، جرى استئصالها، وفي الحقيقة لقد حذف الكثير مما خلق فراغا جعل الافتراضات والتخمينات مشروعة وضرورية»

فهم يرون ونحن معهم أن الاناجيل بل العقيدة المسيحية صيغت على يد الآباء الاوائل وخاصة بولس الرسول لكي تكسب الجمهور الروماني، أهم جمهور في ذلك الوقت، سياسيا وحضاريا وعسكريا وبدون كسبه لا يمكن تصور قيام كنيسة شرعية. لكن هذه الكنيسة لم تكن تأمل في كسب قيصر وحده أو الحصول على ترخيص بالعمل من جانب هذا القيصر، بل كانت تريد كسب الرأي العام الروماني ليفرض العقيدة على قيصر، دون استفزاز قيصر أو خلق وضع يستحيل عليه قبول المسيحية. . فهي اذا كانت تريد رئيسا للكنيسة مزاحما، ومساويا على الاقل لقيصر، طمأنت قيصراً على ان رئيس الكنيسة هذا لا يتدخل في السلطة الزمنية، فقيصر بالمسيحية لا يخسر شيئا من الدنيا، بل يكسب الآخرة ايضا. . ولما كان هذا القيصر قد اعلن نفسه أو توجته الطبقة الحاكمة الها، فقد كان من الضروري للمنافس أن يكون في نفس المرتبة، وهذا ما جعل رجال الكنيسة يحولون المسيح من ملك ـ نبي بالمفهوم اليهودي، يكتسب شرعيته من انحداره من نسل داود ـ سليمان انبياء التوراة، الى اله، ابن الله، فهو اكبر من أي قيصر ونائبه على الارض لا يقل عن قيصر. .

تقول الدراسة: «ان الرومان كانوا معتادين على تقديس حكامهم، وقيصر كان قد اعلن

١٦ ـ ص ٣٣١

رسميا الها، ولذا فلمنافسته كان لابد من اعلان المسيح الها هو بدوره، الامر الذي لم يذكره أحد من قبل ولكن بولس تولى هذه المهمة، اي تحويله الى اله».

«انتشر الدين الجديد في فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى واليونان ومصر وروما وغرب اوروبا. وكان على الدين الجديد ان يتخذ صورة مقبولة لدى هذه الشعوب. باختصار كان على الاله الجديد ان يكون مساويا في القوة والملك وممارسة المعجزات لتلك الالهة التي جاء ليحل محلها، كان على المسيح اذا ما اراد ان يثبت قدمه في عالم روماني، أن يصبح الها كاملا وليس مجرد مسيح[17] بالمعنى القديم للكلمة. . ولا ملك كاهن، ولكن الها، عبر بحر الآلام والعالم السفلي والجحيم. . ثم بعث من جديد، وهكذا اتخذ «القيام» أهمية[18] خاصة، وأصبح المسيح مثل تموز وأدونيس وأوزوريس وكل الآلهة الذين ماتوا ثم بعثوا، وسيطرت اسطورتهم على عقول الناس في ذلك الوقت. وهكذا رتب تاريخ القيامة Easter عيد الموت والبعث ليكون في الربيع حيث كانت كل الاساطير والديانات المعاصرة تعتبره عيد البعث ،[19] وهكذا حذف كل ما ينتقص خصائص الاله وحجبت كل المعلومات عن اسرته ومصدرها» . .

ويقولون «انه حتى الرواية القائلة بأن قسطنطين قد جعل المسيحية الديانة الرسمية، غير صحيحة. فقد ظلت روما تعبد الشمس، واصدر قسطنطين مرسوما في سنة ٣٢١ ميلادية يعطل المحاكم في يوم الشمس. وجعل هذا اليوم عطلة. وكان المسيحيون يعطلون يوم السبت مثل اليهود، ولكن بعد مرسوم قسطنطين حولوا يومهم المقدس الى يوم الشمس، (SUNDAY) وبذلك انسجمت مع النظام وحررت نفسها من الروابط اليهودية. وحتى القرن الرابع كان يحتفل بميلاد المسيح يوم ٦ يناير (نفس اليوم الذي مازالت الكنيسة الشرقية تحتفل به الى اليوم) ولكن لأن اهم يوم في السنة عند عبدة الشمس هو يوم ٢٥ ديسمبر، اليوم الذي تولد فيه الشمس من جديد، اي انتهاء أقصر يوم في السنة وبداية ازدياد ساعات النهار، فان المسيحية (الرومانية ج) واءمت نفسها مع طقوس عبادة الشمس، واصبح اعظم ايامها أو الكريسماس هو يوم ٢٥ ديسمبر. وهكذا اتفق المسيحيون وعباد الشمس على تقديس يوم الشمس «Sunday» الأحد، ويحتفلون بميلاد عظيم يوم ٢٥ ديسمبر»

١٧ ـ المسيح كان تعبيرا خاصا باليهود، وهو مخلص اليهود خاصة. وهذه صورة لم تعد صالحة ولا تعني الرومان. فتحول المسيح الى اله لتخليص الجنس البشري كله من الخطيئة وليس مجرد «تخليص» اليهود من قهر العالم. .

١٨ ـ لأنه خلّص المسيح من الجزء الانساني بالصلب، وبعث الها كاملا (ج)

١٩ ـ وقالت مقدمة اللجنة في انجيل لوقا المصري ان المصريين عدلوا عيد شم النسيم القبطي ليتوافق مع عيد القيامة هذا.

«وكان قسطنطين سياسيا وليس مسيحيا يريد توحيد الدولة، وانعقد مؤتمر «نيقيه» عام ٣٢٥ م وقرر «بالتصويت» ان المسيح اله وليس مجرد بشر نبي، وحدد عيد الفصح، كما حدد مهام الاساقفة «وبعد عام واحد» صادر قسطنطين ودمر كل الكتابات التي وضعها مؤلفون وثنيون عن المسيح، وكذلك كل اعمال المسيحيين «الهراطقة» وحدد دخلا للكنيسة من الدولة، وأجلس اسقفا رومانيا في المقر الديني في روما وفي عام ٣٣١ صدرت طبعات جديدة من الانجيل. وكان الامبراطور قد أمر باحراق كل الكتابات المسيحية عام ٣٠٣، ومن ثم عندما اراد قسطنطين اعادة كتابتها عام ٣٣١ لم تكن هناك وثاق في روما، مما مكن الذين يحتفظون بهذه المذكرات والكتابات من اعادة صياغتها وتنقيحها بما يتفق ووجهة نظرهم. وفي هذه الفترة بالذات، جرت التحويرات الاساسية في العهد الجديد. فالانجيل الحالي هو نتيجة مؤلفين وكتاب في القرن الرابع الميلادي، من حماة العقيدة وحملة الرسالة.»

وتشير الدراسة الى انجيل بطرس المختفي، «والذي عثر على نسخة منه في صعيد مصر عام ١٨٨٦ مع انه وردت عنه اشارة من جانب اسقف انطاكية عام ١٨٠ ميلادية. وفي هذا الانجيل معلومات تؤيد قصة الصلب الوهمي، كما ان كلمات المسيح الاخيرة على الصليب تختلف عن كل الروايات السابقة، مما يدل على انه ما من أحد كان شاهدا حقيقيا، ولا من مصدر واحد. وهناك الانجيل الذي يتحدث عن طفولة المسيح والذي يرجع تاريخه الى القرن الثاني، وفيه يبدو المسيح طفلا بشريا تام البشرية».

«وقد كتب باسيليوس داري في الاسكندرية (ما بين ١٢٠ م - ١٣٠ م) يقول «ان الصلب كان مزيفا والمسيح لم يمت على الصليب. وأن بديلا هو سيمون القوريني (simon of cyrene) حل محله في عملية الصلب والآية ١٥٧ في سورة النساء تعني حلول بديل.. وذلك في قول القرآن «وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم»[٢٠]

«وكانت مصر هي الملجأ المختار لليهود والمسيحيين خلال ثورات فلسطين»[٢١] ضد الرومان، ومن ثم كان من الطبيعي ان تضم اكبر قدر من الحركات المخالفة للنظرة المسيحية الشائعة اليوم، واكبر كمية من وثائق المسيحيين الاوائل، ومن اشهر هذه الوثائق برديات نجع حمادي التي عثر عليها فلاح مصري في قدرة فخار حمراء تبين أنها تضم ١٣ لفافة بردي ملفوفة بالجلد، ولما كان الفلاح يجهل قيمتها فقد استخدم بعضها كوقود للفرن.. ولكنها سرعان ما جذبت انتباه الخبراء، وهربت واحدة منها للخارج حيث عرضت للبيع في السوق السوداء واشترتها مؤسسة س. ج. جينغ، وهي اللفافة التي اصبحت تعرف الآن بانجيل

٢٠ - ص ٣٥٣ من كتاب الدم المقدس.

٢١ - تشير الدراسة الى ان «ماسادا» التي يدعيها اليهود «كانت قياداتها مسيحية». وربما كانت من المدرسة المسيحية - العبرية وقد ساعد ذلك على تجريمها أمام الرومان واندثارها او هزيمتها امام المدرسة المسيحية - الرومانية.

توما المشهور. وفي نفس الوقت صادرت الحكومة المصرية بقايا البرديات في عام ١٩٥٢ وليس قبل عام ١٩٦١ عندما شكلت هيئة دولية من الخبراء لنقل وترجمة الوثائق، وفي ١٩٧٢ ظهر الجزء الاول من هذه الوثائق وفي ١٩٧٧ ظهرت الترجمة الانجليزية الاولى للمجموعة الكاملة (باستثناء ما حرق طبعا). ووثائق نجع حمادي هي مجموعة من النصوص الانجلية، يرجع تاريخها من أواخر القرن الرابع الى اوائل القرن الخامس وهي بدورها منقولة من وثائق أقدم، مثل انجيل توما، وانجيل الحق، وانجيل المصريين وكلها ورد ذكرها في تلك البرديات. وكلها أشير اليها من قبل آباء الكنيسة الاوائل، مثل كليمنت بابا الاسكندرية وآريوس واورين. وقد قرر الدارسون ان وثائق نجع حمادي تعود الى عام ١٥٠ م وليس بعد ذلك، وواحدة منها على الاقل - اقدم من الاناجيل الاربعة المعتمدة في العهد الجديد».

«وهذه الوثائق تعد من أهم وثائق المسيحية - الاولى، وهي لا تقل أهمية عن الاناجيل الاربعة، بل ترجحها في انها لم تتعرض لرقابة أو مراجعة، وايضا لأنها كتبت للجمهور المصري وليس الروماني ولذلك لم تنقح لتطرب الأذن الرومانية، واخيرا فانها تروي شهادة شهود من الدرجة الأولى، رأوا ولم يسمعوا.. شهود كانت لهم صلة بالمسيح نفسه ومن ثم كان بوسعهم ان يحكوا التاريخ بمصداقية لم تتح للرسل انفسهم». (كتاب الاناجيل الاربعة ج)

وتقدم الدراسة فقرة مثيرة وردت على لسان المسيح نفسه في تلك الوثائق التي لم تطرح على الناس الا في عام ١٩٧٧ كما رأينا.. يقول المسيح:

«أنا لم استسلم لهم كما كان في مخططهم، ولم أمت في الحقيقة، ولكن في الظاهر، حتى لا يحملوني العار. لأن وفاتي التي يظنون بعماهم وخطأهم أنها حدثت. اذ دقوا المسامير في «رجلهم»[٢٢] وساقوه للموت. انه رجل آخر، الذي شرب الخل والحنظل وليس أنا. انه شخص آخر سيمون الذي حمل الصليب على كتفيه، كان شخصا آخر هو الذي وضعوا تاج الشوك فوق رأسه، وكنت أنا الذي ضحكت من جهلهم»[٢٣]

وتقول الدراسة «ان الوثائق تحمل سجلا لخلافات حادة بين بطرس ومريم المجدلية، وان هذا الخلاف بين أهل الدعوة وأهل النسب» وتورد فقره من خطاب بطرس الى مريم المجدلية، التي تزعم الدراسة انها كانت زوجة المسيح. ولكن وثائق نجع حمادي لم تورد أي دليل واضح يؤكد هذا الزعم.. ما جاء بالوثائق على لسان بطرس لمريم: «اختاه، نحن نعلم ان المخلص احبك اكثر من كل النساء فاخبرينا بما قد تتذكرين من كلماته التي لم نحط

٢٢ - الرجل بتاعهم Their man

٢٣ - ص ٣٥٥ عن صفحة ٣٣٢ من الطبعة الانجليزية عن وثائق نجع حمادي.

بها علما». ولكن بطرس يفقد صبره (ربما من اصرار مريم المجدلية على ان لديها الاسرار والوصية ج) فيقول لتلاميذه: «هل صحيح أنه أسر لا مرأة بما لم يخبرنا به؟ وهل يجب ان نصغي لها. . هل صحيح أنه فضلها علينا؟ «فيرد أحد تلاميذه: «من المؤكد ان المخلص يعرفها جيدا، ولذا فقد احبها اكثر منا». ومن انجيل فيليب (وهو من الاناجيل المندثرة ج) تأتي الدراسة بفقرة تعتقد انها اكثر دعما لدعواها بزواج المسيح: اذ يقول فيليب ان المسيح كان يمشي دائما مع ثلاث نساء، مريم أمه واختها خالته ومريم المجدلية وهي رفيقة المخلص، ولكن المسيح كان يحبها اكثر من كل تلاميذه، وكان معتادا على تقبيلها في فمها، مما اغضب بقية التلاميذ (؟!ج). وجعلهم يقولون: لماذا تحبها اكثر منا جميعا؟ فأجاب المخلص: ولماذا أحبكم مثلها؟[24]» ومن انجيل فيليب: «عظيم سر الزواج، لانه بدونه ما كان العالم. الآن وجود العالم يتوقف على الانسان، ووجود الانسان يتوقف على الزواج». وقرب نهاية انجيل فيليب تأتي هذه العبارة: «هناك ابن الانسان، وابن ابن الانسان. السيد هو ابن الانسان، **وابن ابن الانسان هو ذلك الذي خلق من ابن الانسان**» وتقول الدراسة **ان معظم الطوائف التي حاربتها الكنيسة كانت تشترك في قناعة واحدة هي اعتبارهم المسيح بشرا نبيا يوحي له من السماء، وليس الها. مات فعلا على الصليب أو لم يمت على الاطلاق وقد استشهد هؤلاء بقول سانت بول (بولس): «المسيح عيسى سيدنا الذي خلق من مني داود من جهة اللحم أو بالنسبة للجسد». وقال آريوس الاسكندري (٣١٨ ـ ٣٣٥) ان المسيح لم يكن الها بأي حال وليس اكثر من رسول أوحى اليه من قبل الاله الواحد الذي لا يحتويه جسد ولا يهان أو يعذب أو يموت على يد مخلوقاته»**.

ونقول الدراسة «ان القرآن أصر على ان المسيح لم يمت على الصليب وما قتلوه وما صلبوه ولكن ظنوا ذلك (. . . .) ».

وهي ترجمة شبه لهم وقد تكون غير دقيقة ولكن لا أجد افضل منها لاعطاء معنى «شبه لهم» اذا ما قبلنا رواية البديل او الصلب الوهمي وتقول «واذا كان القرآن لم يتوسع في شرح هذا النص الغامض، الا ان المعلقين المسلمين توسعوا، فأغلبهم يتحدث عن شبيه او بديل، هو على الارجح ـ عندهم ـ وان لم يكن دائما، سيمون القوريني، وبعض الكتاب المسلمين يقول ان المسيح اختبأ في كوة في حائط وتابع رؤية عملية صلب الشخص المزيف، وهي رواية تتفق مع ما جاء في برديات نجع حمادي».

ويمكن اختصار فكرته في الصراع بين «اهل البيت» واهل الكنيسة، ان الفريق الاول كان يستمد شرعيته من النسب البشري، أما مصلحة الفريق الثاني فكانت تأكيد الوهية

---

٢٤ ـ انجيل فيليب. اوراق نجع حمادي الطبعة الانجليزية ص ١٣٨

المسيح، ولاشك ان وجود صلات بشرية وعلاقات بشرية يضعف من الالوهية، ولذلك تجد المسيح في الانجيل او في الكنيسة الرومانية الى القرن الثالث عشر، بلا أم تقريبا فهي لا تكاد تذكر ولا يبرز دورها، وهو بالطبع بلا زوجة ولا ابناء ولا اشارة أو أهمية لاخوته. . . الخ . .

على اية حال نحن المسلمون من حقنا ان نفهم من النص القرآني، ان «شيئا ما» غير عادي يحيط بمسألة الصلب. فلو كان الصلب لم يقع أصلا، لا كتفى النص بقوله «وما قتلوه وما صلبوه» ولكن ما قتلوه يقينا «وشبه لهم». . أدلة قاطعة على وجود شك، على وجود ضباب ما في ذهن المعنيين بالحادث حول حقيقة ما حدث. . وهذا يعزز استنتاج اصحاب كتاب «الدم المقدس والوعاء المقدس». . وتبقى معجزة معرفة القرآن بهذا الخلاف، الذي كما رأينا دفن تماما في الوعاء الفخاري في القرن الخامس الميلادي اي قبل ما يقرب من مائتي سنة على نزول القرآن. ولم يترجم الا بعد الف ومائتي سنة من التحدي الاسلامي . .

قال الله تعالى: «وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما. وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، وما قتلوه وما صلبوه، ولكن شبه لهم. وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه، ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقينا»

وجاء في تفسير الطبري: شبه لهم. . القى الله شبهه على رجل من اصحابه فقتلوه ورفع الله عيسى، وهم يظنون انهم قتلوه. «لفي شك منه» يعني اليهود الذين احاطوا بالبيت، الذي كان فيه عيسى صلى الله عليه وسلم، وعرفوا عدة من كان معه، فلما دخلوا فقدوا واحدا من العدد وهو عيسى اذ رفع فالتبس عليهم الأمر ولحقهم الشك».

و «يقينا» هنا قد تعني لم يتيقنوا من موته. . اما اذا كانت تعني «اليقين» أي الموت، فقد تعني انهم لم يصلبوه حتى اليقين اي حتى الموت. . وهذا يعزز رواية الصلب الوهمي. . والله اعلم. .

غير اننا نحب ان نتوقف قليلا عند بعض الملاحظات التي استوقفتنا خلال دراستنا للاناجيل حول دور «يهوذا» الاسخريوطي في عملية «الصلب» فالقصة في رأينا تعزز فكرة «الشبهة» وتؤكد انعدام اليقين في قتله أو صلبه. .

وأول ما استلفت نظرنا في قضية «يهوذا» هو نبوؤة للمسيح، وردت في انجيل «متى» تقول على لسان المسيح: «عندما يجلس ابن الانسان على عرش مجده ستجلسون على اثنى عشر كرسيا تحاكمون قبائل اسرائيل الاثنتي عشرة»[25]

---

٢٥ ـ متى ١٩ ـ ٢٨

ويهوذا هو احد الاثنى عشر، والنص قاطع على انه سيكون مع المسيح عندما يجلس على عرش مجده، وكرسيه موجود وسيجلس عليه قاضيا يحاكم بني اسرائيل. . فكيف يتفق هذا مع الرواية التقليدية عن خطيئته بخيانة المسيح وتسليمه لليهود والرومان بدراهم معدودة؟!

اما ان المسيح في الانجيل لا ينطق بروح القدس، بل لا يدري شيئا عن الغيب، وهذا يتنافى مع رؤيته لما سيحدث في الآخرة، وتأكيده جلوسه هو على عرش مجده، بل واحصاء عدد الكراسي. . . واما أن المسيح يعلم أو كان يرى مالم يحط به الآخرون حول حقيقة دور «يهوذا». .

ويهوذا هو بالتأكيد أحد الاثنى عشر من جميع النصوص وبارك الله في مرقص فقد احصاهم عدا وأورد اسماءهم كالآتي:

«اختار (المسيح ج) اثنى عشر يذهبون معه، وليرسلهم فيما بعد للتبشير. . «سيمون وسماه بطرس. جيمس واخوه جون اولاد زبيدي واندرو وفيليب، بارثليمو ومتى وتوماس وجيمس ابن الفيوس وثاديوس وسيمون الكنعانيين. ويهوذا الاسخريوطي الذي أيضا خانه» مرقص ٣/١٦ ـ ١٩

ويضيف مرقص ان المسيح دعا الاثنى عشر وقسمهم الى ست مجموعات وبعثهم للوعظ بما فيهم يهوذا: «دعا الاثنى عشر وبعث بهم اثنين اثنين للوعظ. واعطاهم قوة ضد الارواح غير النظيفة» مرقص ٦/٧

فكيف سقطت عنه هذه القوة ووصل اليه الشيطان ليقوم بأقذر عملية. . ان كان هذا صحيحا؟!. .

كذلك جاءنا «لوقا» بقائمة باسماء الاثني عشر، وهي بالطبع لابد ان تكون مخالفة لقائمة مرقص (!!) الا انها تتفق معها في عضوية يهوذا وخيانته وهذه قائمة لوقا: سيمون الذي سماه بطرس واخوه اندرو، جيمس وجون وفيليب وبارثولومو ومتي وتوماس وجيمس ابن الفيوس. وسيمون وسماه زيلوتس، ويهوذا اخو جيمس. ويهوذا الاسخريوطي الذي كان ايضا خائنا». لوقا ٦/١٤ ـ ١٥

ومن لوقا عرفنا ان اندرو هو شقيق سيمون (بيتر) وهو ما لم يذكره مرقص في قائمته كذلك لم يذكر ان جيمس وجون اخوه أولاد زبيدي اما ثاديوس عند مرقص، فقد اختفى وحل محله «يهوذا» آخر هو شقيق جيمس ولم يقل اي جيمس هل هو ابن الفيوس أو جيمس الذي جعله مرقص شقيق جون[٢٦]. .

٢٦ـ كان الله في عون كتاب السيرة الذين أحصوا أهل بدر وهم سبعمائة ولم يكونوا يكتبون ما تمليه روح القدس.

وفي رواية يوحنا نجد مخالفة وهي ان الحواريين هم الذين شكلوا انفسهم ولم يخترهم المسيح.

«اندرو استمع ليوحنا وجد اخيه سيمون (بيتر) وقال له لقد وجدنا المسيح Messias وترجمتها Christ واحضره لعيسى».

«وفي اليوم التالي ذهب عيسى للجليل ووجد فيليب وقال له اتبعني، وفيليب وجد ناثانيل وقال له وجدناه الذي كتب عنه موسى والانبياء عيسى الناصري ابن يوسف. ورد ناثانيل ردا غريبا يسيء الى مدينة الناصرة ان كانت موجودة في ذلك التاريخ. . اذ قال «من الناصرية لا يأتي خير»! إلا انه عندما جاء الى المسيح قال المسيح: «ويحك هذا اسرائيلي فعلا ليس فيه أي غش». والى هنا أصبحوا اربعة، واكد يوحنا رواية لوقا عن اخوة سيمون واندرو ولكننا زدنا ضيفا جديدا هو ناثانيل، الذي سقط من كشف مرقص واحصاء لوقا، وهو ليس بالشخصية الثانوية فهو الوحيد الذي جابه المسيح بقوله: انت ابن الله. . انت ملك اسرائيل». وهو الذي رآه المسيح تحت شجرة التين ووعده بأن يرى السماء وملائكة الرب صاعدين هابطين على ابن الانسان. . فكيف يسقط سهوا من كشف الاثني عشر؟!

وما علينا ربما من تغييرهم لاسمائهم كما هو المعروف عن الحركات العقائدية والدينية والمسيحية بالذات حيث يتخذ العابد اسما في كل مرحلة. المهم ان «يهوذا» باجماع الآراء هو احد الاثنى عشر، **فكيف نوفق بين ارتكابه اكبر خطيئة او اثم في التاريخ (المسيحي) وبين شهادة أو نبؤة المسيح له بأنه سيكون جالسا معه على الكراسي الاثني عشر؟**

واذا كان مراجع انجيل لوقا قد احس بهذا المأزق فحذف تحديد عدد الكراسي. . وجعل النبؤة هكذا: «حتى تأكلوا وتشربوا على مائدتي في مملكتي. وتجلسون على عروش تحاكمون قبائل اسرائيل الاثني عشرة» لوقا ٢٢/ ٣٠ فيمكن ان يكونوا أحد عشر أو عشرة ويمكن ان يضم ملف قبيلتين الى قاض واحد. . المهم ان لوقا تخلص من مشكلة الكرسي الخالي، والقاضي الخائن الذي يشغله، وهو اجتهاد طيب من «لوقا» ولكنه لا يحل المشكلة، وحتى اذا قيل ان نص لوقا هو الاصلي، وناسخ فضولي دس عدد الكراسي في انجيل «متى». . فان الشك ايضا والغموض يحيطان بجوهر «مؤامرة» يهوذا وذلك للآتي. .

اذ يفهم من سائر الروايات أن «قتلة» المسيح أو المطالبين باعدامه، لم يكونوا على يقين من شخصه وان مهمة يهوذا كانت الارشاد عن شخصه وهذه هي «الخيانة» أو «المهمة» التي قبض ثمنها. . لا الشهادة ضده. . .

يهوذا في متى ومرقص قال لهم: «الذي سأقبله يكون هو فاقبضوا عليه بسرعة» متى ٢٦/ ٤٨ وفي مرقص: «وعلى الفور جاء يهوذا أحد الاثنى عشر ومعه جمع غفير بالسيوف

والهراوات من رئيس الكهنة والحفظة والكبار، والذي خانه قد اعطاهم علامة قائلا: الذي سأقبله سيكون هو خذوه وابعدوه بامان. وعندما جاء اتجه رأسا اليه وقال ياسيد . . ياسيد وقبله فامسكوه واخذوه». مرقص ١٤/٤٣/٤٥

والروايتان تتفقان في وضوح على ان القادمين لا يعرفون المسيح، وانهم قبضوا على الشخص الذي قبله «يهوذا» حسب الاتفاق . . وهذا في حد ذاته يؤكد أن «الظن» وارد، واليقين منعدم . .

ورواية «لوقا» وان لم تكن بوضوح متى ومرقص الا انها تؤكد العلامة المتفق عليها، عندما يقول أن «يهوذا» الذي جاء على رأس قوة القبض، «اقترب منه محاولا تقبيله» ولا معنى لقبلة يهوذا، الا انها الاشارة، المتفق عليها لتحديد من هو المسيح المطلوب . . كما جاء في الانجلين السابقين.

«واقترب من عيسى ليقبله . . ولكن عيسى قال له: يايهوذا تخون ابن الانسان بقبله؟!» لوقا ٢٢/٤٧ ـ ٤٨.

والأهم من ذلك: «ثم قال عيسى لرئيس الكهنة وقادة الهيكل والشيوخ: القادمين اليه . . اتقبلون على قدومكم على لص بالسيوف والعصى . . بينما كنت معكم كل يوم في المعبد، لم تمدوا يدا ضدي . . » لوقا ٢٢/٥٢ ـ ٥٣

وهذا الكلام واضح الدلالة على حقيقتين انهم يعرفونه ـ او هذا هو المفروض، لانه جلس معهم كل يوم في المعبد، فما حاجتهم لاشارة يهوذا لكي يقبضوا عليه؟! واذا كانت الخادمة ورجلان في بيت رئيس الكهنة عرفا بيتر، فكيف لا يعرف رئيس الكهنة المسيح؟!

الحقيقة الثانية «ان المسيح لم يبذل اي جهد للتخفي او الانكار، بل بالعكس كان يبادر بتأكيد «وشاية» يهوذا . . فلماذا التخطيط والاتفاق على اشارة وقبله . . الخ كان يكفيهم أن يقولوا من فيكم المسيح ليقول أنا كما حدث فعلا في رواية يوحنا الذي قال:

«بعدما انهى موعظته توجه المسيح الى حديقة ودخلها مع تلاميذه. وكان «يهوذا» الذي خانه يعرف المكان، لأن عيسى كان يلجأ الى هناك مع تلاميذه أحيانا، لذا فيهوذا الذي أعطى عصبة من الرجال والضباط من رئيس الكهنة والفريسيين، جاء مسلحا . . عيسى الذي يعرف كل هذه الاشياء تقدم اليهم وقال لهم: «عمن تبحثون» فأجابوه عيسى الناصري، فقال لهم أنا هو، ويهوذا الذي خانه وقف معهم. وما ان قال لهم انا هو حتى تراجعوا للوراء وسقطوا على الارض (؟!) ثم سألهم ثانية . . تبحثون عن من؟ . . فأجابوه عيسى الناصري فأجابهم عيسى: لقد اخبرتكم انني هو . . اذا كنتم تبحثون عني، فأخلوا سبيل هؤلاء . . فقبضوا عليه وقيدوه وخرجوا» يوحنا ١٨ من ١ الى ١٣ .

ولا مجال للشك في ان القادمين لا يعرفون «المسيح» وان «شخصا ما» تصدى لهم بالحاح

وطرح نفسه طرحا عليهم ليقبضوا عليه وينجو الاحد عشر الآخرين . . فقد سألهم مرتين من تريدون؟ فقالوا «عيسى الناصري» والمنطق أن يرد: «لسه ماشي من هنا» . . ولكنه دلهم على نفسه على الفور . . وكانت مفاجأة أو معجزة فسقطوا على الارض ولكنه عاد يسألهم مرة اخرى في ضيق: من تريدون . . ثم يؤكد لهم أنه هو المقصود . .

واذا قبلنا ان القادمين لا يستطيعون التعرف على المسيح، فهل ينطبق ذلك على «يهوذا» اتلميذ المسيح ورفيقه . . والذي كان يأكل معه في طبق واحد؟! هل يصعب عليه التعرف على المسيح؟ . .

لا يمكن تفسير هذا الغموض الا باحد اجتهادين:

١ـ ان الله اعمى بصيرة يهوذا فلم يستطيع تمييز المسيح، ومن ثم دلهم على شخص آخر وبذلك يتحقق قوله تعالى: «وما قتلوه يقينا» و«شبه لهم» وهو اكثر من واضح أعني الشك

٢ـ واما ان يكون «يهوذا» قد نفذ الخطة الموضوعة بالاتفاق مع المسيح، وقبل أن يتهم بالخيانة، وأن يلعن أبد الدهر، وهي أعلى قمة في التضحية والايمان لانقاذ المسيح، ودلهم على تلميذ آخر قبل الشهادة أو على الأقل الألم في سبيل المسيح.

وهذا يفسر:

● شكهم في شخصيته، وحاجتهم لمن يرشدهم اليه

● ● ورفض المقبوض عليه (الذي يفترض انه المسيح) الحوار مع السلطات واجاباته الغامضة . . التي لم تسهل ابداً مهمة تبرئته، بل سهلت ادانته . . وحرص على الا يورط المسيح في اي اعتراف عقائدي فكلما سألوه هل انت المسيح أو ملك اليهود . . يرد انتم تقولون ذلك؟

● ● ● نبؤة المسيح ليهوذا بأنه سيجلس على الكرسي يوم الدينونه ويحاكم قبائل بني اسرائيل. وهي لابد ان تكون نبؤة صادقة، اذا كانت قد صدرت عن المسيح وهذا لا يتأتى الا ان تكون تهمة يهوذا ملفقة، وتمت باتفاق مع المسيح. وهذا لا يعيب الانبياء، فرسول الله خدع المشركين بالبديل أيضا عندما وضع علي بن أبي طالب رضي الله عنه في فراشه ليلة الهجرة.

وفي رواية يوحنا ان المسيح طلب من يهوذا «ان يفعلها بسرعة» يوحنا ١٣/٢٧ فهو امر معروف ومتفق عليه، لا مفاجأة فيه، حتى وان كان قد اخفى عن غالبية الحاضرين، وهو امر محتمل ومفهوم فليس هذا بالسر الذي يشترك فيه اثنا عشر والسر ما جاوز الاثنين ذاع . . لأن يوحنا يقول: «ولم يفهم أحد من الجالسين عما يتحدث. وبعضهم ظن أنه يريد

يهوذا أن يشتري اشياء للعيد أو يعطي شيئا للفقراء لأن يهوذا كان يحمل حقيبة»[٢٧] يوحنا ١٣/٢٨ - ٢٩

ويزداد الشك في الصلب، ويتأكد غلبة الظن على اليقين عندما نفاجأ برواية جديدة تماما عن مصير المسيح في اعمال الرسل وهي انه شنق في شجرة اي لا صلب ولا صليب«Whom ye slew and hanged on a tree » ومعناها: «الذي قتلتموه وشنقتموه على شجرة» اعمال رسل ٥: ٣٠

واكد شاول (بولس) رواية الشنق في خطبته ، عندما قال: «وبعدما نفذوا كل المكتوب عنه، انزلوه من على الشجرة ووضعوه في القبر» اعمال الرسل ١٣: ٢٩

«اليهود في القدس قتلوه وشنقوه في شجرة» اعمال الرسل ١٠/ ٣٩ والذي يروي ذلك هو «بيتر» الذي حضر القبض وانكره ثلاث مرات، وها هو يقول انه شنق وفي شجرة. . فهل كانت رواية الصلب مجرد احتمال. . وبالتالي فلا معنى لكل ما بنى عليها من رموز واشارات أو انها لم تكن ذات اهمية، فنسى الاتباع اذا كان قد شنق أو صلب؟! ولهذا قال القرآن ما قتلوه وماصلبوه لينفي كل الروايات. . ؟!

الحقيقة الوحيدة الراسخة هي أنهم «لم يقتلوه يقينا»

وصدق ربي العظيم. .

---

٢٧ ـ لاحظ الخلاف الواضح في رواية يوحنا. . فلا يهوذا أرشدهم عنه ولا قبله، بل المسيح (المفترض) هو الذي بادرهم باعلان نفسه. وهو خلاف لا يمكن أن يقع بين شهود عيان في واقعة لها هذه الأهمية.

«لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم»
«لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة»
«ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه. . »

المسيح في العقيدة المسيحية المعاصرة هو ابن الله بطريقة ما، وبموجب توليفة ايدلوجية شديدة التعقيد الى حد اليأس من محاولة فهمها[١]، ومن ثم لا يبقى من خيار الا قبولها او رفضها. . فهو اله، ان لم يكن يرجح الله سبحانه وتعالى، فهو مساوله، ويتمتع بصلاحيات اكثر، وفعالية اكبر بحكم السن، وهو بالتأكيد اكثر شعبية، واكثر اتصالا واهتماما بالناس واكثر استجابة لرغباتهم ولذا تجد القس أو المؤمن يصرخ في الاذاعة Jesus is God أي «المسيح هو الله» او حتى «المسيح اله» وتجد المسيحي ينادي المسيح في النهار مائة مرة، ولا يذكر اسم الله، الا عندما يذكر الثالوث، أو منسوبا الى ابنه فهو «الآب»[٢]

ورغم سيادة تيار الالوهية في الاناجيل، الا انها تدور اساسا حول الله أو الأب الذي هو مصدر أهمية المسيح، سواء اكان ابن داود المرسل لتنفيذ وعود الرب، التي لا حصر لها

---

١ ـ في كبرى المجلات الامريكية وايام هستيريا «الخطر الاسلامي» استعرضت المجلة الخلاف بين الاسلام والمسيحية وقالت ان المسلمين يرفضون القول بأن لله ابنا. . وعلقت: «بالطبع بهذا المفهوم فلهم العذر» ولم تقل المجلة ما هو المفهوم الآخر المقبول. . لسبب بسيط هو انها لا تعرف!

٢ ـ تؤكد الدراسات ان لفظة الأب بمعنى والد الاله، موجودة في التراث الفرعوني. يقول مدير المتحف المصري الدكتور محمد صالح: «أبا الاله» أو «الأب المقدس» او «الأب الروحي» او «ابا الملك» وهو لقب كهنوتي ذكرته النصوص الدينية في وصفها للسلك الكهنوتي الفرعوني. وكان اعلاها «حم نتر» ومعناها الحرفي «خادم الاله» ثم «ايت نتر» ومعناها «ابا الاله» أو الاب المقدس. وفي موسوعة تاريخ الديانة المصرية القديمة لمؤلفها العالم الالماني بونيت يقول: «يبدو ان ابا الاله لقب كهنوتي وهو لقب ضمن الكهنوت الاكبر».

وبشيء من التأمل تجد ان نفس النسبة قد تسربت للمسيحية فخادم الاله او ابنه اكبر من «ابا الاله» ونفس العلاقة المعقدة حول هذا الاله الذي فرعون خادمه ووالد فرعون أو حموه هو في نفس الوقت والد الاله!. .

لاسرائيل، أو ابن الله المرسل لخلاص البشر، وان كانت فكرة الخطيئة الاولى والخلاص منها بالصلب لم ترد بشكل واضح لا في متى ولا مرقص ولا لوقا . . المهم ان المسيح في حد ذاته ـ في هذا الاناجيل ـ ثانوي الاهمية بالنسبة «لله» ومهمته هي دعوة الناس الى حب الله وعبادة الله سواء أكان الله الواحد الأحد أو «ابيه» ولكن المسيحية تطورت على نحو تراجع فيه الاب، أو أصبح ملحقا بالابن، يستمد أهميته من كونه «والد المسيح» أو المسيح بصيغة ما . . فالذي يعبد الآن هو المسيح . . ويجدر القول ان المسيحي المعاصر يعبد الشق الآدمي في المسيح، المحفورة ملامحه في الايقونات والصور والتماثيل، والمعلق على الصليب يقطر دماء في كل بيت في الغرب، بل وعلى كل صدر . . ويمكن القول أيضا ان «المسيح» هو اكثر مسيحي ذكر الله، وذلك كما ورد بالاناجيل!

وقد وصل العقل المسيحي لهذا المفهوم خلال عملية تطور طويلة، ومعقدة، وخلال صراع طويل بين دعوة التوحيد التي بشر بها المسيح، ومفهوم التوحيد العبراني، وبين المفاهيم الاغرو ـ رومانية . . اي الاغريقي ـ الروماني التي تؤمن بالرجل الاله والاله الرجل، وكما قلنا اراح العقل الغربي نفسه من محاولة فهمها او كما قال القديس أو من بالمسيحية لأنها دين غير معقول. وهذا الايمان باللامعقول او تقبله ببساطة دون محاولة لتفسيره من خصائص العقل الغربي. بعكس ما يشاع عن علمية هذا العقل، فقد تقبلوا زعم قيصر بأنه نصف اله، وتقبلوا ان المسيح نصف اله، بعكس العقلية الشرقية او العربية التي تلاقي الكنيسة حرجا هائلا في اقناعها. «بأن المسيح جلس على يمين ابيه على العرش وهما واحد»! اذ كيف يجلس «شيء» على يمين نفسه حتى ولو كان الله سبحانه وتعالى!!

ولنؤجل مناقشة ذلك حتى نتعرف على بعض الآراء حول تطور دعوى الوهية المسيح، وبنوته لله، سبحانه وتعالى عما يصفون . .

يقول الدكتور شارل جينيبر رئيس قسم الاديان بجامعة باريس: [٣]

«لا يسمح لنا أي نص من نصوص الاناجيل باطلاق تعبير ابن الله على عيسى فتلك لغة لم يبدأ في استخدامها سوى المسيحيين الذين تأثروا بالثقافة اليونانية إنها اللغة التي استخدمها القديس بولس كما استخدمها مؤلف الانجيل الرابع» (يوحنا ج) «ويمكن ان يعتبر اليهودي نفسه عبدا «ليهوه لا ابنا» ليهوه. ومن المحتمل أن يكون عيسى قد قدم نفسه للناس بهذه الصفة: «عبد الله» . . والكلمة العبرية «عبد» كثيرا ما تترجم الى اليونانية بكلمة تعني «خادما» و«طفلا» على حد سواء، وتطور كلمة طفل الى كلمة ابن ليس بالامر العسير، ولكن مفهوم «ابن الله» نبعت من عالم الفكر اليوناني»

٣ ـ في كتابه: المسيحية نشأتها وتطورها الذي ترجمه الشيخ عبد الحليم محمود: دار المعارف ١٩٨١

وهذا يمكن فهمه حتى في اللغة العربية فعندنا لفظ «رب» تعني اله، وتعني سيد فأنت تقول رب العبد ورب البيت ورب العباد والسموات . . «وغلام» تعني عبد أو ابن فاذا قيل هذا غلام محمد، فانها قد تعني ابنه أو عبده، ومن ثم يقع اللبس في الترجمة، ولا يبدو كبير ضرر في البداية، لأن المناخ الفكري العام يمنع الوقوع في الخطأ، وذلك في فترة سيادة الفهم التوحيدي الذي يرفض اطلاقا فكرة أن يكون لله ابن[٤] . . فلما خرجت المسيحية الى المحيط اليوناني حيث كان الفكر جاهزاً ومهيئا لقبول فكرة تناسل وتناسخ وتقمص وتزاوج الآلهة، انتصرت الترجمة الخطأ، ويخيل الي أنه مرت فترة كان الموحدون يقرأونها «عبد الله» والمنحدرون من اصول وثنية يقرأونها «ابن الله» الى ان تدخلت الكنيسة وفرضت المفهوم اليوناني ـ الروماني.

وملخص رأي استاذ تاريخ الاديان ان التطور حدث في استعمال اللفظ دون قصد. من بولس الذي كانت خلفياته اليهودية لا تسمح بالوقوع في مثل هذا التصور أو اللعب بالألفاظ . . كذلك ينفي أن يكون بولس الذي اخترع لفظ «السيد» قد خلط بين درجة الله والسيد، بل بالعكس في رسالته (بولس) الاولى يقول «بالنسبة الينا نحن على الاقل ليس هناك سوى اله واحد، هو الآب، منه كل شيء ونحن فيه. وليس هناك سوى سيد واحد هو عيسى المصلوب» فمهما بلغ من أمر السيد فهو لا يتساوى مع الله قط.

ويؤكد الاستاذ جينيبر . . ان دراسات الباحثين، هي ان عيسى لم يدع قط انه ابن الله» فذلك التعبير لم يكن في الواقع ليمثل بالنسبة لليهود، سوى خطأ لغوي فاحش، وضرب من ضروب السفه في الدين» ويقول ان «بولس كان يرى ان «السيد» يمثل بمفردة صنفا من اصناف الخليقة» يعتبر اقرب صنف الى الله، ويمكن وصفه بـ «الهي»، ومن المؤكد ان الاعتقاد بألوهية المسيح كان لابد ان ينمو بعد ذلك من هذا المنطلق. وان يندمج المسيح مع الله.

ويقول ان «افكار بولس هي مزيج من دعوى الاثنى عشر الاساسية، ومن الافكار اليهودية المأخوذة من النصوص المقدسة. أو من تطورات دينية حديثة نسبيا. ثم من المفاهيم المنتشرة في الاوساط الوثنية اليونانية ومن الذكريات الانجيلية والاساطير الدينية الشرقية».

ويقول: «الخاصة المميزة لآلهة المنطقة التي عاش فيها بولس، انهم يموتون في موسم معين من السنة، ثم يبعثون بعد ذلك في موسم آخر، فيشعلون في نفوس المؤمنين بهم مشاعر الاسى العميق، ثم يستثيرون لديهم مظاهر الفرح التي تكاد تصل الى حد الجنون. وان

٤ ـ حتى اليهودية اصابها الانحراف في مبدأ التوحيد فقالت اليهود عزير ابن الله. والتوحيد اليهودي في عصر المسيح كان الى حد ما نوعا من احتكار الاله

هؤلاء الآلهة ليسوا في حد ذاتهم بالآلهة الشديدي العظمة، بل انهم يشبهون البشر من قريب في الكثير من احوالهم، على الاقل، ان نظرنا الى تاريخهم الاول، فهم عرضة للفناء، وبعضهم امثال «اتيس» الراعي، أو ادونيس الذي يروى انه ثمرة علاقة غير مشروعة بين أخ واخت. لم يكونوا سوى رجال ألهتهم ارادة الآلهة الآخرين، ولم يرتفعوا شيئا فشيئا الى مرتبة أعلى من مرتبتهم البشرية الاولى، ولم يصلوا الى مصاف الآلهة المهيمنة على الأرض الا بفضل الأهمية الكبيرة التي اعطيت بالتدريج لوظائفهم بالنسبة للأنس».

«مثيرا كان إلها شمسيا لذلك احتفل بمولده في الخامس والعشرين من شهر ديسمبر أي في موعد الانقلاب الشتوي»[٥]

«يتعذب الاله كما يتعذب الانسان ثم يموت كما يموت الانسان ولكنه يقهر العذاب والموت بأن يبعث من جديد».

«الاثنا عشر لم يكونوا ليوافقوا على نعت عيسى بـ «ابن الله» مكتفين بتعبير «خادم الله». ولقب سيد «خيريوس» اضافه بولس، فبدلا من يهوه الذي كان يركع امامه الجميع تنازل يهوه عن سلطاته لصالح عيسى الذي اصبح سيدا يعلو اسمه كل اسم، ويركع امام اسمه كل من في السموات والارض..».

«بدأت عبادة السيد مع بولس.. بينما كان الحواريون يؤمنون بعيسى ويعبدون الله أو على اتصال بالهيكل اليهودي الاكبر، واحترام شعائره».

«تشرب دون ان يدري بالعقيدة السائدة، عن اله يموت ثم يبعث، فكان يهاجم ذلك عند الآخرين باعتباره فكرة وثنية ويبشر بنفس الشيء في نفس الوقت».

وقد ظل هذا التناقض حيا الى اليوم، وهذا هو السر في ديانة تؤمن بالثالوث وتصر في نفس الوقت على ادعاء التوحيد في عبارة لا يمكن أن تنطبق على منطق مثل «الآب والابن والروح القدس اله واحد آمين» ويفسرها بعض الآباء الطيبيين بانها مثل قولنا الموتور و العجل سيارة واحدة !

واذا كان الناقدون للمسيحية ممن نتعرض هنا لافكارهم وغيرهم، قد ركزوا على ما اسموه التوحيد اليهودي في مواجهة الوثنية او الآلهة المتعددة، والآلهة البشرية في العالم الاغريقي والروماني والمصري.. الخ واذا كنا نوافق على ان الديانة اليهودية لم تعبد اكثر من اله واحد الا انه من الضروري ان نفرق بين التوحيد اليهودي، والتوحيد الاسلامي، بل التوحيد بمفهومه السائد الآن، بعد انتصار المفهوم الاسلامي.

فنحن نعتقد ان اقدم تصور موجود «للتوحيد» كما يتحدث عنه الدارسون اليوم هو

٥ ـ يوم الكريسماس او ميلاد المسيح.

«التصور الاسلامي» وهو الذي ادى الى تطور وارتقاء وبلورة التصور الفلسفي العام لوحدانية الله، وتفرده وكماله المطلق.. ومن الانحياز الشديد تصور وجود هذا المفهوم عند اليهود في عصر المسيح.. بالعكس كما تدل كتابات هؤلاء الناقدين انفسهم، فان الاسفار الحديثة من التوراة تتحدث عن عدة آلهة، اختار بني اسرائيل واحدا منها.. فالحقيقة ان اليهودية في هذه الفترة، لم تكن تعبد «الله الواحد» بل كانت تعبد الها واحدا.. هو اله اسرائيل.. سواء اكان هو الذي اختار الشعب، ام الشعب هو الذي اختاره.. المهم انه كان الها خاصا.. وهو كما اشرنا لم يكن شديد الصفاء، بل تشوبه شوائب بشرية عديدة..

هذا ما احببنا ان نشير اليه في حديثنا عن التوحيد اليهودي، في مواجهة الوثنية الاغريقية، وصراع كنيسة بول بين الاثنين.

فلولا جوهر التوحيد الذي بشر به المسيح، والايمان باله واحد بين اليهود لكان من السهل ان يطرح بولس وتلاميذه تصورا اغريقيا مفهوما عن ثلاثة آلهة: الآب والابن.. وهذا الثالث الغامض الذي يتقمص المؤمنين، ولكان دين الثالوث دينا بسيطا مفهوما..

ولولا الخلفية اليونانية لبولس، والبيئة التي ظهر فيها وعمل فيها واضطراره للتلاءم معها لثبت على مفهوم التوحيد الأكثر بساطة سواء بما بشر به المسيح، او حتى المفهوم اليهودي عن اله واحد سيد جميع الكائنات واقوى من كل الآلهة..

ولكن بولس كان يجمع في رأسه «التوحيد» والوثنية الهيلينية. ومن ثم جاء هذا التناقض الذي لم يكن يبدو كبيرا وقتها، لأنه كان يفسره فيما بينه وبين ضميره بالتوحيد، وكما قلنا ان التصور اليهودي يسمح بوجود تعدد مع تميز الاله الخاص، بينما ترك للمؤمنين الجدد فهم الصيغة الجديدة بخلفياتهم الوثنية. ولكن لما اصبحت الكنيسة مؤسسة، وقام فيها فلاسفة يفسرون هذه التركيبة، بدا تناقضها وشذوذها لانهم تمسكوا بحرفية النقيضين، تشبثوا باله واحد لكي لا يتركوا لليهود فرصة معايرتهم او اتهامهم بالوثنية، ثم زاد التشبث في مواجهة التحدي الاسلامي الذي اتهمهم بالتعددية والتصور الوثني لله بان جعلوه ثالث ثلاثة..

وايضا تشبثوا بفكرة «ابن الله» وعمقوها الى مفهوم لم يخطر ببال «بولس» نفسه. ومن هنا برز التناقض واضحا وبشكل حاد، وكان لابد أن يخصف عليه باكوام التفاسير والفلسفات، المستعارة من ترسانة الفكر الوثني، وفلسفات الاغريق المثالية والمنطق الشكلي.. واخيرا مع تساقط كل الطلاء الذي حاولته الكنيسة، ومع زوال الحظر على الفكر، لم يبق الا القول بأن هذا اللغز فوق مدارك البشر ولا يجوز التفكير فيه، فضلا عن توقع فهمه، وهكذا كان ايمان بولس سببا في انتشار المسيحية وعالميتها، بل وخلودها، وأيضا سبب اصابتها بهذا التناقض الخطير.

يقول استاذ الديانات الفرنسي «ان تعبير ابن الله لم يرد الا مرة واحدة في اعمال الرسل» (٩/ ٢٠) وان الثالوث لم يخطر على بال بولس، ولكنه هو الذي وضع بذوره مع ذلك وهو لم يؤمن بالبنوة بمعناها الحرفي ولكنه طرحها بهذه الصيغة التي تبرر استنتاج ذلك»

فهو وضع البذرة تمشيا مع متطلبات المؤمنين الجدد الذين لا يرضيهم اقل من اله متفوق أو على قدم المساواة مع الالهة المحلية أو قيصر روما ثم تطورت الفكرة هو ما يحدث في كل الاساطير، فكل الآلهة بدأوا بشرا ثم ارتقوا الى مرتبة الآلهة وحتى في عصرنا هذا، فمازالت تجرى عملية ترقية أو تصعيد البشر الصالحين الى درجة «قديس» وهي مكانة فوق بشرية أو مرحلة ما بين البشر والآلهة. .

ويقول: «تطورت افكار أو تنازلات أو تلفيقات بولس فجاء احد الآسيويين المجهولين، ففرض في مقدمة الانجيل الرابع (يوحنا ج) ان عيسى المسيح ظهر على الارض ممثلا «اللوغوس» أي كلمة الله ومبدأ الفعل لدى يهوه حسب مدرسة الاسكندرية وانه يشارك الله في خلوده وهذا يعني ان عيسى المصلوب ليس سوى ظاهرة مباشرة لله». وهذا بالطبع افزع الحواريين واليهود فعارضوا بولس معارضة شديدة واصدرت بعض فرقهم كتبا ضده واتهامات وهذه المعركة تشير اليها رسائله حيث يشير الى اتهامهم له بالتجديف. وبذلك تحدد مستقبل المسيحية في ديار الوثنية» «ونشأت عقائد معقدة مثل التثليث واخرى مثل تحول الخمر والخبز بطقوس القربان الى لحم ودم المسيح، نشأت وانتظمت بفضل الاضافات والبراهين التي أتى بها «الفلاسفة» في سعيهم الى تحليل الفروض التي يتقدم بها العامة من الناس» «وكانت النهاية المنطقية لكل الاضافات الايمانية الخاصة بشخصية ودور عيسى المسيح، هي تقريبه من الله الى درجة الوحدة. وكانت هناك نزعة عكسية تسعى الى ابراز الألفاظ من رمز الآب والابن والروح في شخصيات ثلاث تتحدد معالمها، أي تتميز، يوما بعد يوم. ولم يكن للعقول الراجحة ان ارادت الخروج من هذا المأزق سوى الاختيار بين حلين: اما التخلي صرحة عن التوحيد والتسليم بالتثليث واما التخلي عن التمييز بين الشخصيات الثلاث، والقول بان كلا من هذه الشخصيات ليس سوى جانب جوهري من جوانب الذات الالهية الواحدة ولكن غالبية المسيحيين، رفضت الاختيار، وارادت أن تبقى في نفس الوقت على وحدة الله التي لا تتجزأ، وعلى وجود شخصيات ثلاثة متميزة فيه. وعلى هذا الفرض الذي يتعارض طرفاه»

يقول: «ومنذ القرن الثاني اصبح من المبادىء المعتمدة، ان عيسى هو ابن الله ينتسب اليه نسبة مباشرة وان كانت من نوع خاص، ثم انه ايضا هو الله، وهو منظم العالم بارادة الآب وبمعونة الروح القدس وبدأ المذهب الخاص بالصلة بين الابن والاب يتألف برفض لمفاهيم ثلاثة مختلفة تتعلق بهذه الصلة:

١ـ نظرية التبني التي عبر عنها تيودوز بصراحة في روما عند نهاية القرن الثاني والتي تقول ان عيسى تبناه الله (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا. . وتأمل ادراك القرآن لهذا الرأي الذي كان قد اندثر تماما قبل نزول القرآن على محمد بعدة قرون. وتأمل انه حتى نهاية القرن الثاني لم يكن الضمير المسيحي قد تقبل بعد فكرة انبثاق المسيح من الله مباشرة كابن شرعي، ولذلك تحايلوا بفكرة التبني. . ج). في نوع من التقمص ل «اللوغوس» (الكلمة ج) اكتسبه المسيح بفضائله الخاصة.

٢ـ نظرية الاشكال وهي التي تفترض ان الله جوهر واحد ولكنه يظهر في وظائف مختلفة، ولا يكف في ذلك عن كونه ذاته. وعليه نستطيع الزعم ان الاب قد صلب عندما صلب الابن وكذلك الروح القدس وقد راح احد المفكرين ويدعى براكسياس يشرح ذلك في روما حوالي ١٩٠ م.

٣ـ النظرية الغنوصية، وهي في عمومها ترسم المسيح كشخصية الهية، بل كنوع من القوة الازلية غير المحدودة هي وسط بين الكمال الالهي وبين الطبيعة البشرية الناقصة وانه تجسد ظاهريا في شكل بشر».

وكما قلنا فان القضية تبدو اكثر تناقضا في الفكر العربي حيث لم تستطع «المهارة» الفلسفية اخفاء استحالة التصور الذي تطرحه الكتابات العربية من طراز «المسيح له المجد في اقنوم واحد اله وانسان»[٦].

ومهما دار الانسان العربي حول كلمة «اقنوم» هذه، فهو لا يستطيع ان يفهم أو أن يقبل «اله وانسان» في نفس الوقت. . رغم التأكيد على ان «كون المسيح انسانا كاملا وهكذا يستطيع تمثيل البشرية أمام الله ظاهر من الكتاب المقدس وكذلك كون المسيح ذا طبيعة الهية، ظاهرة في الكتاب»[٧]

«ابنه الذي ولد بحسب الجسد من ذرية داود واعلن انه ابن الله حسب روح القداسة» «أومن باله واحد آب ضابط الكل خالق السماء والارض وكل ما يرى وما لا يرى وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور اله من اله، نور من نور اله حق من اله حق، مولود غير مخلوق، مساو للآب في الجوهر الذي به كان كل شيء وأومن بالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب والابن الذي هو مع الاب والابن يسجد له ويمجد الناطق بالانبياء»[٨]

---

٦ ـ كتاب مطبوعات ساعة الاصلاح: تعاليم الكتاب المقدس تأليف القس بسام ميخائيل مدني مدير ساعة الاصلاح.

٧ ـ ن. م.

٨ ـ قانون الايمان: تعاليم الكتاب المقدس ص ٦٠

ثم يشرح ذلك بقوله: «نقسم قانون الايمان الى ثلاثة اقسام، القسم الاول يتعلق بالله الآب والقسم الثاني يتعلق بالله الابن، والقسم الثالث يتعلق بالله الروح القدس». (٩)

ولا يمكن اقناع عاقل، بأن المسيحيين حسب هذه الاقوال يعبدون الها واحدا، بل ثلاثة آلهة الله الآب والله الابن، والله الروح القدس». ولكن لأن المسيح هو الاقرب للفهم الانساني، لأنه الاكثر تجسدا في ملامح يفهمها الانسان، فقد احتل المكانة الاولى، وأصبح الالهان الآخران مجرد مساعدين له. وقد كنا نقرأ في التاريخ كيف تغلب آمون على رع واحتل مكانه، واصبح اشهر منه، وكيف يزحف اله من الهة الاغريق او الرومان من المرتبة الخلفية ليحتل المرتبة الاولى ويصعب علينا فهم السبب. حتى فسرت التجربة المسيحية ذلك التطور العجيب.

ومؤلف ساعة الاصلاح يبدو أنه اختار الثالوث على التوحيد فقد قال بالحرف الواحد: «ان التوراة ركزت على الوحدانية رغم علمها بأن الله ثلاثة او مثلث الا قانيم لان الناس كانوا حديثي عهد بالوثنية (ج) ومع ذلك فهناك تلميحات عن الاقانيم الثلاثة أو التي تشهد بوجود الله الواحد المثلث الاقانيم: في سفر التثنية يقول موسى للشعب: اسمع يااسرائيل: الرب الهنارب واحد. فتحب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك ٦ : ٤ و٥ !!!!! (ج)

وبالطبع لا يمكن فهم اين الثالوث، الا اذا كان المؤلف الطيب يقصد أنه لما قال له أحب الهك من «قلبك ونفسك وقوتك» كان يلمح للثالوث لأنه تحدث عن ثلاثة القلب والنفس والقوة!! وهذا عبث يكتب للمغتربين في لندن ولا نأخذه حجة على أحد..

الا انه في الفقرة الثانية اكثر وضوحا واكثر منطقا فهو يقول: لما تم تعميد يسوع: «صعد للحال من الماء واذا بالسماوات قد انفتحت له، ورأى روح الله نازلا مثل حمامة وآتيا عليه واذا بصوت من السماء يقول: هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت».

ويعلق ـ عن حق ـ ان هذا لا يمكن فهمه بدون الاقرار التام بالثالوث!!

اي انه لا يمكن ان يكون الله في الحمامة، وصوت قادم من السماء هو صوت الله، والله ثالث يخرج من ماء المعمودية.. لا يمكن قبوله الا باقرار أن الله ثالث ثلاثة «لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة. وما من اله الا اله واحد. وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب اليم» (المائدة ٧٣).

«الله الآب الذي رسم تدبير الفداء والله الابن الذي قام بانجاز الفداء..» ويؤكد الداعي لساعة الاصلاح نظرية ارتباط الوهية المسيح بفكرة الخلاص.. فهو يقول «ابن الله

٩ ـ ص ٦٦ ن. م.

الازلي الذي هو اله من اله اخذ طبيعة بشرية حقيقية من مريم العذراء وبواسطة عمل الروح القدس..» ويتساءل «لماذا تمت ولادة المسيح وعلى هذا الشكل الفريد أي بواسطة عمل الروح القدس وليس حسب الطريقة البشرية؟!»

ويجيب: «ان الخطيئة قد تغلغلت الى جميع افراد الجنس البشري ولذلك نرى ان الروح القدس اعطى لمريم العذراء بأن تحبل وتلد يسوع المسيح. وهكذا جاء المخلص الى العالم بدون ان تكون الخطيئة البشرية عالقه به. لو كان في المسيح يسوع اية خطيئة لما كان بمقدوره ان يتمم الخلاص الذي جاء من أجل انجازه».

وهو تفسير بصرف النظر عن النظرية كلها، متهافت، لان المسيح أما حمل الجانب الانساني من مريم وبذلك حمل جزء من الخطيئة الانسانية حتى ولو كانت بنسبة خمسين بالمائة مما يحمله الانسان العادي، الا انها «عالقة به».. واما انه اله كامل وضع في مريم كمجرد وعاء دون ان يكتسب منها أية صفات انسانية، وهو عكس ما يذهب اليه الشراح بل وقارع ساعة الاصلاح نفسه اذا قر في صفحة ١٤٦: «وقيامة السيد المسيح تؤكد لنا بطريقة قطعية هو موضوع تجسده اي مجيئه في هذا العالم واخذه طبيعة بشرية من العذراء مريم»..

ومادام اخذ الجسد فقد اخذ الخطيئة.. ويحسن أن يستمر المصلح على نظرية الالوهية الكاملة، فهي اكثر منطقا، مع التسليم بتعدد الله سبحانه وتعالى، فهو «ابن الله الوحيد، فهو ازلي اله من اله، كان قبل ان يبدأ الكون ولم يبدأ وجوده عندما تجسد من مريم العذراء». عند الخليقة كان الابن عاملا مع الاب في الخليقة، الوارد ذكرها في افتتاحية سفر التكوين». «فمنذ الخليقة يعمل الابن مع الآب في الاعتناء بالخليقة وفي محاربة الخطية»..

ومن المستحيل تصور هذا الابن البار الذي يعاون والده في العمل، هو نفس الوالد، او انهما معا يشكلان اله واحد آمين!..

اسهل على الفهم الف مرة.. «قل هو الله أحد.. الله الصمد.. لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد».

ثم نعرض المزيد من ملاحظاتنا من قراءة الانجيل حول نشوء وتطور فكرة البنوة لله..

وفي اعتقادي ان المشكلة طرحت من البداية مع مولد المسيح العجائبي، فهو بعكس كل اولاد آدم ليس له والد. واذا كان العقل المسلم قد تقبل ذلك ببساطة تامة، كمعجزة الهية. فالله الذي خلق آدم بدون والد أو والدة، لا يصعب عليه خلق نصف ذلك، اي انسان له والدة وليس له والد.. هكذا طرحها القرآن بوضوح كامل: «ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون» (آل عمران). وساعد على قبول ذلك بين المسلمين، التفكير التوحيدي الاسلامي، الذي فصل «ميتافيزيقيا» بين اللاهوت والناس،

بين الله والكون فلا مجال لشبهة الوهية في اي بشر أو منتمي للبشر . . لا يمكن ان يكون الاله من لحم ودم أو له علاقة باللحم والدم والميلاد والموت . . الخ وكذلك لا يمكن ان يصبح اللحم والدم، الها . .

اما اليهود فقد رفضوا القضية ببساطة الكفر المطلق، فالمسيح ـ عندهم ـ رجل مدعي وهو ابن مريم وجوزيف ولا معجزة في ميلاده وقد تم صلبه ولا معجزة في موته . .

اما الموقف المسيحي فقد بدأ بعلامة استفهام ضخمة حول ميلاد المسيح، ومن المؤكد أن المسيح قد أبلغ حواريه ومستمعيه بمعجزته الحقيقية . . وهو الميلاد كانسان كامل ولكن بدون والد . . غير أننا نعتقد أن الشبهة قد وجدت في زمن مبكر جدا وحتى في حياة المسيح، ودليلنا أن الله سبحانه وتعالى قد سأل المسيح نفسه اذا كان قد قال للناس أن يتخذوه هو وأمه الهين من دون الله؟ ودليلنا أيضا النفي الدائم وبتعبير غريب اصبح مصطلحا انجيليا دون أن يهتم الشراح بتفسيره، ونعني حرص المسيح على وصف نفسه «ابن الانسان» حتى ليمكن القول أنه باستثناء مرات تعد على الاصابع، لم يتحدث المسيح عن نفسه الا بوصفه «ابن الانسان» . . ولا ادري كيف يصف شخص نفسه «بابن الانسان» بهذا الاصرار، فتفسر بانه «ابن الله»؟! هذه عقدة لا تفسير لها، وهي توضح الطريقة الغريبة التي تقبل بها المسيحيون التناقض، وبالطبع كل الاناجيل فيها تعبير ابن الله، أو فكرة بنوة ما للمسيح لله سبحانه وتعالى، ولا يمكن ان ننسب كل كلام المسيح الذي يبدأ بعبارة ابن الانسان اليه، ولكن شيوع هذا التعبير، خاصة في الاناجيل الاولى والاقرب لكنيسة فلسطين الاولى، يدل على احتفاظ الذاكرة المسيحية، بهذا الحرص من المسيح على تأكيد بشريته .

ويمكن ان نضيف الى اسباب «الفتنة» اختصاص المسيح بمعجزات مما لم يعط لنبي من قبل مثل «الخلق» «وأحياء الموتى» والانباء «ببعض الغيب» وقد حرص صلوات الله عليه أن يؤكد في كل «معجزة» انه انما يفعلها بامر الله أو باذن من الله ولكن مع تقادم الاجيال، ومع الاستعداد أو الرغبة في تأليه تحولت هذه المعجزات الى قدرات . .

ويقول الدكتور «شارل جينيبير» رئيس قسم الاديان بجامعة باريس ان المسيح «لم يتخذ اللقب الذي يبدو أن اناجيلنا ترى فيه اخص خصائص شخصيته ورسالته ألا وهو «ابن الانسان» أو على الاقل لم يستخدمه في معنى المنقذ المنتظر، فاليهود في هذا العصر كانوا يجهلون هذا المعنى لتعبير «ابن الانسان» . وان كان النص المشهور من كتاب دانيال يقول ١٣/٧ ـ ١٤ : «كنت اتأمل في رؤى الليل، فاذا بي ارى قادمة على سحب السماء، صورة كصورة ابن الانسان»[١٠].

١٠ ـ المسيحية نشأتها وتطورها ص ٥١

ولا اعتراض لنا، فالمسيح لم يستخدم هذا التعبير أبداً بمعنى المنقذ أو المخلص، لأن فكرة الخلاص كما قرر الدكتور وغيره دخيلة وفي فترة متأخرة، وكحل لمشكل آخر وهو الصلب المزعوم . . ومن المحتمل جدا أن يكون بعض «المجتهدين» حاولوا الربط بين هذا التعبير «الغريب» على لسان المسيح ـ غريب في تكراره ـ «ابن الانسان» وبين النص الوارد في كتاب دانيال، ولكن رأينا نحن ان المسيح استخدمه، ثم استخدمه من بعده كتبة الانجيل العارفون لنفي الشبهة عن انسانيته وتأكيد هذه الانسانية . . وربما ـ لحسن الحظ ـ ساعدت نبؤة دانيال، على انقاذ هذا التعبير من مقص الرقيب، أو قلم المنقح في الفترة التي تبنت فيها الكنيسة نهائيا الوهية المسيح، فرغم تناقض «ابن الانسان» مع ادعاء «ابن الله» الا انهم ابقوا عليه، تحت اغراء اثبات انه هو المنقذ الذي ظل اليهود ينتظرونه، وهذا التحدي كان له ثقل كبير جدا في اللاهوت المسيحي، والحوار المسيحي ـ اليهودي . . وهكذا شاءت ارادة الله أن يبقى هذا الاقرار بان المسيح هو «ابن الانسان» مصداقا لقوله تعالى: «ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام . انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر اني يؤفكون» المائدة.

ولنراجع بعض ما جاء على لسان المسيح ومعاصريه عن «ابن الانسان»

يقول: «ولكن ابن الانسان لا يجد مكانا يضع فيه رأسه «متى ٨/ ٢٠» لان ابن الانسان هو سيد حتى يوم السبت «متى ١٢/ ٨» . «اقول لكم ان من يتكلم ضد ابن الانسان سيغفر له، ولكن من يتكلم ضد روح القدس لن يغفر له ذلك لا في هذا العالم ولا في العالم القادم» متى ١٢/ ٣٢.

وهي تفرقة واضحة بين شخص المسيح كانسان، وبين قدسية الرسالة، او الوحي لان روح القدس في اعقل التفاسير هي الوحي او الرسالة . . ومن ثم من يخطيء في حق المسيح البشر يغفر له، ولكن من يكفر بالوحي، بالرسالة، بالله . . لا يغفر له[١١] . وهذا تأكيد واضح على الفصل بين المسيح والاقنومين . . الله وروح القدس . وفي انجيل مرقص وردت الآية منقحة: «الذي يكفر بالروح القدس لا توبة له ولا غفران» مرقص ٣/ ٢٩ . فقد حذف الجزء الخاص بالغفران لمن يتكلم ضد المسيح ابن الانسان . ولكن الناسخ لم يستطع ان ينتقل تماما الى المعسكر الآخر، فيساوي بين المسيح وروح القدس . ولوقا اخذ نص متى فأورده هكذا: «من يتكلم ضد ابن الانسان سيغفر له الله . ولكن من يجدف ضد روح القدس فلن يغفر له أبدا» لوقا ١٢/ ١٠ «ان من يزرع الخير هو ابن الانسان» المسيح : متى ١٣/ ٤١ . .

١١ ـ ان الله يغفر الذنوب جميعا الا ان يشرك به .

وتأمل هذا الحوار:

وسألهم المسيح: «ماذا يقول الرجال عني.. هل انا ابن **الانسان**؟ وانتم ماذا تقولون عني» متى ١٦/١٥

وقد اختلفت الاجابات كما شرحنا في موضع آخر..

وقال: «لان **ابن الانسان** سيأتي في مجد ابيه مع الملائكة» متى ١٦/٢٧ «الحق اقول لكم بعض الواقفين هنا لن يذوقوا طعم الموت حتى يشاهدوا **ابن الانسان** قادما في مملكته» متى ١٦/٢٨. وهذا يعفينا من مناقشة الشق الآدمي والشق الالهي. فالمسيح الذي سيأتي بعد الموت وفي مملكته لايزال «ابن الانسان».

وتأمل هذه: «اثناء اجتماعه بموسى والنبي الياس ظهرت سحابه وسمع منها صوت يقول: هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت» متى ١٧/٥

«فخروا على وجوههم. ولكن عندما افاقوا ورفعوا رؤوسهم لم يكن هناك من انسان الا عيسى» متى ١٧/٨. وقال لهم عيسى لا تخبروا بذلك أي انسان حتى ينهض **ابن الانسان** من موته» متى ١٧/٩. وقد استخدم الانجيل نفس اللفظة على لسان المسيح MAN سواء في الحديث عن اي انسان أو عن ابن الانسان المسيح son of man.. فبأي حق نفرق نحن؟! «وكما سيعاني «ابن الانسان» على ايديهم» متى ١٧/١٢ «قال لهم **ابن الانسان** سيخونه الناس وسيقتلونه وفي اليوم الثالث سيقوم ثانية «متى ١٧/٢٢ - ٢٣.» لان **ابن الانسان** جاء لانقاذ الضائعين» متى ١٨/١١

عندما يجلس **ابن الانسان** على عرش مجده ستجلسون على ١٢ كرسيا تحاكمون قبائل اسرائيل الاثنى عشرة» «ان ابن الانسان سيخاف أو سيوشى به لرئيس الكهنة» متى ٢٠/١٨ «ولو ان **ابن الانسان** ما جاء» متى ٢٠/٢٨

«قدوم **ابن الانسان**» متى ٢٤. «وعندها ستظهر علامة **ابن الانسان** في السماء، وسيرون **ابن الانسان قادم في سحب السماء..**» متى ٢٤/٣٠ - «كذلك سيكون قدوم **ابن الانسان**» متى ٢٤/٣٧ نفس الآية متى ٢٤/٣٩. «في الساعة التي لا تتوقعون فيها **ابن الانسان**» متى ٢٤/٤٤. «عندما يأتي **ابن الانسان في مجده**» متى ٢٥/ «بعد يومين عيدالفصح وسيخان **ابن الانسان**». سينفذ **ابن الانسان** لما كتب له، ولكن الويل للذي سيخون **ابن الانسان**» متى ٢٦/٢٤. «**وابن الانسان** سيسلم لايدي الخطاة» متى ٢٦/٤٥.

فهو اولا وأخيراً.. مولدا ومحنة وبعثا «ابن الانسان» فلماذا نتقول عليه؟.. ومن اين جاء هذا الزعم بانه ابن الله؟!

وقد رأينا ان انجيل متى، الانجيل الاول، حرص في الآية الاولى منه أو السطر الأول على اثبات نسب المسيح البشري.. هكذا: «كتاب نسب أو آباء عيسى المسيح ابن داود

بن ابراهيم» ١/١. ولا يمكن ان يسقط «الله» سهوا من هذا النسب «المحرر».

ويمكن للقارىء ملاحظة التطور بين انجيل متى وانجيل يوحنا واعمال الرسل. حيث يجد انسانية المسيح تشحب باستمرار لحساب الوهيته، حتى نجده الها كاملا في اعمال الرسل، ولا يكاد يوصف بابن الانسان، وحيث يتكثف تعبير «الابوه» و «البنوة» ليتخلص من المفهوم الواسع الذي ساد التعبير اليهودي، لتصبح أبوة وبنوة مباشرة وخاصة للمسيح..

والذي طرح فرية ابن الله هو الشيطان والشياطين! فقد صاحت فيه الشياطين: «ماذا نفعل بك ياعيسى يا ابن الله» متى ٨/٢٩ والشيطان الكبير هو الذي وجه اليه هذا السؤال، قال له الشيطان: «اذا كنت انت ابن الله.. افعل كذا.. أو كذا..» اما المسيح فقد رد ردا اسلاميا مائة في المائة: «مكتوب لا تعبد الا الله ولا تطيع الا اياه» متى ٤/١٠ فهل هكذا يتحدث الله عن نفسه؟!..

والعميان نادوه: «ارحمنا ياسيد انت يا ابن داود» متى ٢٠/٣٠. وهذا موقف شفاعة يستحسن فيه مناداة الشفيع بأحب الاسماء له، ولو كان هناك مجرد اشاعة بادعائه صلوات الله عليه بنوة الله.. لنادوه «ياابن الله» وليس على الأعمى حرج.

وعندما دخل القدس هتف المؤمنون والحواريون بين يديه ومن خلفه «حصانه Hasanna (ليحفظ) ابن داود، مبارك القادم باسم الرب» متى ٢١/٩

ولما تساءل اهل القدس: من هذا؟ رد الجمهور: «هذا عيسى نبي الناصرية التي في الجليل» متى ٢١/١١ واستاء الكهنة لما رأوا ايمان العامة به وصياحهم حوله في المعبد: «حصانة لابن داود» متى ٢١/١٥ فسألوه عن هذا الذي تصيحه العامة رد مؤكدا «إن الحقيقة هي ما يقولون» متى ٢١/١٦

وان كان كاتب انجيل متى يعذبنا بنقض هذه الرواية فيجعل المسيح يشكك في أنه ابن داود فيطرح هذا السؤال: «كيف يكون المسيح ابن داود، وداود يلقبه بسيدي؟!» فسكت الجميع!

ولم يكن فيهم «العباس» ليقول: «هو اكبر مني ولكني ولدت قبله» وهكذا بقى السؤال بلا جواب! او زاد السكوت في عجزنا عن فهمه.. فهل يعني ذلك ان كل ما حاولت الاناجيل اثباته عن النسب لداود موضوع وخاطىء؟![١٢] أم اننا امام مثال صارخ عن الصراع بين مدرسة نسب داود، ومدرسة النسب الالهي.. وهما في حوارهما يوحي لهم روح القدس «بوضع الاقوال المؤيدة لوجهة نظرهم على لسان السيد المسيح»؟!!..

---

١٢ - نفس السؤال المشكك في بنوته لداود موجود في مرقص ١٢/٣٥ - ٣٧ ولوقا ٢٠/٤١ - ٤٤

لقد حسمت لجنة ترجمة انجيل لوقا[١٣] هذا الموضوع بعد عشرين قرنا بحل بسيط جدا، اذ اتهمت كتبة الانجيل بالتزوير!..

قالت بالحرف الواحد:

«ومن الواضح أن السيد المسيح الذي جاء من روح القدس وليس من إنسان، والذي قال عنه الملاك للسيدة العذراء إن «القدوس الذي سيولد منك يدعى ابن الله»، لا يصح أن يدخل في سلسلة أنساب بشرية، وإن كان من جهة الجسد من نسل الملك داود، لأن أمه كانت من سلالة هذا الملك. وقد أوضح السيد المسيح نفسه هذا المعنى في تعاليمه، إذ جاء في إنجيل متى أنه «فيما كان الفريسيون مجتمعين سألهم يسوع قائلا: ماذا تظنون في المسيح؟ ابن من هو؟. فقالوا له: ابن داود. قال لهم: فكيف إذن يدعوه داود بالروح ربي، قائلا قال الرب لربي اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك تحت قدميك؟ فان كان داود إذن يدعوه ربه، فكيف يكون ابنه؟» (متى ٢٢ : ٤١ ـ ٤٥). بيد ان تلاميذ السيد المسيح ورسله أرادوا أن يثبتوا لليهود أن يسوع الناصري هو المسيح الذي تنبأ بمجيئه الأنبياء وقالوا إنه سيجيء من نسل داود، حتى درج اليهود على أن يلقبوا المسيح الذي ينتظرونه بابن داود. وقد كان الذين آمنوا به حين جاء يلقبونه عندما يخاطبونه بابن داود. ومن أمثلة ذلك أنه جاء في إنجيل متى «ولما مضى يسوع من هناك تبعه أعميان يصرخان قائلين: يابن داود ارحمنا» (متى ٩ : ٢٧). وجاء فيه أن «امرأة كنعانية قد خرجت من تلك النواحي تصرخ قائلة: ارحمني يارب يابن داود» (متى ١٥ : ٢٢) وكان الذين يرون معجزات السيد المسيح يتساءلون عما إذا كان هذا هو ابن داود، قاصدين بذلك الاستفهام عما إذا كان هذا هو المسيح المنتظر الذي سيجيء على مقتضى النبوءات من نسل داود. ومثال ذلك أنه جاء في إنجيل متى أنه «جيء إليه برجل كان به شيطان وكان أعمى وأخرس فشفاه.. فدهش كل الجمع قائلين: أليس هذا هو ابن داود؟» (متى ١٢ : ٢٢). وقد جاء في رسالة بولس الرسول إلى أهل روما أن السيد المسيح «صار من نسل داود من جهة الجسد» (رومية ١ : ٣). ومن ثم أورد القديسان متى ولوقا في بشارتيهما سلسلة نسب السيد المسيح ليثبتا أن يسوع الناصري هو ابن داود الذي تكلمت عنه النبوءات، لأنه قد جاء من جهة النسب من نسل داود. وفضلا عن ذلك كانت للقديسين متى ولوقا حكمة أخرى يقصدان إليها حين أوردا سلسلة نسب السيد المسيح وهي أنهما أرادا القول أن السيد المسيح وهو كلمة الله إذا تجسد، قد اتخذ الصورة الحقيقية الكاملة للانسان ليتمم فيها الرسالة التي جاء من أجلها إلى العالم، وهي خلاص البشر. فهو بهذا المعنى إنسان وابن انسان، ولاسيما أنه هو

١٣ ـ ط. م.

نفسه كان يلقب نفسه بابن الانسان، إثباتا لهذه الحقيقة. ومثال ذلك أنه جاء في إنجيل القديس متى أنه سأل تلاميذه قائلاً «ومن تقول الناس إني هو، أنا ابن الانسان؟» (متى ١٦ : ٣). وجاء في إنجيل مرقس أنه قال لتلاميذه «إن ابن الانسان ينبغي أن يتألم كثيراً.. ويقتل، وبعد ثلاثة أيام يقوم» (مرقس ٨: ٣١). وجاء في إنجيل القديس يوحنا أنه قال «ليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء، إبن الانسان الذي هو في السماء» (يوحنا ٣ : ١٣). وأنه قال «كما أن الآب له حياة في ذاته، كذلك أعطى الابن أيضاً أن تكون له حياة في ذاته، وأعطاه سلطاناً أن يدين أيضاً لأنه ابن الانسان» (يوحنا ٥ : ٢٦ و ٢٧). وبهذا المعنى يكون السيد المسيح هو «نسل المرأة الذي جاء في سفر التكوين أنه سيسحق رأس الحية التي هي رمز الشيطان مصدر الشر والهلاك. إذ جاء في هذا السفر «فقال الرب الاله للحية: لأنك فعلت هذا.. أضع عداوة بينك وبين المرأة، وبين نسلك ونسلها. هو يسحق رأسك، وأنت تسحقين عقبه» (التكوين ٣: ١٤ و ١٥).

«وانه إن كان السيد المسيح قد تجسد في أحشاء السيدة العذراء من روح القدس، ولم يكن من نسل رجل، فان اليهود حين كانوا يذكرون الأنساب لم يكونوا يستندون في ذلك إلى نسب الأم وإنما إلى نسب الأب. ولذلك فان القديسين متى ولوقا حين أرادا أن يبرهنا لليهود على أن يسوع الذي صلبوه هو المسيح الذي ينتظرونه، وأنه من نسل داود كما تنبأ الأنبياء، لم يذكرا نسبه من جهة أمه القديسة مريم، مع أنها كانت من نسل داود، وإنما من جهة يوسف الذي كان على الرغم من أنه لم يتزوجها معروفاً بأنه زوجها، والذي إن لم يكن أباً حقيقياً للسيد المسيح، فانه كان أباً اعتبارياً له. ولذلك يقول القديس لوقا حين أورد قائمة نسب السيد المسيح أنه «على ما كان الناس يظنونه ابن يوسف». وقد أثبت القديسان متى ولوقا أن يوسف من نسل داود من واقع سجلات الأنساب التي كان اليهود يحرصون على تدوينها ويهتمون اهتماماً عظيماً بالاحتفاظ بها. ومن ثم جاء نسب يوسف في الفصل الأول من إنجيل القديس متى في سلسلة تبدأ من إبراهيم الأب الأول لليهود، وتشتمل على اسم الملك داود باعتباره الجد الأول الذي ينتسب إليه يوسف (متى ١ : ١ ـ ١٦). وأما القديس لوقا فانه حين أراد إثبات نسب يوسف إلى داود لم يبدأ سلسلة هذا النسب نازلاً بها من إبراهيم، وإنما بدأ بها صاعداً من يوسف نفسه إلى أجداده الأولين ومنهم داود. وقد ختم هذه السلسلة بقوله إنها تنتهي عند شيث، بن آدم، بن الله» ملمحاً بذلك إلى أن السيد المسيح هو ابن الانسان وابن الله في نفس الوقت».

دعني الخص ما جاء في هذه المقدمة التي كتبها نخبة من مفكرينا.

١ ـ «المسيح لا يجوز أن يدخل في سلسلة انساب البشر».

وهذا يعني أن متى ولوقا قد ارتكبا «ما لا يجوز».. ليس هذا فقط بل وما هو مخالف لارادة

المسيح الذي اوضح بحكاية السؤال عن «داود» انه لا يجوز أن ينسب الى داود . . وان كان من ناحية أمه من نسل داود.

٢ـ اما لماذا فعل القديسان «ما لا يجوز» فلأن اليهود كانوا ينتظرون نبيا من نسل داود ومن ثم «اورد القديسان متى ولوقا في بشارتيهما سلسلة نسب السيد المسيح ليثبتا أن يسوع الناصري هو ابن داود» . وصحيح انه كان من الممكن اثبات النسب عن طريق أمه، ولكن ما باليد حيلة، فاليهود حين كانوا يذكرون الانساب لم يكونوا يستندون في ذلك الى نسب الأم وانما الى نسب الأب» ولان الزبون دائما على حق «فان «القديسين» متى ولوقا حين ارادا أن يبرهنا لليهود على أن يسوع الذي صلبوه هو المسيح الذي ينتظرونه، وانه من نسل داود كما تنبأ الانبياء، لم يذكرا نسبه من جهة أمه القديسة مريم، مع انها كانت من نسل داود، وانما من جهة يوسف الذي كان على الرغم من انه لم يتزوجها معروفا بأنه زوجها، والذي وإن لم يكن أبا حقيقيا للسيد المسيح ، فانه كان ابا اعتباريا . . ولذلك نسبوه زورا وبهتانا الى يوسف النجار كما فعل اليهود بل تصديقا لادعاء اليهود قاتلهم الله!

لا . . . تفسيرنا الذي عرضناه قبل ذلك افضل، ونحن ننزه القديسين «متى و «لوقا» عن مثل هذا التحايل . . ونعتقد انه مرت فترة كان الفهم الانجيلي مشوش بين دور يوسف النجار، وروح القدس ولذلك لم يجد كاتب الانجيل تناقضا بين بنوة عيسى بيولوجيا ليوسف النجار، ومن ثم اعتمد النسب . فلما انتصرت المدرسة غير اليهودية، تمسكت بالنسب لداود، ونفت الصلة البشرية، وسكتت عن التناقض، حتى تعرض له مسيحيون لأول مرة، يعيشون في مناخ اسلامي . ولعل ذلك هو ما دفعهم الى تفسير لا نظن أن «الاناجيل» أو الكنائس الغربية تقرهم عليه، وان كنا نرى انهم لو مضوا خطوة واحدة للامام لانتهى الخلاف بيننا حول تفسير «ابي» فقد قالوا في شرح سفر ٢ آيات ٢٣/٣٨ من انجيل لوقا :

«وما من شك في أن وصف السيد المسيح بأنه ابن الله، إنما هو وصف روحي وليس وصفاً جسدياً . وهو وصف إلهي وليس وصفاً بشرياً . لأنه من غير المعقول أن يقال إن الله سبحانه وتعالى قد تزوج زوجة وأنجب منها ابناً، كما ينجب الناس ذوي الأجساد أبناء من زوجاتهم . لأن الله روح، منزه عن المادة، ويستحيل على العقل البشري المحدود أن يدرك طبيعته اللاهوتية غير المحدودة، ومن ثم يستحيل أن ينطبق على البشر ذوي الكيان المادي الجسدي . فوصف السيد المسيح بأنه ابن الله ليس إلا تعبيراً قصد الله به أن يجعل طبيعة الرابطة التي تربطه بالسيد المسيح قريبة إلى أفهام الناس بذات الألفاظ التي يستخدموها في علاقاتهم الاجتماعية . بيد أن هذه الالفاظ البشرية قاصرة بطبيعة الحال عن أن تعبر عما هو فوق مستوى البشر، وفوق مداركهم . فلا ينبغي أن يقصر الانسان معناها على ما يفهم هو منها عندما يستخدمها . وهذا كذلك هو الشأن بالنسبة لوصف السيد المسيح بأنه كلمة الله

(يوحنا ١ : ١).

«ومن وصل الى هذا الفهم، لا يمكن ان يقول في السطر التالي مباشرة:

ولعل القول بأن السيد المسيح هو ابن الله، والقول بأنه هو كذلك كلمة الله، يوضح أحدهما الآخر، ويفسر كل منهما معنى الآخر، وإن يكن ذلك مع هذا بنفس اللغة البشرية القاصرة عن التعبير عن تلك المعاني الالهية التي لا يحيط بكنهها إلا الله وحده . ومما يدل على ذلك ان السيد المسيح صرح بأنه هو والله الآب واحد، وأن من رآه فقد رأى الآب (يوحنا ١٤ : ٩ ـ ١١) . فالسيد المسيح ابن الله . وهو في نفس الوقت الله ذاته . وذلك لأن الأمر كله متعلق بطبيعة الله التي لا يمكن أن يدركها بشر، ولأن الله واحد . فان قيل إن له ابناً بالتعبير البشري فلابد أن تكون طبيعة الابن وذاته هي نفسها طبيعة الله وذاته . وإن قيل إن له كلمة، فلا بد أن تكون طبيعة الكلمة ذاته هي نفسها طبيعة الله وذاته، وإلا نسبنا إلى الله التعدد في طبيعته وفي ذاته، في حين أن الله منزه عن التعدد بأي معنى من المعاني، وعلى أي وجه من الوجوه . فلئن تحدثنا إذن عن ابن الله، إننا نتحدث في ذات الوقت عن الله نفسه، ولئن تحدثنا عن كلمة الله، إننا نتحدث في ذات الوقت عن الله نفسه كذلك . وهذا سر من أسرار الطبيعة الالهية لا ينبغي ولا يليق أن ننزل به إلى مستوى التفكير فيه أو الحديث عنه، قياساً على الطبيعة البشرية» .

نفرغ بسرعة من «تلقيح» أو تعريض اللجنة بقوله تعالى «انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته القاها الى مريم» (النساء) فقد فسر المفسرون قبل «ادعاء» اللجنة بثلاثة عشر قرنا كلمته بأنها قوله «كن فيكون» فهي ليست «اللوغيس» وانما هي امر الله، بكلمة منه القاها الى مريم حملت على الفور بالمسيح . . وهذه الكلمة التي خلقت المسيح لم تجعله جزءاً لا يتجزأ من ذات الله، كما ان «الكلمات» التي تلقاها آدم من ربه فغفر له لم تجعله من ذات الله! . .

اما ما عدا ذلك فقد كنا نفضل لو اعتصمت اللجنة بفتوى ان هذه القضية فوق مستوى عقل البشر، فلا تحاول شرحها لعقول البشر وباجتهادات عقول بشرية . . فلا سبيل لاقناع أحد بان المسيح هو الله ذاته، وفي نفس الوقت يحاول الشيطان ان يقنع الله ذاته بأن الله ذاته تخلى عن الله ذاته او ان تقول اللجنة : «وليس معنى ان الله لم يرسل الى السيد المسيح خبزا في صومعته انه تخلى عنه . لان الله كان راضيا عن ذلك الصوم، والا كان انزل عليه المن والسلوى اللذين سبق له ان انزلها على بني اسرائيل . . »[١٤]

كيف يرسل الله ذاته لله ذاته خبزا في الصومعة لأن الله ذاته جائعا والله ذاته عنده الخبز

١٤ـ ص ١٩٩

بل المن والسلوى، ولكن الله ذاته خارج الصومعة راضيا عن صوم (المسيح) الله ذاته داخل الصومعة؟!

«فلئن عصا البشر جميعا شريعة الله فلن يعصاها هو (المسيح) بطبيعته البشرية كما انه من غير المعقول أو الممكن ان يعصاها بطبيعته الالهية لأنه ابن الله، ولأنه هو الله ذاته، والشريعة هي شريعته»[١٥]

كيف يعصى الله ذاته الله ذاته[١٦]!

أو «تلك الحقيقة اللاهوتية الفائقة التي تتضمن ان الله الآب لأنه واحد مع الابن سلم اليه كل سلطانه، ومن ثم فان سلطان الابن هو نفسه سلطان الله الآب ولما كان الابن واحدا مع الآب في جوهر الالوهية الواحد»[١٧]!

وتؤكد اللجنة ما ذهبنا اليه وهي ان ادعاء الوهية المسيح لم يطرح لا على لسان المسيح، والعياذ بالله، ولا على لسان الحواريين، بل ولا كان في خاطر المؤمنين به عندما تقول: «واخذوا يسبحون الله الذي كان قائما في تلك اللحظة بينهم وهم لا يعلمون لأنه كان متخذا جسد الانسان وابن الانسان. لم يكونوا يعلمون تلك الحقيقة التي تعلو على مدارك البشر والتي اعلنها القديس يوحنا فيما بعد في انجيله إذ قال «إن الكلمة اتخذ جسدا، وحل بيننا ورأينا مجده»[١٨] يوحنا ١ : ١٤.

فهو سر لم يحط به متى ولا مرقص ولا لوقا علما.. ولا حرص احد على ذكره للمسيحيين الاوائل.. وما أهمية المعجزة ان لم تكن للاقناع بالقضية الاولى في الدين كله؟!

وسر حجب عن الذين عاشوا مع المسيح جدير به الا يكشف ابدا!

ولماذا عندما سأله رئيس الكهنة: «هل انت المسيح ابن الله» متى ٢٦/٦٣ رد عليه عيسى «انت قلت ولكنك سترى ابن الانسان قادما في مجد[١٩].. الخ» متى ٢٦/٦٤..

اذا كان جوهر الدين كله، وهدف الرسالة هو ايمان الناس بان المسيح هو ابن الله.. فلماذا لم يرد ردا صريحا واضحا على رئيس الكهنة: «نعم انا هو..» بدلا من «انت اللي بتقول..» ولا مجال للقول بأنه كان «يخشى» انتقامه فالفكر المسيحي يقول انه جاء للخلاص والفداء وانه سعى سعيا لكي يؤخذ ويقتل.. ومع ذلك فالرواية مضطربة في

١٥ ـ الانجيل للقديس لوقا مقدمة اللجنة ط. م

١٦ ـ الا يذكرنا هذا باغنية حكايتك ايه دا أنا انت..!

١٧ ـ انجيل لوقا ط. م مقدمة اللجنة.

١٨ ـ ن. م ص ٤٠٤

١٩ ـ وليس صحيحا ما تقوله اللجنة انه رد عليه «نعم انا هو كقولكم» ص ٤٧٦ فهذا خلط بين روايتين سنتعرض له في السطور التالية، فهو قال نعم انا ابن المبارك أو «المباركة» وليس ردا على سؤال هل انت ابن الله؟..

ذاكرة الرواة وصيغة السؤال مشكوك فيها، فهنا في متى واضحة قاطعة: هل انت ابن الله؟ مع افتراض المعنى العبراني «لابن الله» أو عبده.. الخ اما مرقص فيقدم رواية اخرى تختلف في اهم نقطة: «ابن الله» فرئيس الكهنة يسأل المسيح عند مرقص: «هل انت ابن المبارك»..

ولنثبت النصين:

في متى:

The high priest answered and said unto him, I adjure that by the living God, that thou tell us whether thou be the christ, the son of God. متى ٢٦/٦٣

«هل انت المسيح ابن الله؟»

وفي مرقص كالآتي:

Again the high priest asked him, and said unto him. art thou the christ son of the blessed? مرقص ١٤/٦١

«هل انت المسيح ابن المبارك؟

«والمبارك»[٢٠] لا يمكن أن تعني الله. لأن الله هو الذي يبارك من يشاء ولا أحد يبارك الله.. والمسيحيون يقولون: «مبارك القادم باسم الرب» ولا يقولون مبارك الرب! والقضية على اية حال ليست هينة الى حد يغني فيها التلميح عن التصريح.. أو تعامل بمثل هذه اللامبالاة؟! والذي اثبت الحوار بدقة الى حد تحديد اين كان يقف رئيس الكهنة؟ وكيف تدرج في الاسئلة، لا يمكن ان يغفل صيغة السؤال ان كان قد تضمن هذه القنبلة، المثيرة لكل من يسمعها.

ونلاحظ ايضا «بأهمية بالغة» انه في رواية متى عندما سأل رئيس الكهنة «هل انت ابن الله» لم يجب المسيح بالايجاب، بل بالعكس القى الاتهام في حقيبة رئيس الكهنة ذاتها: «انت الذي تقول ذلك» Jesus saith into him, thou hast said ولكنك سترى ابن الانسان.. الخ..

اما في مرقص فقد انفردت الرواية بالحالة الوحيدة التي رد فيها المسيح بنعم:

And Jesus said, I am,

أنا وسترى ابن الانسان.. الخ» مرقص ١٤/٦٢.

٢٠ ـ وننبه هنا الى انه قد يكون السؤال: «ابن المباركة» ويقصدون مريم عليها السلام. أو ابن «المبارك» ويقصدون داود عليه السلام.

فرواية متى لم تجرؤ على نسبة هذا القول للمسيح، أو حتى تأكيده في الرد، أما رواية مرقص فنسبت للمسيح تأكيده انه ابن المبارك وابن الانسان» . . واغلب الظن ان «المبارك» المقصود هنا هو «ابن داود» وهو في حد ذاته «ادعاء» يثير اليهود، ويعتبر من الادعاءات العظيمة لان «ابن داود» المسيح الذي كانوا ينتظرونه، يفترض فيه ـ حسب الاسطورة ـ ان يخلصهم من الاضطهاد الاجنبي، وينصرهم على الأمم.

والحاكم الذي بعث به الى الصلب، تحدث اكثر من مرة عن عيسى الملقب بالمسيح ولم ترد مرة واحدة على لسانه اشارة الى «ابن الله». والجند الذين احاطوا به من لحظة القبض عليه الى موته على الصليب لم يرددوا هذا الاتهام بل سخروا منه قائلين: «تحياتنا لملك اليهود» متى ٢٧/٢٩ ولو كانت بنوة الله تتردد، لكانت اكثر سخرية واستفزازا والتهمة التي علقت فوق رأسه على الصليب هي: «هذا هو عيسى ملك اليهود» متى ٢٧/٣٧

«خاف الكهنة ان يمسوه لأن الجمهور اعتبره نبيا» متى ٢١/٤٦ فهذا اقصى ما وصل اليه ايمان الجماهير.

فهؤلاء هم اليهود، المتهمون، والرومان السلطة التي نفذت حكم الاعدام، كلهم لم يوجهوا تهمة «ابن الله» ولكن المارة واللصوص هم الذين قالوا: «اذا كنت ابن الله انزل من على الصليب» متى ٢٧/٤٠. بينما رئيس كهنة اليهود، أو المدعي العام وكبار القوم قالوا: «اذا كان هو ملك اسرائيل فلينزل من على الصليب ونؤمن به» متى ٢٧/٤٢ وكان التحدي يكون اكثر قوة، اذا قال: «اذا كان هو ابن الله. . . الخ» لأن ملك اليهود بل حتى نبي اليهود يمكن أن يقتل. .

والحكماء الذين جاءوا من الشرق سألوا: «عن ملك اليهود الذي ولد» متى ٢/٢

واخيرا «المسيح» نفسه صاح في اكثر اللحظات صدقا في حياة الكائن وهو يسلم الروح، صاح «الهي. . الهي». .

ووصف متى لموته لا يليق باله: و«أسلم الروح» لأن الله لا يموت وليس له روح كالانسان: «Yielded up the ghost» متى ٢٧/٥

واظن ان القديس الذي كتب الانجيل يعرف اذا كان الله يمكن ان يسلم الروح أولا. .

وبعد «الوفاة». . والقيام ووقوع المعجزات التي تحدث عنها «متى» حتى ان «الذين شاهدوها قالوا: «هذا فعلا كان ابن الله» متى ٢٧/٥٤.

فأي شهادة نقبل. . رئيس الكهنة والسلطة والحواريون والمسيح نفسه أم المارة واللصوص والذين شاهدوا المعجزات بعد وفاة المسيح؟!

ورغم الاتجاه الى تكثيف معنى تلك الألفاظ لتعني انبثاقا الهيا، خرج به المسيح من الله، كما يخرج الابن من الوالد، فاننا سنلاحظ ايضا أن نفس العبارات تستخدم في مواقع

متفرقة بالمعنى العائم، مثل ما يقول المسلمون «الفقراء عيال الله» أو كما يقول اليهود ان «شعب اسرائيل» هم ابناء الله. . دون أن يعني ذلك بأية حال «النسب» أو الالتصاق أو الانبثاق، أو حمل صفة الوهية في الابناء! . . ومن ثم لا نجد مبررا لكي نفرق بين قول كاتب الانجيل ان المسيح ابن الله، وان الكاتب نفسه وكل من يؤمن بالانجيل سيصبح ابنا لله. . أو بين نسبة كاتب الانجيل للمسيح قوله «ابي الذي في السماء» وبين قول حوالي الف مليون مسيحي كل يوم «ابانا الذي في السماء» لماذا تكون «ابي» المنسوبة للمسيح تحمل معنى اكثر من «ابانا» التي يرددها المسيحيون؟!

والأب في انجيل متى، يصعب جدا حملها على المعنى البيولوجي. . فالمسيح ينصح اتباعه بأن يحبو اعداءهم «لكي تكونوا ابناء ابيكم الذي في السماء». .

فاذا كان هذا الذي في السماء هو أبانا جميعا، كما تقول الصلاة الاكثر من شائعة بين المسيحيين «آبانا الذي في السماء. . . الخ» فلماذا عندما يستخدم المسيح نفس النداء أو التعبير أو يستخدم نفس التعبير عن المسيح. . لماذا يتخذ ذلك صورة علاقة بيولوجية. .

ومن اين جاء تعبير «ابن الله» بمعنى حالة خاصة الوهية؟ . . هل كون الناس «ابناء ابيهم الذي في السماء يعني انهم آلهة؟! وكذلك يقول المسيح لتابعه: «لأن اباك السماوي يعرف انك تحتاج ذلك» متى ٦/٣٦ «صلوا سراً اللأب الذي يرى في السر. . .» متى ٦/٧

فاطلاق صفة الابوة على الله بالنسبة للجنس البشري، والبنوة على الانسان لله، تعبير شائع في كل الانجيل، مما يجعل من حقنا أن نتساءل لماذا يختص المسيح بعلاقة خاصة او بصيغة خاصة من هذه الأبوة، ولنا ان نفترض انه سوء فهم من الاجيال المتأخرة لتعبير كان شائعا في الحديث عن الرب، وكما رأينا عند رفع النسب الى آدم ان الانجيل نسب آدم هكذا: «آدم ابن الله» وشرحنا ذلك في مكانه.

وانجيل متى هو اكثر الاناجيل قربا للمسيحية ـ العبرية، كما يقول الدارسون الغربيون، اما نحن فنقول انه يحمل اكثر بصمات الفكر المسيحي الصحيح الذي بشر به المسيح، وساد دوائر المسيحيين في ايامها الأولى، رغم ما لحق به من تحريف وتشويه طمس هذه البصمات، ومحا اكثرها. .

وانجيل متى يبدأ هكذا في الآية الاولى الاصحاح الأول:

«كتاب نسب أو أباء عيسى المسيح ابن داود بن ابراهيم» ١ ـ ١ هل يمكن ان تكون هذه هي الآية الاولى في انجيل المسيحية التي تعتبر القضية الاولى فيها هي الوهية المسيح عن طريق بنوته لله؟! .

هل يمكن ان تكون الآية الأولى في الانجيل، هي «نسب أو آباء» ابن الله؟! . . ما أهمية اثبات النسب «لداود» أو حتى لابراهيم. . اذا كانت هناك فكرة ثبوت البنوة لله

سبحانه وتعالى؟! من كان ابوه الله . . هل يحاول أن يثبت بنوته «لداود»؟!

في اعتقادنا ان هذا النص يؤكد بما لا يدع مجالا للشك أو المناقشة، ان «متى»، كان خلي الذهن تماما من دعوة الالوهية أو مساواة المسيح لله سبحانه وتعالى!

وسيقال . . ولماذا لا يكون هذا هو النص الدخيل، لماذا تتشبث بالنص الذي يؤيد ادعاءك وترفض النصوص التي تؤيد دعوى المؤمنين . . والرد على ذلك بسيط جدا، ذلك ان الكنيسة المتهمة بتنقيح الانجيل، اعتنقت فكرة «ابن الله» بالمفهوم الالهي ومن ثم فان تدخلها، إن وقع، يكون لتعزيز مفهومها هذا وليس نقضه . . فالنص المخالف لمفهوم الكنيسة، يتحمل أقل نسبة من الشك في وقوع تغيير به . . ونضرب مثلا بالسلطة النازية في المانيا، فهي كمعادية للسامية، تحذف كل ما يشير الى فضائل الساميين ومن ثم فما يفلت من رقابتها، ويبقى شاهدا على فضل أو مساهمة او رأي للساميين يكتسب أهمية خاصة لأنه لا يمكن ان يكون مزورا من قبل النازي.

وعلى هذا الاساس نقول ان انجيل متى كان معنيا باثبات نسب المسيح لداود، وان كان قد لجأ لطريقة غريبة في اثبات ذلك ـ ولكنه لم يواجه أبدا قضية بنوته لله . . ولا طرحها ابتداء كما فعل «مرقص» الذي في الآية الاولى في الفصل أو الاصحاح الأول قال أو قيل على لسانه: «بداية رساله عيسى المسيح ابن الله» . .

هذه هي القضية الاولى وهي مطروحة بوضوح ولذلك نجد «مرقصا» أو انجيله لا يهتم باثبات النسب البشري للمسيح . . بينما «لوقا» لم يطرح «ابن الله» في رأس انجيله، ولذا اشترك هو ايضا مع متى في اثبات نسبه البشري ورفعه إلى آدم . . فهو «آدمي» . . واهم من ذلك ان لوقا في شجرة النسب قال «آدم بن الله» . . ومن حقنا ان نفسر كل ما ورد في انجيله تحت عبارة «المسيح بن الله» بنفس المعنى الذي فهمه المسيحيون خلال عشرين قرنا لتعبيره «ادم بن الله» فالمسيح ابن الله كما آدم ابن الله، وكلنا احفاد الله بثبوت نسبتنا لآدم، ولا معنى للآيات التي تصف المسيح بأنه ابن الله الوحيد، الا اذا رفضنا النص «اللوقي» واعتبرناه مزورا أو مدسوسا . . وان كانت بنوة آدم لله أشد ضرورة من بنوة المسيح!! لأن آدم بلا اب ولا أم، ولا حمل ولا ميلاد . . الخ . . ولكن المسيحي المؤمن يرفض القول بنبوة آدم بيولوجيا لله سبحانه وتعالى، وكذلك يجب أن يرفض هذا التفسير المتأخر لتعبير كان شائعا في أوساط اليهود في فجر المسيحية، وما كان يحمل معنى وثنيا، ولا شبهة ألوهية.

وفي انجيل يوحنا الذي نعتبره يونانيا كاملا رغم الخلاف حول شخصية مؤلفه، واحتمال أن يكون معاصرا للمسيح، نجد أن فكرة الاله البشري واضحة وصريحة من أول فصل، فهو ابن الله، والالوهية تجسدت في لحم . . . الخ . .

باختصار نحن امام مدرستين، المدرسة الاكثر قربا وعهدا بالمسيح والتي كانت مهتمة

ـثـت ـسب المسيح لداود، مقتنعة ببشريته، والمدرسة الثانية التي روجت لألوهية المسيح بشككت حتى في بنوته لداود

ـ ـحة النصوص . .

ـكي تكونوا ابناء ابيكم الذي في السماء» متى ١/٥

فهو ـنا الذي في السماء، والايمان بالمسيح يثبت نسبنا أو يدخلنا في تلك النعمة، أن نكون ـه ابانا الذي في السماء. وواضح ان هذه الألفاظ تستخدم في اطار بعيد كل البعد عن مفهوم «ابن الله» الحالي . . فالله ليس والدنا بهذا المفهوم ولا نحن سنصبح اولاده بمعنى ـنسب البيولوجي أو الاهولوجي! . «لأن اباك السماوي يعرف انك تحتاج لذلك» متى ٦ ٣٢ ونحن لا نجد فرقا بين الشخص الموعوظ، الذي يحدثه الواعظ عن «ابيه ـسماوي» وبين القول على لسان المسيح «ابي السمائي» متى ١٨/٣٤ فالنسبة واحدة، والصفة واحدة . . فبأي حجة يختلف المعنى واي خلاف . . ما بين الله والبشر؟!

في مملكة ابيهم» متى ١٣/٤٣ . «مبارك انصار السلام لأنهم سيدعون ابناء الله» متى ٥/٩، children of God» وردت في لوقا ٢٠/٣٦ «مجدوا اباكم الذي في السماء» متى ٥/١٦ . «انها ليست ارادة ابيكم الذي في السموات» متى ١٨/١٤

ومثل المنسوب اليه عن الرجل الذي بعث ابنه، لا يجب أن نأخذه حرفيا، فكما اشرنا كلمة آب وابن لم تكن تعني في كل هذه الكتابات المفهوم البيولوجي، كذلك قال المسيح في هذا المثل ان المستأجرين للحقل قالوا «هذا هو الوريث اقتلوه يصبح الحقل لكم» متى ٢١/٣٩ والمثل يفقد معناه اذا كان الحديث عن ابن الله، لأن الموروث لا يموت، وهو يستطيع أن يبعث ابنه حيا أو يصنع ابناء آخرين . . لذا فالقصة مجرد مثل لا علاقة له بالمسيح وبنوته . . ونفس الشيء عن مثل عرس الرجل الذي دعا الاعيان لعرس ابنه . . . الخ متى ٢٢/١ ـ ١٤ هذا كناية عن المعزة والمكانة الخاصة، كما نقول «ابراهيم خليل الله» لا يعني انهما صديقان يسهران معا، ولا يجوز ترجمة محمد حبيب الله بالمفهوم اللغوي الانساني . .

ونفس الآية لا يجوز نسبتها للمسيح لأن الاستعلاء اليهودي فيها واضحا: فالرجل دعا «الاعيان» لعرس ابنه فلم يحضروا، فاغتاظ وجمع «المتشردين» من قارعة الطريق!

فاليهود هم الاعيان وهم الذين توجه لهم الدعوة اولا، بل قام العرس من اجلهم فلما رفضوا اضطرت المسيحية للتبشير في المتشردين، وهم الجنس البشري من غير اليهود! . . .

هذا كلام لا يليق ولا يصدر عن المسيح، فهو فعلا ارسل لبني اسرائيل . . ولكن هذا لا يعني انهم الاعيان، وان الرسالة اعطيت للمتشردين من باب وجع البطن ولا رمي الطبيخ! . وقد اشادت لجنة ترجمة انجيل «لوقا» المصرية بالقديس لوقا لانه حذف هذا

النص من انجيله لأنه يسيء للأمم غير اليهودية .

«ويزيدنا المسيح ، او يزيدنا ذلك الحواري الذي أملى الانجيل أو نقل عنه «متى» تأكيداً لما نقوله على لسان المسيح : «واحد فقط هو سيدكم بها في ذلك المسيح «even christ» وكلكم اخوة، ولا تنادوا رجلا بلقب آبانا على الأرض لأن واحدا فقط هو اباكم وهو الذي في السماء. ولا تدعوا أحدا يناديكم بالسيد: «لأن واحدا هو سيدكم حتى المسيح نفسه «even christ» «متى» ٢٣/٨ ـ ١٠

ولما ناداه واحد ايها السيد الطيب Good Master . . قال له لماذا تناديني good لا يوجد Good الا واحد وهو الله» متى ١٩/١٧ وقد ورد نفس النص حرفيا في مرقص ١٠/١٨ وكذلك في لوقا ١٨/٩/ واظن ان شهادة ثلاثة كافية لاثارة التفكير . . اذا كان هو ذاته فلماذا «يضلل» الرجل هكذا؟!

وهو الذي قال للحواريين:

«اما ان تجلسا على يميني أو يساري فلست أملك لكما هذا، وانما سيعطيه لكما من يعده ابي لذلك» متى ٢٠/٢٣ وفي مرقص نفس النص.

وهو نص يشير الى نبي بعده، هو الحاسم، ولكن ايضا هو نص قاطع بان المسيح لا يملك ضرا ولا نفعا حتى لتلاميذه. وانما الامر لله.

ولما جفت شجرة التين لم يقل لهم آمنوا بي لأنني فعلت ذلك بل قال لهم: «آمنوا بالله»! مرقص ١١/٢٢ وهو القائل تأكيداً لأن ما اخبر به من غيب كان ايحاء من الله وليس لأنه يعلم الغيب من ذاته هو القائل:

«ولكن هذه الساعة لا يعلمها الا الأب لا الملائكة، ولا حتى الابن» مرقص ١٣/٣٢ ولو اتى علم الغيب كاله لكانت هذه الساعة هي اول ما يعلمه لأنها ساعته شخصيا.

وعندما سألوه ما هي الوصية الاولى قال هي قل هو الله احد! أو بنص كلمات الانجيل: «ياسرائيل الهنا اله واحد» مرقص ١٢/٢٩ . وان كانت في متى قد حذفت فاصبحت حب الله بكل قلبك وروحك وعقلك» متى ٢٢/٣٧ ـ ٣٨ وهي في مرقص كاملة هكذا «ياسرائيل الله ربنا واحد والهنا اله واحد وستحب الله بكل قلبك وكل روحك . . الخ» مرقص ١٢/٢٩ ـ ٣٠ .

ففي انجيل متى حذف النص على وحدانية الرب . . وأي محقق يريد أن يختار نصا من الاثنين باعتباره الاقرب الى قول المسيح سيرجح مرقص بلا شك وهو ايضا الأصل. ولا يمكن أن يكون «الوحي» قد تناقض بهذا الشكل، ولا يمكن القول ان النص على وحدانية الرب مسألة ثانوية او أقل اهمية من محبة الله، بحيث يسقط الجزء الخاص بالتوحيد ويتأكد بالتكرار النص الخاص بالمحبة . . الخ ليس فقط في مرقص بل وفي لوقا الذي حذف

«التوحيد» بدوره. لوقا ١٠/٢٧ .

«من يتكبر على يتكبر عليه هو الذي بعثني» لوقا ١٠/١٦

«اشكرك ايها الآب اله السموات والارض» لوقا ١٠/٢١

ومن العبث ان نتصور ان الله يشكر نفسه أو انه يخدع المؤمنين به بالتظاهر بشكر آخر غير موجود!!

وهل ادل على ان امره لله، ان شاء ابقاه وان شاء عذبه وان شاء نجاه، من القول المنسوب اليه في العشاء الاخير:

«أبا . . اب . . كل شيء في قدرتك . . ابعد عني هذا الكأس» (مرقص ١٤/٣٦) ونفس النص اورده لوقا «ابتاه اذا شئت ابعد هذا الكأس عني» لوقا ٢٢/٤٢

ورواية متى عن لحظة «اسلام الروح»: «الهي الهي لما سبتني» متى ٢٧/٤٦ ومرقص «الهي الهي . . لماذا تركتني» مرقص ١٥/٣٤ .

تدل على انه لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا في احرج لحظة يحتاج فيها «الكائن» لكل قدراته، وانما أمره مثل سائر «الخلق» بين يدي «الله» او أبيه السماوي . . ورواية لوقا لا تبعد بنا كثيرا فقد قال كما يقول اي عبد صالح: «ابتاه روحي بين يديك» لوقا ٢٣/٤٦ . .

وقد لاحظ كاتب انجيل يوحنا «الحصيف» ان هذه كلمات لا تليق باله، أو لا تليق باله يلعب دورا اتفق عليه بين الآلهة في جبل الاولمباد . . ولذلك حذف كل مناداة لله أو الاب، وجعله يقول عبارة تصلح لانزال الستار، عبارة عن انتهاء الدور الذي يلعبه بلا مناجاة ولا طلب انقاذ من الاعلى . . بل جعله يقول: «انا انتهيت» وأحنى رأسه واسلم الروح» يوحنا ١٩/٣٠

وكما ترى رواية يوحنا هي الاكثر انسجاما مع اسطورة ابن الله والخلاص .. الخ . اذ لا يعقل ان يندمج المسيح في الدور الى الحد الذي ينسى فيه انه هو الله ذاته فيستمر في معاتبة ذاته لانها تخلت عن ذاته!!

وفي لوقا سنجد المسيح «قضى الليل كله يصلي لله» لوقا ٦/٦

واذا كانت لجنة الحكماء فسرت ذلك بان الله ذاته اراد ان يعلمنا الصلاة . . فكيف لم يفهم ذلك لوقا ذاته؟ فكتب «يصلي لله»!

وبيتر او بطرس الذي هو سيمون، والمعروف بالصخرة، التي قال المسيح أنه سيبني عليها كنيسته لما خطب بيتر في اليهود ماذا قال؟ . . قال: «يارجال اسرائيل . . اسمعوا هذه الكلمات، عيسى الناصري هو رجل ايده الله بينكم بالمعجزات» اعمال الرسل ٢/٢٢ .

هذا هو بيتر الذي تزعم رواية اخرى انه قال للمسيح انت ابن الله . . ها هو يصرخ بكل صوته: المسيح رجل اكرمه الله بالمعجزات!! وهو تعريف اسلامي كامل . .

احدى الروايتين اذن صادقة والاخرى مزورة بكل تأكيد وحتى خطابات بول للرومان تتحدث عن المسيح الذي هو من مني داود «.Was made of the seed of David» وبولس ذاته يقول «بالنسبة لنا لا يوجد الا اله واحد هو الآب وسيد واحد هو عيسى المسيح But one God the Father and one lord Jesus Christ. ويقول: أريد ان تعرفوا ان رأس كل رجل هو المسيح ورأس كل أمرأة هو الرجل ورأس المسيح هو الله»
The head of every man is christ and the head of the women is the man, and the head of christ is God بول الى قورنثيين ١١/٣

الا انه هو «بول» ايضا الذي سنجد له هذه النصوص المرعبة في تأليه المسيح ومساواته بالله: «الذي وان كان في صورة الله لم يجد تعديا في ان يكون مساويا لله: الا انه لم يسعى للشهرة، بل تصرف كخادم وخلق في صورة انسان، ولانه وجد على هيئة الانسان، اذل نفسه واستسلم للموت، ولو كان على الصليب»! بول ٢/٣ ـ ٨ PHILIPPIANAS

«المسيح الذي هو على صورة الرب الذي لا يرى» بول ١/١٥ Colossians

المسيح «كل شيء خلق به وله». بول ١/١٦ وهو ايضا بول الذي يعرض صورة اخرى لكينونة المسيح، فيضعه في منزلة خاصة فوق الملائكة ولكنه من مني ابراهيم وهو بالتأكيد ليس مساويا لله هنا.

المسيح «افضل بكثير من الملائكة، وحصل على لقب افضل بكثير منها، والا فمن الملائكة قال له الله في اي وقت انت ابني اليوم انجبتك وايضا سأكون له ابا وسيكون لي ابنا، وايضا لما جاء بابنه البكر للعالم قال لتسجد له كل ملائكة الرب». «لانه بالحق لم يحمل طبيعة الملائكة بل مني ابراهيم». seed of Abraham بول: عبرانيين ٢/١ ـ ١٦ ومهما قيل عن براعة بول في مخاطبة الناس على قدر عقولهم، فلا يمكن ان يكون المسيح رجلا ومساويا لله، ومجرد بشر من صلب ابراهيم ولكن افضل من الملائكة. . ولاحظ أنه حتى في الاسلام يوجد من يقول عن رسول الله انه افضل الخلق اجمعين ولكن نقاء التوحيد الاسلامي، لا يجعل هذا التفضيل الجديد برسول الله، يصل الى منحة صفة غير بشرية.

واذا كان كتبة الاناجيل الثلاثة ـ على الاقل ـ لم يشهدوا الصلب، الا ان الرواية التي وصلت لمتى تقول أن المسيح صرخ وهو على الصليب: «الهي . . الهي . . لما سبتني» وقد اثبتها متى بالعبرية هكذا وهي شديدة القرب من العربية بالطبع: ELI ELI Lama Sabachithani واضاف متى وهذه معناها الهي الهي لماذا تركتني» متى ٢٧/٤٦

وقد أثبت مرقص نفس الرواية مع تعديل طفيف في الالفاظ قال لوقا: ELOI ELOI Lamasa bach'thani?

وترجمها هكذا: ومعناها الهي الهي لماذا تخليت عني. .» واضاف مرقص ان السامعين

ظنوه ينادي النبي [illegible] والظاهر انهم لم يكونوا من اليهود والا لعرفوا الفرق بين الهي . . والياس . .

يوحنا جعله يقو[illegible] [illegible] نتهيت» ولم ينادي الها ولا والدا . . أما في لوقا فهي مختلفة فقد «صاح بصوت مرتفع [illegible] روحي بين يديك واسلم الروح». لوقا ٢٣/٤٦ .

وقد شرحنا صبة [illegible] وتأثير افكار بولس الرومانية على التصور المسيحي . . . واذا كان ثمة شاهد عي[illegible] [illegible] الارجح هو «يوحنا» الذي كان أصغرهم واقربهم للمسيح ان كان هو المعني [illegible] محبوب» . . وعلى اية حال نحن لدينا ثلاث شهادات ضد واحد أن المسيح لم ينادي [illegible] في هذا الموقف ، الذي لا يمكن ان يكون «الابن» في موقف آخر اكثر حاجة لمناداة الأ[illegible] ولكنه لم يفعل وحاشا لله ان يفعل . . بل نادى الهه . . وهو الذي قال عنه: «خـافـوا مـ[illegible] الذي يملك ان ينتزع الروح ثم يذهب بها الى الجحيم . . اياه فاخشـوه . . » لوقـا ١٢ : ٥ ويقـول «أنا بأمر الله[21] اطرد الشياطين» لوقا ١١/٢٠ وهذا مصداقا لقوله تعالى عن لسان المسيح . «باذن الله» كلما تحداهم بمعجزة .

٢١ ـ في الاصل بأصبع الله

يبدأ انجيل «مرقص» البداية «الطبيعية» والمفترضة في رسالة تقوم اساسا حول ادعاء بنوة الداعية لله سبحانه وتعالى عما يصفون . . نعم يبدأ هكذا :

«بداية انجيل عيسى المسيح ابن الله» مرقص ١/١ . .

وهذا ـ كما قلنا ـ يدعم كل تساؤلاتنا عن بداية انجيل متى . . ويزيد من حيرتنا امام بساطة المؤمن المسيحي ، الذي لم يجد فرقا بين عيسى بن داود في احد الاناجيل وعيسى بن الله في الانجيل الآخر؟! . مع ان الفارق بين داود والله لا يمكن تخطيه ولا اغفاله ولا القفز فوقه . . !

فاذا ما تجاوزنا هذا المدخل «الكنسي» أو الروماني المستحدث ـ في اعتقادنا ـ سنجد ان انجيل مرقص يتفق مع انجيل متى في كثير من النقاط التي اشرنا اليها . . حيث المسيح يتحدث عن نفسه ـ معظم الاحيان ـ بلقب ابن الانسان :

«حتى تعلموا ان **ابن الانسان** لديه سلطان في غفران الخطايا» مرقص ١٠/٢

«ولذا **فابن الانسان** هو سيد السبت» مرقص ٢٨/٢ . . والآية السابقة هكذا «لقد جعل السبت للانسان وليس الانسان للسبت» مرقص ٢٧/٢ وفي الثلاث مرات التي استخدمت فيها كلمة الانسان استعملت نفس اللفظةMAN فهو MAN الذي جعل السبت من أجله وهو son of Man الذي هو سيد السبت ومرة اخرى اذا كان مؤلف الانجيل وناسخوه لم يجدوا فرقا بين انسانية اي انسان وانسانية المسيح . . فلماذا تفرق الكنيسة اليوم؟!

وعندما سأل الحواريون نفس السؤال : «ماذا يقول الناس من انا؟ . . »

«فأجابوه : يقولون يوحنا المعمدان ، ولكن البعض يقول الياس والاخرون يقولون مجرد نبي» «فقال لهم ، ولكن ماذا تقولون انتم من أنا . . فأجابه بطرس انت المسيح . . » «فطالبهم بالا يخبروا انسانا عنه» « وبدأ يعلمهم ان ابن الانسان يجب أن يعاني أشياء كثيرة وسيرفض من الرؤساء ورئيس الكهنة والحفاظ وسيقتل وبعد ثلاثة ايام سيقوم» مرقص ٢٧/٨ ـ ٣١ .

ونلاحظ على هذا النص البالغ الأهمية الآتي :

١ـ اختلاف الناس فيه فالبعض يقول انه نبي مشهور بعث ، يوحنا أو الياس ، والبعض يقول مجرد نبي من الذين يعج بهم تاريخ بني اسرائيل . . ولكن اقرب المقربين اليه يعرفون **أنه المسيح . . وليس ابن الله** . . فمثل هذه الصفة التي اكدها بطرس نفسه في انجيل متى (١٦/١٦) وبصريح العبارة «انت المسيح ابن الله الحي» . . لا يمكن ان تسقط سهوا من «مرقص» أو حتى من ناسخ مرقص ، وانما الاحرى أن تضاف على سبيل التفسير من ناسخ

مؤمن ، أو مراقب كنسي لا يريد أن يضل المؤمنون! فأضاف «ابن الله الحي» بعد كلمة المسيح . . ولا يمكن ان يكون العكس منطقيا وزمنيا . .

وهذا يجعل النص المخالف هو الأرجح اي نص انجيل مرقص . . خاصة وانه باعتراف المؤرخين اقدم الاناجيل والأصل لها . . فالمنبعان الاساسيان للاناجيل : «هما مجموعة الحكم المسماه بـ «اللوجيا» ثم انجيل مرقص»[٢٢]

٢ـ حتى لو كان بطرس المرقصي يجهل ما يعرفه بطرس المتي (وهما نفس الشخص!) فقد كانت هذه مناسبة ممتازة ، بل والفرصة الاخيرة لكي يعرفهم المسيح بهذه الحقيقة الهائلة والاساسية وهي أنه ابن الله . . لا ان يتركها ليوحنا هذا الاسيوي ليعلنها هو بعد وفاة المسيح بنصف قرن! ولكنه لم يفعل بل حذرهم من اخبار أحد بأنه «المسيح» . . وبدأ يعلمهم ان «**ابن الانسان**» . . ابن ال ان س ان . . فانظر كيف انقلبت الى ابن الله؟! وفي اللغة الآرامية ابن الانسان تعني الانسان أو الرجل كما نقول نحن «البني آدم» . . .

٣ـ اذا قيل ان son of Man معناها ان الجزء الذي سيعاني ويقتل هو الجزء الآدمي في ابن الانسان فكان الاجدر أن يقول son of woman لأن المرأة هي التي اعطته هذا الجسد وما من رجل له فضل في هذا . ومع ذلك فقد استخدم نفس التعبير في الحديث عن المسيح الذي سيبعث والذي سيجلس على يمين الرب والذي سيأتي بالمجد فلا مجال لهذا التفسير . . ولذلك نعتقد ان «الاضافة» في مرقص ٣٤/١٣ هي من شرح او توضيح «مؤمن» معذب بالتناقض الذي لا يفسر : «لان ابن الانسان كرجل ذاهب في رحلة بعيدة» . ولعل هذه بداية الاشارة لنظرية الطبيعة المزدوجة فهو «كرجل وكاله» .

ونجد ايضا عند مرقص حادثة الاجتماع بموسى والياس ، والصوت الذي هتف «هذا ابني الحبيب اسمعوا له» مرقص ٧/٩ ولكنه يطلب منهم : الا يخبروا احدا حتى يقوم **ابن الانسان** من الموت» مرقص ٩/٩

وهنا نرى ان «ابن الانسان» هو الذي سيقوم من الموت . .

«**ابن الانسان** يجب ان يعاني» مرقص ١٢/٩

«ان الذي سيخجل مني ومن كلماتي ، فمنه سيخجل **ابن الانسان** عندما يأتي في مجد أبيه مع الملائكة المقدسين» مرقص ٣٨/٨ .

ابن الانسان son of MAN سيسلم ليد الناس MAN » مرقص ٣١/٩

«وابن الانسان» سيسلم لرئيس الكهنة ٣٤/١٠ مرقص .

«حتى يغفر لكم ابوكم الذي في السموات» مرقص ٢٥/١١

---

٢٢ ـ المسيحية نشأتها وتطورها د . شارل ج .

فهو ابونا جميعا وليس المسيح وحده . . .

«سيأتي **ابن الانسان** في السحاب بمجد وقوة عظيمتين» مرقص ٢٦/١٣

«وجاء **ابن الانسان** في السحب بمجد عظيم» مرقص ١٣/١٥ - ٢٦ - ٣١

«**ابن الانسان** سيذهب الى ما كتب له» مرقص ٢١/١٤

«**ابن الانسان** سلم للخطاة» مرقص ٤١/١٤ «وسترى **ابن الانسان** جالسا على يمين القدرة وقادما في سحب السماء» مرقص ٦٢/١٤ . . ولا مجال للحديث هنا عن «الرجل» والاله فهو شخص واحد الذي يموت والذي يأتي في مجد ويجلس على يمين القدرة . . .

وفي مرقص ايضا سنجد «الشياطين» هي التي تهتف بالمسيح انت «ابن الله» . فيأمرهم بكتمان ذلك . مرقص ١١/٣ - ١٢ . أما معاصروه ، فأغلبية الروايات تفيد أن اتهام «ابن الله» لم يخطر ببالهم ، ولاطرح عليهم من قبل المسيح وتلاميذه . . فالذين رأوا المسيح يأمر البحر والريح تساءلوا «أي رجل هذا الذي تطيعه الريح والبحر» مرقص ٤١/٤ ونفس الواقعة ونفس التساؤل بنفس الالفاظ في لوقا ٢٥/٨ ولو كانت المعجزة مطروحة للايمان بأنه «ابن الله» لكان هذا موضع الاعلان والايمان . . ولكننا بالعكس لا نرى اعلانا ولا ايمانا بأنه ابن الله وان استمر «الشياطين» وحدهم في اعلان هذا الادعاء والايمان به «عيسى انت ابن اكبر اله» وذلك على لسان الألفي شيطان الذين كانوا راكبين ابن ميمون . مرقص ٧/٥ وقد وردت نفس الواقعة في لوقا الذي اثبت اسم الشيطان كما ذكره مرقص «وصاح مالي ومالك يامسيح ياابن الله العظيم» لوقا ٢٨/٨ .

واستمر الناس يتساءلون : «اليس هذا النجار ابن مريم . . أخو جيمس . . اليس أخواته معنا هنا وهم ضده» مرقص ٣/٦

وهيرود قال عنه «انه جون الذي قطعت رأسه لقد بعث من الموت» مرقص ١٦/٦ هيرود مستعد ان يصدق أن جون بعث حيا بعد ان قطع هو شخصيا رأسه ، ولكنه لم يسمع بأي ادعاء بأن هذا هو «ابن الله» والا لذكره . .

ونارثلماوس صاح في طريق جرش : «انت ياابن داود ارحمني» فشفاه المسيح قائلا : «ايمانك شفاك» مرقص ٥١/١٠ - ٥٢ . فهو يؤيد انه ابن داود وان من يناديه بذلك فقد آمن واستحق الشفاء .

وفي القدس صاح انصاره وتلاميذه : «اهتفوا حصانة للقادم باسم الرب» مرقص ٩/١١ . ولم يقولوا اهتفوا حصانة للرب . . !

«والذين ارسلهم امامه للتبشير به الى اهالي القدس هتفوا : «مبارك مملكة ابينا داود القادمة باسم الرب» مرقص ١٠/١١

«ولما حملوه الى بيلاط . . كان الاتهام الذي وجه اليه هو : «هل انت ملك اليهود» مرقص

٢/١٥ ومفروض ان بيلاط تسلمه من رئيس الكهنة بتهمة الكفر فلو كانت تهمة ادعاء «ابن الله» واردة ، لكان ذلك هو السؤال الأول والمباشر والمثير ، ولكن بيلاط لم يوجه له هذا الاتهام قط وانما وجه اليه التهمة التي فهمناها نحن من تعبير «ابن المبارك» اذ كان السؤال التالي هو : «هل انت ملك اليهود» لأن الروايات تقول ان ابن داود سيكون ملكا لليهود ومحررهم الخ . . .

«ليبارك الرب اله اسرائيل لانه زار شعبه ورفع لنا راية الخلاص في بيت عبده داود حتى ننقذ من اعادينا ويد كل الذين يكرهوننا» على لسان زكريا .

والموقف المنطقي ، احد امرين : ان يتحدى السلطة واليهود فيعلن أنه ملك الكون لأنه ابن الله . . . والنتيجة واحدة على أية حال سواء اعدم بتهمة ملك اليهود ابن داود . . أو ملك الكون ابن الله . .

أو ان يرد على اليهود مبرئا نفسه عند الحاكم بأنه ليس ملك اليهود ولا هو ينازع السلطة ولا يقود ثورة ، انما هو ابن الله جاء يخلص الجنس البشري . . . الخ . . في الحالتين سيكون متمسكا «بالحقيقة» ولكنه لم يفعل . . ولا وجد ناسخ أو مؤلف الانجيل أية رواية ولو ضعيفة تجعله يثبت هذا الزعم خلال تسجيله وقائع التحقيق . . ولو كانت هناك اشارة واحدة لما فاته اثباتها . . وهو الذي حرص على تلمس اية عبارة واثباتها على لسان اللص أو الحارس . . . فكيف يفوته اثباتها على لسان الكهنة أو الحاكم او المسيح نفسه؟!

وفي مواجهة العامة قال بيلاط : «هل اطلق لكم ملك اليهود» مرقص ٩/١٥

فهذا هو الاتهام الذي تردد طوال المحاكمة هو انه ابن داود وبالتالي ملك اليهود . . وهذا هو الخلاف بين المؤمنين والكافرين . .

فأجابهم بيلاط : «وماذا أفعل به هذا الذي تسمونه ملك اليهود» . مرقص ٢١/١٥

والحرس عندما البسوه الرداء القرمزي واخذوه للصلب راحوا يسخرون منه : «تحياتنا ياملك اليهود» مرقص ١٨/١٥ وقد سبق وقلنا في شرح «متى» انه لو كان الاتهام أو الادعاء بنبوة الله لكانت السخرية به أشد . .

واذا كان مرقص ، قد بلغ من سعة معلوماته ودقتها أن يثبت اسم الرجل الذي حمل «الصليب» سيمون من كنعان والد الكسندر وروفوس»[٢٣] مرقص ٢١/١٥ فلا بد أن يكون دقيقا وهو يثبت انهم علقوا على رأسه : «ملك اليهود» مرقص ٢٦/١٥

وقد اوردها متى مع التحريف الشائع : «هذا هو المسيح ملك اليهود» متى ٣٧/٢٧

---

٢٣ - التقليد الشائع وقتها ان يحمل المتهم صليبه الى ساحة التنفيذ ، ووجود شخص آخر حمل الصليب ، يعزز الرواية الاسلامية بأنهم صلبوا شخصا اخر ، خاصة وان الاسم واحد : سيمون .

وهتف العامة: دعوا المسيح ملك اسرائيل ينزل الآن من على الصليب حتى نرى ونصدق» مرقص ١٥/٣٢ فهذا هو الادعاء التحدي ولا اكثر..

ونادى عيسى: الهي.. الهي.. واسلم الروح.. ولكن الحارس قال: «حقا هذا هو ابن الله» مرقص ١٥/٣٩

فهل تسقط كل الشهادات ونقبل كلمة نقلت عن حارس مجهول اغلب الظن انه لا يتكلم لغة البلد.. بل الاكيد انها اضافة فنية من ناسخ أو مراقب كنسي.

«ولما دخلوا القبر وجدوا شابا جالسا فيه.. وقال لهم «تريدون عيسى الناصري الذي صلب.. لقد قام.. انه ليس هنا» مرقص ١٦/٦

فهذا الميت الحي، الذي بعث ليشهد اكبر معجزة، وهي قيام المسيح بعد الصلب أو ربما كان ملاكا.. فهو يتحدث بكل بساطة.. الذي صلب؟ لقد قام..»! ومع ذلك لم يهتم بأن يلقب هذا الذي صلب وقام باللقب الحقيقي: «ابن الله»، بل سماه بكل بساطة: «عيسى الناصري» لأن المستقر في ذاكرة وضمير كتبة الاناجيل أنه ليس «ابن الله» ابدا..

وما عدا ذلك فدخيل ومستحدث. وان كانت الشبهة قديمة كما قلنا. ولوقا يقدم شهادة اقوى فقد حذف رواية هذا الشاب الجالس هادئا في القبر، وكأنه على مقهى على قارعة الطريق يرد على سؤال عن صديق كان جالسا معه: «عيس الناصري الذي صلب وقام.. لسه ماشي..!» لوقا المثقف اكثر احكاما، فقد جعل الحديث على لسان ملكين ولكنهما قالا للسائلين عن جثة المسيح: «هل تذكرون عندما قال لكم ابن الانسان يجب ان يسلم.. الخ» لوقا ٢٤/٧ فهو «ابن الانسان» بشهادة الملائكة وبعدما صلب وقام ولم يبق معنى للحديث بالرموز!

وفي انجيل لوقا

الذي هو رسالة كتبها لصديق له حول ما تردد عن الاشياء التي نؤمن بها بكل تأكيد.. وهو هنا لا يبدأ حديثه لا بابن داود، ولا ابن الله. بل يتحدث عن «الكلمة» التي لا يمكن ان تعني في نص لوقا الا الرسالة.. «كما وصلت الينا من الذين كانوا من البدء شهود وكهنة الكلمة» لوقا ١/٢ اي الذين عاصروا فترة الرسالة والوحي.. ولكن هذه «الكلمة» ستتطور على يد لوقا الى اسطورة مختلفة تماما..

وقد بدأ بقصة زكريا ويحيى وهي مشابهة للقرآن مع الحشو والتفاصيل [24] التي تنزه عنها القرآن.

وقد ورد فيه نفس الاصطلاح في حديث المسيح عن نفسه فلما احتج فقهاء اليهود بأنه: لا يغفر الذنوب الا الله، رد عليهم مسيح لوقا: «بل لتعلموا ان ابن الانسان له سلطة غفران الذنوب» لوقا ٥/٢٤. «وقال لهم أن **ابن الانسان** سيد السبت ايضا» لوقا ٦/٦ «في سبيل ابن الانسان» لوقا ٦/٢٢..

وتأمل هذا: «يوحنا المعمدان جاء لا يأكل الخبز ولا يشرب النبيذ قلتم أن به شيطانا» «وابن الانسان جاء يأكل ويشرب فقلتم أن به شيطانا» «**وابن الانسان** جاء يأكل ويشرب فقلتم رجل نهم ومدمن خمر وصديق الرعاع والخطاة» لوقا ٧/٣٣ ـ ٣٤. فهو اكثر انسانية من يحيى أو يوحنا المعمدان..

«من ينكرني فان **ابن الانسان** سينكره عندما يأتي في مجده ومجد ابيه والملائكة والقديسيين» لوقا ٩/٢٦

«**ابن الانسان Man** سيسلم ليد الناس man» لوقا ٩/٤٤. «لان ابن الانسان ما جاء ليدمر حياة الناس» لوقا ٩/٥٦. «ولكن **ابن الانسان** لا يعرف أين يضع رأسه» لوقا ٩/٥٨.

وحتى الآية التي تنسب اليه الحديث عن الابن والاب شديدة الغموض، ويمكن استنتاج حقيقة واحدة منها، وهي غموض حكاية الاب والابن، واقرار كاتبها بأن هذه مسألة لا يعرفها ولن يعرفها احد..

«كل شيء لأبي اعطي لي، وما من رجل يعرف من هو الابن الا الاب، ولا يعرف من هو الاب الا الابن وهو الذي اليه سيفضي الابن بأمره» لوقا ١٠/٢٢ وهذا النص يريح عقل

٢٤ ـ مثل قول الانجيل أن الله فرض الخرس على زكريا تسعة شهور كعقوبة لأنه لم يصدق معجزة الرب.. وهو عقاب شديد القسوة على واعظ، بينما عندنا طلب زكريا بشارة أو آية.. قال: «آيتك الا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا».. فثلاثة ايام مدة معقولة وفي اطار النعمة.. الخ..

أو على الاقل ضمير اليهودي المتنصر الذي يعجز عن فهم لغز الآب والابن في ضوء التوحيد، ولكنه لا يريح عقل الباحث اليوم . . فالنص يفرض أنه لا أحد سيفهم أو سيعرف طبيعة الابن ولا الآب .

«كذلك سيكون **ابن الانسان** لهذا الجيل» لوقا ١١ / ٣٠

«من سيعترف بي أمام الناس فان **ابن الانسان** سيعترف به امام ملائكة الله . لوقا ١٢ / ٨

لأن **ابن الانسان** يأتي في الساعة التي لا يتوقع حضوره» لوقا ١٢ / ٤٠

«سيأتي يوم تتمنون فيه زمن **ابن الانسان** ولن تروها» لوقا ١٧ / ٢٢

«هكذا سيكون **ابن الانسان** في يومه» لوقا ١٧ / ٢٤ . وكما كان الحال في ايام يونس كذلك سيكون في ايام **ابن الانسان**» لوقا ١٧ / ٢٦ .

«عندما سيأتي «**ابن الانسان**» هل سيجد ايمانا في الارض»؟ لوقا ١٨ / ٨ ونتبه مرة اخرى الى ان تعبير «ابن الانسان» يستخدم للاشارة الى المسيح الذي عاش على هذه الارض وصلب فيها وفقا لرواية الانجيل، وايضا المسيح الموجود في السماء والذي سيأتي . .

«واخذ الاثني عشر وقال لهم سنذهب الى القدس وكل ما هو مكتوب بواسطة الانبياء عن **ابن الانسان** سوف يتحقق» لوقا ١٨ / ٣١ .

ولو كن ثمة أحد يمكن ان يخبره المسيح انه «ابن الله» لكان الاثني عشر . . ولو كان ثمة وقت للاخبار فهو في تلك اللحظة ، ولكنه لم يقل لهم بل أصر على انه «ابن الانسان» فلا يحق لأحد ان يتقول عليه . .

«لان **ابن الانسان** جاء ينشد وينقذ الضالين» لوقا ١٩ / ٨ - ١٠

«ثم سيرون **ابن الانسان** قادما في سحابة بقوة» لوقا ٢١ / ٢٧

«والوقوف امام **ابن الانسان**» لوقا ٢١ / ٣٦ . «وحقا سيذهب **ابن الانسان** كما هو مقدر . . الخ» لوقا ٢٢ / ٢٩

وعندما جاءوا للقبض عليه ودلهم عليه يهوذا عاتبه المسيح : «يهوذا تخون ابن الانسان بقبلة»؟! لوقا ٢٢ / ٤٨ ولو قال له «هل تخون ابن الله بقبلة» لكان التقريع اكبر . والمفارقة أوضح . .

وتأمل هذه الرواية : قال المسيح للذين قبضوا عليه على ذمة لوقا :

«وفيما بعد سيجلس **ابن الانسان** على اليد اليمنى لقدرة الله» فقالوا جميعا . . فهل أنت اذن ابن الله God فقال لهم انتم تقولون أنني . . وقالوا لا نحتاج لشهادة بعد ذلك فقد سمعنا بأنفسنا من فمه» لوقا ٢٢ / ٦٨ - ٧١ واذا كان اليهود الظلمة قد استنتجوا من هذا الرد أنه ابن الله . . فهو لا يقنع أي محكمة عادلة وقد قذف المسيح التهمة الى نحورهم «انتم تقولون أنني» . .

وقد روى لوقا ان الملاك عندما بشر مريم بالمسيح قال لها «وستحملين في الرحم وتلدين ابنا وستسمينه عيسى ، وسيكون عظيما وسيدعى ابن الاعلى Highest والسيد الرب سيعطيه عرش ابيه داود» لوقا ١ / ٣٠ - ٣٢ . ولو شاء أحدهم أن يقول هنا ان «الاعلى» تعني الرب فلماذا لم يقل الملاك وسيدعى ابن الاعلى الذي سيعطيه . . الخ لماذا التمييز بين «الأعلى» و «الرب» . . وما حاجة ابن الله لعرش أبيه داود؟! . .

وهو بالحتمية وريث أو شريك في عرش ابيه الله؟! وايضا فقد ورد نفس التعبير «بنوة الاعلى» في الحديث عن البشر، فقد بشر المسيح اتباعه : «ستكونون اطفال الاعلى» The highest . . وكأنما اختار الناسخ نفس اللفظة لكي لا ترد شبهه اختصاص المسيح ببنوة من نوع خاص! لوقا ٦ / ٣٥

لوقا أو كاتب انجيله يعي المأزق الذي يعانيه الفكر المسيحي . . ويحله هكذا . . «وقالت ماري للملاك : وكيف يكون ذلك وانا لم أعرف رجلا» . . وهو نص شبيه بالقرآن : «قالت ربي اني يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون» سورة آل عمران .

فالحديث في القرآن وفي انجيل لوقا لا يوحي ابدا بوجود فرضية ابوة الله ، والا لما سألت مريم عن «الرجل» الذي سيتمم هذا الحمل . . وانما عابدة مؤمنة تبلغ انها ستحمل وتلد وهي مازالت عذراء . . ومن ثم يكون السؤال الطبيعي هو كيف يتم ذلك؟ . . والاجابة القرآنية بسيطة وواضحة ، واجابة مرقص فيها لمحة من الحقيقة المشتركة ولكن دخلتها التعديلات بالطبع : واجابها الملاك قائلا : «روح القدس ستأتي عليك وقوة الاعلى ستظلك ، ولذا فهذا الشيء المقدس الذي سيلد shall be called the son of God منك سيدعى ابن الله» لوقا ١ / ٣٥

وهذا النص - في رأينا - هو أقصى ما يستطيعه «موظف» في مؤسسة تقوم على الايمان ببنوة المسيح لله ، أقصى ما يستطيعه من جهد لارضاء ضميره المعارض للفكرة . ففي القرآن : «ونفخنا فيها من روحنا» . . ولكن الكاتب هنا غير متأكد أو غير راغب في تسجيل هذا الادعاء الخطير، ولذلك لم يقل «ولهذا فانه سيكون ابن الله» . بل سيدعى أو سيسمى أو سينادى ابن الله . . والملاك لا يحتاج للتستر خلف التعبيرات ، فان كان ابن الله فهو كذلك . . ولا حاجة لتبرير لماذا سيدعى ابن الله . . كذلك ففي نفس الموضع يعرفنا لوقا أن «روح القدس دخلت ايضا في اليزابث ام زكريا» لوقا ١ / ٤١ ولكن الشيء الذي خرج منها لم يسمى ابن الله . .

ومما يؤكد ان الملاك لم يقل لمريم ان المسيح هو ابن الله ، ان المسيح عندما قال لأمه وزوجها : «الا تعرفان انني في اشغال ابي» لوقا ٢ / ٤٩ «لم يفهما معنى لقوله لهما» لوقا

٢/ ٥٠ . . لماذا لم تفهم امه اذا كان الملاك اخبرهما قبل ميلاده بشخصية ابيه؟! . . وهي قد «حفظت كل هذه الاقوال في قلبها» لوقا ٢/ ٥١ فكيف نست القول العظيم بانها حملت بالله او ابن الله . . واستغفر الله العظيم!

تناقضات . . كلها تعبر عن عدم رسوخ الاسطورة بعد . .

وقد سبق ان اشرنا الى ان شجرة النسب عند لوقا تبدأ بعيسى بن الله وتنتهي بآدم الذي كان ابن الله ! Adam which was the son of God لوقا ٣ ـ ٣٨ .

ونحن نقبل بنوة عيسى لله على نفس المستوى والمفهوم لبنوة آدم . . أو على الاقل هكذا فهمها وقبلها كاتب انجيل لوقا . . وهذا الحوار لا يمكن أن يدور بين شيطان واله :

«اذا كنت ابن الله فأمر الحجر يتحول الى خبز» ورد المسيح : «مكتوب ان الانسان لا يعيش بالخبز وحده» ولا ندري ما دخل الانسان هنا . . واراه الشيطان العالم كله ، وقال له كل هذا سأعـطيه لك اذا عبدتني» فرد عيسى «اغرب عني ياشيطان ، لأنه مكتوب انت ستعبد الرب الاله وهو وحده من تطيع» لوقا ٤/ ٨

والحوار منطقي ومتوقع بين الشيطان وانسان مرشح للرسالة أو لاتصال ما بالسماء ولكنه غير منطقي ولا معقول بين الشيطان وابن الله الذي هو الله ذاته! فالشيطان لا يشكك ابن الله في نفسه اذا كنت «ابن الله؟» ومن ذا يعلم الاب الا الابن؟ . . والشيطان يفترض فيه المعرفة . . والا لما تصدى لهذا الفتى الذي لم يجاهر بعد بدعوته . . فكيف يريه العالم وهو كان موجودا قبل العالم بشهادة «يوحنا»؟! وكيف يعده العالم . . «وكل ما كان لأبي أعطاه لي»؟! . . وكيف يخطر ببال الشيطان أن اله أو ابن الله يمكن أن يعبده؟! . . كيف يعبد الاله الشيطان . . الا في مسرحية شديدة العبث؟! ولكن رد المسيح اغرب . . فكيف يعبد الله نفسـه ، المسيح ابن الله وجزء لا يتجزأ منه بموجب نظرية الثالوث . . ام هل هناك مراتب الوهية . . فالناس يعبدون «المسيح الاله الحي» . . والمسيح يعبد الله الاكبر . .؟!

أليس اقرب للمنطق والعقل القول بأن كاتب هذه الواقعة في انجيل لوقا ، انما كان يؤمن ببشرية المسيح ، ولكن العبـارات شابها تحريف . . أو ان الرواية عن اللقاء بين الشيطان ورسول الله عيسى بن مريم قد نقلت عن مصدر لا يشك في بشرية المسيح ، ولكن اثبتها ناسخ يؤمن بالوهيته فجاءت تحمل هذا التناقض المثير . .؟!

قال له الشيطان : «اذا كنت ابن الله ارمي نفسك من هنا»

«رد عيسى : قيل لا تمتحن الرب الاله» لوقا ٤/ ٩ ـ ١٢

ومعناها بالمفهوم المسيحي الدارج حاليا . . قال الله ذاته ان الله ذاته قال لا تمتحن الله ذاته ولذلك فالله ذاته لا يجوز أن يمتحن نفسه!

كذلك لا نجد في «لوقا» رغم تسليمنا بقوة الاتجاه الروماني فيه ، أدلة قوية على ان دعوى

البنوة كانت شائعة أو مطروحة . . فالمسيح عندما أحيا الميت : «ساد الجميع الخوف ، ومجدوا الرب قائلين ان نبيا عظيما قد قام بيننا ، وان الله قد زار Visited شعبه» لوقا ٧/ ١٦

ولما شاعت معجزاته حدث نفس الشيء الذي في انجيل مرقص «بعضهم قال ان يوحنا نهض من الاموات ، وبعضهم قال الياس ظهر وبعضهم قال نبي من الانبياء القدماء بعث» لوقا٩

ويعرض لوقا مشهد سؤال المسيح للحواريين بصيغة ثالثة ، ولكنها ايضا تزيد الشك ولا تزيله . .

«وحدث انه عندما كان منفردا يصلي ومعه تلاميذه سألهم ماذا يقول الناس . . من انا؟ فاجـابـوا : يوحنـا المعمـدان ، ولكن البعض يقول الياس ، والبعض يقول أحد الانبياء الغابرين نهض فقال لهم ولكن ماذا تقولون انتم . . من أنا فرد بيتر : مسيح الرب The christ of God. . . فأمرهم على الفور بألا يخبروا أحدا بهذا الشيء قائلا **ابن الانسان** يجب أن يعاني اشياء كثيرة ويرفض من الحكماء ورئيس الكهنة والحفاظ ويقتل ثم ينهض» لوقا ٩/ ١٨ ـ ٢٢

ويفهم من رواية لوقا وما سبقها الآتي :

١ـ اتفاق الكتاب الثلاثة على ان المسيح لم يقل لحواريه أو تلاميذه «انه ابن الله» . . أو على الاصح «من هو» بدليل انه يسألهم في الاناجيل الثلاثة من أنا؟! وبالتالي لم يقل لأي أحد انه ابن الله .

٢ـ أنه عندما يتحدث عن نفسه باجماع الثلاث روايات يصف نفسه بأنه ابن الانسان .

٣ـ انه كان ينهاهم عن ترديد ظنونهم عن شخصه . .

٤ـ أن بيتر أعطى ثلاث اجابات حتى الآن ، الفروق بينها هائلة : فهو في انجيل متى قال : «انت المسيح ابن الله الحي» متى ١٦/ ١٦

وفي مرقص رد بيتر نفسه : «أنت المسيح» . مرقص ٨/ ٢٩ فقط بدون صفات الهية

أما في لوقا فقال بيتر ايضا : «انت مسيح الرب» لوقا ٩/ ١٨ ـ ٢٢ .

وهذا التناقض في رواية جملة واحدة قالها بيتر ، وعلى هذا المستوى من الأهمية يؤكد ما قلناه من ان الانجيل مثل الاحاديث متعدد الروايات يحتاج الى «علم الحديث» لضبطه ومعارضته . .

واليك ما اثبته لوقا عن محاكمة المسيح :

«واخذوا المسيح الى بيلاط وبدأوا يتهمونه قائلين لقد وجدنا هذا الشخص يضلل الأمة ويمنع اعطاء الجزية لقيصر قائلا انه هو نفسه المسيح ملك» King لوقا ٢٣/ ١ ـ ٢

وسأله بيلاط : «هل أنت ملك اليهود فأجابه قائلا انت تقول ذلك»

فقال بيلاط انا لا أجد خطأ في هذا الرجل فاشتد حنقهم وقالوا انه يثير الشعب ويعلم في كل اليهودية . . .»

فطوال التحقيق لم ترد مرة واحدة تهمة ادعاء انه «ابن الله» . . ولما ساقوه للصلب كان التحدي الذي ووجه به : لينقذ نفسه اذا كان المسيح المختار من الله» لوقا ٢٣/٣٥

«اذا كنت ملك اليهود فخلص نفسك» لوقا ٢٣/٣٧ .

«وعلقوا فوقه لافتة باليونانية واللاتينية والعبرية : «هذا ملك اليهود» لوقا ٢٣/٣٨ وهذه زيادة من لوقا (اعني اللغات الرسمية الثلاث) لم ترد في الاناجيل الاخرى . . وبالمقابل حذف الروايات الأخرى عن الهي الهي لماذا تركتني أو تخليت عني مع ان متى ومرقص اثبتاها بالعبرية مع الترجمة لزيادة الدقة . . على اية حال يبدو أن لوقا لم يطلع على الانجيلين الآخرين، أو أن له مصادره المخالفة فقد «شهد» ان المسيح على الصليب . . : صاح بصوت مرتفع : ابتاه روحي بين يدك واسلم الروح» لوقا ٢٣/٤٦ ولا يعقل ان ينادي الله نفسه هكذا والا فحق لمعاصريه ان يرفضوا الوهيته .

«وقال القائد الروماني هذا بالتأكيد كان رجلا صالحا» لوقا ٢٣/٤٧ وبعدما دفن وقام . . وظهر للحواريين وسألهم عن ماذا تتحدثون . . لم يقولوا له نتحدث عن ابن الله . . بل هذا هو ما قالوه ولم يمض على اختفاء المسيح سوى ايام وبين يديه وان كانوا لم يتعرفوا عليه :

«الم تسمع باخبار عيسى الناصري الذي كان نبيا قديرا بالفعل والقول امام الله وكل الناس. وكيف سلمه رئيس الكهنة وحكامنا لكي يحكم عليه بالموت ويصلب، ولكننا نؤمن انه هو الذي كان يجب أن يخلص اسرائيل. وهذا هو اليوم الثالث منذ وقوع تلك الاحداث» لوقا ٢٤/١٩ ـ ٢١

هذه شهادة اقرب الناس اليه، وأحق الناس بتقرير صفة المسيح .

ونحن نقبل هذه الشهادة بلا تحفظ . . عيسى الناصري كان نبيا قديرا بالفعل والقول امام الله وكل الناس . . «المسيح عيسى بن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين» . «ورسولا الى بني اسرائيل . . .» آل عمران . . .

فالمسيح عبد من عباد الله مثله مثل سائر الناس، روحه بين يدي الله وصدق الله العظيم القائل «لن يستنكف المسيح ان يكون عبدالله»

وانفردت الشياطين في لوقا ايضا بادعاء هذه البنوة: «خرجت الشياطين تصرخ انت المسيح ابن الله. ونهرهم والزمهم الا يتكلموا لأنهم يعرفون انه المسيح» لوقا ٤/٤١ وصرخ الشيطان: «انت وحيد الرب المقدس» ٤/٣٤ وحتى هذه لا تعني ابن بل يمكن ان تكون الوحيد الذي تمثل الرب في هذا الوقت.

وهـو الـذي قيل فيه يصلح مادة طيبة لسيناريو «المسيح سوبرستار» . . وهو في نظرنا الانجيل الذي برزت فيه فكرة الوهية المسيح من خلال الفلسفة اليونانية، وبتأثير الافكار الوثنية الاغريقية عن الاله ـ الانسان . . ومؤلفه ـ كما قيل ـ مثقف وفنان يهتم ويجيد سرد التفاصيل الدقيقة والانسانية . . ويعطي الوقائع نكهة خاصة . ويميل للشرح أو استنباط المغزى . . ومن اول سطر تلمس تأثير الفلسفة اليونانية، والبعد عن بساطة كتبة الاناجيل الاخرى، ومحاولتهم تجنب الخوض في تفاصيل «العقدة» وهي تحول الاله الى بشر . . وهو ما يخوض فيه يوحنا بلا حرج! . .

«في البدء كانت الكلمة . . والكلمة كانت مع الله . . والكلمة كانت الله» يوحنا ١/١ والمسيح كما سنرى هنا الها، ومن ثم فلا حاجة لنسبه البشري . . «الذي لم يولد من دم ولا من ارادة الجسد ولا من ارادة الرجل بل من الله» يوحنا ١/١٣ ثم خلقت الكلمة لحما، وعاشت بيننا (ونحن وعينا مجده، مجد كونه وحيد الأب)[25] . . يوحنا ١/١٤

وتـأمل هذه الجملة العجيبة التركيب: «ما من رجل رأى الله في أي وقت، وحده، الابن المنجب الذي هو في حشاشة قلب الأب . . .» يوحنا ١/١٨ وكلمة «رجل» هنا هي عقدة التناقض . .

ومرة اخرى ينفرد «يوحنا» بتصحيح موقف «يوحنا المعمدان» . . فالاناجيل الاخرى، تتحدث عن نزول روح القدس على المسيح «في شكل حمامة وهو يتعمد على يد يوحنا المعمدان (الذي يكبره بستة شهور طبقا لنفس الانجيل وسمع صوت يقول هذا ابني الحبيب الذي به سررت» لوقا ٣/٢٢

ويبدو أن يوحنا المعمدان أو يحيى لم يشاهد الحمامة ولا سمع الصوت المعلن للبنوة، اذ طلب يحيى «اثنين من تلاميذه وارسلهما الى عيسى قائلا: هل انت القادم أم ننتظر آخر؟» لوقا ٧/١٩

ولما جاء اليه الرجال قالوا له يوحنا المعمدان قد ارسلنا اليك قائلا: هل انت المنتظر ام نتطلع لآخر» . . .

اما يوحنا فيقدم لوحة مخالفة فهو يؤكد أنه وفقا «للسجلات» (!) فان يوحنا المعمدان كان قد أبلغ من السماء بأن الذي ستهبط عليه حمامة وتستقر سيكون هو ابن الله . وقد حدث ذلك مع عيسى» يوحنا ١/٣٢ ـ ٣٤

٢٥ ـ هذه الجملة وضعها كاتب الانجيل بن قوسين.

وهو خلاف «طفيف» كما ترى!!!!

زال الشك والتردد اللذان سادا الاناجيل الثلاثة، وأصبح يوحنا يقول هنا بالفم المليان : «هذا هو ابن الله» . . وبالمعنى الوثني وليس المجازي كما هو في اغلب الاشارات بالاناجيل الاخرى . . ونثانئيل يسأل المسيح : «رابي . . هل انت ابن الله هل انت ملك اسرائيل» يوحنا ١/ ٤٩

وان كان رد المسيح لم يخرج عن المعتاد : «هل لأني قلت لك اني رأيتك تحت شجرة التين تظن هذا؟» وهو سؤال استنكاري ولا يمكن تفسيره بأنه يؤكد الدعوى . . ويكمل المسيح على ذمة يوحنا : «لسوف ترى اشياء اكبر من هذا . . وقال له : الحق والحق اقول لك انك سترى السماء مفتوحة والملائكة هابطون صاعدون على ابن الانسان» يو ١/ ٥٠ ـ ٥١

المفهوم انه اذا كنت لمجرد انني قلت لك انني رأيتك تحت شجرة التين تعتقد انني ابن الله . . فماذا ستقول عندما ترى السماء مفتوحة . . الخ . .

والمهم انه حتى في انجيل «يوحنا» كان الرد تأكيداً على انسانية «ابن الانسان»

يقول يوحنا «فالله احب العالم الى حد انه اعطى ابنه الوحيد الذي انجبه، فمن يصدق به لا يهلك بل ينال الحياة الدنيا، لأن الله لم يرسل ابنه لكي يدين العالم بل لكي ينقذ العالم من خلاله . . . لأنه لم يصدق باسم ابن الله الوحيد» يوحنا ٣/ ١٦ ـ ١٨

اكتملت الفكـرة ونضجت ووضحت . . ونحن نواجـه هنـا كاتبـا مسيحيا خالص المسيحية، بالمفهـوم الكنسي . . امـام انجيل كتبتـه المؤسسة المسيحية القائمة على الوهية المسيح، وبنوتـه الصريحة البيولوجية لله، المنفصلة تماما عن اليهود، المتحررة من الحرج التـوحيدي عند اليهود، المعادية لليهود . . واكثر الاناجيل صنعة، وأيضا أقلها مصداقية واكثرها تعرضا للتحريف (انظر بداية هذه الدراسة) .

وبدلا من اتفاق الاناجيل السابقة على ان من يخطىء في المسيح (ابن الانسان) يغفر له أما من يخطىء في «الروح القدس» فلا يغفر له نجد أن الايمان بالابن هنا أصبح شرط الايمان بالله . . «الاب يحب الابن واعطاه كل شيء في يديه[٢٦] . . . والذي لا يؤمن بالابن لن يرى حياة، بل غضب الله يحل عليه» يوحنا ٣/ ٢٢ ـ ٣٥ .

والمسيح هنا لا يرد رمزا بل يجيب نعم كلما سئل : «قالت المرأة له أنا اعلم ان مسيحا سيأتي وعندما يأتي سيخبرنا بكل شيء» فقال لها عيسى وها أنا اقول لك انا هو» يوحنا ٤/ ٢٥ ـ ٢٦

وبـدلا من رده ان «ابن الانسان سيد السبت» ولذلك يعمل المسيح فيه، كما جاء في

---

٢٦ ـ فهو بالمفهوم السياسي الاسلامي اله تفويض وليس اله تنفيذ . . حاشا لله عما يصفون

ـث الاناجيل الاقل رومانية، نجد المسيح الروماني هنا يقول «وابي ايضا يعمل وأنا (يوم السبت) يو ٥/ ١٧ ولا يتردد يوحنا في شرح المعنى ليزيده وضوحا فيقول : «ولذا يهود اكثر في قتله لانه ليس فقط تعدى في السبت، بل قال ايضا ان الله هو اباه جاعلا مساويا للرب» يوحنا ٥/ ١٨

تفسير صادق مائة بالمائة لهذا النص . . ورد المسيح على ذمة يوحنا لايزيل الشبهة عيسى قائلا لهم : الحق . . والحق اقول لكم، الابن لا يقدر على شيء لنفسه الا ما لاب يفعل، لأن ما يرى الاب يفعل كذلك يفعل الابن، لأن الأب يحب الابن ويريه اشياء التي هو نفسه يعملها» يوحنا ٥/ ١٩ ـ ٢٠ «فكما يبعث الله الموتى ويحييهم فحتى يعه الابن لمن يشاء» . يوحنا ٥/ ٢١ «لكي يحترم كل الرجال الابن كما يحترمون الآب، ندي لا يحترم الابن لا يحترم الأب الذي بعثه» يوحنا ٥/ ٢٣

هنا يطلب نفس المعاملة، ولديه نفس الصلاحيات . . وإن استمر فارق غامض او رق طبيعي بين مكانة الاب والابن حتى لو تنازل الاب عن كل سلطاته للابن . .

الله حي بذاته كذلك اعطى الابن حياة في ذاته» ٥/ ٢٦

كي يسمع الموتى صوت ابن الله» يوحنا ٥/ ٢٥

أحد رأى الأب الا هو الذي من الله فهو رأى الأب» يوحنا ٦/ ٤٦ وهنا قال سيمون نحن نؤمن انك انت حقا المسيح ابن الله الحي» . . يوحنا ٦/ ٧٠

يقول يوحنا على لسان المسيح «في قانونكم مكتوب ان شهادة رجلين صادقة، فأنا اشهد نفسي والأب الـذي بعثني يشهد لي» . فقالوا له اين الأب فاجابهم عيسى : انتم لا تعرفونني ولا أبي، اذا عرفتموني فستعرفون ابي ايضا» . يوحنا ٨/ ١٨ ـ ٢٣

«وقال لهم انتم من اسفل وانا من اعلى . . انتم من هذا العالم وأنا لست من هذا العالم» يوحنا ٨/ ٢٣

وبعد المساواة يأتي الاندماج «او الكل في واحد»

«اذا لم تؤمنوا بأن انا هو ستموتون في خطاياكم» . . «فقالوا له من انت؟ . . فلم يجب بل قال : «ما قلته لكم من البداية» يوحنا ٨/ ٢٤ ـ ٢٦ ويتقدم يوحنا صوت الكنيسة يشرح فيقول : «فلم يفهموا انه يتحدث عن الأب»! يوحنا ٨/ ٢٧

ولكن في يوحنا ذاته سنجد حوارا بين اليهود والمسيح يؤكد أن مفهوم «الابوة» الذي كان متداولا في عصر المسيح، يختلف تماما عما خلعه عليه يوحنا والمدرسة الاغريقية العريقة في تزويج وانجاب الآلهة . .

«فـاجـابـوا ابـراهيم أبانا . . قال عيسى اذا كنتم ابناء ابراهيم يجب أن تفعلوا افعال ابراهيم . والآن تريدون قتلي، رجل جاء يخبركم بالحق الذي سمعته من الله . وهو ما لم

يفعله ابراهيم. عندئذ قالوا نحن لم نولد من الخنا ان لنا أبا واحدا حتى الله، فرد المسيح اذا كان الله اباكم كنتم تحبوني لأنني قادم من الله ولم آت من قبل نفسي بل هو أرسلني» يوحنا ٨/٣٩ ـ ٤٢.

وصفعهم المسيح ـ على ذمة يوحنا: «انتم لابيكم الشيطان، وشهوات ابيكم ستفعلون. لقد كان قاتلا منذ البداية فهو كاذب وابو الكذب. ولأنني اخبركم الحقيقة لا تصدقوني، الذي من الله يسمع كلمات الله، وانتم لا تسمعونها لانكم لستم من الله» يو ٨/٤٤ ـ ٤٩

فاليهود رفعوا نسبهم الى الله سبحانه وتعالى[٢٧]، وهذا ثابت بالنص القرآني وعيسى لم يعترض، بل طالبهم باثبات صحة هذه النسبة أو جدارتهم بها بالافعال وليس بالدم.. وهو محال فهم اولاد ابراهيم وابناء الله او عيال الله اذا اتبعوا الطريق الصحيح.. ولكنهم اولاد الشيطان ان ضلوا.. ولا مجال لتزيد والحديث عن بنوة حقيقية بيولوجية لله او الشيطان. هذا هو المفهوم اليهودي لابن وابناء الله.. وبهذا المعنى كان مؤسسي المسيحية يتحدثون فلما انتقلت المسيحية الى بلاد الوثنية.. مصر واليونان وروما اكتسبت الالفاظ مفاهيم مخالفة تماما بتأثير التراث الاسطوري الوثني عن ابناء الآلهه. وليس هذا التفسير من عندنا بل اليك ما قاله المسيح نفسه نافيا هذا المفهوم الوثني:

فعندما فهم اليهود أنه يقرن نفسه بالله وان كلمة ابي تعني المساواة بالله أو ادعاء الألوهية رجموه بالاحجار فاجابهم المسيح: «اشياء كثيرة طيبة قد أريتكم من ابي فعلي ايها ترجموني؟.. فأجاب اليهود: نحن لا نرجم على الطيبات بل على الالحاد، لأنك وأنت رجل تجعل نفسك الها» يوحنا ١٠/٣٣ «فاجابهم عيسى: اليس مكتوبا في قانونكم انا اقول انكم ارباب (Gods) فاذا كان يسميهم آلهه Gods اولئك الذين جاءت كلمة الله عبرهم فان الكتاب لا ينسخ. فتقولون لمن ظهره الأب وبعثه للعالمين، انت تجدف لأنني قلت انني ابن الله؟!»[٢٨] يوحنا ١٠/٣٦.

واظن انه لا حاجة للتعليق فالسؤال طرح بكل وضوح: انت رجل كيف تجعل نفسك الها باستخدام تعبير son of God والرد اكثر وضوحا.. «عندكم في الكتاب يصف الله بعض العباد الصالحين أو الرسل بانهم Gods ... فلماذا تتهموني بالكفر وادعاء الالوهية لأنني استخدم نفس الالفاظ..

---

٢٧ ـ «وقالت اليهود والنصارى نحن ابناء الله واحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل انتم بشر ممن خلق» المائدة.

٢٨ ـ وكان يوحنا يعرف مدى استفزاز الادعاء لليهود ويحرص على استفزازهم فهو الذي قال: ان المسيح لما قال وانا وابي واحد فأخذ اليهود حجارة مرة ثانية ورجموه» ١٠/٣٠ ـ ٣١. هذه هي رواية الانجيل ولا نناقش صحتها.

وبصرف النظر عن مدى صحة هذا الحوار وانطباقه على ما دار فعلا.. فهو يعكس اعتذارا يهوديا.. أو شرحا للمفهوم اليهودي أو المسيحية الأولى التي تحاول التملص من قيد التفسير الوثني الروماني...

هذا التفسير الذي كان لابد أن يتطور ـ وهو ما حدث ـ الى التقمص أو الحلول فالله يتقمص أو يحل في شخص، والمسيح يحل في المؤمنين.. وهي فكرة شائعة في الاديان البدائية حيث يحل الله أو الارواح في البشر أو الحيوانات والاشجار.

«اذا لم اقم باعمال الأب فلا تؤمنوا بي، ولكن اذا فعلت، ولم تؤمنوا بي، فآمنوا بهذه الاعمال حتى يمكن أن تعرفوا وتؤمنوا أن الأب في، وأنا فيه» يوحنا ١٠/٣٨

فيليب قال له: ياسيد ارني الأب... فرد المسيح: هل قضيت كل هذا الوقت معكم ولم تعرفني بعد يافيليب، الذي رآني فقد رأى الأب. فكيف تقول اذن ارنا الأب»؟ يوحنا ١٤/٨ ـ ٩ «الا تؤمن انني في الأب، والاب في؟.. الكلمات التي تكلمتها اليكم، لم اتكلمها من نفسي بل الأب الحال في (او المتقمص) يعمل هذه الاعمال» «صدقوني انني في الأب، والأب في، أو آمنوا بي لمجرد الاشياء التي فعلتها» I am in the Father, and the Father in me يوحنا ١٤/١٠ ـ ٢٠

«ابن الانسان» يتراجع وان تردد مرات هنا وهناك، ولكن «ابن الله» صوته أقوى، وادعاءه ابرز في انجيل يوحنا هذا.. فالذي كانت القاعدة في حديثه عن نفسه هي ابن الانسان، والشاذ هو ابن الله أو ابي.. اصبحت القاعدة هي أبي، والنادر الشاذ: ابن الانسان.. وان استمر الابن في توقير الوالد!!

«لأن أبي اكبر مني» يوحنا ١٤/٢٨ «انا الكرم حقا وابي هو الجنايني كل غصن جاف في ينزعه، وكل غصن حي يطهره ليثمر فاكهة اكثر». يوحنا ١٥/١ ـ ٢ «انا الكرمة وانتم الاغصان» ١٥/٥ «كما احبني فأنا احبكم فاستمروا في حبي» ١٥/٩ «وصايا ابي..» يوحنا ١٥/١٠ «كل ما قد سمعته من ابي عرفتكم به» يوحنا ١٥/١٥ «كل ما يملك الأب هو لي» يوحنا ١٦/١٥ ـ.

«قبل ذلك حدثتكم عن هذه الاشياء رمزا ولكن الآن لن احدثكم بعد بالامثال بل سأريكم الأب صراحة» يوحنا ١٦/٢٥

«لأن الاب نفسه يحبكم، لانكم احببتموني وآمنتم أنني خرجت من الله» يو ١٦/٢٧ Came out from God. «لقد خرجت من الأب I came forth from the Father وجئت الى العالم وثانية اغادر العالم واذهب الى الأب» يو ١٦/٢٦ ـ ٢٨

«قال له تلاميذه: تكلم الآن بصراحة ودعك من الامثال بهذا نحن نؤمن انك خرجت (أو انبثقت) من الله» يو ١٦/٣٠

«رفع عينيه الى السماء وقال ايها الأب حانت الساعة . . فمجد الابن حتى يمجدك الابن ايضا» «لكي يعلموا انك الاله الوحيد الحق وعيسى المسيح الذي ارسلت. «والآن ايها الأب مجدني بمجدك الذي نلته قبل أن يوجد العالم» . . «فقد عرفوا يقينا انني خرجت منك وقد آمنوا إنك ارسلتني» . . يوحنا ١٧/١ ـ ٨ «من اجل أن يصبح الكل واحد كما أنت ابتاه في وانا فيك حتى انهم ايضا يصبحون واحدا فينا . . . . as thou father, art in me, and
I in thee, that they also may be one in us. يوحنا ١٧/ ٢١

«حتى يصبحوا واحدا كما نحن واحد. that they may be one even as we are one.
«انا فيهم وانت في حتى يصبحوا تماما في واحد
I in them, and thou in me, that they may be made perfect in one يوحنا ١٧/ ٢٣

وبعكس روايات الاناجيل الثلاثة حيث لم يتهم المسيح بادعاء بنوة الله فاننا نجد عند يوحنا التهمة واضحة وصريحة: «بموجب قانوننا يجب أن يموت لأنه جعل نفسه ابن الله» يوحنا ١٩/ ٧

وهذا ما يؤكده يوحنا من ان هدف انجيله «ان تؤمن ان عيسى هو المسيح ابن الله» يوحنا ٣١/٢٠

ومع التسليم مقدما بغلبة تيار الالوهية في «انجيل يوحنا» فهناك اشارات خافته بأن المشيئة هي لله وليست للمسيح:

«لا أحد يأتي الى الا اذا جذبه الآب الذي بعثني» يوحنا ٦/ ٤٤

«لا أحد يأتي الى الا اذا هداه أبي» يوحنا ٦/ ٦٥

وعندما احيا الميت شكر الله قائلا: «ابتاه شكرا لأنك سمعت لي» يوحنا ١١/ ٤١

«وصرخ عيسى من يؤمن بي لا يؤمن بي بل بمن أرسلني» يوحنا ١٢/ ٤٤

وهذا كلام الانبياء لا الآلهة . .

«فأنا لم اتكلم من تلقاء نفسي بل الاب بعثني، ارسل معي اوامره ماذا يجب أن اقول . . تماما قال الاب لي» يوحنا ١٢/ ٤٩ ـ ٥٠ . وصدق القائل:

«ما قلت لهم الا ما أمرتني به أن اعبدوا لله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم»[٢٩]

«الذي يؤمن بمن ارسله انا (اي المسيح) آمن بي، ومن آمن بي آمن بالذي ارسلني» يوحنا ٢٠/١٣

فهل نطيع المسيح . . ونحافظ على المسافة بين من ارسل ومن يرسل؟!

---

٢٩ ـ الا تعجب من اتفاق النصين على ان المسيح يعلن أنه لم «يقل» الا ما أمر به . . .

وربما يجدر الوقوف هنا لحظة عند تعبير Lord و God . . . فاذا كان الله يشار اليه دائما او غالبا بعبارة «God» الله . . . فان العكس صحيح ايضا بالنسبة للمسيح اذ لا يشار اليه الا بلفظة «Lord» وهي تعني «السيد» الا فيما ندر وفي انجيل يوحنا على الاغلب . . واذا كان التطور الذي اشرنا اليه، قد محا الفارق فالمسيحيون يقولون الآن «المسيح لوردنا والهنا» فان التمييز كان موجودا في المراحل الأولى حيث كانت «لورد» تعنى السيد ففي متى يناديه بيتر «لورد» متى ١٨/ ٢١ وفي الآية التالية مباشرة يضرب مثلا عن عبد أراده سيده أن يبيعه «فسقط وسجد له وقال: «يا لورد» ففي نصين متلاصقين استخدمت لورد في الحديث عن المسيح أو في مخاطبة المسيح، واستخدمت في مخاطبة العبد لسيده. انظر متى ١٨/ ٢٢ وكذلك متى ٢٨/ ٣١/ ٣٢/ ٣٣ وحكاية الرجل الغني لوقا ١٤/ ٢٢ ـ ٢٣/ لوقا ١٦/ ٣ ـ ٨ والاعمى ناداه: ابن داود ولورد» لوقا ٣٧/ ٤٠ ـ ٤١

بل ان «القيام» بعد «الصلب» تحيطه شبهات، كما اوردنا لها شأن في موضوعنا هذا، ونعني الألوهية . . فمعروف ان هناك من يشككون في وقوع الصلب فعلا، ويؤكدون ان المسيح لم يمت على الصليب، وهناك اجماع على انه ما من أحد من كتبة الاناجيل شاهد «القيام» الا «بولس» . . الذي لم يقابل المسيح في حياته؟! وهذه كلها قضايا بعيدة عن موضوعنا . . المهم هنا ان هذه الروايات تؤكد ان «المسيح» الذي رأوه بعد الصلب كان بشراً من لحم ودم، وبالطبع فان الذين رأوه قد ذهلوا، كما هو المتوقع من أي آدمي، وأول ما يتبادر للذهن الميتافيزيقي أنه يرى شبحا أو روحا أو شيطانا، وللذهن المادي أنه يرى حلما أو خدعة ما! . . ولذلك طلب «توما» أن يضع اصبعه في الجرح، حتى ابتل بالدم فآمن فعلا ان هذا هو المسيح بلحمه ودمه . . ولو كان عندهم نبأ سابق بأنه اله أو ابن اله لاختلف تصرفهم تماما!

وفي لوقا نصوص بالغة الأهمية:

وبينما كانوا يتكلمون وقف المسيح في وسطهم وقال لهم السلام عليكم[٣٠] ولكنهم خافوا وارتعبوا وظنوا انهم يرون روحا، فقال لهم . . لماذا تضطربون وتظنون الظنون، امسكوا يدي ورجلاي، انه انا، المسوني وستتأكدون. لأن الروح ليست من لحم وعظم، وكما ترون فأنا من لحم وعظم . . وأراهم يديه ورجليه وهو يتحدث». لوقا ٢٤/ ٣٦ ـ ٤٠

ولزيادة تأكيد بشريته قال لهم «هل لديكم لحمة، فأعطوه قطعة من سمك مسلوق وبعض العسل واخذها وأكل امامهم» لوقا ٢٤/ ٤١ ـ ٤٣

وسواء اخذنا برواية الصلب الوهمي، أو عدم الصلب، أو الصلب فعلا . . فهذه

---

٣٠ ـ وهذا يتفق مع اكثاره من السلام في القرآن: «وسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم ابعث حيا»

الروايات تؤكد أن المسيح الذي وجد قبل الصلب كان بشرا من لحم ودم والذي وجد بعد «حادثة الصلب» كان بشرا من لحم ودم.

وأهم من ذلك ان العالق بذاكرة كتبة الأناجيل هو حرص المسيح على تأكيد انه **من لحم ودم يأكل الطعام ويمشي في الأسواق** وقد أشرنا الى النص الذي يقول فيه أنه لما جاء يوحنا لا يأكل ولا يشرب ظنوه شيطانا فجاء هو يأكل ويشرب (مثل البشر) فقالوا: «نهم يحب الطعام».

من اليهود للرومان

«واذا قال عيسى بن مريم يابني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد. الصف».

«.... ورسولا الى بني اسرائيل...» آل عمران

بدأ المسيح يهوديا، ونبيا لليهود خاصة، وانتهت المسيحية بأن اصبحت ابعد العقائد عن الفكر اليهودي، واكبر قوة معادية لليهود.. فكيف حدث هذا التطور وكيف انعكس على الاناجيل، والعقيدة وقياداتها..؟!..

الـدراسـات حول جواب هذا السؤال تصلح جسرا آخر على نهر دجلة، والفكـرة الاساسية، هي الصراع الذي دار بين كنيسة المسيح، أو ان شئت الدقة كنيسة آل البيت في فلسطين وبين كنيسة بولس خارج فلسطين، وبالذات في روما.. وكان الخلاف جوهريا وشاملا الى حد اجماع المؤرخين على أن دينا جديداً قام على الاسس التي وضعها بولس خلال خلافه مع الحواريين وأهل المسيح أو كما يقول استاذ تاريخ الاديان في جامعة باريس:

«عندما نقارن المسيحية في القرون الوسطى بدين اقليم الجليل، ذلك النبي المتواضع، الرقيق الخلق، الذي زعم ان رسالته هي فقط تبشير اخوته في الله بالنبأ الطيب، نبأ حلول مملكة الله، وحثهم على اعداد العدة لها بمكارم الاخلاق، دين عيسى الذي تسامت تقواه إلى إله أجداده في تطلع بنوي مطمئن.. فاننا لا نجد رابطة تذكر بين هذا وذاك! فباسم المسيح يبدو أن حياة الوثنية كلها، سواء في ميدان الفلسفة أو الدين، وبكل ما انطوت عليه

من تناقضات وفوضى قد دبت فيها الحياه من جديد فنشطت وانتصرت على دين الروح والحق الذي بشر به وعاشه الاستاذ اليهودي . . فالحقيقة الثابتة التي لا جدال فيها هي : ان الكنيسة لم تتمكن من «الانتصار» خلال القرن الرابع الا بفضل انهزام الايمان الاول الذي يمكن أن نسميه بـ «ايمان الاثنى عشر» .[1]

فالدارس الفرنسي في القرن العشرين وصل الى ما قرره الاسلام في القرن السابع وهو فساد العقيدة، وانعدام الصلة بين عقيدة وطقوس ومسلكية الكنيسة التي كانت قائمة وقت الرسالة المحمدية، وتعاليم ورسالة المسيح عليه السلام . .

ولا يمكن تحميل رجل واحد مسئولية ما حدث، مهما قيل في شخصية «بولس» وهمته وحماسته وثقافته، فالتطور تم خلال سنوات طويلة، وساهم فيه رجال مجهولون ومعروفون، بعضهم حمل خلفياته الوثنية الى الدين الجديد عن حسن نية، وبعضهم تودد للمؤمنين الجدد بتنازلات، أو تعديلات في افكار واساطير، فتلقفت الجماهير والمؤسسات الوثنية هذه التعديلات التي ظنها الأباء الطيبون مجرد شكليات، وحولها المؤمنون الجدد الى جوهر العقيدة، مثل الصلب والقيام والقربان والتعميد . . واخيرا الكنيسة ذاتها، التي لا نجد أي دليل على ان «المسيح» حاول اقامتها . . فضلا عن أن تحمل كل خصائص المؤسسة الرومانية . . !

وقد فرض هذا التطور نفسه بالاحداث التي وقعت في فلسطين بثورات الفلسطينيين وصدامهم مع السلطة الرومانية، وانتقال التبشير الى العالم الروماني خارج فلسطين، مما فرض على الدعاة بموجب قانون «حب البقاء» العمل في اتجاهين :

١ـ كسب الجماهير ذات الثقافة الهيلينية، أي الوثنية التي تؤمن بالرجل الاله والاله

---

١ ـ المسيحية : نشأتها وتطورها ص ٢٤٠ وانظر ايضا الى هذه المعجزة، فعندما ظهر الاسلام كان نظام الرهبنة هو اساس المسيحية وشكلها البارز بحيث يستحيل على اي معاصر أن يتصور انفصال نظام الرهبنة عن المسيحية أو انه نظام دخيل . . ولكن العزيز الحكيم فاجأ هؤلاء المعاصرين بقوله تعالى: ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم اجرهم وكثير منهم الفاسقون .

والثابت الآن من الدراسات الحديثة ان نظام الرهبنة «ابتدعه» المصريون المسيحيون وان اول دير انشىء للرهبنة في العالم المسيحي كان في عام ٣٢٠ ميلادية أي بعد ثلاثمائة سنة من وفاة المسيح وثلاثمائة سنة من ميلاد محمد« فكيف عرف رسول الله انها «بدعة» وانها انطلقت من التقوى، وانها لم تراعى حق رعايتها، وان الاديرة كان يرتكب فيها الكثير من الفسق . . ؟!

الرجل . . والتي لا جذور يهودية لها، بل والتي تعادي اليهود، ولا تفهم فكرتهم المجردة عن التوحيد . .

٢ـ أن تبرىء ساحتها امام السلطة الرومانية، من تهمة معاداة السلطة التي حملها اليهود بثوراتهم المتعددة، وبفكرهم الانعزالي الذي يرفض العالم كله، وذلك بقطع صلتها باليهود بل والمغالاة في معاداة اليهود، والتودد للسلطة الرومانية، وتبني فلسفتها ورسالتها، أي أن تصبح المسيحية ايدلوجية الحضارة الغربية . . بل الصيغة النهائية لهذه الحضارة في المواجهة العالمية . . فتعبير الحضارة الغربية ـ المسيحية، الذي حدد تاريخ اوروبا ـ امريكا خلال القرون الماضية وربما خلال عدة قرون قادمة، وضعت أسسه في اجتماعات «بولس» السرية والعلنية في بلدان الامبراطورية الرومانية، وفي الخلاف حول الختان واكل الخنازير . .

واذا كانت «الاناجيل» هي أول وثيقة معادية للسامية، أو بالذات اليهود، فان ذلك لا يجعلنا ننسى أن المسيح كان يهوديا، وان دعوته بدأت عبرانية، بأمل هداية اليهود «وحدهم»، ولكنها فشلت في ذلك لغلاظة قلوب اليهود، ولأن المسيح رفض أن يقبل دور ملك اليهود بالمفهوم القتالي الذي اراده اليهود، اي الذي يقود ثورتهم ضد السلطة الرومانية ويهزم لهم الامبراطورية بمعجزة جديدة من معجزات التاريخ اليهودي . .

وبالطبع ، فكما هو الحال في كل الانشقاقات الفكرية ، سيجد كل فريق من المتحاورين نصا حمال أوجه يمكن أن يفسر لصالحه . . ومن ثم فان الذين قالوا «بيهودية» الرسالة اعتمدوا على نصوص صريحة منسوبة للمسيح ، والذين قالوا «بعالميتها» لم يعتمدوا فقط على الرؤيا والاحلام والتبليغات التي خصهم بها المسيح في احلامهم أو على الطريق الى دمشق . . بل وايضا الى تصرفات واقوال السيد المسيح . ولا جدال في ان «المسيح» لم يكن متعصبا انعزاليا مثل اليهود . . الا ان استعراض الاناجيل يساعدنا على ملاحظة هذا التطور، واذا كانت الكنيسة المعادية لليهود هي التي كتبت وانتقت الاناجيل، فانها لاعتبارات عديدة لم تستطع أن تزيل بشكل نهائي الآثار اليهودية، التي وضعت بصماتها، في ميلاد المسيحية، وفي انتماء وعقيدة الصف الأول.

ففي انجيل «متى» نجد يهوديا ساخطا على رفض اليهود الخير الذي جاءهم، ولكنه مقتنع بافضلية اليهود، ولذا لا نجده يتحدث عن «اليهود» بل عن فئات ومراتب وجماعات داخل «الشعب» . . فاليهودي ـ كما قال سارتر ـ هو من يعتبره الآخرون يهوديا، واليهودي لا يمكن ان يتحدث عن «اليهود» فهذا وصف يستخدم في العادة من الخارج وعلى سبيل «الفرز» أو حتى الاهانة . . ولذلك سيكون مثيرا أن نجد «يوحنا» في انجيله الروماني لا يتحدث الا عن «اليهود» وجرائم اليهود وكأن مؤلفه نازي!

في «متى» المسيح رسولا لبني اسرائيل فقط وملتزم حتى بتحريماتهم ومنبوذيهم :

«ارسل عيسى الاثني عشر (حوارياً) وامرهم قائلا: لا تذهبوا في طريق الاممين[٢] ولا تدخلوا في اي مدينة من مدن السامريين، بل اذهبوا الى خراف بيت اسرائيل الضالة»[٣]

وحتى في الاجزاء التي يضيق بها «متى» ذرعا برفض «اليهود» للخير الذي جاءهم، ويتنبأ لهم بالشقاء، فانه لا يسميهم «اليهود» بل يستمر في حديثه عن «الشعب»! . .

«وعندما جاء الى الهيكل جاء اليه رئيس الكهنة وحكماء الشعب». ويستعرض لنا حوارا عنيفا على مدى ٢١ آية حتى يصل الى قرار «حرمانهم» دون أن ترد لفظة «يهود» مرة واحدة! (انظر متى ٢١/٢٣ ـ ٤٣) وكذلك الاصحاحان ٢٣/٢٤ يتضمنان أعنف هجوم على اليهود، والتنبؤ بدمار معبدهم دون ان ترد كلمة «يهود» التي سنجدها في كل صفحة في انجيل يوحنا. «قتلة الانبياء» متى ٣١/٢٣ «ليقع على رؤوسكم كل دم عادل من دم قابيل الى دم زكريا الذي قتلتموه ما بين المذبح والهيكل» متى ٣٥/٢٣ . . «اورشليم اورشليم ياقاتلة الانبياء» . . «لن يبقى من المعبد حجر على حجر» متى ٢/٢٤ . .

فرغم كل شيء فان متى يهودي ومسيحه يهودي . . ورغم ان انجيله كتب في فترة كان من الضروري فيها التودد للسلطة الرومانية، التي رحبت بلاشك بنقل مسئولية هدم المعبد اليهودي وذبح اليهود الى المسيح، فهو الذي دعا عليهم، والجند الروماني لم يكن اكثر من منفذ لارادة المسيح ! . . ورغم ما جرى من تنقيح من قبل السلطة الكنسية المعادية لليهود، فقد ظل «متى» يهوديا، ومازالت يهوديته تطل من انجيله.

ومرقص (اليهودي ايضا) يورد قصة المسيح والمرأة غير اليهودية وهي القصة التي حذفها لوقا رفيق بولس في رحلة التبشير خارج عالم اليهود، حذفها ـ كما قالت اللجنة المصرية لترجمة الانجيل ـ لأنها تسيء الى غير اليهود! والقصة هي :

«جاءت امرأة اغريقية ـ سورية الجنسية وطلبت منه اخراج الشيطان من بنتها، ولكن عيسى قال لها «دعي الاولاد يشبعون أولا، لأن خبز الاولاد لا ينزع منهم ويلقى للكلاب» مرقص ٢٧/٧ وردت المرأة «نعم أيها السيد حتى الكلاب تحت المائدة يأكلون فضلات الاطفال» مرقص ٢٨/٧ . .

ومرقص عندما يتحدث عن جريمة اليهود، يلخصها في انهم يسلمون ابن جلدتهم للأغراب: «وسيحكمون عليه بالموت ويسلمونه للأمميين» مرقص ٣٤/١٠ «سيسلم للأمميين ليسخروا منه ويجلد وليصلبوه» متى ١٩/٢٠

واذا كنا نؤيد القول بان المسيح اليهودي جاء نبيا لبني اسرائيل، وكان مهتما ببني

٢ ـ هم الجنس البشري من غير اليهود!

٣ ـ متى ٥/١٠ ـ ٦

اسرائيل، الا اننا كما قلنا نتنزه عن مثل هذه الاقوال أو الافعال، مثل حديث الكلاب، والاعيان المتشردين . . ونؤيد انه كان غير متزمت في مسألة الطقوس مثل تحريم حتى شفاء المرضى في يوم السبت، وكلمته «السبت صنع للانسان وليس الانسان للسبت» كلمة نبي حقا، وتفوق أي مبرر يمكن أن يقدمه الفكر اليهودي المتزمت عن تقديس السبت، وتصل الى ذروة عالية في الفلسفة الانسانية التي تجعل حتى الدين في خدمة الانسان وليس العكس.

وفي لوقا الوثيق الصلة ببولس وهو نفسه من اصل غير يهودي، سنجد الاميين يتقدمون على اليهود في نعمة رسالة المسيح: فالرجل الصالح الذي يعيش في اورشليم واسمه سيمون والذي بشرته الروح القدس بأنه لن يموت حتى يرى «مسيح الرب» وقادته الروح الى الهيكل حيث كان الطفل عيسى قد أحضره «والداه» (؟!) أخذ الطفل بين يديه وباركه وحمد الرب ان رأت عيناه الخلاص «نورا يضيء للأمميين ومجداً لشعب اسرائيل» وهو تطور خطير غفل عنه كتبة متى ومرقص . . ورآه الرجل الصالح سيمون . وتعجب يوسف وامه وباركهما سيمون وقال لماري ان هذا الطفل مقدر لسقوط وعلو الكثيرين في اسرائيل» لوقا ٢/٣٣ ـ ٣٤

ومجاملة الرومان، وتأييد السلطة الرومانية، في الانجيل تنسحب على الماضي فينسب لوقا الى «يوحنا المعمدان» هذا الصوت الصارخ في البرية انه لما جاء اليه الجند يسألونه النصيحة قال لهم التالي: «لا تعتدوا على أحد، ولا تتهموا أحداً بالزور، وكونوا قانعين (أو سعداء) بأجوركم» لوقا ١٤/٣

وهي نصيحة قس السلطة في رواية فونتمارا . . أو في امريكا اللاتينية قبل ظهور حركة «الاحديين»! وغير منتظرة من يهودي ستقطع السلطة الرومانية رأسه وتستعرضها في حفل راقص!

ضابط روماني يقود مائة جندي «يحب أمتنا وبنى لنا معبدا» وقال عنه المسيح: «اقول لكم انني لم أجد مثل ايمانه العظيم ولا في اسرائيل» لوقا ٥/٧ ـ ٩.

وتجلى ايمانه في طلبه شفاء خادمه من بعيد ودون حاجة لحضور المسيح شخصيا الى فراش المريض . .

قلنا ان المبشرين في روما، او الكنيسة المسيحية العاملة بين الرومان وتحت نفوذ السلطة الرومانية، كانت تواجه مأزقا خطيرا من شقين: جذو العقيدة اليهودية، واليهود في حالة ثورة على الامبراطور، وهذه امكن معالجتها بالتحرر والتبرؤ من الديانة اليهودية المعاصرة، وانتزاع الكتاب المقدس (التوراة) منهم . . اما الشق الثاني فهو حقيقة ان السلطة الرومانية هي التي اعدمت، أو حتى اصدرت حكم الاعدام على المسيح . . فكيف يدعو اتباعه الى

احترام سلطة قتلت زعيمهم؟! وهذه تخلص منها كتبة الانجيل والتاريخ المسيحي ببراعة منقطعة النظير اذ حملو الجريمة كاملة لليهود، وغسلوا يد الرومان تماما من دم المسيح، وجعلوا السلطة الرومانية مجرد منفذ مقهور مغلوب على أمره امام الحاح واصرار «اليهود» على قتل المسيح. وبذلك لم تعد هناك قضية ولا ثأر، وانفتح الباب على مصراعيه للتعاون، بل وسنرى «بولس» صاحب هذه الدعوة يحتمي بالرومان من اليهود، ويأمن الى عدالة الرومان، بل ويطلب محاكمتهم، ويشهر في وجه اليهود جنسيته الرومانية.. وستمضي ثلاثة قرون قبل ان تندمج الكنيسة في الدولة الرومانية، ولكن بولس وضع جذور هذا الاندماج، عندما حول الدين الجديد، من ثورة يهودية الى ايدلوجية الاباطرة.

في «يوحنا» واعمال الرسل، سنجد انجيلا تحرر من اليهود، ويعي كتابه انفصالهم عن «اليهود» وعداوة الدين الجديد لهم، وحرص دعاته على تأكيد انفصالهم عن الجذور اليهودية للمسيحية، لذا فهو يتحدث عن «اليهود» The Jews، هذا التعبير الذي سينتقل من انجيل يوحنا واعمال الرسل الى الفكر الغربي حتى يومنا هذا حتى يكتشف اخيرا خطأ تعريف اليهود في دائرة المعارف البريطانية وينقح.. وحتى يبدأ الاعتذار في القرن العشرين عن تحامل شكسبير على «اليهود» وسيقترن هذا التصحيح باعادة بعث اليهودية - المسيحية..

ففي يوحنا لا نجد الا «اليهود»:

«عندما ارسل «اليهود» (ليوحنا المعمدان) يوحنا ١/١٩

«بعد، طهارة اليهود» يوحنا ٢/٦

«وكان فصح اليهود قد اقترب» يوحنا ٢/١٣

«فأجابه اليهود......» يوحنا ٢/١٨

«عندئذ قال اليهود.......» يوحنا ٢/١٩

ويطرح يوحنا تفسيرا لتحديه بأن يهدموا الهيكل ويبنيه في ثلاثة ايام، بانه انما يقصد هيكل جسده!

وكان في رجل يحكم اليهود» يوحنا ٣/١

«ثم جرت مسألة بين يوحنا واليهود حول التطهير» يوحنا ٣/٢٥

وسنرى المسيح الذي أمر اتباعه الا يدخلوا قرية سامرية التزاما بتعاليم اليهود، سنراه عند «يوحنا» يتصل بالسامريين، ويشرب من يد المرأة التي ستقول له: «انت يهودي فكيف تشرب من يد السامرائية؟» ويخشى «يوحنا» الا يفهم «المغتربون» مغزى القصة فيحرص على شرحها: «لأن اليهود لا يتعاملون مع السامريين» يوحنا ٤/٧ - ٩

ولكن مسيح يوحنا يحطم شريعة اليهود، بل ويختص هذه المرأة السامرية باعلان انه هو

المسيح المنتظر. وعندما يحضر تلاميذه يتعجبون من حديثه معها «ولكن ما من احد سأله لماذا تكلم معها ولا ماذا قال لها» يوحنا ٤/٢٧. وواضح انهم ليسوا عنصريين. وكان من الطبيعي أن يؤمن به المنبوذون اليهود: «وآمن به كثير من السامريين» يوحنا ٤/٣٩ وطلبوا منه البقاء معهم وبقى فعلا يومين يوحنا ٤/٤٠ ثم سافر الى الجليل «لأنه لا كرامة لنبي في قومه» يوحنا ٤/٤٤ وربما كانت أهم نتائج الاتصال بالسامريين عن رواية يوحنا انهم اعلنوه «المسيح المخلص للعالم» يوحنا ٤/٤٢. فلم يعد مخلص لليهود وحدهم ولا ملك اسرائيل ولا نبي اسرائيل بل خرج من الاسر اليهودي، خرج من الغيتو اليهودي، واصبح مسيح العالم كله، والذي اعلنه كذلك هم الفئة المضطهدة من اليهود، الذين يتحاشى اليهود لمسهم لكي لا يتدنسوا، فكان أن سلبوا اليهود مسيحهم!

«وذهب الرجل واخبر اليهود انه هو عيسى» يوحنا ٥/١٥

«ولهذا طارد اليهود عيسى وفكروا في ذبحه لأنه صنع ذلك في السبت» يوحنا ٥/١٥

ولاحظ ان نفس الحادثة في الاناجيل الاخرى ولكن دون لفظة «يهود».

«فغمغم اليهود ضده» يوحنا ٦/٤١

«واسر اليهود في انفسهم» يوحنا ٦/٥٢

«لم يكن يستطيع المرور في يهودية لأن اليهود بحثوا عنه لقتله» يوحنا ٧/١

«بحث عنه اليهود في الحفل قائلين اين هو» يوحنا ٧/١١

«ولم يتحدث عنه علنا خوفا من اليهود» يوحنا ٧/١٣

«وتعجب اليهود» يوحنا ٧/١٥

«وقال اليهود فيما بينهم... هل سيذهب للأميين ويعلم الأميين؟» يوحنا ٧/٣٥

«فقال اليهود هل سيقتل نفسه» يوحنا ٨/٢٨

«وعندئذ قال عيسى لهؤلاء الذين آمنوا به...» يوحنا ٨/٣١

«عندئذ اجاب اليهود قائلين هل انت سمرائي ربك شيطان» يوحنا ٨/٤٤

عندئذ قال له اليهود الآن تعرف ان بك شيطان... الخ» يوحنا ٨/٥٢

«ولكن اليهود لم يصدقوا» «وعندئذ قال له اليهود» يوحنا ٨/٥٧

«وتكلم الابوان هكذا لأنهما خافا اليهود لان اليهود قد قرروا أن أي شخص يعترف بأنه المسيح سيطرد من المجمع» يوحنا ٩/٢٢

ولا حاجة للاستمرار في الاحصاء، فانجيل يوحنا لا يتحدث الا عن «اليهود» وهو سجل كفاح المسيح ضد «اليهود».. واعلن مخلص اليهود «أنهم ليسوا خرافي» يوحنا ١٠/٢٦ ويخيل لك ان المسيح في يوحنا جاء ضد اليهود ولازالتهم بل وبدأ تلاميذه يصدونه عن الاتصال باليهود،: «ياسيد! اليهود حاولوا مؤخرا رجمك وتذهب الى هناك؟!» يوحنا

١١/٨ حتى الذي يؤمن يظل يهوديا!

وآمن كثير من اليهود، ولكن بعضا منهم ذهب الى الفريسيين واخبرهم . . . الخ» يوحنا ١١/٣٦

وكما قلنا فان «يوحنا» هو اكثرهم ثقافة، واقدرهم على الحبكة الفنية . . ولذلك فهو يقدم لنا مؤامرة كاملة تحول مخلص اليهود الى كبش فداء ذبحه اليهود لانقاذ الأمة اليهودية . . حتى لا يؤمن به «اليهود» فيأتي الرومان ويأخذون مكاننا وأمتنا» «فليمت فرد ولا تهلك أمه» بل وأيضا «لتجميع اولاد الله في الشتات» . «ومن هذا اليوم ائتمروا على قتله» . «ولذا أصبح عيسى لا يسير علانية بين اليهود» . يوحنا ١١/من ٤٧ ـ ٥٢

والمسيح يقول: «وكما قلت اليهود . . .» يوحنا ١٣/٣٤

ويمكن تتبع تطور الموقف من اليهود واليهودية، من خلال تتبع «عيد الفصح» في الاناجيل . . Pass over. وهو احد ابرز اعياد اليهود، ليلة خروجهم من مصر حيث قتل الههم الابن البكر لكل بيوت المصريين وتخطى اليهود لأنهم كانوا قد وضعوا علامة متفق عليها بالدم على بيوتهم، لكي لا يخطىء الههم ويقتل الطايع مع العاصي . . وهوايضا العيد الذي اكلوا فيه الخبز بدون ان يختمر . . المهم انه عيد مهم في الديانة اليهودية، والمسيح في الروايات اليهودية الجذور شديد الحرص على تناول الفصح والاحتفال به، كأي يهودي بلا تمييز فهو عيد الجميع . .

و «بعدما انهى عيسى كل هذه الاقوال قال لتلاميذه: تعرفون انه بعد يومين سيكون عيد الفصح وسيخان ابن الانسان ليصلب» متى ٢٦/١ ـ ٢ .

وقرر رئيس الكهنة عدم القبض عليه «في يوم العيد» . . متى ٢٦/٥

«والآن اول يوم من عيد الخبز غير المخمر جاء التلاميذ لعيسى قائلين له أين نعد لك لتأكل الفصح»

فأمرهم بالذهاب للمدينة الى منزل شخص معين . . الخ لترتيب الاحتفال بالفصح . . .

«وفعل التلاميذ كما أمرهم عيسى واعدو الفصح . فلما جاء المساء جلس مع الاثني عشر ولما اكلوا قال . . الخ متى الاصحاح ٢٦

فهو احتفل وتلاميذه بعيد الفصح كأي جماعة يهوديةمتدينه . بل ان السماء كانت قد اعدت ترتيبا خاصا له لتناول الفصح . وليست هناك اشارة واحدة الى انه عيد خاص باليهود بل ان أهم طقوس الكنيسة بعد الصلب وهو التناول تم اثناء أكل الفصح . .

هذا في متى . . انظر اصحاح ٢٦ .

فماذا في مرقص؟

نفس الرواية . . .

«وفي اليوم الاول للخبز غير المخمر، عندما «يقتلون» الفصح قال التلاميذ له، اين تريدنا ان نذهب لنحضر حتى تأكل الفصح؟ . . فأرسل اثنين من تلاميذ وقال لهما اذهبا الى المدينة ستقابلان رجلا يحمل جرة ماء اتبعاه حيثما يذهب وقولا له أين المضيفة التي سآكل فيها الفصح مع تلاميذي، وسيريكم حجرة عليا كبيرة مفروشة ومعدة، لنا . .» مرقص ١٤/١٢ ـ ١٥

وبالطبع حدث بالضبط ما توقعه المسيح

«واعدوا الفصح . وفي المساء جاء مع الاثني عشر» وقال نفس الكلمات ووقع التناول . . .

وفي لوقا سنجد المبادرة من المسيح فلم يسأله التلاميذ أين ستأكل الفصح؟ بل هو الذي فكر في ذلك:

«ثم جاء يوم الخبز غير المخمر عندما يجب «قتل» الفصح . . فأرسل بيتر وجون قائلا: اذهبا وأعدا الفصح حتى نأكله . فقالا له أين تريدنا أن نحضره» لوقا ٢٢/٧ ـ ٨

ثم نفس رواية مرقص عن الرجل وجرة الماء والغرفة العلوية المفروشة ووجدوا كل شيء كما قال: «واعدوا الفصح» لوقا ٢٢/٩ ـ ١٣ .

وحدث التناول ايضا خلال حفل الفصح . .

والخلاف في الروايات الثلاث طفيف يمكن الاغضاء عنه ولكن الروايات الثلاث مجمعة على الاهتمام بالفصح والاحتفال به، وانه تناول الفصح وهذا هو الذي تسميه الكنيسة الآن «العشاء الاخير» دون اشارة الى أنه عيد الفصح اليهودي . .

أما «يوحنا» الذي كما قلنا ذهب بعيدا في الانسلاخ عن اليهودية، وحذف كل ما يثبت الصلة . . فقد اختفى الفصح . .

في «يوحنا» المسيح لا يهتم بعيد الفصح، ولا تلاميذه، ولا يعدون له، ولا رجل يحمل جرة ولا غرفة ضيافة، ولا احد يسأل اين ستأكل ياسيد الفصح، ولا هو يأمرهم باعداد الفصح ولو كان الامر اقتصر على ذلك لقلنا انها رواية سقطت من انجيل يوحنا، كما اختفت رواية في انجيل وظهرت في انجيل آخر، ولكنه موقف مقصود وبكل الوعي في انجيل يوحنا . . انظر هذه «الآية» العجيبة:

«واقترب الفصح وهو عيد لليهود» يوحنا ٦/٤

انتهى الفصح . . أصبح يهوديا . . ولا دخل للمسيح فيه . . وليس لهذه الآية أي صلة بما قبلها أو بعدها، ولا أهمية لها على الاطلاق، الا تأكيد رفض «عيد الفصح اليهودي» فهي قد وضعت قصداً لاضعاف الروايات الاخرى عن احتفال المسيح بالفصح . . فهو معروف ومؤرخ ولكنه «عيد اليهود» وقد وردت في متى هكذا:

«وعنـدمـا كانوا ياكلون، اخذ عيسى خبزا وباركه، ثم كسره واعطاه للتلاميذ وقال: خذوا.. كلوا.. هذا جسدي».

«ثم اخذ كأسا وشكر واعطاه لهم قائلا.. اشربوه انتم كله: لأن هذا هو دمي للعهد الجديد الذي يراق... الخ» متى ٢٦/٢٦ ـ ٢٨.

ولكن لم يورد حكاية انكم عندما تأكلون جسدي وتشربون دمي احل فيكم.. الخ.. وهذا هو الاساس الذي يستند اليه من يقولون ان التناول هو مجرد رمز أو مثل لا علاقة له بالحلول ولا الاندماج في المسيح.. وكذلك اوردها مرقص مطابقة تقريبا:

«وبينما كان يأكل اخذ عيسى خبزا وباركه، وكسره، وأعطاه لهم وقال خذوا كلوا.. هذا جسدي، واخذ كأسا وعندما شكر، اعطاه لهم وشربوه كله، وقال لهم هذا دمي للعهد الجديد الذي يراق للكثيرين «مرقص ١٤/٢٢ ـ ٢٤

ونفس الشيء في لوقا..

«واخـذ خبـزا وشكر وكسر واعطاهم قائلا هذا جسدي الذي اعطى من اجلكم.. وكذلك الكأس بعد العشاء قائلا.. هذا الكأس هو العهد الجديد في دمي، الذي يراق من أجلكم». لوقا ٢٢/١٩ ـ ٢٠.

واذا كان يوحنـا قد حذف مشهد التناول، الا أنه طرح تصورا اكثر سذاجة أو حتى فجاجة، منقولا من التقاليد الوثنية البدائية التي تعتقد ان اكل الاله ينقل قوته واختصاصاته للانسان الآكل.. تجسد الرمز الذي كان في متى ومرقص ولوقا الى لحم ودم حقيقين يأكلان ويشربان ليتحقق التقمص..

«انا خبز الحياة.. اباؤكم أكلوا المن وماتوا، ولكن هذا هو الخبز الآتي من السماء، واي رجل يأكل هذا الخبز سيعيش الى الأبد، والخبز الذي سأعطيكم هو جسدي الذي اعطيه لحياة العالم...

فغمغم اليهود قائلين كيف سيعطينا هذا الرجل لحمه لنأكله؟ فقال لهم المسيح الحق والحق اقـول لكم اذا لم تأكلوا لحم ابن الانسـان وتشربوا دمه فلا حياة فيكم» من يأكل جسدي ويشرب دمي ستكون له حياة ابدية وسأبعثه يوم القيامة» يوحنا ٦/٥١ ـ ٥٤

لأن جسدي لحم حقا ودمي شراب حقا.

For my flesh is meat indeed, and my blood is drink indeed, he that eath my flesh and drinketh my blood, dewelleth in me, and I in him.

فالذي يأكل لحمي ويشرب دمي يحل في وأحل فيه، كما بعثني الأب وكما اعيش بالاب فهذا الذي سيأكلني حتى هو سيعيش بي..» يوحنا ٦/٥٥ ـ ٥٧

ان كان المسيح قد قال ذلك، فالحق كل الحق مع مستمعيه من «اليهود الموحدين» الذين

تخطوا بالشريعة الموسوية بل منذ فداء اسماعيل (اليهود يقولون اسحاق) الذبيحة البشرية الحق معهم ان كانوا قد قالوا كما يروي يوحنا: «هذا قول غليظ.. من ذا الذي يستمع لمثل هذا القول» يوحنا ٦/٦٠

والحق انها غليظة، ومهما قيل ان الفكرة موجودة في الاناجيل الاخرى، فلاشك انها كانت هناك مجرد ايحاءة، ايماءه. وليست غليظة عارية وثنية وحشية.. والحمد لله انها لم ترد الا في انجيل واحد تجمع الدراسات على انه تعرض لتغيير كبير.. وحقا كانت الصدمة كبيرة على مجتمع وصل الى التوحيد وكف من الآف السنين عن اطعام الالهة فضلا عن اكل الاله.. ولذلك يقرر يوحنا:

«ومن هذه اللحظة تراجع الكثير من تلاميذه ولم يمشوا معه بعد ذلك وعندها قال عيسى للاثنى عشر، هل ستنفضون عني انتم ايضا؟ فاجابه سيمون بيتر: لو رد الى من سنذهب وانت معك كلمات الحياة الابدية، ونحن نؤمن انك المسيح ابن الله الحي» يوحنا ٦/٧٠

ومن هنا يستحسن بالذين يريدون اعادة الرمز الى المعنى «الخفيف» ان يستنكروا رواية يوحنا الغليظة.. حتى يستقيم موقفهم!

وقد جعل «يوحنا» محاكمة المسيح يوم الفصح، واليهود رفضوا دخول المحكمة ليأكلوا الفصح. انظر يوحنا ١٨/٢٢. فالمسيح لم يأكل الفصح ولا كان هناك العشاء الكبير بل كان في السجن والمحكمة في ال Pass over (الفصح)!

يوحنا جعل رحلة المسيح الى بيت حاني ستة ايام قبل الفصح. وفي اليوم التالي (خامس يوم قبل الفصح) ركب الحمار ودخل القدس». ثم انتقل بنا الى قوله: «وقبل عيد الفصح». ثم تحدث عن عشاء لا علاقة له بالفصح. ان لم يكن بالتحديد قبل العيد فلا دخل له بالفصح الا تصادف الزمن.. والمسيح في الاناجيل الاخرى ـ كما رأينا ـ وزع خبز الفصح ولكنه هنا «بعد العشاء».

وقد حاولت لجنة ترجمة انجيل لوقا (ط. م) رأب الصدع بين روايات الاناجيل الثلاثة ورواية انجيل يوحنا.. فالمسيح خضع لطقس الفصح، الذي كان أهم تلك الطقوس، ولكنه بخضوعه له هذه المرة ختمه ونهاه». [٤]

اما كيف قال يوحنا ان المسيح احتفل بالفصح (يوحنا لم يقل احتفل بالفصح ولا اكل الفصح، ولكن اللجنة تضع على لسانه ما يفيد العقيدة بأمر من الروح القدس وهذا تقليد قديم) المهم ان «اليهود في صباح يوم الجمعة الذي صلبوا فيه المسيح لم يكونوا قد اكلوا الفصح بعد»[٥]؟..

٤ ـ ٥ ـ ٦ ـ انجيل لوقا ط. م.

نعم كيف تقول اناجيل ثلاثة ان المسيح اكل الفصح في موعده مع كل اليهود، وينفرد يوحنا بان المسيح صلب قبل موعد الفصح، الحل بسيط جد . . ؟! الجواب: «اليهود لمكرهم وغدرهم تعمدوا في تلك السنة ان يؤخروا الفصح عن موعده الحقيقي يوما واحدا حتى يفرغوا من قتل المسيح» (٦)

واذا كانت ادانة «اليهود» هي النغمة السائدة في الاناجيل، فان كتبة هذه الاناجيل بذلوا جهدا فائقا وموفقا في تبرئة السلطة الرومانية. جهدا لم يكن يستطيعه أي مؤرخ روماني، وقد استطاعوا بهذا الجهد أن يجتازوا فعلا كل الحواجز الى قلب السلطة الرومانية . . ففي متى: نجد الحاكم الروماني بيلاطس، يراجع اليهود اكثر من مرة لكي يسمحوا له باطلاق سراح عيسى، ولكنهم ظلوا يصرخون «اصلبه . . » فيتسال: لماذا . . ماذا ارتكب؟ أي جرم اتى؟»

حتى زوجة الحاكم الروماني، وهي في كل كتب التاريخ مشبوهة، الا في الأنجيل فقد «رات رؤيا لصالح المسيح» . . .

ثم يختم محامي الرومان مذكرته بهذه العبارات: ولكن ازاء اصرار قادة الشعب: «اسقط في يد بيلاطس، فغسل يديه امام العامة، معلنا براءته من دم هذا البرىء، فصاحوا جميعا «دمه علينا وعلى أولادنا» متى ٢٧/٢٤ ـ ٢٥ . وتذكر ان هذا هو الانجيل الاكثر يهودية، والذي مازال يتحدث عن الشعب، ولكنه كتب ـ كما اشرنا بعدما ضرب اليهود، وانتصر الاتجاه الروماني في الكنيسة، وخلال العمل على كسب عطف السلطة الرومانية.

وبينما بيلاط وهيرود في غاية اللطف نجد رئيس الكهنة (اليهود) «يلطم المسيح على وجهه» (يوحنا ١٨)

ويخرج بيلاط «اليهود» ويسألهم: ما تهمة هذا الرجل؟ . . ويعرض عليهم اعفاءه من المسئولية بأن يتولوا هم محاكمته فيرفض «اليهود» لأنهم لا يتمتعون بسلطة «الاعدام» وهو ما يريدون تنفيذه في المسيح يوحنا ٣١/١٨

بل ان بيلاط حريص على تنقية ساحته امام المسيح من امرين من الاتهام ومن اليهودية: «فدخل بيلاط غرفة المحكمة مرة اخرى وطلب عيسى وقال له «هل انت ملك اليهود» فأجاب عيسى: هل تقول هذا من عندك أم اخبرك الآخرون به» فأجاب بيلاط: «وهل أنا يهودي؟ قومك ورئيس الكهنة سلموك لي . . فماذا فعلت؟» يوحنا ١٨/ ٣٩

واخيرا يخرج بيلاط بحكم البراءة . .

«خرج مرة ثانية لليهود وقال لهم «لا أجد له خطيئة على الاطلاق» يو ٣٨/١٨ ويعرض عليهم اطلاق سراحه ولكنهم يرفضون، ولا ييأس بيلاط بل يحاول مرة أخرى «اعلموا انني لم أجد خطأ فيه» يو ٤/١٩ .

ولكن رئيس الكهنة اليهودي ورجاله يصرخون: أصلبه . . اصلبه»

وهنا يصيح بيلاط «خذوه واصلبوه لأنني لا أجد مأخذا عليه» يوحنا ٦/١٩

ويحاول بيلاط أن يدفع المسيح للدفاع عن نفسه لكي ينقذه ولكن «المسيح» يرفض . . بل ويتحداه . . ورغم ذلك فان «بيلاط» النبيل الطاهر الذيل، الذي لا يملك أي مسيحي طيب وهو يذرف الدمع على معاناة المسيح، الا أن يترحم على «بيلاط» ويلعن اليهود . .

بيلاط رغم تحدي المسيح له . . فكر في اطلاق سراحه ولكن اليهود صرخوا: إذا اخليت سبيل هذا الرجل فأنت لست صديق قيصر» .

وتحت هذا التهديد يعقد بيلاط المحكمة، ولكنه مازال يقاوم: «اليكم ملككم» . . فيصرخوا: ليغرب عنا . . ليغرب عنا! اصلبوه! . فسألهم بيلاط: هل أصلب ملككم . . فرد رؤساء الكهنة لا ملك لنا الا قيصر فسلمه لهم ليصلبوه!

. . . ويمضي بيلاط خطوة مسيحية اخرى، فرغم ان اليهود اعلنوا انه لا ملك لهم الا قيصر . . الا ان «صديق قيصر» يكلف نفسه كتابة لافته ويضعها على الصليب المصلوب عليه المسيح واللافتة تقول: عيسى الناصري ملك اليهود» وكتبها بالعبري واليوناني واللاتيني» مؤكدا بذلك ايمانه! . . يحتج «رئيس الكهنة اليهود ويقول لبيلاط لا تكتب ملك اليهود، بل الذي أدعى انه ملك اليهود . . فرد بيلاط . لقد كتبت ما كتبت» يوحنا ١٩/ الى ٢١

لا شك في مسيحية بيلاط . . أو السلطة الرومانية وعدوان اليهود . . الذين يتتبعون المسيح حتى الصليب ويطلبون تكسر أرجله! . . لولا أن وجوده ميتا . . وان كان الجندي الذي طعنه بحربه أخرج من جسده دم وماء مما جعل المؤلفون في «الدم المقدس» يقولون أنه رفع حيا من على الصليب .

ويفسر يوحنا، كيف سلم «الجسد» ليوسف «ما»، وسر اهتمام هذا اليوسف فقال «كان تلميذا للمسيح ولكن في السر «خوفا من اليهود». ٣٨/١٩

ومن الطبيعي ان يصبح العدو هم اليهود، والخوف من اليهود. فقد ظهر المسيح للتلاميذ رغم الابواب التي كانت «مغلقة» حيث يجتمع التلاميذ خوفا من اليهود» يوحنا ١٩/٢٠

اما اعمال الرسل فتقول صراحة لليهود: «عيسى الذي انكرتموه وسلمتموه في حضرة بيلاط عندما صمم (بيلاط) على اخلاء سبيله، ولكنكم رفضتم وانكرتم الشخص المقدس، ورغبتم في العفو عن القاتل. وقتلتم أمير الحياة الذي رفعه الله من الموت. وكلنا شهود على ذلك» . (٧)

وهكذا تمضي اعمال الرسل وليس فيها كلمة عداء ضد الرومان، بل الحرب مع اليهود

٧ ـ اعمال الرسل ٣/١٣ ـ ١٥

والاضطهاد من قبل اليهود وكأن اليهود هم حكام الامبراطورية . . وهذا «التاريخ الخاص» وضع اسس الكنيسة المتعاطفة مع السلطة الرومانية والمعادية لليهود، كما وضعت اسس العداء المسيحي لليهود . .

«داود دعا على اليهود: «لتكن ظهورهم محنية الى الأبد» بول روم ١٠/١١

واعلن بول نفسه: «أنا رسول الاممين» بول رومان ١٣/١١ وسيتولى اليهود محاربته والاميون الترحيب به: «ولكن اليهود الكفار أثاروا العامة وملأوا عقولهم بالشر ضد الاخوان» اعمال الرسل ١٤ . . «أهل المدينة ظنوهم آلهة واحترموهم . ولكن جاء يهودي من اقصى المدينة يسعى وضرب بول ورماه وهو يظنه ميتا» اعمال الرسل ١٩/١٤

ويرى دكتور «جينيبر»[8]: والارجح ان جهود محرري الاناجيل في سبيل ابراء ذمة الحاكم الروماني بالقاء تبعة الجرم كله على اليهود، لا ترجع الى وحي الحقيقة وواقع التاريخ بل الى الرغبة في عدم اثارة السلطات الرومانية في عصر لم يكن المسيحيون يجدون ملجأ سواها امام كراهية اهل المعابد اليهودية» .

وفي اعتقادنا ان هذا جزء من السبب، والجزء الباقي هو رغبة محرري الاناجيل في اللقاء مع السلطة الرومانية . .

٨ ـ ص ٦١ المسيحية نشأتها وتطورها.

ويحسن ان نتحدث عن «بولس» الذي احدث هذا الانقلاب، والذي يستحق ان تسمى المسيحية الحالية باسمه . .

بولس توفرت فيه كل الشروط لانجاز هذا العمل التاريخي . . فهو «يهودي» ومن سبط «بنيامين» وهذا يجعل يده طليقة في مهاجمة اليهود واليهودية، دون اتهام بمعاداة السامية، اقصد دون اتهام بالتحيز أو الجهل، فهو من اهل البيت ويعرف خباياه، وكثيرا ما كان يواجههم بعراقة أصله اليهودي . . وبالمامه الواسع بالتوراة والتعاليم اليهودية.

وهو يهودي متطرف، اشتهر في بداية حياته بالتزمت والتعصب لليهودية والحملة الشعواء على المسيحيين، ومن ثم فمثله عندما يتحول الى النقيض، فلا بد من تفسير عجائبي، وهو يوناني الثقافة، ومن ثم كان يتفوق على مجموعة البسطاء الحواريين الذين كان معظمهم بلا ثقافة، بل من أوساط شعبية يهودية، أما هو فكان كما وصف «يمتلك بيونانيته اقوى اداة للفكر والعمل، وايسر الوسائل في عصره للتعبير عن الرأي والمحاجاة» وهو «روماني» أي من طبقة السادة أو المواطنين بالتأسيس. وهذه تعطيه امتيازات وحصانات، كما تجعل صوته مسموعا بين الرومان وولاءه اكثر يقينا من اليهود . . «وكذلك حمته رومانيته من الانزلاق في تعصب يهود فلسطين وضيق افقهم وكراهيتهم للاجانب» بل اعطته افقا عالميا، ومن ثم تطلعا لتحويل هذا الدين المحلي الى دين عالمي.

نشأ بولس من عائلة يهودية مقيمة في طرسوس في سيليقيا، وهي مدينة «شرقية ازدهرت فيها الثقافة اليونانية ووجدت فيها «جامعة» ويقول المؤرخ الجغرافي سترابون عن تلك الجامعة انها كانت سببا في شهرة المدينة في العالم اليوناني ـ الروماني وعلى الاخص في الفلسفة» .

وبولس لم يقابل المسيح في حياته وهذه نقطة مهمة جدا، ولا حتى بدأ تاريخه المسيحي مع الذين عاشروا المسيح، فقد ظهر له المسيح وبدلا من ان يأمره بالتوجه الى فلسطين حيث كان الحواريون ليتعلم منهم، بالعكس ارسله بعيدا عنه. وهذه نقطة مهمة، لأنها اطلقت العنان لخيال بولس في تصور المسيح ووصفه للمؤمنين الجدد . . وبينما كان الحواريون الذين عاشروا المسيح الانسان ورأوه يأكل ويطلب لحما، ويقوم بالاعمال الضرورية والمصاحبة للحياة الآدمية، بينما كان هؤلاء ينظرون في دهشة بل وهلع لمن يحاول خلع صفة غير آدمية أو مبالغة في قدرات المسيح . نجد أن الذي لم يعايشه يحلق خياله له حيث شاء . . . ولا شك انه كانت هناك ذخيرة كاملة لمن شاء أن يضل او قل فتنة . . وهي اختصاص الله

سبحانه وتعالى المسيح بمعجزات يخيل للضالين انها فوق قدرة البشر حتى ولو كانت بارادة الله.. مثل احياء الموتى، بل الخلق ذاته، والانباء بالغيب.. مع ان المسيح حرص في كل معجزة ان يقول «بأمر الله» او «باذن الله»

وإذا حلا لنا ان نأخذ بالتفسير المادي للتاريخ فاننا نقول أن طموح «بولس» للعالمية صادف حاجة ملحة لدين عالمي يوحد الامبراطورية الرومانية، التي كانت تواجه نفس المأزق الذي واجه السلطة الفرعونية في عصر اخناتون، عندما قامت اول امبراطورية في العالم من شعوب متعددة الآلهة، ومن ثم نشأت الحاجة الىُ دين واحد يجمع هذه الشعوب حوله، وبالتالي حول السلطة المركزية، فلا تشعر بقهر ديني أو انتصار اله مصري على آلهتهم، فكان أن ظهرت فكرة التوحيد، ومن الغريب انها ظهرت في تل «العمارنة» ودعوة التوحيد اليهودية بل والمسيحية كلها في بيت «آل عمران»! ولا أدري ما الصلة التاريخية بين العمارنه وآل عمران..

المهم كانت الامبراطورية الرومانية قد ضمت اكبر عدد من الشعوب خضعت لسلطة مركزية واحدة في تاريخ البشرية، وكان لابد من دين يوحد هذه الشعوب، وكانت الاديان المحلية كلها لا تصلح لهذه المهمة، من ناحية لأنها كلها انهزمت امام الهة الرومان، ولأن اية آلهة غير رومانية، لم يكن من الممكن سيادتها أو سيطرتها على الضمائر واعلان بطلان اله الرومان السادة.. اما آلهة الرومان، فهي من ناحية كانت شديدة السذاجة، لا ترضي العقلية الشرقية، ولا المثقفين.. ومن ناحية كان الايمان بها أو فرضها يشكل قهرا دينيا، والمعروف ان الشعوب تقبل التنازل عن سيادتها واستقلالها وأموالها وحاصلاتها بسهولة اكثر مما تقبل التنازل عن آلهتها..

أما اليهودية فكانت تصلح من الناحية النظرية لأن تلعب دور هذا الدين العالمي، ولكن من الناحية العملية، لم يكن هناك أي أمل، فاليهود حصروا الدين فيهم «كشعب الله المختار» وقد اتسمت علاقتهم في هذه الفترة بالذات مع العالم بالتوتر والعداء والكره المتبادل. بل كانت جماعات لها شأنها من اليهود تتطلع الى سبيل يخلصها من يهوديتها ويحقق اندماجها في الشعوب التي تعيش بينها، بعدما تعرضت بسبب سلوكها الانعزالي وتعاليمها لاكثر من محاولة ابادة..

كذلك تأثر يهود المهجر بالفلسفة الاغريقية، وزاد اهتمامهم «بالروح» وبالحياة الاخرى، أو بالخلود، وهو لا يكاد يذكر في الدين اليهودي..

الحاجة كانت موجودة لدين عالمي، من خارج جميع اديان بلدان الامبراطورية، ويجمع في نفس الوقت زبدة طقوس هذه الاديان.. وتلك هي المهمة التي اضطلع بها بولس، الذي قدمه كدين جديد، غير يهودي، ودين عالمي..

وكانت قد ظهرت جماعات مسيحية خارج فلسطين من بين اليهود الذين ترددوا على القدس وظهرت كنيسة في انطاكية التي أصبحت اكبر مركز تبشيري، وفيها تطور بولس، وقد سر الحواريون بانتشار كلمة الله، وان استمروا في رغبتهم في اقتصارها على اليهود، وجمع شتات اليهود، فبعثوا بالحوارى «برنابا» صاحب انجيل برنابا الشهير ليجد أن الاغريق أو غير اليهود هم الذين يشكلون الاغلبية العظمى من «المؤمنين» بل وليجد أنهم قد سموا انفسهم «المسيحيين».. فهو اسم لم يصدر من المسيح ولا من الحواريين.. فرغم الايمان بأنه هو المسيح، فان المؤمنين في حياته وفي الكنيسة العبرانية الجذور ما كانوا ليتسموا بهذا الاسم الوثني الرنين.. او الذي يؤله المسيح...

وسر «برنابا» بما رآه، وهو كان بدوره، قد ضاق ذرعا بتعنت اليهود، وتصلبهم وعجز جماعته عن كسبهم في القدس، تلك الجماعة التي كانت تتميز بالبساطة الشديدة في الثقافة والاصل الاجتماعي، فتحمس برنابا واعجب ببولس وسافر اليه في طرسوس وعادبه الى انطاكية، حيث ازدهرت الكنيسة المسيحية وتألقت بالفكر الاغريقي، والمال.. والعدد.. وزعيمهم البارز يعلن بكل فخر أنه ليس تلميذاً للحواريين، بل تلقى المسيحية رأسا عن المسيح، بل ويحرص على تأكيد أنه تعمد عدم التوجه اليهم في البداية.. بل ظل مسيحيا ثلاث سنوات دون أن يتصل بهم، ولم يذهب اليهم الا وقد احتل مكانة لا يمكن انكارها في التبشير واللاهوت.. «بفضل الله الذي حل علي لم اكن عبثا. فقد عملت اكثر منهم جميعاً» بول اعمال الرسل.

«فأنا لم اتعلم المسيحية بل أوحيت لي» بول اعمال الرسل.

«لما اراد الله أن يتجلى ابنه في.. لم اذهب الى اورشليم حيث كان الرسل من قبلي، بل ذهبت الى جزيرة العرب، ثم رجعت الى دمشق ثم بعد ثلاث سنين ذهبت الى القدس لاقابل بيتر وعشت معه خمسة عشر يوما» بول: اعمال الرسل..

باختصار لا انتم هديتموني للمسيحية ولا تعلمتها منكم، ولا بشرت باسمكم بل تلقي المسيحية مباشرة من المسيح وليس من احد من تلاميذ ورفاق المسيح، تجلى المسيح فيه، ولم يأمره المسيح، ولا رأى هو انه من الضروري ان يتوجه الى فلسطين حيث الكنيسة الاولى بزعامة الرسل الذين من قبله، بل توجه بعيداً الى جزيرة العرب ثم الى دمشق، وليس قبل ثلاث سنين بعدما أصبح ضليعا ومشهورا حتى انه زار القدس.. ولماذا؟.. لمقابلة بيتر (بطرس) وكم لبث معه؟.. خمسة عشر يوما لا غيرا.. فهل يحق لهؤلاء أن يمنوا عليه بالاستاذية؟.. وهو الذي «لم اقابل أحد خلاف ذلك (بيترج) من الرسل باستثناء جيمس شقيق اللورد»[٨]

فهو عصامي المسيحية.. أو بالمصري «ماليش معلم يحاسبني»!..

وقد يبدو غريبا ومثيرا بعد هذا التحديد القاطع على لسان بول بأن جيمس «اخو اللورد» ان يبذل البعض جهدا في تأكيد ان «اللورد» المسيح لم تكن له اخوة! . . أو أن يزعم ان هذه هي الاخوة في الله. . ولماذا اذن ليس «بيتر» الذي سيبنى عليه المسيح كنيسته؟ . . لماذا اختص بولس جيمسا هذا الذي لا يكاد يعرفه أحد برتبة الأخوة ! . والنصوص عديدة على ان المسيح كان له اخوة، وان جيمس هذا ترأس الحواريين بعد اختفاء المسيح . . ولكن لجنة ترجمة انجيل لوقا تؤكد لنا «يوسف لم يعرف السيدة العذراء معرفة الازواج قبل ميلاد مخلصنا ولا بعده، وبالتالي لم يكن لمخلصنا أخوة اشقاء بالمعنى المعروف لهذه الكلمة» ولا حظ الخطأ الوارد في التعبير، فالمسيح لا يمكن ان يكون له أخوة «اشقاء» بل من أمه ان كان له اخوة. ثم قصة طويلة عن لبس وقع فيه اليهود المعاصرون للمسيح فدعوا اولاد خالته من اخت السيدة العذراء وكان اسمها مريم أيضا دعوهم باخوة المسيح ! . .

مع أن النص ورد في موضع تشكيك اليهود في دعواه، فهو فلان ابن فلان واخواته فلان وفلان واخواته عندنا (متزوجين منهم على الاغلب) .

وقد اشرنا الى رأينا في اسباب هذا الحرص الكنسي على انكار وجود اخوة للمسيح من مريم وربما من زوجها يوسف او زوج آخر . فالسبب الأول انه لما رفع المسيح الى مرتبة الالوهية لم يعد من اللائق التحدث عن اخوة بشر . . والثاني هو الصراع الذي نشب بين كنيسة بولس وكنيسة «أهل المسيح» وأخيه جيمس، وقد عالج المتنصرون الأمر بالغاء اهل البيت من التاريخ . .

ولجيمس هذا على الارجح انجيل لاحظنا عليه الآتي . . لم يذكر الاب ولا الابن في مطلع رسائله أو انجيله كما يفعل بول في تكرار واضح . . بل بدأ رسالته هكذا : «جيمس خادم الله والسيد عيسى المسيح (اللورد). ووجه رسالته الى «الاثنتي عشرة قبيلة في الشتات بالخارج» أي اليهود. ولما ذكر الاب تحدث عنه بالمفهوم العبري الذي اشرنا اليه، كما أنه يتحدث عن القانون أو الشريعة بالتزام كامل ويدعو للالتزام بها، وانه لا يمكن الانتقاء (وهو ما سيفعله بول) فمن اطاع وصية وخالف اخرى، فقد خرق القانون كله . !

وبعكس تركيز بول على «الايمان» يركز جيمس على الأعمال، فالايمان وحده لا يكفي، وانما بالعمل تصدق النية، أو يثبت الايمان سواء في حاله ابراهيم الذي امتحنت وصدقت عقيدته بتقديم ابنه للذبح، أو «رحاب» المومس التي ضللت الاعداء. . . الخ .

«وهكذا فان الايمان بلا عمل، ايمان ميت مثل الجسد بلا روح» جيمس ٢/ ٢٦ .

الله في رسالة جيمس هذا هو «يهوه» اله اليهود فهو يتحدث Lord of sabaoth «رب ابناء السبيل» وهو تعبير يستخدم في الحديث عن يهوه. (وقد وردت في

رسالة بول للرومان ٩/ ٢٩ . ولكن بول كان يروي عن التوراة. «فكما قال اشعيا Esaias من قبل لولا أن رب ابناء السبيل. . الخ»

وباختصار ـ وان كنا لا ندري ماذا حذف من هذه الرسالة ولا ماذا أضيف اليها الا اننا نلاحظ اختلاف لهجتها تماما عن الاناجيل الاخرى واعمال الرسل. فهي لم تذكر مرة واحدة. ان المسيح «ابن الله» ولا انه اله. . ولا حكاية التقمص ولا التجسد ولا الطبيعتين ولا التناول ولا حتى الصلب. ولا مرة واحدة! . . فهل هكذا كان يفكر ويكرز «جيمس اخو المسيح». ان كان هو رئيس الكنيسة العبرانية ـ المسيحية المندثرة؟ . .

ان كان ذلك كذلك، وان كانت الحبشة ـ كما تقول الدراسات، هي الاكثر تأثرا بتعاليم تلك الكنيسة المندثرة. . فلا عجب ان يقول النجاشي . . لما سمع النص الاسلامي عن المسيح ان الفارق طفيف او لا يوجد. . ولا عجب ان تتقبل الكنيسة القبطية، الاسلام بصدر رحب . .

نعود لخلاف بول مع كنيسة جيمس والحواريين في فلسطين، والمرجع الوحيد المتاح هو المرجع الذي كتبه المتنصر اي بول. .

وروايته ان الجماعة في القدس استدعوه على عجل عندما جاءت انباء مخالفته للشريعة. ولكنهم كانوا قد هزموا قبل المعركة بمجرد موافقتهم على التبشير بين غير اليهود، فهم بذلك قد تخلوا عن جوهر المفهوم اليهودي في خصوصية «الشريعة» وأصبح ماعدا ذلك تفاصيل لا حجة قوية لهم في التمسك بها، او في اتهام مخالفها ـ جديا ـ بالخروج عن الشريعة.

وبول ـ كما قلنا ـ هو الذي جاهر بأن الدعوة موجهة لغير اليهود ايضا، بل أولا فكما جاء في اعمال الرسل ٩/ ١٥ فان نص التكليف الذي ورد اليه من المسيح يقرر انه اختار بول «ليحمل اسمي امام الاميين والملوك وبني اسرائيل».

بهذا الترتيب. . الاميون. . الملوك. . . واخيرا بني اسرائيل وهو بالطبع مخالف لجوهر الدعوة والخط العام في الاناجيل الاخرى، والذي يدور حول الاتجاه لغير اليهود لأن اليهود رفضوا. . ولو أن التراث الانجيلي يعزز دعوى بول، بحلم منسوب الى بيتر (سمعان) الذي رأى في الحلم مركبة نزلت من السماء فيها كل الحيوانات والطيور وصوت صاح : اذبح وكل يابيتر. . فاعتذر بأنه لم يأكل في حياته دنسا أو من طعام العامة، ولكن الصوت أكد له ان كل شيء طاهر، وكان تفسير الرؤيا انه قبل دعوة أممي (غير يهودي) وهو قائد روماني فوجد منزله ممتلئا بالاميين فقال لهم: «انتم تعلمون انه محرم على اليهودي ان يخالط او يصاحب غير اليهود ولكن الرب اراني . . الخ». .

وبما ان هذا «الحلم» الاممي حدث بعد ايمان بولس، فلنا الحق في النظر اليه في اطار تسوية كنيسة جيمس والحواريين مع كنيسة «بول».. خاصة وان اعمال الرسل ١١/١ تقول: «وسمع الرسل والتلاميذ الذين كانوا في يهوديا أن الاممين ايضا تلقوا كلمة الله». وهذا يعني ان القرار اتخذ خارج كنيسة اورشليم، وبعيدا عن عائلة المسيح والحواريين الحريصين على خلاص اليهود و«عرش داود» حيث كان الرسل والتلاميذ يبشرون اليهود فقط» اعمال رسل ١١/١٩ ولكن «بول وبرنابا قالا كان من الضروري ان تعطى «كلمة الله»[9] اولا لكم ولكن بافعالكم تحولنا الى الاممين» اعمال الرسل ١٣/٤٦ وباول ـ كما ـ ذكرنا ـ ويشاركه برنابا في ذلك، هو اول من سماهم المسيحيين وكان ذلك ايضا خارج دائرة نفوذ كنيسة آل البيت..

والحوار التاريخي كما رواه بول هو انه استدعى الى القدس، وحاولت كنيسته اللايهودية منعه من الذهاب الى هناك خوفا عليه ربما أو خوفا على حرية العمل التي كانوا يتمتعون بها، ولكنه كان شديد الثقة في نفسه، فذهب وفي اليوم التالي لوصوله اجتمع مع جيمس (اخو المسيح ورئيس الكنيسة.. ج) «وكل الكبار، ولما حياهم اعلن لهم كل ما قضاه الرب بين الأممين ببشارته فلما سمعوها منه مجدوا الرب».

والى هنا انتهت المجاملات والتمجيدات وبدأت المواجهة:

«قالوا كما ترى ايها الأخ.. الآف اليهود الذين آمنوا هنا وكلهم غيورون على الشريعة. وقد بلغهم انك تعلم اليهود الذين بين الاممين أن يتخلوا عن موسى، قائلا انهم لا يحتاجون ختان اطفالهم، ولا أن يتبعوا التقاليد. فما هذا؟.. خاصة وان العامة سيأتون بعد ما سمعوا بحضورك؟!..

ولذا أفعل ما سنقوله لك، هنا أربعة رجال عليهم عهد.. فخذهم معك وطهر نفسك معهم حتى يحلقوا رؤوسهم حتى يعلموا ان ما قيل عنك لا اساس له، وانك انت نفسك تتبع الشريعة».

وقد دارت معركة حامية بعد ذلك «اذ تمسك الفريسيون الذين تنصروا بضرورة الختان

---

٩ ـ لاحظ في هذا النص والنص السابق ان «كلمة الله» التي تعطى لليهود والتي تلقاها الاممين ـ ايضا ـ لا يمكن ان تعني الا رسالة الله أو ما جاء به الوحي... و«ومصدقاً بكلمات ربي».. وليست الكلمة الجزء الذي لا يتجزأ من الذات الخ..

وحفظ شريعة موسى، فاجتمع الرسل والكبار لبحث هذا الأمر، وبعد جدل شديد وقف بطرس (بيتر) وقال: ياخوان تعلمون ان الله اختار ان نبلغ الدعوة للاممين. وان الله العالم بالقلوب اعطاهم روح القدس مثلنا، ولم يفرق بينهم وبيننا. ثم أعلن جيمس انه لا يجوز ازعاج الاممين الذين آمنوا بفرض الختان وان استمر تحريم المنخنقة والاصنام» اعمال الرسل/١٥

وبدا أنه قد تمت تسوية مؤقتة مرضية للطرفين، وهو ختان اليهود الذين يتنصرون واعفاء غير اليهود.. ولكن الشريعة كسرت، أو كما قال الصدق: يحللونه عاما ويحرمونه عاما فأحل للمسيحيين من أصل غير يهودي ما حرم على اليهودي الاصل! ولم يكن من الممكن ان يستمر دين على هذه التفرقة.. خاصة وان «بول» قد تقدم خطوة الى الامام، مع تراجع كنيسة «جيمس» خطوة الى الخلف، فقد استمرت جذورهم اليهودية تجذبهم، واستمرت عيونهم معلقة «بالشعب».. واستمر بول مندفعا برغبته في «التحرر».

بدأ «بول» يهاجم فكرة «الختان» في جوهرها، ويسخر من المفهوم «المادي» للتوراة أو الشريعة حول الختان: «الطهارة (الختان) في القلب والروح وليست في اللحم» بول/رومان ٢/٢٩

«فما هو الفضل الذي لليهود.. ما هي الفائدة التي في الختان» بول رومان ٣/١

«النبوة نزلت على ابراهيم قبل الختان ومن ثم فهي ليست شرطا للايمان أو النبوة» بول رومان

وهذا يذكرنا بقول العزيز الكريم: ما كان ابراهيم يهوديا..

وعمق بول الخلاف، بعكس ما ارادت كنيسة جيمس عندما رخصت له بمنع الختان بين المسيحيين من غير اليهود.. فقد جعل الخلاف يتحول الى دينين وانجلين:

«انجيل غير المختونين منسوب لي وانجيل المختونين منسوب لبيتر (بطرس)» بول اعمال الرسل

وقد هاجم بول الموقف «الانتهازي» أوالمراءي لكنيسة الحواريين الذين وان سمحوا بعدم الختان، فقد ظل مستقرا في قلوبهم وفي سلوكهم الشعور بالتفوق، وبنجاسة غير المختون..

وانتقد بيتر علنا: «عندما جاء بيتر الى انطاكية، وقفت في وجهه، لأنه كان يستحق اللوم، لأنه قبل مجيء الأمر من جيمس (اخو المسيح ورئيس الكنيسة العبرانية ـ المسيحية ج) قد أكل مع الأممين، ولكن عندما جاء الأمر انسحب وفصل نفسه خائفا من جماعة الختان وانفصل معه اليهود الى حد أن برنابا نفسه اندفع بعيدا في رياءهم.. ولما رأيت أنهم لم يتبعوا الحق طبقا لحقيقة الانجيل قلت لبيتر امامهم جميعا، اذا كنت انت يهوديا وتعيش مثل الاممين، وليس كاليهود.. فلماذا تلزم الاممين بالعيش كاليهود»! بول GAL ٢/١١ ـ ١٤.

ويفهم من كلام بول وجود انجيل لبطرس، وكان مشهورا بانجيل العبرانيين أو بتعبير بول الدعائي «انجيل المختونين» ولنا ان نفترض أنه تضمن وجهة نظر كنيسة فلسطين التي تلقت التعاليم من المسيح نفسه، وترأسها أخوه ولكن هذا الانجيل الموجود في زمن بول اختفى مع هزيمة كنيسة فلسطين وانتصار بول، وهكذا فان نبوة المسيح لبيتر بأنه الصخرة التي سيقيم عليها كنيسته لم تتحقق بل قامت الكنيسة على صخرة أو فتوى بول، ولذا فهي ليست كنيسة المسيح، ومن أجدر من بول في تحديد ما حدث بعبارة قد تبدو خالية من الذوق ولكنها الحقيقة، عندما قال: ان المسيح سيحاكم الناس طبقا لانجيلي» بول رومان ٢/ ١٦

واذا كانت رسائل «بول» يدور معظمها حول قضية «الختان» فاننا نستبعد ان يكون ذلك هو «كل» الخلاف، أو حتى الخلاف «المهم». فرغم اختفاء وجهة نظر مخالفية بفعل فاعل، الا انه يفهم من كلامه نفسه انهم تنازلوا له في هذه النقطة، كما لا يعقل ان تتأزم الامور الى حد الملاسنة العلنية «امام الجميع» بسبب هذه الحشفة! . . . وانما كان «بول» يركز على هذه النقطة في دعايته لعاملين. . انها تبدو فعلا لغير اليهودي قضية ثانوية لا يمكن ان تكون ذات علاقة بالايمان الروحي، ومن ثم يبدو موقف الأخرين شديد التعنت ضد بول، والثاني انها قضية يهودية بحتة، خاصة باليهود وحدهم ويتميزون بها عن سائر البشر، ومن ثم فحصر الخلاف فيها يجعل المدافعين عن الختان تسهل مهاجمتهم بأنهم «عملاء اليهودية» في صفوف الدين الجديد. .

اما الحقيقة فهي ان «بول» شن حربا شعواء على اليهودية والشريعة، فأعلن تحرير المسيحيين من هذه الشريعة التي لم يكن لها من مهمة الا «تخريج» المسيحيين أو تأهيلهم لقبول دعوة المسيح، وبالتالي لم يصبحوا بني اسرائيل بل بني الله!

«فليس كل من كان من اسرائيل اسرائيلي، ولا لأنهم من نسل ابراهيم فكلهم اطفال الله». «هؤلاء الذين هم اطفال الجسد ليسوا عيال الله، وانما اطفال الوعد هم الذين يعتبرون في الذرية» بول رومان ٩/ ٨ - ٩.

وهكذا سقط الامتياز اليهودي حتى في الوعد. . «فلا يهودي ولا اغريقي، الكل واحد في عيسى المسيح» فأنت لست خادما بل ابنا وكابن فانت وريث الله عبر المسيح» بول. .

«انا بول اقول لكم اذا ما اختتنتم فان المسيح لن يفيدكم بشيء. . .»

لأن المسيح هو آخر الشريعة والحق لكل من يؤمن به» بول رومان ١٠/ ١٢ وفي النهاية قطع بول شعرة جيمس واعلن رفض الشريعة وحرمان من يلتزم بها. .

«أي شخص يخضع للقانون (الشريعة اليهودية ج) يحرم من نعمة المسيح».

وشن حملته على اليهود «جميعا» ولم يعد يسميهم ولا حتى «اليهود» وهو لقب «الفرز» كما قلنا بل اطلق عليهم وصفا ساخرا مما اعتاد المتصارعون ايدلوجيا اطلاقه على خصومهم اذ

اصبح يلقبهم «المختونين المطهرين باليد وليس بالعقيدة» وربما كان بول هو أول من اطلق الاسماء والنعوت على اليهود. . واصبحت رسائله حافلة بالهجوم على الشريعة والتقليل من شأنها، وانها صدرت بعد وعد الله للمسيح باربعمائة وثلاثين سنة!!! (انظر بول calatians الفصل الثالث واشتدت سخريته بالتحريمات التي في اليهودية: «لماذا يقال لك لا تلمس . . لا تأكل . . لا تعمل؟!» بول ٢/ ٢١ colossians

وانتقد قدسية السبت. . ويلاحظ ان المسيح انتقد تفسير رجال الدين اليهود للشريعة، ولكن بول ألغى الشريعة من اساسها. . والمسيح مثل النبي كان يحاجي اليهود بموجب التوراة او الشريعة (حادثة رجم الزانية مثلا عند المسيح والنبي) ولكن بول يهاجم الشريعة ذاتها ويسخر منها.

واذا كان المسيح كما الرسول الأمين، جاء مصدقا لما بين يديه، لا يفرق بين أحد من رسله، فان بول الذي يمثل تراث ديني يقوم على صراع الآلهة حول القمة في الاولمب. . اعلن «ان المسيح اكثر مجداً من موسى» «لأن موسى كان خادما في بيت الله أما المسيح فهو باعتباره ابنا، مالك البيت» بول: عبرانيين ٣/ ٦. .

وبول لم يضع فقط اسس «اللاسامية» في معاداة الحضارة المسيحية الغربية لليهود بل وميز أيضا بين يهود أسيا ويهود اوروبا . . عندما يصف كاتب اعمال الرسل «الاشكنازي» اليهود الذين قبضوا على بول بأنهم «يهود آسيا» . . .!

«اليهودالذين هم من آسيا، لما رآوه في المعبد آثاروا الشعب والقوا القبض عليه قائلين: «يارجال اسرائيل. . النجدة. هذا هو الرجل الذي يعلم الناس في كل مكان ضد الشعب وضد الشريعة وضد هذا المعبد وآخر الامر أتى بالاغريق في المعبد ولوث هذا المكان المقدس» اعمال الرسل ٢١/ ٢٨

واذا كان تعريف اليهود بالاسيويين، يضيف وقودا الى العنصرية الاوروبية ضد السامية، فانه ربما كان ايضا بداية انقسام المسيحية الى كنيسة افرو - آسيوية وكنيسة أوروبية . .

والكنيسة الاوروبية تحولت الى فلسفة خاصة بأوروبا، أما المسيحية الشرقية فقد عجزت عن المواجهة الحضارية، فانطوت تحت جناح الاسلام، اذ وجدت فيه التعبير المرضي والامتداد الديني والحضاري لليهودية - المسيحية الأصيلة.

واعتقال بول في المعبد اعطى كاتب اعمال الرسل فرصة ليقدم مشهدا آخر اكثر معاداة لليهود. . يحكي فيه عن اليهود المتعصبين الذين يحاولون قتل «المسيحي»، والسلطة الرومانية المتسامحة التي تخلصه من يد اليهود الكفار. . ولاحظ أن الرومان لا يوصفون بالكفر ولا بأية صفة نابية!

اليهود يحالون قتل بول واخرجوه من المعبد سحباً من الارجل . . أما الضابط الروماني فيسمح له بالخطابة في الجماهير من شرفة أو اعلى سلم القلعة ! . . اعمال الرسل ٢١/٣٧ - ٤٠

ورغم أن بول في خطاب الشرفة بدأ بان أعلن نفسه «يهوديا هداه الله» وتجنب أن يصف المسيح ولو مرة واحدة بأنه «ابن الله» لكي لا يستفز المستمعين الموحدين اليهود، الا انه اعلن أيضا أنه لا أمل في هداية اليهود، فاللورد قال له في الرؤيا : «اتركهم فلن يؤمنوا». انظر اعمال الرسل ٢٢/١ - ٢٣

وبعد الخطاب بدأ «المواطن بول» معركة «قانونية» ضد اليهود ومع السلطة من اجل حقوقه الرومانية . . فسأل الضابط الروماني : «هل هو قانوني أن تعتقل رومانيا بدون ادانة؟» فحذر هذا رئيسه بقوله : «احترس ماذا تفعل بهذا الرجل فهو روماني» وتوجه الرئيس على الفور الى بول وسأله : «اخبرني هل أنت روماني؟! فلما اجابه بالايجاب وأنه ولد حرا . وهكذا فك وثاقه واستعجل اليهود ليواجهوه باتهامهم حتى لا يستمر اعتقاله غير القانوني» .

«بل وتتدخل السلطة الرومانية الامينة على حقوق المواطنين المسيحيين فتأخذ بول من بين يدي اليهود بالقوة «خوفا من أن يمزقه اليهود إربا» «ووضعوه في الحفظ في السرايا» اعمال الرسل ٢٣/١٠ وكان من الطبيعي وقد ظهر «اللورد» لبول داخل القلعة الرومانية وتحت حماية العسكر الرومان، كان من الطبيعي ان يأمره اللورد بالتبشير في روما» اعمال الرسل ٢٣/١١

وواضح من العرض ان «بول» لم يكن مسجونا بالمعنى المفهوم بل هو ضيف بارز VIP في القلعة، فهو يستقبل زواره من «اللورد» الذي يأتي في الرؤيا، الى ابن اخته الذي سمع بقسم اكثر من اربعين يهوديا، بالصوم عن الطعام والشراب الى ان يقتلوا «بولس» فتوجه الى خاله على الفور. وقابله في «القلعة» . . وهو ما لا يتاح عادة لسجين بل الاغرب من ذلك ان بول عندما سمع باخبار «المؤامرة اليهودية» من ابن اخيه استدعى - احد الضباط (اكرر بول السجين استدعى احد الضباط وقال له الآتي بنص «التنزيل» الانجيلي : «خذ هذا الفتى الى رئيس الضباط لأن لديه معلومات يريد الافضاء بها اليه . عندئذ اخذه رئيس الضباط من يده وانتحى به جانبا وسأله ماذا لديك لتخبرني به» . . فأخبره بالمؤامرة اليهودية لقتل بول في قاعة المحكمة، فتركه الضابط يرحل بعدما اكد عليه الا يخبر احداً واتخذ استعدادات عسكرية بالغة الأهمية «مائتي عسكري وفرقة فرسان» . . الخ «لتأمين وصول بول سالما» وارسل معه رسالة أصبحت وثيقة انجيلية هذا نصها :

«هذا الرجل قبض عليه اليهود، وكانوا سيقتلونه فجئت على رأس قوة وأنقذته لما عرفت انه روماني ولما بلغني كمين اليهود له لقتله، ارسلته فورا اليك» اعمال رسل ٢٣/٢٢ - ٣٥

وامام السلطة الرومانية كرر بول زعيم «النصارى» وهو أول استخدام للفظة . . كرر اتهامه «ليهود آسيا» بأنهم يتآمرون ضده .

وقد تأثر الحاكم الروماني بدفاع بول، وأمر باخلاء سبيله وعدم التعرض له اثناء قيامه بالدعوة .

ولما استمر اليهود في مطاردته طرح بول الرسول نفسه على عدالة قيصر : «انا أقف امام عدالة قيصر ولا يجوز تسليمي لليهود فأنا الجأ الى قيصر» .

«عندئذ قال الحاكم : مادمت تلجأ لقيصر فأنا ارسلك الى قيصر» .

ويقدم الانجيل صورة لتصور السلطة للزوبعة اليهودية - المسيحية، وسمو «العدالة» الرومانية على التعصب اليهودي . . او ان شئت «الديموقراطية» الغربية على الاستبداد الشرقي . .

«ان اليهود طلبوا محاكمة بول فقلت لهم : ليس من اخلاق الرومان تسليم رجل للموت الا اذا واجه متهميه وأعطى الحق في الدفاع عن نفسه . . . وهم لم يوجهوا له اي اتهام جدي ، ولكن اثاروا بعض قضايا تتعلق بمعتقداتهم وعن شخص يدعى عيسى مات ، ولكن بول يصر على انه حي» أعمال الرسل ٢٥/١٧

هذه هي القضية . . واحد اسمه عيسى اليهود يصرون على أنه مات وبول يصر على أنه حي !!

«ولكن بول طلب ان يحول الى اغسطس (القيصر ج) فأمرت بالتحفظ عليه الى ان أرسله الى قيصر» .

وتحولت محاكمات بول الى دعاية للدين الجديد وحملة ضد اليهود وربما ساهمت في ما جرى من احداث بعد ذلك انتهى بزوال اليهود كجماعة ذات سلطة على اعضائها «اعتبر نفسي سعيداً ايها الملك اذ أشرح امامك كل اتهامات اليهود لي . . خاصة وانا اعتبرك خبيرا في قضايا وعادات اليهود فالتمس ان تسمعني صابرا» اعمال الرسل ٢٦/١٧

ايها الملك اغريبا : لهذا قبض علي اليهود في الهيكل وأرادوا قتلي» اعمال الرسل ٢٦/٢١

وما أن انتهى بول من خطابه حتى صاح الملك اغريبا (الخبير في عبادات اليهود) : ويحك يابول لقد كدت تحولني الى مسيحي . . ونحن نلاحظ هنا أن بول لم يقل مرة واحدة في دفاعه هذا المقنع ان المسيح هوابن الله! مع انها جوهر الحركة الجديدة . . وبدونها لا معنى للتبشير كله!

وربما يمكننا القول ان مسألة «ابن الله» قد برزت في روما وسادت خلال فترة كتابة الاناجيل بعد ذلك، أو ربما ان الادعاء لم يكن مقبولا في «آسيا» حيث المفهوم التوحيدي لليهود . يغلق باب الحوار فور طرحه . . المهم ان السلطة الرومانية اقتنعت وقررت الافراج

عن بول ، لولا انه طلب ارساله الى قيصر «فارسل مخفورا الى روما بناء على طلبه». ولم تكن رحلة «سجين» أبدا فالحارس اطلقه في «صيدا» لمقابلة اصدقائه ونعنشة نفسه في هذا الميناء اللبناني «العريق». To Refresh himself. وكان الحارس يسليه ويرعاه . .

وعندما تغرق السفينة ويفترض وفقا للتقاليد أن يقتل الحراس السجناء لكي لا يهربوا رفض الضابط «لكي لا يقتل بول».

وفي روما حاور بول اليهود ولم يبشر بحرف الى حكاية «ابن الله» ليعلن ان «قلوب اليهود» غلف مشمعة، وآذانهم صم وعيونهم مغلقة لكي لا يروا بعيونهم أو يسمعوا بآذانهم. . . وكي لا تفقه قلوبهم! وان خلاص الرب قد ارسل الى الاميين الذين سيقبلونه. وهكذا في روما تحول دين ملك اليهود الى دين معاد لليهود. . . ولم تمنعه روما من ممارسة دعوته بشهادة كاتب الانجيل:

واستمر «داعيا الى مملكة الرب God ومعلما تلك الاشياء التي تخص اللورد عيسى المسيح بكل ثقة واطمئنان ولم يمنعه أحد» فروما مهد المسيحية من عهد بول وقبل ان يتنصر القيصر بقرون.

ويرى المؤرخون ان «بولس الروماني المسيحية» هو الذي حول تعاليم المسيحية الاولى، من بساطة التوحيد الى ألوهية المسيح، وبنوته لله، وهو الذي أدخل او بالاحرى مدرسته، وأن يكن هو الذي وضع بذور الفكرة، التجسيد والقربان، وطور «فضيحة» الصليب الى معجزة الهية. .

ويقول دكتور «غنيبير» ان الاتباع الجدد غير المدربين تاريخيا على قبول دور المضطهد (بالفتح) لم يقبلوا فكرة صلب عيسى بل وصفوها على حد تعبير بولس نفسه «فضيحة الصليب» ومن ثم وجد نفسه مضطرا الى تقديم تفسير ميتة عيسى المشينة - التي لم يكف الاعداء بطبيعة الحال عن الاشارة اليها - تفسيرا مرضيا يجعل منها واقعة ذات مغزى ديني عميق وذلك حسب مفاهيم مجتمع المهجر «الهيلينستي» ، اما الحل الذي تفتق عنه ذهن بولس فهو انه تجاهل فكرة «عيسى الناصري» التي اغرم بها الحواريون (الذين تزخر تقاليدهم بالانبياء ذوي الاصل المتواضع والذين تسمو مكانتهم بقدر تواضع الاصل وما يتحملونه من العذاب. . موسى لقيط فرعون، ايوب المبتلي، داود الولد الصغير. .) (قتلة الانبياء. . فريقا تقتلون. .) ولم يتجه بول الا لعيسى المصلوب فتصوره شخصية الهية تسبق العالم نفسه في الوجود. . وتمثل نوعا من التشخيص لروح اله، تصوره رجلا سماويا احتفظ الله به الى جانبه امد طويلا حتى نزل الى الارض لينشيء فيها حقبة بشرية جديدة هو آدمها» . وكانت هذه هي الفكرة الممكن قبولها من الحضارة الهيلينية الذين يريدون معبودا فوق بشري . . يصلب او يقتل ولكن بارادته هو . ولأن هذا هو الدور المرسوم له في القدر

اليوناني أو الدرامية اليونانية . وليس مجرد نبي أومتنبي يلقي معاصروه القبض عليه وينزلون به فضيحة الصلب، التي لم تكن فضيحة فقط عند الاغريق بل حتى في الفكر اليهودي الذي في تراثه: «ملعون من يشنق على شجرة» «ملعون من يقتل على صليب»!

وهكذا استطاعت هذه العقيدة الجديدة تماما عن الصليب ان تلهب حماسة العالم الهليني الوثني الذي تعود على ذبح آلهته وتعذيبهم في سبيله، كما لم تثر معارضة جادة من المسيحيين الذين رأوا فيها تمجيدا لدينهم. . وتعظيما لاستاذهم!

كذلك رحب هؤلاء، الوثنيون الذين كانوا يأكلون آلهتهم، او يأكلون ذبيحة حلت فيها بركة الآلهة، رحبوا بفكرة القربان التي اضافها بولس والتي كانت «من الطقوس الوثنية، ولم تكن نابعة من روح الدين اليهودي . ولقد ادخلت في كنيسة الحواريين «قطعة من الوثنية» ولكن المسيحيين تقبلوها ايضا بصدر رحب لأنها اضافت الى ايمانهم درجة اخرى من التسامي» .

وهذه لا نوافق عليها الدكتور «غنيبير» فليست لدينا وثائق مضمونة الصحة عن رأي كنيسة الحواريين. . والخلاف كما فهمنا من بول كان حادا وانهم اتهموه بأنه يبشر بكنيسة خاصة به، وذلك من رده بأنه «لم عمد أحد باسمي ولكن باسم المسيح» . . وهذا صحيح فالكل يعمد باسم المسيح ولكن طبقا لانجيل المعمد! (بالكسر).

ومن ثم فلا نستطيع ان نحكم على موقف الحواريين، لأن المنتصر كتب التاريخ ومحا موقفهم وآراءهم.

المهم اصبحت مسيحية بولس دينا عالميا لأنها استعارت من كل الاديان الموجودة. . واصبح عليها أن تكسب السلطة الرومانية . . وتلك مهمة استغرقت وقتا طويلا بالطبع لعدة اسباب . .

انه بدأ بالطبع دين اقلية، شديد التعصب، رغم تفتحه على العقائد والطقوس ومهادنته للدولة، الا انه لم يكن يقبل التعايش مع أي دين آخر . . وبالتالي خافت منه الجماهير وبادلته العداء، واستجابت السلطة لضغط الجماهير . .

انه دين يتميز بتنظيم على درجة عالية من الدقة والخضوع والطاعة والفعالية، ويضم «محترفين» على استعداد لتنفيذ اي امر يصدر اليهم من قيادتهم الدينية . وهو أمر تخشاه السلطة بالطبع .

كذلك كان على الدين الجديد واتباعه أن يخوض سلسلة تجارب، يتم فيها خروجه تماما من الشرنقة اليهودية، ومن مثاليات الدعوة، ليثبت قدرته على تبني الاهداف والممارسات الامبراطورية حتى يمكن ان يصبح دين الدولة . .

المهم ان مسيحية بولس لم تكن ثورة ضد روما، ولا ثورة ضد السلطة الرومانية، بل دعوة

سلمية لها «بتبني» الدين الجديد . . وعندما زاد عددهم انتهت مرحلة «الهجرة» الايدلوجية ، واصبحوا في كل قطاعات المجتمع ، بل وفي الجيش والوظائف العامة ، ولم يبق الا أن ينضم الامبراطور وهذا ما فعله قسطنطين في قصة طويلة اقل اجزاءها اهمية هو «ايمانه» . . .

وكان انتصارا . . ولكن لو أن مؤمني عصر الحواريين شاهدوا هذا الانتصار «لما اعتبروه الانكبة كبرى، فهو انتصار او اتفاق تم بين مؤسستين كل منهما تبحث اولا وقبل كل شيء عن مصلحتها الخاصة» . «وتبني الاكليروس كل زخارف العبادات القديمة التي لا تتنافى تمام المنافاة مع مبادىء الايمان الاساسية» «ونظمت الكنيسة على غرار تنظيمات الدولة» «وأصبح الامر أشبه شيء بالدين المتعدد الآلهة، تغذيه اساطير الوثنية في كثير من الاصول ولم يكتفوا بذلك في تأليفهم . بل آمنوا في سذاجة بأنه لا يجب البخل بشيء في سبيل تجميل صورة الله» ، فاستعادوا روعة الاحتفالات الوثنية ولكن باسم المسيح .

وهكذا نشأ في القرن الرابع دين لا يشبه في الكثير من نواحيه ذلك الذي لمحناه على اعتاب القرن الثالث (وهو بدوره غير ما سمعناه به في القرن الاول ج) وسيطر هذا الدين الجديد في الواقع على العالم الروماني عند بدء القرن الخامس»[١٠]

وهذا الذي وصلت اليه الدراسات في القرن العشرين بعدما توفرت مادة، ووسائل لا سبيل الى تعدادها في هذا الكتاب . . لم يكن متاحا بالطبع في القرن السابع الميلادي ، ومن ثم كان الاعتقاد السائد عند كل الناس ان هذه هي المسيحية . . وسواء قبلتها او رفضتها لا يمكن ان يخطر بالبال تزويرها . . فكيف عرف محمد بن عبد الله أو اللجنة اياها بذلك . . ؟!

سؤال . .
لا جواب عليه الا :
شهادة ان لا اله الا الله محمد رسول الله . . .

تم بحمد الله وتوفيقه في رجب ١٤٠٤

١٠ ـ المسيحية نشأتها وتطورها.

الفهرست

صدر للمؤلف

مصريون لا طوائف		١٩٥٠
الجبهة الشعبية		١٩٥١
قانون الأحزاب		١٩٥٢
روسي وأمريكي في اليمن		١٩٥٧
شرف المهنة		١٩٦٠
الغزو الفكري	٤ طبعات	١٩٦٤
الماركسية والغزو الفكري	٤ طبعات	١٩٦٥
القومية والغزو الفكري	طبعتان	١٩٦٦
الحق المر	٣ طبعات	١٩٦٦
دراسة في فكر منحل	٤ طبعات	١٩٦٦
الطريق الى مجتمع عصري	٢٥ طبعة	١٩٦٧
أخطر من النكسة		١٩٦٧
النكسة والغزو الفكري	طبعتان	١٩٦٨
ماذا يريد الطلبة المصريون		١٩٦٨
إيلي كوهين من جديد		١٩٦٩
الجهاد ثورتنا الدائمة	٣ طبعات	١٩٦٩
الثورة الفلسطينية		١٩٧٠
طريق المسلمين للثورة الصناعية	طبعتان	١٩٧٠
ماذا يريد الشعب المصري		١٩٧٠
ودخلت الخيل الأزهر	طبعتان	١٩٧٠
النابالم الفكري		١٩٧١
كلام لمصر		١٩٧٤
مغربية الصحراء		١٩٧٥
وقيل الحمد لله		١٩٧٥
منابع ثورة مايو		١٩٧٦
السعوديون والحل الاسلامي	٤ طبعات	١٩٨٠
خواطر مسلم في المسألة الجنسية	طبعتان	١٩٨٤
كلمتي للمغفلين	تحت الطبع	